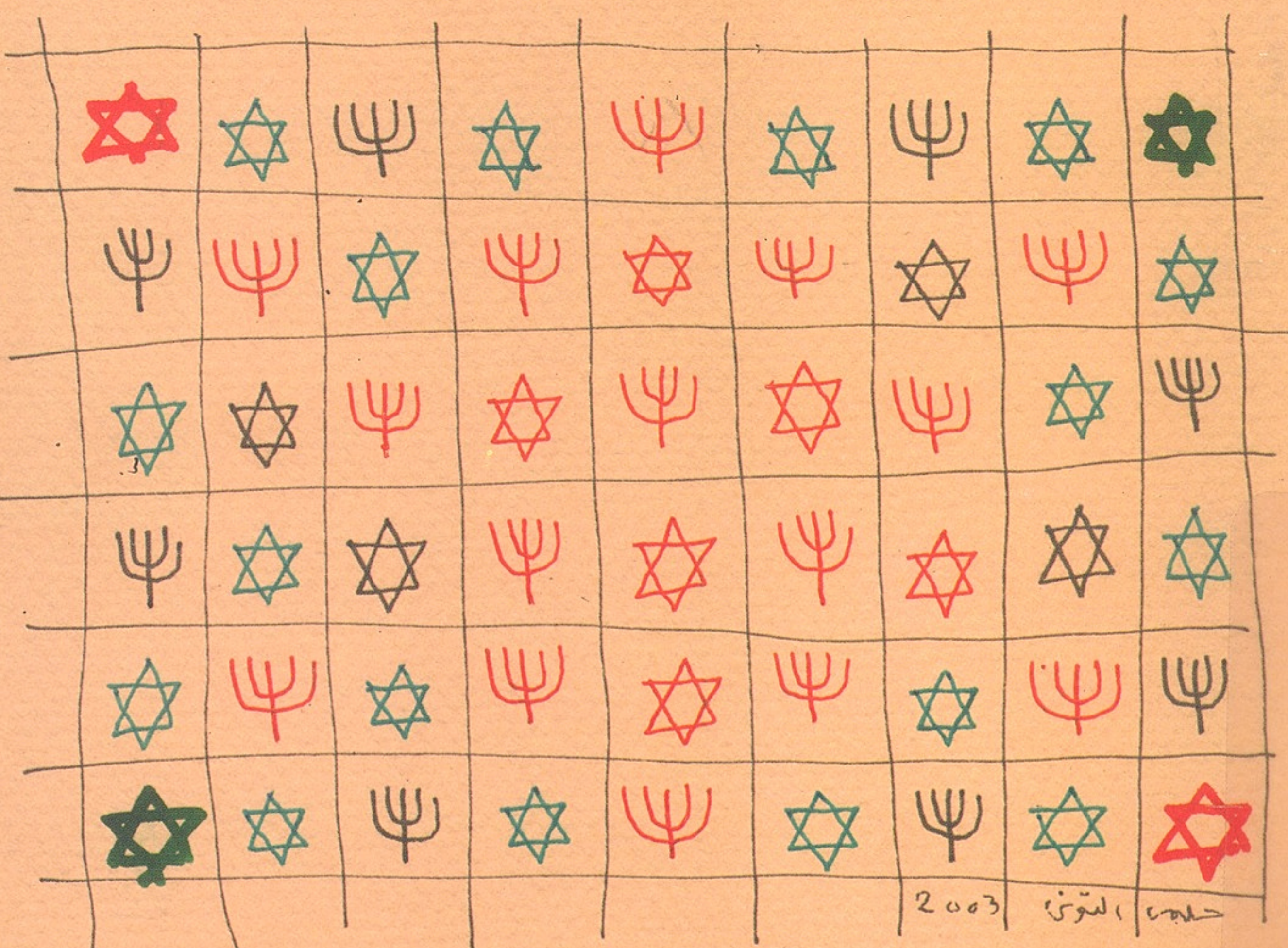
د. عبد الوهاب المسيري

في الخطاب والمصطلح الصهيوني

دراسة نظرية وتطبيقية



دار الشروق

فى الخطاب والمصطلح الصهيونى

دراسة نظرية وتطبيقية

الطبعـــة الأولـــى
١٤٢٤هـ-٢٠٠٣م

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى
رابعة العدوية - مدينة نصر - ص . ب : ٣٣ البانوراما
تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

عبد الوهاب المسيرى

فى الخطاب والمصطلح الصهيونى

دراســـة نـظريـــة وتطبيـقيـــة

دار الشروق

مقدمة

صك المصطلحات الصهيونية المتحيزة عملية مستمرة، ولذا لابد من إدراك ما تنطوي عليه هذه المصطلحات من مفاهيم عنصرية وادعاءات زائفة والتصدي لذلك من خلال عملية تفكيك وإعادة تركيب لهذه المصطلحات، فضلاً عن توليد مصطلحات أخرى مضادة.

وقد يلاحظ القارئ وجود بعض التكرار، ولكن الطبيعة شبه المعجمية لهذه الدراسة فرضت علينا ذلك، كما أننا في محاولتنا تفكيك وإعادة تركيب المصطلحات الصهيونية والمفاهيم الكامنة وراءها، كنا نحاول الوصول دائما إلى بُعدها المعرفي ومرجعيتها النهائية. وهذه المرجعية واحدة لا تتغير، وهي الافتراض الصهيوني أن اليهود شعب واحد له تاريخ مستقل ويتسم بخصوصية يهودية وأن فلسطين هي «إرتس يسرائيل». . إلخ. وفي كثير من الأحيان كنا نضطر إلى ذكرها المرة تلو الأخرى لنوضح مرجعية المصطلح وتحيزاته.

وبعد ـ فهذه دراسة أولية في هذا الموضوع، وهي لا تهدف إلى تفكيك كل المصطلحات الصهيونية وإنما تحاول تقديم منهج للتفكيك والتركيب مع ضرب الأمثلة ببعض المصطلحات الأساسية. وإذا نجحت هذه الدراسة في توليد وعي بقضية المصطلح فإنها تكون قد أنجزت ما تسعى إليه.

وقد قام صديقي الدكتور محمد هشام (المدرس بجامعة حلوان) بمراجعة هذه المخطوطة وأدخل الكثير من التعديلات الهامة. كما قامت ابنتي الدكتورة هبة غازي (بطب عين شمس) بقراءتها واقترحت تعديل بعض الأجزاء، وقد أخذت برأيها في معظم الأحيان. فلهما مني جزيل الشكر وعند الله الجزاء.

والله من وراء القصد. .

عبد الوهاب محمد المسيري

دمنهور ـ القاهرة ـ أكتوبر ٢٠٠٣

الفصل الأول
الخطاب العملي والخطاب التفسيري

ابتداءً لابد من التمييز بين الخطاب التحليلي التفسيري من جهة، وكل أنواع الخطاب الأخرى التي تهدف إلى «كشف الصهاينة» أو «فضحهم» أو «التشهير بهم» أو حشد الجماهير وتجنيدها ضدهم. فالخطاب التحليلي التفسيري لا يهدف إلى أي من الأهداف السابقة وإنما يهدف إلى تعميق رؤيتنا للعدو حتى نعرفه في كل تركيبيته وبالتالي تزداد قدرتنا على تفسير الظواهر اليهودية والصهيونية والتنبؤ بها ومن ثم مقدرتنا على التصدي للعدو.

بعض أشكال الخطاب العملي الدعائي

ونحن نميز بين الخطاب العملي (الدعائي التعبوي) من جهة، والخطاب التفسيري من جهة أخرى:

فالخطاب العملي (الدعائي التعبوي) هو خطاب يهدف إلى تعبئة الجماهير ولا يعني كثيراً بقضية التفسير. وثمة أشكال مختلفة من هذا الخطاب أهمها ما يلي:

١ ـ الخطاب التآمري: من أكثر أنواع الخطاب العملي التعبوي انتشاراً الخطاب التآمري الذي يذهب إلى أن اليهود أينما كانوا يحيكون المؤامرات. ويصدر النموذج عن رؤية اختزالية تضع اليهود كل اليهود في سلة واحدة، ومن ثم فهو يذهب إلى أن كل الظواهر اليهودية والصهيونية والإسرائيلية شيء واحد، فلا يوجد أية اختلافات بينهما. ويتم اختزال الإسرائيلي في الصهيوني والصهيوني في اليهودي لأن الجميع كل واحد متجانس، «يهود والسلام». كما يتم اختزال اليهود (بل الواقع بأسره) في قوالب جاهزة وأنماط سابقة، فاليهود – حسب تصور دعاة الخطاب التآمري – شخصيات مخربة هدامة دائماً وأبداً، تتآمر بطبيعتها ضد كل ما هو خيرٍ ونبيل. فهذا

- حسب تصورهم - مكون أساسي وثابت في الطبيعة اليهودية، ومن ثم فاليهود مسئولون عن كل الشرور أو على الأقل معظمها، وسلوكهم هو تعبير عن مخطط جبار وضعه العقل اليهودي أو حاخامات اليهود لتخريب الأخلاق وإفساد النفوس حتى تزداد كل شعوب العالم ضعفا ووهنا بينما يزداد اليهود قوة وبأساً، وذلك بهدف السيطرة على العالم وإنشاء حكومة عالمية.

والعالم كله - حسب هذا التصور- إن هو إلا رقعة شطرنج، وكل البشر إن هم إلا أحجار عليه يحركها اليهود بكل بساطة لإنجاز مخططهم، فهم أصحاب قوة خارقة لا تضاهيها قوة ونفوذ كبير ليس مثله نفوذ. والتاريخ اليهودي بأسره إن هو إلا تعبير عن هذا النموذج الثابت وهذه المؤامرة التي لا تتغير.

والصهيونية - في تصور التآمريين - ليست ظاهرة مرتبطة بحركيات التاريخ والفكر الغربي وإنما هي مجرد تعبير عن هذا الشر الأزلي الكامن في النفس اليهودية، ذلك الشر الذي يتبدى في الغزو الصهيوني لفلسطين، وضرب المفاعل الذري العراقي، وغزو لبنان وقمع الانتفاضة، والهجرة اليهودية السوفيتية إلى فلسطين وسقوط الاتحاد السوفيتي... إلخ. ومعالم المؤامرة اليهودية وردت بشكل واضح في كتب يُقال إنها سرية مثل التلمود والبروتوكولات.

ومشاكل الخطاب التآمري كثيرة، منها مثلاً:

(أ) يضفي هذا الخطاب قوة عجائبية على اليهود ويشيطنهم. فلو كان اليهود شياطين بالفعل، فكيف سيتأتى لنا التصدي لهم وهزيمتهم؟ ألا يجدر بنا أن نستعيذ بالله من الشيطان الرجيم ونفر؟ أي أننا نسقط في العجز الكامل لأنه إذا كانت القوة التي نواجهها متخفية إلى هذا الحد، أخطبوطية إلى هذا الحد، باطشة ضارية إلى هذا الحد، فهل لنا قِبَلَ لها؟ هل يمكننا أن نفعل أي شيء إزاءها؟ ولكن أليس من الأجدى بدلاً من السقوط في هذا الموقف أن نتذكر الآية الكريمة: ﴿إِن تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ (النساء: ١٠٤)، فنعرف أنهم بشر مثلنا يمكن أن نفاوضهم، كما يمكن أن نسيل دمهم، ثم نتذكر بقية الآية: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لا يَرْجُونَ﴾ (النساء: ١٠٤).

(ب) حين يتحدث خطاب المؤامرة عن اليهود بشكل عام يفقد الدارس أية مقدرة على

رؤية الواقع في كل تركيبيته، وهو يقدم صورة عامة للغاية لا تفيد كثيراً في التعامل مع الواقع. فماذا يفيد أن أعرف أن اليهود أشرار يودون السيطرة على العالم منذ بداية التاريخ؟ هل يمكن أن يفيدنا هذا في دراسة توجهات الجيب الصهيوني الاستيطانية الإحلالية وتحالفاته الدولية ونقاط ضعفه وقوته؟ هل يمكن أن يفسر هذا الحياة الحزبية في إسرائيل؟ وحينما هزم حزب الله جيوش الدولة الصهيونية في جنوب لبنان، هل درس المؤامرة اليهودية الكبرى، أم درس العدو في حركاته وسكناته؟

(جـ) يعتمد الخطاب التآمري على وثائق مشكوك فيها مثل بروتوكولات حكماء صهيون وينصرف عن رؤية البطش الصهيوني في الواقع، مع أن ما حدث في دير ياسين وصابرا وشاتيلا وجنين يفوق كثيراً ما جاء في البروتوكولات.

٢ ـ الخطاب شبه الديني: يحاول الخطاب شبه الديني أن يعبئ الجماهير ضد اليهود، كل اليهود، باعتبارهم أعداء الله وقتلة الأنبياء، أي أنه يصدر عن نفس منطلقات الخطاب التآمري التي تذهب إلى أن الشر مسألة متأصلة وراثية في الطبيعة اليهودية فهو يجري في عروق اليهود ودمهم، وبالتالي فحربنا ضدهم ستستمر حتى يوم القيامة. وقد سمينا هذا الخطاب شبه ديني لأنه يستند إلى مقولة علمانية مادية، فهو يعرف اليهودي على أساس الوراثة (العِرْق والدم) وليس على أساس العقيدة ليؤسس عليها رؤية دينية. وعلى أية حال لا يقتل الصهاينة الأنبياء هذه الأيام (إذ لا يوجد أنبياء في عصرنا الحديث). فهل هذا يعني أنهم لا يقتلون أحداً؟ الواقع هو العكس، فهم يقتلون كل من «يتصادف» وجوده في أرض الميعاد أو «إرتس يسرائيل»، أي فلسطين، في المصطلح العربي وعبر آلاف السنين!

ومشاكل الخطاب شبه الديني كثيرة، منها مثلاً:

(أ) الخطاب شبه الديني يضفي بُعداً كونياً على الصراع العربي الإسرائيلي، فهو صراع مستمر طالما وُجد التاريخ، فالنصر لن يتحقق إلا في نهاية الأيام، فما نحرزه من انتصارات هي أمور عرضية، أما ما يحرزونه من غزو ومذابح فهو متوقع ومكتوب.

(ب) يجب عدم تأسيس الصراع على كره اليهود، فهذا سقوط في الأطروحة النفسية التي ترى أننا نحارب اليهود لأنا نكرهم أو لأنهم يكرهوننا. ونحن أولاً لا نحارب اليهود

بل نحارب من اغتصب أرضنا، أي أننا نحارب ضد الظلم. وسبب الحرب ليس كرهاً غريزياً ليس له سبب واضح، وإنما محاولة من جانبنا لإقامة العدل في الأرض وصد الظلم عن أنفسنا. وقد حاربنا ضد الفرنجة من قبل وضد الإنجليز وهم ليسوا يهوداً وإنما مستعمرون ظلمة.

(جـ) يفترض الخطاب شبه الديني استمرارية يهودية، وأن ثمة تاريخاً يهودياً مستمراً حلقاته متصلة لم تنقطع. وهذا هو جوهر الفكر الصهيوني كما سنبين فيما بعد.

(د) يتصارع الخطاب شبه الديني مع النصوص التوراتية، ولكن قضيتنا ليست الرواية التوراتية أو الإنجيلية فليؤمن بهما من يؤمن وليكفر بهما من يكفر، مشكلتنا مع الرواية الصهيونية التي حولت التاريخ التوراتي المقدس إلى تاريخ زمني، وحولته إلى ديباجات تخفي الهدف الحقيقي وتعطي مبررات دينية وأحياناً أخلاقية للاستيلاء على أرضنا!

٣ ـ الخطاب الدعائي (الإعلامي): هو الخطاب الدعائي المحض الذي يتوجه علي سبيل المثال إلى الرأي العام العالمي فيوضح له أن «إسرائيل دولة معتدية» وأن «وضع اللاجئين الفلسطينيين سُبَّة في جبين البشرية» وأن «المستوطنين الصهاينة يستولون على الأراضي الفلسطينية دون وجه حق» وأنهم «عنصريون يعذبون النساء والأطفال» وهكذا. ويمكن أن يتوجه الخطاب الدعائي نحو الداخل ليصبح خطاباً تعبوياً يهدف إلى تعبئة الجماهير ضد العدو الصهيوني وضد المؤامرة المستمرة (أو العكس الآن إذ يمكن أن يقوم الخطاب التعبوي بالتبشير بالسلام). وغني عن القول إن مثل هذا الخطاب لا يفيد كثيراً في فهم ما يجري حولنا. ونحن لا نقف ضد الدعاية أو التعبئة ولكن المهم أن نعرف أنهما أمران مختلفان عن التفسير.

وأنا أذهب إلى أنه يجب ألا نترك الخطاب الإعلامي للعدو، إذ يجب أن نطرح برنامجنا للحل فنطلب تحقيق السلام الشامل العادل من خلال تنفيذ قرارات الشرعية الدولية وبالذات القرارات الخاصة بعودة اللاجئين الفلسطينيين، وأن تُنزع الصبغة الصهيونية عن الدولة الصهيونية ليحل محلها دولة ديمقراطية متعددة الأديان والإثنيات والهويات الثقافية، وهو إطار يسمح ببقاء الإسرائيليين لا كمستوطنين وإنما كمواطنين يتمتعون بكافة حقوقهم السياسية والدينية والثقافية. ويمكن هنا أن نطرح نموذج جنوب أفريقيا حيث تم نزع الإطار العنصري دون مذابح. ولذا فلنطالب بتشكيل لجان لدراسة

كيفية فك الجيب الصهيوني سلمياً كما تم فك الجيب الاستيطاني في جنوب أفريقيا، وأن تدرس اللجنة شكل المجتمع الجديد. وعادةً ما يُقال إن هذا يعني القضاء على الدولة اليهودية. والرد على مثل هذا القول هو أن الدولة التي لا يمكنها البقاء إلا من خلال قوانين عنصرية لا تستحق البقاء. وعلى الخطاب الإعلامي أن يكون منخفض الصوت حتى يكون مقنعاً، على أن نتذكر دائماً أن الخطاب الإعلامي الذي لا تسانده القوة العسكرية هو مجرد كلمات جوفاء، وأن الخطاب الإعلامي ليس له أية مقدرة تفسيرية.

٤ ـ الخطاب القانوني: ويمكن للخطاب العملي التعبوي أن يكون قانونياً وتصبح القضية هي المرافعة لتوضيح الحق العربي والأساس القانوني له. والشكل الأساسي الذي يأخذه هذا الخطاب هو مراكمة قرارات هيئة الأمم المتحدة الواحد تلو الآخر في مجلدات ضخمة، تطبع بعناية فائقة وتوزع على الهيئات والدول والمنظمات الدولية المعنية. ومثل هذا الخطاب لا يُعنَى كثيراً بتفسير أسباب الصراع أو بنيته أو طرق حله أو تصعيده أو إدارته. ولا شك في أن معرفة الإطار القانوني للصراع أمر مهم للغاية، ولكنه يختلف تماماً عن عملية التفسير التي تنطوي على جهد أكثر تركيباً من مراكمة القوانين أو حتى تفسيرها.

ومن الأشكال الأخرى للخطاب القانوني ما يُنشر من دراسات تحت شعار صريح أو ضمني فحواه «من فمك ندينك يا إسرائيل»، وهذه الدراسات تتكون عادةً من اقتباسات من كتابات بعض المؤلفين الإسرائيليين ومن أعضاء الجماعات اليهودية ينتقدون فيها اليهودية وأعضاء الجماعات اليهودية وإسرائيل. وتوضع الاقتباسات جنباً إلى جنب ثم تقدم باعتبارها أدلة دامغة في المرافعة التي لا تنتهي ضد الصهيونية وإسرائيل، وأحياناً كل اليهود!

وفي إطار الخطاب القانوني يحاول البعض تفنيد فكرة حق اليهود التاريخي (أو الديني) في فلسطين التي يدعيها الصهاينة، فيأتون بالأدلة والبراهين التي تبين بطلان دعواهم. وهي عملية ولا شك مفيدة دعائياً، دعائياً وحسب، لأننا لو «أقنعنا» الصهاينة بوجهة نظرنا، فهل سيتركون بلادنا ويعودون أدراجهم؟. وقد قام أحد المؤرخين الإسرائيليين الجدد بإثبات أن القصص التوراتية ليس لها أي أساس تاريخي، فسأله أحد المحللين السياسيين، لماذا أنتم هنا إذن؟، فقال: «نحن هنا لأننا هنا»، أمر واقع، يستند إلى السلاح. إن عملية تفنيد الادعاءات الصهيونية، تاريخية كانت أم دينية، عملية إعلامية تعبوية مهمة ولكنها لا علاقة لها بعملية التفسير.

٥ ـ الخطاب الأخلاقي: وهو الخطاب الذي يصدر عن قيم أخلاقية إنسانية ويحاول أن يحض على وضعها موضع التطبيق. ويمكن القول بأن ثمة نقاط تشابه أساسية بين الخطابين الدعائي التعبوي والعملي القانوني من جهة، والخطاب الأخلاقي من جهة أخرى، فجميعهم ذوو توجه عملي غير تفسيري. فمقولات أخلاقية مثل الاعتدال والتسامح والإنصاف والخير ليست مقولات تحليلية أو تفسيرية، فهي تعبير عن حالات عقلية أو عاطفية وعن مواقف أخلاقية ولا علاقة لها ببنية الواقع المركبة أو العملية التفسيرية. وهذه المقولات تجعل الباحث يركز على الحالة العاطفية والعقلية للفاعل ويستبعد العناصر الأخرى، أو تجعله يركز هو نفسه على إصدار الحكم الأخلاقي الصحيح على الأحداث بدلاً من دراسة بنية الواقع وآلياته وحركياته بهدف تفسيره.

وقد ظهرت مؤخراً مصطلحات أخلاقية مثل «ثقافة السلام وثقافة الحرب» ليست لها قيمة تحليلية كبيرة، وهي مصطلحات تخلق الوهم بوجود شيء أخلاقي مطلق اسمه «السلام» مقابل شيء آخر لاأخلاقي مطلق يسمى «الحرب»، ولا يوجد أيٌّ منهما داخل أي سياق إنساني وتاريخي أو اجتماعي. وقد تمت تعبئة مصطلح «ثقافة السلام» بكل الإيحاءات الإيجابية الممكنة وأصبح الحديث عن الحرب، مهما كانت أسبابها ومهما كانت الدوافع وراءها (مثل الحرب من أجل تحرير الأرض والذات على سبيل المثال)، أمراً سلبياً وشكلاً من أشكال العنف. ونحن نطرح جنباً إلى جنب مع «ثقافة السلام» و«ثقافة الحرب» مصطلح «ثقافة العدل» و«ثقافة الظلم» ونتحدث عن الشروط الواجب توافرها لتحقيق العدل. ولذا يمكننا أن نتحدث عن «ثقافة السلام والعدل» مقابل «ثقافة الحرب والظلم». والهدف من كل هذا هو أن نبين البُعد الأخلاقي لمثل هذه المصطلحات، وتوضح أنها ليست في واقع الأمر مصطلحات وصفية، وإنما مصطلحات وعظية وتعبوية.

نحن لا نرفض القيم الأخلاقية وضرورتها للإنسان كإنسان، بل ونرى أن التفسير لابد وأن يترجم نفسه في نهاية الأمر إلى فعل إنساني فاضل بحيث يقف الإنسان وراء ما يتصور أنه إنساني وأخلاقي (المعروف)، ويقف ضد ما يتصور أنه غير إنساني وغير أخلاقي (المنكر). إلا أن مثل هذا الموقف الأخلاقي الإنساني، هذا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، لابد أن يسبقه إدراك كامل لطبيعة الموقف الأخلاقي وتحليل للواقع المتعين بكل مكوناته وتركيبيته حتى يمكن فهمه قبل الحكم عليه.

٦ ـ الخطاب الواقعي (البرجماتي): إذا كان الخطاب الأخلاقي يرتكز على عبارة «يجب أن»، فإن الخطاب الواقعي (البرجماتي) يزعم العكس، فهو يزعم أنه خطاب تفسيري ينطلق من الواقع. وهذا تزييف ما بعده تزييف، فهو أيضاً ينطلق من عبارة «يجب أن»، فهو يقول «يجب أن يعترف العرب بإسرائيل لأنها موجودة بالفعل، لأن الواقعية تتطلب ذلك». وهذا الخطاب يفترض أن صاحبه قد قام بتحليل كل جوانب الواقع وتقييمها بعناية ثم وصل إلى ما وصل إليه من نتائج. ويمكن الرد على هذا بأن السرطان أيضاً أمر واقع. وهذا لا يعني بالضرورة تقبله، فالواقعية ليست تقبُّل الواقع كما هو، والاستسلام له، وإنما كيفية التعامل معه. والواقع ليس مجرد ما هو قائم بل ما هو ممكن. فالواقعية قد تتطلب الاعتراف بوجود إسرائيل ولكنها لا تتطلب بالضرورة الاعتراف بشرعية هذا الوجود، بل يذهب الإنسان الواقعي، بناءً على تحليل مركب للواقع، إلى ضرورة التصدي لهذه الخلية السرطانية ومقاومتها. وغني عن القول أن الخطاب الواقعي لا يفسر الواقع، بل يجمده ويجتزئه.

ويلاحظ أن الخطاب الغربي الذي يتناول الصراع العربي الإسرائيلي يدعو إلى الواقعية والبرجماتية حين يتوجه إلى العرب وحسب، فالولايات المتحدة تخبر العرب أن إسرائيل دولة قوية، ألحقت بهم الهزيمة تلو الأخرى، وعليهم تقبُّل الحقائق الجديدة والتعامل معها بحس عملي. ومن ثم يجب عليهم قبول الشروط الإسرائيلية وقبول السلام الذي هو في جوهره استسلام من منظور عربي. ولكن حينما يتوجه الخطاب الغربي إلى إسرائيل فإنه يتخلى عن برجماتيته تماماً، ويصبح الحديث عن «وطن اليهود القومي» و«ارتباطهم به عبر التاريخ» وضرورة أن تظل إسرائيل «دولة يهودية خالصة» و«عاصمتها الأزلية القدس». . . إلخ، أي أنه يجب على الغرب والعالم احترام المطالب الصهيونية ذات الجذور التوراتية والتي تساندها القوة المسلحة. وهذا التناقض العميق يدل على عنصرية الغرب، فمشاعر الصهاينة وتطلعاتهم القومية لابد وأن تؤخذ في الحسبان، فهم بشر كاملون، أما مشاعر الفلسطينيون وتطلعاتهم القومية فهي مسألة يمكن إهمالها ومطلوب منهم التنازل عنها، فهم مجرد مادة استعمالية، وليسوا بشراً كاملين.

٧ ـ خطاب الأماني: وهو الخطاب الذي يعبر عن الأماني العربية المشروعة مثل ضرورة تحرير فلسطين واستعادة القدس ودعم المقاومة الفلسطينية للمحتل الصهيوني. وهذا الخطاب له قيمة نفسية عالية، ولكنه ليس له قيمة تفسيرية كبيرة. ونفس القول ينطبق على خطاب الأماني الصهيوني، فحينما يقول الصهاينة إن القدس هي عاصمة

إسرائيل الأزلية، وأنهم سيوطنون في الضفة الغربية مليوني مستوطن صهيوني، فيجب ألا نفزع من هذا الخطاب ولا نتصور أنه بالضرورة مخطط قابل للتحقق. بل يجب أن ندرك أن العدو مثلنا يعبر عن أمانيه حتى يشحذ الهمم، ولعله يستخدم هذا الخطاب لإدخال الرعب في قلوبنا. ولذا فحينما نحاول تفسير سلوكه يجب أن نضع خطاب الأماني الخاص به في موضعه الحقيقي.

ومعظم أنواع الخطاب السابقة تنطلق من بعض ثوابت موقفنا من الاستعمار الاستيطاني الصهيوني: رفض عميق له - تعاطف مع الفلسطينيين - الإحساس بضرورة مساعدة الفلسطينيين... إلخ، كما أنها تتحرك في إطار هذه الثوابت، وهو أمر ولا شك محمود. وكل أنواع الخطاب السابقة مهمة (باستثناء الخطاب التآمري والخطاب شبه الديني)، ولابد من معرفة الهدف من كل واحد منها حتى يمكن توظيفه في مجاله على أكمل وجه (ولكل مقام مقال)، بحيث تتكامل الأنواع المختلفة. ولكن يجب أن ندرك أن أنواع الخطاب السابقة لا تلقي بأي ضوء جديد أو قديم علي بنية الكيان الصهيوني ولا تحاول التنبؤ بخصوص سلوكه. فهي توضح ما هو واضح بالفعل، وهي لا تتعامل مع الأسباب أو النتائج أو الماضي أو الحاضر أو المستقبل، وسؤال «ما العمل؟» غير مطروح أساساً. فالتعبئة تحل محل محاولة التفسير، ولذا فأنواع هذا الخطاب لا تفيد كثيراً في رسم الخريطة المعرفية. ورغم أهمية بعض أنواع الخطاب غير التفسيري في تجنيد الجماهير وفي مخاطبة الرأي العام العالمي، فمن الواجب أن ندرك أنها لا تفسر شيئاً، فهي دعوة إلى اتخاذ خطوات معينة ولا تهدف إلى تفسير الظاهرة الصهيونية.

ويمكن القول إننا في واقع الأمر لا يمكن أن نقوم بالتعبئة إلا بعد التحليل والفهم (والفهم بالمناسبة يختلف عن التفاهم)، فالتعبئة لا تتم في فراغ وإنما تعبيء استناداً إلى وقائع محددة، كما أنها تتحرك نحو اتجاه معين وإلا تحولت إلى تهييج غوغائي وطنين إعلامي. ولكن الخطاب الإعلامي التعبوي، وأنواع الخطاب الأخرى، تنطلق من بعض القوالب اللفظية الجاهزة والأطروحات الشائعة دون اختبارها فتخلق وهم المعرفة.

الخطاب التفسيري

والآن فلنحاول أن ننتقل إلى بعض أشكال الخطاب التفسيري:

١ ـ الخطاب النفسي: يحاول أصحاب هذا الخطاب أن يفسروا الصراع العربي الإسرائيلي

على أساس نفسي وكأنه صراع دائر داخل الذات الفلسطينية والذات الإسرائيلية. وهذا الخطاب بطبيعة الحال لا يفسر إلا جانباً واحداً في الصراع، ولا يمكنه تفسير تغيراته أو حدته أو تفسير كثير من الظواهر مثل مخيمات اللاجئين والاستيطان الصهيوني في الضفة الغربية. فهذه ليست ظواهر نفسية وإنما ظواهر سياسية واجتماعية، قد يكون لها بُعد نفسي ولكن النموذج النفسي يعجز عن تفسيرها.

٢ ـ الخطاب النصوصي: النصوصية هي محاولة تفسير سلوك اليهود والدولة الصهيونية في ضوء ما جاء في العهد القديم والكتب المقدسة اليهودية الأخرى (التلمود - كتب القبالاه - وبعض الجهابذة يضمون لذلك بروتوكولات حكماء صهيون بحسبانه كتاباً مقدساً باطنياً عند اليهود). وتنطلق محاولة التفسير من تصور مفاده أن سلوك اليهودي هو تعبير مباشر عن بعض نصوص العهد القديم والتلمود، وكأن واقع الصهاينة ويهود العصر الحديث، سواء أكانوا في أمريكا أم جنوب أفريقيا أم إثيوبيا، لا يختلف عن واقع العبرانيين القدامى أو يهود الصين في القرن الخامس عشر، وكأن ما ورد في العهد القديم والتلمود إن هو إلا مخطط يهودي قديم يعبر عن جوهر يهودي ثابت، وأن من يريد أن يفهم اليهود والصهيونية ويتصدى لهما عليه ألا يضيع وقته في قراءة الواقع وتفاصيله وإنما عليه أن يذهب إلى أحد هذه الكتب (خصوصاً البروتوكولات) فهي قصيرة وواضحة وسهلة وتأخذ شكل مخطط واضح، وسيجد فيها تفسيراً لكل شيء بل تنبؤاً بكل شيء.

ومثل هذا النموذج الاختزالي لا يتنبه إلى أن علاقة الإنسان بالكتب المقدسة التي يؤمن بها علاقة مركبة إلى أقصى حد، فهي ليست علاقة سبب ونتيجة. كما أن مسألة التفسير مسألة حيوية في تحديد هذه العلاقة، فيمكن أن يكون التفسير حرفياً مغلقاً ويمكن أن يكون مجازياً منفتحاً. فتفسير الصهاينة لنص ما يختلف عن تفسير اليهود الإصلاحيين له. وأخيراً لا يدرك هؤلاء النصوصيون أن غالبية اليهود في العصر الحديث لا تؤمن بهذه الكتب أساساً ولا تقرؤها. كما أن النصوص غير اليهودية تكون أحياناً أكثر أهمية من النصوص اليهودية في تفسير سلوك الصهاينة. وعادةً ما يتم فصل النص الذي يتم الاستشهاد به عن أي سياق تاريخي عام، فالسياق الوحيد هو النص ذاته.

وقد استشرى مرض النصوصية وانتقل من اقتباس العهد القديم إلى اقتباس أي تصريح صهيوني وتصديقه. وعادةً ما تُؤخذ تصريحات الإسرائيليين بوصفها تعبيراً عن دوافعهم

وخططهم الحقيقية وليست مجرد مزاعم أو آمال أو أوهام. ثم تتشيأ النصوص والتصريحات الصهيونية وتتحول من الدوافع الكامنة والمخطط المبيت لتصبح الواقع الموضوعي، وبذا تتم المساواة بين الزعم والآمال من جهة، وبين التوقعات والواقع من جهة أخرى. كل هذا يؤدي إلى إهمال حقيقة بديهية وهي أن الآخر قد يفشل في إدراك دوافعه الحقيقية بسبب التزامه الأيديولوجي، وأنه قد يعني ما يقول ويصدقه ولكن أقواله مع هذا لا تعبر عن دوافعه الكامنة الحقيقية التي تحركه، لأنه لا يستطيع أن يواجه نفسه. وهناك إلى جانب ذلك الادعاء الواعي، إذ قد يكون من صالح الشخص أن يعلن مزاعمه ويخبئ دوافعه، فقد يزعم المهاجر اليهودي أنه هاجر بسبب رغبته اليهودية العارمة النبيلة في العودة إلى أرض الميعاد ليخبئ دوافعه الخسيسة في الهرب من البطالة والبحث عن الحراك الاجتماعي والحصول علي الدعم الصهيوني السخي لمن يستوطن في فلسطين. وقل نفس الشيء عن قوة الآخر فتقييم العدو لقوته قد تكون خاطئة تماماً وقد تكون تزييفاً واعياً، وحينما صرح الصهاينة أن عدد المهاجرين اليهود من الاتحاد السوفيتي في موجة الهجرة الأخيرة سيصل إلى الملايين فلعلهم كانوا مخلصين فيما يقولون، ولكنهم فشلوا في تقييم موقف اليهود السوفييت وعوامل الطرد والجذب العامة والخاصة التي تتجاذبهم، ولعل آمالهم الأيديولوجية قد ضللتهم. وهناك احتمال أن يكون الصهاينة قد قاموا بتضليل الجميع عن عمد حتى يتم تخويف العرب فيسرعوا إلى مائدة المفاوضات، وحتى تزيد الولايات المتحدة، ومن ورائها يهود العالم، من دعمها المادي والسياسي. ومن المعروف أن الملايين المزعومة من المهاجرين لم تصل.

ولذا، فإن من المهم بمكان أن نقرر ما إذا كان الزعم الصهيوني يعبر عن آمال الصهاينة بإخلاص أم أنه ادعاء صهيوني كاذب وواع. فلو كان أملاً صهيونياً فسيؤثر في خطة العمل الصهيونية بشكل أو بآخر. أما إذا كان ادعاءً واعياً أو أكذوبة فلابد أن يُسقط من الاعتبار، لأن الهدف منه هو تضليلنا، وعلينا بعد ذلك أن نقرر إن كانت الآمال تتطابق مع الواقع أم لا، ومدى إمكان تحقيقها وذلك بدلاً من السقوط في قبضة تشيُّؤ النصوص المقدسة وغير المقدسة والمزاعم والتصريحات.

٣ - الخطاب الموضوعي المتلقي: هذا النوع من الخطاب هو أكثر أنواع الخطاب شيوعاً، وهو يصدر عن نموذج معلوماتي موضوعي متلقي وثائقي. فيقوم الباحث بمراكمة المعلومات والحقائق والأفكار والتصريحات والنصوص المقدسة، ثم تُرص رصاً بغض النظر عن مدى أهميتها ومدى مركزيتها ومقدرتها التفسيرية، وهي عادةً حقائق لا

يربطها رابط ولا تخضع لأي شكل من أشكال التحليل المتعمق، إذ يأخذ التحليل شكل تحليل مضمون بدائي جداً يهمل قضية المنظور (الوعي - الدوافع - التوقعات) والدلالة الداخلية التي يراها الإنسان فيما يقع له من أحداث وفيما يحيط به من ظواهر وفيما يقوم به من أفعال. كما يهمل الخطاب الموضوعي المتلقي كلاً من خصوصية الظواهر الصهيونية والنمط العام الذي تنتمي إليه، وهو خطاب لا يصل إلى كل الأبعاد المعرفية للظاهرة موضع الدراسة. وفي إطار الخطاب الموضوعي المتلقي ينحل الفكر الصهيوني إلى مجرد مجموعة من الأفكار الصهيونية لا تكون منظومة مترابطة متكاملة، ثم يلجأ الباحث للتصنيف السطحي بناءً على عدد الكلمات وتكرار الجمل والموضوعات وذلك في إطار الأطروحات العامة المسيطرة، وبالتالي تجمد الظواهر والحقائق وتعزل عن بعضها البعض وتجرد من تاريخها وسياقها، ويكون الرصد رصداً لحقائق متفرقة لا لأنماط متكررة، ومن ثم يمكن للباحث أن يفرض عليها أي معنى عام أو خاص يشاء. وإن قام بفرض نمط ما عليها فهو عادةً أطروحة اختزالية بسيطة شائعة. ويأخذ البحث العلمي شكل اختيار الحقائق التي يدلل بها الباحث على البدهية الاختزالية الأولى.

التفسيرية

أنواع الخطاب التفسيرية المختلفة السابقة تقوم بتفسير الظواهر لكن بطريقة اختزالية تجتزئ من الواقع فتركز على بعض أبعاده وحسب وتهمل البعض الآخر. والمطلوب هو التوصل إلى خطاب تحليلي تفسيري مركب يجعلنا قادرين على إدراك الواقع لا كحقائق متناثرة لا يربطها رابط وإنما ككل متكامل، مما يتيح لنا التمييز بين الحقائق (المتناثرة) والحقيقية (الكلية) والحق (الأخلاقي). ونحن نذهب إلى أن هناك نوعين من الرصد: الرصد المباشر أو «الرصد الموضوعي المتلقي» من ناحية، والرصد من خلال أنماط متواترة (نماذج تحليلية) من ناحية أخرى، وهذا ما نطلق عليه «التفسيرية».

تنطلق الموضوعية المتلقية من تصور أن العقل السليم إن هو إلا صفحة بيضاء أو سطح شمعي سلبي بسيط محايد، فهو كالآلة تنطبع عليه المعطيات والمدركات الحسية وتتراكم. وهذا العقل السليم يرصد بحياد شديد دون أن يشوِّه أو يغيِّر أو يعدِّل أو يبدِّل. وثمة قانون مجرد عام يسري علي الظواهر الطبيعية وعلي الظواهر الإنسانية وعلي جسد الإنسان وعقله. كل هذا يعني أن إدراكي لا يختلف عن إدراك الآخر، وأن المعرفة هي مراكمة

الحقائق وأن عملية التراكم هذه ستؤدي إلى التوصل إلى معرفة موضوعية عالمية خالية من التحيزات.

وانطلاقاً من مثل هذه التصورات تم الحديث عن حيادية العلم، وتدريجياً أصبحت الموضوعية هي الموضوعية المتلقية والفوتوغرافية بل الببغائية. فتم تمرير التحيزات المختلفة باعتبارها رؤى محايدة عالمية، وتم هدم الإبداع والخصوصية والهوية بل واستبعاد الفاعل الإنساني.

وإذا كانت المعرفة الموضوعية تؤدي إلى تراكم المعلومات الصماء التي لا تقول شيئاً، وإذا كانت المعرفة الذاتية لا تفيد كثيراً في عملية معرفة العالم الخارجي فكيف يمكن فك هذه العقدة؟ هنا نطرح فكرة التفسيرية، وسنبدأ برفض مصطلحي «ذاتي» و«موضوعي» اللذين يؤديان إلى عملية الاستقطاب هذه: عالم موضوعي لا قسمات له ولا ملامح ولا معنى، في مقابل رؤية ذاتية منغلقة تماماً على نفسها لا علاقة لها بالعالم المحيط بنا. ولن يكون معيارنا الدقة أو كم المعلومات أو مدى مطابقة معلوماتنا للواقع، وإنما المقدرة التفسيرية للمصطلح أو الأطروحة. فإن كان المصطلح قادراً على تفسير عناصر وأوجه كثيرة في الواقع فهو «أكثر تفسيرية»، وهي عبارة تحل محل مصطلح «موضوعي»، وإن أثبت المصطلح قصوره التفسيري فهو أقل تفسيرية، وهي عبارة تحل محل مصطلح «ذاتي».

تنطلق التفسيرية من أن العقل الإنساني ليس سلبياً ولا متلقياً بل مبدعاً وله مقدرات توليدية، وأن الواقع ليس بسيطاً ولا جامداً، وأن ما نرصده فيه هو مجرد مادة خام. وبالتالي فالأرقام والإحصاءات ليست نهائية، بل إن آراء الآخرين (وأساطيرهم وأوهامهم عن أنفسهم) هي الأخرى مجرد مواد خام وليست محددات نهائية للسلوك. وهذا الواقع له مستويات مختلفة ودوائر متداخلة متصلة منفصلة، ولكل ظاهرة منحناها الخاص وسماتها الفريدة. والعلاقة بين العقل والواقع ليست بسيطة ولا آلية، فالفاعل الإنساني لا يستجيب مباشرة للمثير وإنما يستجيب للمثير كما يتصوره هو نفسه. فالذات بما تحمل من أساطير وهموم وأوهام وخيال وأيديولوجية ونوايا وذكريات عنصر أساسي في عملية الإدراك. وإفصاح المدرك عن إدراكه ليس أمراً بسيطاً. كما تذهب التفسيرية إلى أن الظاهرة الإنسانية مختلفة عن الظاهرة الطبيعية، وبالتالي لا يوجد قانون عام يسري على كل الظواهر. والسببية التي تسود العالم ليست سببية صلبة («أ» تؤدي حتماً إلى

«ب») بل هي سببية رخوة («أ» تؤدي في معظم الأحيان إلى «ب»، وقد تؤدي إلى «ج» تحت ظروف أخرى).

لكل هذا، لابد للباحث الذي يتبع المنهج التفسيري أن يبتعد عن رصد التفاصيل والمعلومات في حد ذاتها، وأن يحاول تحديد الجوهري والهامشي، وأن يرصد العوامل في تفاعلها، وفي تأثير الخارج في الداخل والداخل في الخارج، والإنساني في الطبيعي والطبيعي في الإنساني، والذاتي في الموضوعي والموضوعي في الذاتي. ولابد من أن يقترب من الواقع بعقل متفتح فيضع التفاصيل داخل أنماط متواترة، ويرى الظواهر من خلال متتاليات قائمة ومتتاليات احتمالية (إذا كان «أ» إذن «ب» وإذا كان «ج» إذن «د»). ولابد أن يقاوم الباحث اختزال الظواهر في بُعد واحد وأن يحاول التركيب المستمر. وإحدى وسائل التركيب هي تنويع المقولات والمصطلحات التحليلية والبعد عن الثنائيات الصلبة (سالب/ موجب - معنا/ ضدنا)، فهناك مقولات بينهما قد تكون أكثر تفسيرية.

ولابد من البُعد عن التعميم المطلق والصور النمطية والصيغ الجاهزة التي لا تفيد كثيراً في الفهم المتعمق للظاهرة، ولا تقدم خريطة تفصيلية تشمل كل أبعاد الواقع تنفعنا في الممارسة اليومية. ورفض التعميم لا يعني رفض كل مستويات التعميم، فالمطلوب هو الوصول إلى مستوى تعميمي معقول يمكن قراءة الواقع المركب من خلاله. إن ضبط المستوى التعميمي أو التخصيصي يشبه ضبط التجارب المعملية، وبالتالي لابد أن يحذر الباحث من التأرجح بين العام للغاية (اليهود إن هم إلا عملاء للإمبريالية) والخاص للغاية (اليهود كيانات فريدة، تتسم بالعبقرية والإجرام - اليهود إما آلهة أو شياطين).

وإذا كان الهدف من المعرفة الموضوعية هو الوصف والتنبؤ ثم التحكم الكامل، فإن الهدف من المعرفة في الإطار التفسيري هو زيادة المقدرة التفسيرية للأطروحات التحليلية، وبالتالي زيادة المقدرة التنبؤية مع إدراك استحالة الوصول إلى معرفة كاملة، ومن ثمَّ استحالة التنبؤ الكامل والتحكم الكامل.

والباحث الذي يتبنى النموذج التفسيري عليه ألا يهدف إلى حشد أكبر قدر ممكن من المعلومات، فالحاسوب يقوم بهذا الآن على أكمل وجه، فهدفه يجب أن يكون تنظيم المعلومات وتصنيفها وتفسيرها واكتشاف العلاقة بينها، وهذا هو جوهر الإبداع الذي لا يستطيع أي حاسوب مهما بلغ من كفاءة أن يصل إليه. وبعد ذلك ينتقل الباحث إلى

مرحلة استخلاص النتائج والتعميمات والوصول إلى رؤية كلية تميز بين الحقائق والحقيقة والحق. والباحث الذي يدور في إطار المنهج التفسيري عليه أن يحاول رصد الظواهر في كل خصوصيتها وعموميتها، في سطحها وأعماقها، ورصد ما هو ظاهر منها وقائم وما هو كامن، وعليه أن يرصد الظواهر لا كأجزاء متناثرة وإنما كجزء من كل تتفاعل أجزاؤه مع بعضها البعض ومع الكل. وأخيراً عليه أن يرصد البعد المعرفي الكلي والنهائي الذي يتمثل في صورة الإنسان الظاهرة أو الكامنة.

وفي تصوري أن أحسن السبل لتحقيق أهداف المنهج التفسيري هو تبني النموذج كأداة تحليلية. والنموذج هو بنية تصورية يجردها العقل البشري من كمٍّ هائل من العلاقات والتفاصيل والوقائع والأحداث فيستبعد بعضها لعدم دلالتها من وجهة نظر صاحب النموذج ويستبقي البعض الآخر، ثم يرتبها ترتيباً خاصاً وينسقها تنسيقاً خاصاً بحيث تصبح من وجهة نظره مترابطة بشكل يماثل العلاقات الموجودة بالفعل بين عناصر الواقع. ولذا فالخرائط والنماذج والصور الإدراكية التي يحملها الإنسان في عقله ووجدانه تحدد ما يمكنه أن يراه في هذا الواقع الخام، فهي تستبعد وتهمش بعض التفاصيل فلا يراها وتؤكد البعض الآخر بحيث يراها مهمة ومركزية.

إننا لا نتعامل مع واقعنا إلا من خلال نموذج إدراكي وخريطة إدراكية تُبقي وتستبعد ونحن لا ندرك الواقع إلا من خلال النماذج الإدراكية. ويتضح هذا في حياتنا اليومية وفي دراستنا. فإذا قلنا إن فلان دمنهوري أو إسكندراني، أي سكندري من أهل الإسكندرية، فنحن في واقع الأمر نستدعي صورة ذهنية تؤكد بعض الصفات وتستبعد صفات أخرى. وقل نفس الشيء عن مفاهيم تحليلية مثل «الإنسان العادي» أو «الثورة الصناعية» فهي مفاهيم تقوم بعملية إبقاء واستبعاد لمجموعة من السمات. ونحن في هذه الحالات كافة لا نتصور بأية حال أن الدمنهوري كائن موجود بالفعل في الواقع وإنما نذهب إلى أن فلان الدمنهوري هو تحقق جزئي لنموذج الدمنهوري، كما لا نتصور مطلقا أننا سنقابل إنساناً عادياً في الطريق، ونعرف تمام المعرفة أن الثورة الصناعية ليست ثورة وقعت في يوم من الأيام أو في مكان من الأماكن. فنحن نعرف أننا حينما نستخدم النموذج فإننا نستخدم بنية ذهنية تصورية لعزل بعض عناصر الواقع وتضخيمها بهدف إدراكها ودراستها بمعزل عن العناصر الأخرى (التي نراها أقل أهمية من تلك العناصر التي قمنا بتضخيمها). فاستخدام النماذج أمر حتمي للإدراك الإنساني ولإجراء أي بحث. وإذا كان الأمر كذلك

فمن المستحسن أن ندرك ذلك وأن نحسِّن من أدائنا شريطة أن ندرك دائما أن ما نقوم به هو تاكتيك بحثي وحسب، وأن النموذج أمر حتمي في عملية الإدراك (وهذا ما نسميه «النموذج الإدراكي») وأنه لتحليل سلوك البشر لابد أن نحاول الوصول إلى هذا النموذج ونجرده ونستخدمه في تفسير سلوكهم (وهذا ما نسميه «النموذج التحليلي»).

ورغم أن النموذج بنية تصورية فإنه ليس من تهويمات الخيال ولا هو ثمرة الرؤية الذاتية إذ يتم تجريده من الواقع، كما أن التحقق من مقدرته التفسيرية ممكن من خلال اختباره في تفسير الواقع، فإذا تمكن النموذج من تفسير عدد من جوانب الواقع يفوق عدد ما تفسره النماذج والافتراضات الأخرى فهو أكثر تفسيرية منها وهي بالتالي أقل تفسيرية منه.

وهذا كله يعني أننا يجب أن نقرأ النصوص الصهيونية بحذر شديد، وأن نحاول الوصول إلى المفاهيم الكامنة وراء المصطلحات والنماذج الإدراكية، وأن ندرك الحيل البلاغية التي يلجأ إليها الصهاينة لإخفاء عنصريتهم وتحيزهم ولتمريرها بحيث تصبح مقبولة لأكبر عدد ممكن من قطاعات الرأي العام التي تهمهم.

الفصل الثاني
المصطلح الغربي/الصهيوني

تحديد المفاهيم والمصطلحات مسألة ضرورية لضبط وتنظيم العملية الفكرية والتحليلية التفسيرية وتأطير ممارسات الفكر الاجتماعي في سياق منهجي بعيداً عن الفوضى والشتات الذهني. وكلمة «مصطلح» هي على وزن «مفتعل» من الفعل «اصْطَلَح»، مثل قولهم «اصطلح القوم» أي «زال ما بينهم من خلاف»، و«اصطلحوا على الأمر» أي «تعارفوا عليه واتفقوا». و«تصالحوا» بمعنى «اصطلحوا». و«المصطلح» هو «الاصطلاح»، و«الاصطلاح» اسم منقول من مصدر الفعل «اصطلح» معناه اتفاق طائفة ما على شيء مخصوص، ولذا سُمِّي علم الاصطلاح «علم التواطؤ». ولكل علم اصطلاحاته، و«الاصطلاح» في العلم هو اتفاق جماعة من الناس المتخصصين في مجال واحد على مدلول كلمة أو رقم أو إشارة أو مفهوم، وذلك يتم عادةً نتيجة تراكم معرفي وحضاري وممارسات فكرية تتم في إطار معين لمدة من الزمن، ويتبع ذلك محاولة تقنين هذه المعرفة.

التحيزات الكامنة في المصطلح

ولكن، إذا كان المصطلح أو الاصطلاح تصالحاً، فما العمل إن كان من يصك المصطلح لم يتصالح معنا؟ أو كان يصك المصطلح لتغييبنا نتيجة لخصومته معنا ولأن وجودنا يعني غيابه؟ أو يصك مصطلحاً تكمن وراءه مفاهيم وقيم تتنافى مع مفاهيمنا وقيمنا ويتبنى نموذجاً تحليلياً معرفياً متحيزاً ضدنا؟

وقد أشرنا من قبل إلى تركيبية الواقع الإنساني وفعالية العقل الإنساني وعلاقة اللغة بالإدراك، مما يؤدي إلى التحيز. فالعقل لا يتلقى الواقع بشكل سلبي، وإنما يُبقي ويستبعد ويؤكد ويُهمِّش. ونفس الوضع ينطبق على محاولة الإنسان أن يسمِّي ظاهرة ما، إذ إنه لابد له من الاختيار بين عدد لا بأس به من المفردات للإخبار عن ظاهرة مركبة، وحين

يختار المصطلح الذي يتصور أنه مناسب، فإنه سيجد أنه متشابك مع عدد لا بأس به من المصطلحات الأخرى. وعملية الاختيار تعني إبقاءً وتأكيداً واستبعاداً وتهميشاً، أي أنه لا يوجد تلاق آلي (أو تلاحم ضروري وعضوي) بين الاسم والمسمى وبين المصطلح والظاهرة، وإنما هناك حتمية الاختيار (أو الاجتهاد) الإنساني في محاولة مزاوجة المصطلح بالظاهرة والدال بالمدلول، وهي عملية تتضمن قدراً من التحيز لمصطلح على حساب الآخر، ولجانب من المصطلح على حساب جانب آخر. وكلمة «مُصطَلَح»، ذاتها تبين أن التحيز مكوِّن أساسي فيها.

وفي العلوم الإنسانية العربية تم استيراد معظم المصطلحات التي نستخدمها من الخارج، ولم نسكها أو ننحتها بأنفسنا. وقد أدمنَّا تماماً عملية نقل المصطلحات دون إعمال فكر أو اجتهاد، ودون فحص أو تمحيص، وأصبح عقل العلوم الإنسانية العربية في أذنيها – تنقل آخر ما تسمع بأمانة وموضوعية تبعثان على الضحك. ولهذا فَقَدَ الإنسان العربي الحديث القدرة على تسمية الأشياء، ومن لا يسمِّي الأشياء يفقد السيطرة على الواقع والمقدرة على التعامل معه بكفاءة. أما من يدرك الواقع حق الإدراك ثم يصنفه حسب مقولاته، ويسميه أسماء تتفق مع هذا الإدراك فيمكنه الحركة فيه بقدر معقول من الحرية؛ إذ إنه سيراكم المعلومات داخل مقولاته وأطره هو، الأمر الذي قد يزيد من مقدرته على التنبؤ بمسار هذا الواقع ويحسن من مقدرته على التعامل معه.

وقد يمكن نقل الكلمات الدالة على الآلات أو الأشياء لأن محيطها الدلالي محدد للغاية، فحينما نقول «سيارة» أو «تليفزيون» فلا توجد صعوبة كبيرة في معرفة المقصود؛ لأن علاقة الدال بالمدلول والمصطلح بالشيء الذي يشير إليه واضحة ومحددة إلى حدٍّ كبير. فالمصطلح بسيط، والمشار إليه نفسه محدود الدلالة، ولذا تظل الثغرة بينهما ضيقة. ويسري نفس الوضع على العلوم الطبيعية، فإن أشرنا إلى ظاهرة غليان الماء فمن المعروف أن درجة غليان الماء هي مائة درجة مئوية في ضغط جوي محدد، والماء نفسه يمكن تعريفه برموز جبرية. ولذا فالتجربة العلمية مضبوطة إلى حدٍّ كبير، حيِّد فيها بُعدا الزمان والمكان إلى حدٍّ ما، ولهذا فإن نقل مصطلحات العلوم الطبيعية مسألة أكثر سهولة من نقل مصطلحات العلوم الإنسانية، ومع هذا فهي عملية محفوفة بالمخاطر والمزالق.

وحينما ننتقل إلى العلوم الاجتماعية والإنسانية تصبح الصورة مركبة إلى أقصى حد للأسباب التالية:

١ ـ كل مصطلح متجذر في تشكيل حضاري فريد له لغته المعجمية والحضارية الفريدة، ولذا فالدال وحقله الدلالي مرتبطان بسياق حضاري محدد، ويشيران إلى ظواهر بعينها دون غيرها.

٢ ـ المصطلح بطبيعة الحال لا يشير إلى مدلول خارجي وحسب، وإنما يحتوي أيضاً على وجهة نظر من سكَّه وزاوية رؤيته واجتهاداته. وتزداد الأمور تعقيداً إذا كانت المصطلحات ذات طابع عقائدي من مصلحة فريق ما الترويج لها، إذ يصبح المنظور داخل المصطلح أكثر أهمية.

إن تحيز المصطلح هنا مزدوج: تحيز سياقه وتحيز من صاغه. وحيث إننا نترجم عادةً من الإنجليزية والفرنسية، وأحياناً من اللغات الأوروبية الأخرى، ولا نترجم من لغات شرقية (مثل السواحلية أو اليابانية) فإن المصطلحات المترجمة عادةً ما تحمل منظور صاحبها.

* ولنضرب مثلاً: من المصطلحات التي ترجمناها بأمانة شديدة وأدخلناها في معجمنا التحليلي اصطلاح «رجل أوروبا المريض»، والإشارة هنا إلى صورة رجل يحتضر يُعالج سكرات الموت وهو الدولة العثمانية. والصورة التي يجسدها المصطلح تجعلنا ننظر إلى هذا الرجل بكثير من الاشمئزاز على أسوأ تقدير، وبكثير من الشفقة (دون أي احترام) على أحسنه، وننسى تماماً أن الدولة العثمانية - رغم ضعفها واستبدادها - كانت تحمي شعوبها من الهجمة الاستعمارية الغربية التي عصفت بالعالم بأسره، وننسى أن رجل أوروبا لم يكن من أوروبا، وإنما كان يقف على رأس الشرق الإسلامي زعيماً وقائداً له. ومن الواضح أن صورة رجل أوروبا المريض تعكس منظوراً غربياً للقضية، ينظر للدولة العثمانية باعتبارها ميراثاً سيُقسَّم ويُوزع بين القوى الغربية، وهي رؤية لا علاقة لها من قريب أو بعيد برؤية شعوب هذه المنطقة. فالمصطلح - مثل المصطلحات التي ذكرناها من قبل - سُك في الغرب ويحمل منظوراً غربياً.

ولكن ما يهمنا - في السياق الحالي - أن نبيِّن أنه يشير إلى رجل يوجد على حدود أوروبا، ولكنه ليس منها وبالتالي يحدد لنا مجال الرؤية التاريخية المسموح لعيوننا بالتحرك فيه، ومن ثم ينسينا رجلاً آخر أكثر أهمية ومحورية وهو «رجل أوروبا النهم المفترس»، أي الإمبريالية الغربية التي كانت تبيد سكان أفريقيا آنذاك بعد أن كانت قد أبادت أعداداً هائلة من سكان الأمريكتين الأصليين، وبعد أن أبادت سكان أستراليا

ونيوزيلندا، والتي كانت تقوم في الوقت ذاته باستعباد سكان آسيا وتخوض حرباً ضارية لتسويق الأفيون في الصين لنشر التقدم الغربي والغيبوبة العالمية الدائمة بين ربوعها. هذا الرجل النهم كان رابضاً على حدود العالم الإسلامي بعد أن التف حوله عدة قرون خشية «رجل أوروبا العثماني القوي» الذي كان لا يزال بعافيته، وهو كان رابضاً يتلمظ ويمصمص شفتيه على أمل أن يحل الوهن بهذا «الرجل العثماني المسلم». وحينما بدأ المرض يدب فيه راح يقضم منه قضمة هنا وقضمة هناك، وكان يدس له السم أحياناً في طعامه، بل وفيما يقدمه له من أدوية وهمية (من مساعدات وخلافه). وقد جمع «رجل أوروبا النهم» كل قواه وقضى على «رجل الشرق الفتي» (مصر محمد علي) الذي كان بوسعه أن يحقن الرجل المريض ببعض المقويات، ولعله كان من الممكن أن يُشفى ويُعافى نتيجة ذلك. كل هذه الظلال والمعاني والدلالات اختفت تماماً بسبب عبارة «رجل أوروبا المريض» التي رسمت أمامنا صورة أخفت «الرجل النهم».

بعض سمات المصطلحات الغربية/الصهيونية

تواجهنا إشكالية تحيز المصطلحات عند النظر إلى المُصطلَحات المستخدمة في العلوم الإنسانية الغربية بشكل عام وتلك المستخدمة في وصف الظواهر اليهودية والصهيونية على وجه الخصوص. فقد تم صكها في العالم الغربي بعناية بالغة، وهي مصطلحات تنبع من تجارب تاريخية ونماذج تحليلية ورؤى معرفية ووجهات نظر غربية وصهيونية متمركزة حول الذات الغربية واليهودية وتحتوي على تحيزات إنجيلية وإمبريالية وعرْقية لا نشارك فيها بل ونرفضها، وهي تحيزات جعلت الدارسين الغربيين والصهاينة يضخِّمون كثيراً من جوانب بعض الظواهر ويهملون الجوانب الأخرى، وجعلتهم يفترضون وجود وحدة حيث لا وحدة ولا يدركون في الوقت ذاته العلاقة بين ظواهر نرى نحن أنها وثيقة الصلة. وهي مصطلحات تعبِّر عن خلل واضح من وجهة نظرنا في المستوى التعميمي والتخصيصي، فهم يتحدثون بصيغة العام عن ظواهر خاصة وفريدة، وبصيغة الخاص عن ظواهر عامة، ويهمشون ما هو مركزي وأساسي ويضفون المركزية علي ما هو هامشي من وجهة نظرنا. ويمكن أن ندرج بعض سمات المصطلحات الغربية/ الصهيونية فيما يلي:

١ ـ تنبع المصطلحات الغربية من المركزية الغربية، فالإنسان الغربي يتحدث علي سبيل المثال عن «عصر الاكتشافات»، وهي عبارة تعني أن العالم كله كان في حالة غياب ينتظر الإنسان الأبيض لاكتشافه. والصهاينة يشيرون أيضاً إلى أنفسهم على أنهم

«رواد»، والرائد هو الشخص الذي يرتاد مناطق مجهولة فيستكتشفها بنفسه ويفتحها لينشر الحضارة والاستنارة فيها بين شعوبها البدائية.

وحروب العالم الغربي تُسمَّى «الحروب العالمية» ونظامه الاستعماري يسمى «النظام العالمي الجديد». ويتبع الصهاينة نفس النمط، فقد كان هرتزل يحاول تأسيس دولة يضمنها «القانون الدولي العام» وكان يعني في واقع الأمر «القانون الغربي» أو بمعنى أصح «القوى الإمبريالية الغربية». والمنظمة الصهيونية توجد أساساً في العالم الغربي حيث تتركز الغالبية الساحقة ليهود العالم، إذ لا يوجد عدد يُذكر من اليهود في الصين أو الهند أو اليابان أو في معظم بلاد آسيا، باستثناء بضعة أفراد في الصين وبضع عشرات في اليابان وبضع مئات في الهند. ولا يوجد يهود في أفريقيا إلا في جنوب أفريقيا في الجيب الاستيطاني الغربي وبضعة آلاف في المغرب. ورغم هذه الحقيقة فإن المنظمة الصهيونية تشير إلي نفسها باعتبارها «المنظمة الصهيونية العالمية» لا «المنظمة الصهيونية الغربية». وحينما صدر وعد بلفور وردت فيه إشارة إلى «الجماعات غير اليهودية»، أي سكان فلسطين من العرب البالغ عددهم آنذاك ما يزيد عن ٩٥٪ من عدد السكان، وبذلك تم تهميش الغالبية الساحقة من سكان فلسطين لصالح المستوطنين الصهاينة. ولا يمكن فهم عملية التهميش هذه إلا في إطار أن الصهاينة هنا هم ممثلو الحضارة الغربية التي تظن أنها تحتل مركز الكون والتاريخ، ولذا فإن حقوقهم في فلسطين حقوق مركزية مطلقة أما حقوق غيرهم من البشر ممن أقاموا في هذه الأرض وزرعوها وحصدوا ثمارها وبنوا منازلهم فيها عبر آلاف السنين فهي هامشية، وهم مجرد «جماعات غير يهودية».

ومن أهم المصطلحات التي أحرزت شيوعاً في لغات العالم مصطلح «معاداة السامية» وهو مصطلح يعكس التحيزات العرْقية والمركزية الغربية التي ترجمت نفسها إلى نظام تصنيفي (آري/ سامي)، والساميَ بالنسبة للغرب هو اليهودي، وهو ما لا يمكن لأي دارس للتشكيل الحضاري السامي أن يقبله، ومع هذا شاع المصطلح وسبب الخلل. وقد أصبح المجال الدلالي لمصطلح «معاداة السامية» يشير إلى أي شيء ابتداءً من محاولة إبادة اليهود وانتهاءً بالوقوف ضد إسرائيل بسبب سياساتها القمعية ضد العرب مروراً بإنكار الإبادة.

٢ - يصدر الغرب عن رؤية إنجيلية لأعضاء الجماعات اليهودية، وحتى بعد أن تمت علمنة رؤية العالم الغربي لليهود ظلت بنية كثير من المصطلحات ذات طابع إنجيلي، فاليهود

هم «شعب مقدس» أو «شعب شاهد» أو «شعب مدنس» أو«شعب ملعون»، وبغض النظر عن الصفات التي تلتصق باليهود فإن صفة الاستقلال والوحدة هي الصفة الأساسية. فسواء كان اليهود شعباً مقدساً أم مدنساً فهم شعب واحد. وقد ترجم هذا المفهوم نفسه إلي فكرة «الشعب اليهودي» تماماً كما أصبح «التاريخ المقدس» الذي ورد في التوراة هو«التاريخ اليهودي». وتشكل مفاهيم الوحدة والاستقلال هذه الإطار النظري لكل من الصهيونية ومعاداة اليهود.

ومشكلة هذه المصطلحات أنها تفترض وجود وحدة تاريخية بل وعضوية بين يهود الصين في القرن الرابع عشر ويهود الولايات المتحدة في القرن العشرين، وهي تؤكد وجود استمرارية حيث هناك انقطاع، والعكس أيضا صحيح فهي تفترض وجود انقطاع كامل بين اليهود والأغيار حيث يوجد في واقع الأمر استمرار. ونجم عن ذلك فشل في رصد كثير من العناصر التي تفاعل معها أعضاء الجماعات اليهودية وتأثروا بها وأثروا فيها.

٣- انطلق الصهاينة من المركزية الغربية هذه وعمقوها بإضافة المركزية الصهيونية، وجوهر هذه المركزية هو أن اليهود كيان مستقل لا يمكن دراسته إلا من الداخل في إطار مرجعية يهودية خالصة أو شبه خالصة وهو ما أدى إلى ظهور ما أسميه «جيتوية المصطلح». فكثير من الدراسات التي كُتبت عن الموضوع اليهودي والصهيوني تستخدم مصطلحات من التراث الديني اليهودي (بعضها بالعبرية أو الآرامية) أو من تراث إحدى الجماعات اليهودية (عادةً يهود اليديشية) أو من الأدبيات الصهيونية لوصف الظواهر اليهودية والصهيونية، وكأن هذه الظواهر من الاستقلالية والتفرد بحيث لا يمكن أن تصفها مفردات في أية لغة أخرى.

وتتضح جيتوية المصطلح الصهيوني الكاملة في أوجه عدة أهمها ظهور مصطلحات مثل «التاريخ اليهودي» و«العبقرية اليهودية» و«الجوهر اليهودي» وهي مصطلحات تفترض وجود تاريخ يهودي مستقل له حركياته المستقلة عن تاريخ البشر، ومن ثم يجب ألا يفسر سلوك أعضاء الجماعات اليهودية في ضوء تاريخ المجتمع الذي يعيشون فيه وإنما في إطار حركيات تاريخ مقصور عليهم (ومما يجدر ذكره أن المعادين لليهود يتبنون جيتوية المصطلح هذه فيتحدثون عن «الجريمة اليهودية» وعن «المؤامرة اليهودية»).

وتتضح هذه الجيتوية بشكل متطرف في رفض المراجع الصهيونية ترجمة الكلمات

العبرية وفي الإصرار علي إبرازها بمنطوقها العبري. وعدم ترجمة المصطلح نابع من الإيمان بتفرد التراث اليهودي وتميز الذات اليهودية وقدسيتها . . . إلخ. ولذا تتحدث هذه المراجع عن «الليكود» و«المعراخ» و«أحدوت هاعفوداه» و«المتسفاه». أما حرب أكتوبر فهي حرب «يوم كيبور».

والمراجع العربية مع الأسف تتبع المصادر الصهيونية في معظم الأحيان فنترجم عبارة Conservative Party إلى العربية فنقول «حزب المحافظين» ولا نقول «الكونسيرفاتيف بارتي» مثلاً، بينما يظل «الليكود» أو «أحدوت هاعفوداه» على شكلهما العبري الغريب والشاذ، وأقول غريباً وشاذاً لا لأن اللغة العبرية غريبة وشاذة، فهي لغة مثل أية لغة في العالم لها قواعدها وقوانينها، ولكن الغرابة والشذوذ يكمنان في السياق العربي نفسه. فإذا كانت عبقرية اللغة العربية تتجه نحو الترجمة إذن فلنترجم ولا نستثني من القاعدة إلا ما يستثنى عادةً مثل بعض الكلمات التي يتصور المترجمون عجز اللغة عن ترجمتها مثل «الجمهورية الفيدرالية» أو الاختصارات مثل «اليونسكو» وصاروخ «سام»، فهذه الاختصارات أصبحت مثل أسماء الأعلام (وإن كان يجري أحياناً ترجمة الاختصارات فحلف «الناتو» أصبح حلف شمال الأطلنطي). ولكننا لا نطبق هذه القواعد على المصطلح الصهيوني ونتركه عبرياً دون تغيير أو تعديل، وكأنه «قدس الأقداس» الذي يجب ألا يطأه إلا كبير الكهنة وحده أو كأنه «الشيم هامفوراش» الذي ينطق به «كوهين جادول» مرة واحدة كل عام. وبقاء المصطلح علي شكله العبري يجعلنا مستوعبين نفسياً فيه وفي حالة انهزام كامل أمامه، فالتركيبة الصوتية التي تخلط بين الهاء والعين «هاعفوداه» وبين التاء والسين «تسي» (الكيبوتس) لا تتواتران في اللغة العربية، وبالتالي فهي تسبب جهداً لدى القارئ ولدى السامع العربيين على حدٍّ سواء، هذا على عكس التركيبات الصوتية المألوفة للأذن العربية. كما أن معنى «أحدوت» أو معنى «هاعفوداه» يظل شيئاً غريباً على العقل يضرب الإنسان أخماساً في أسداس ليصل إليه ولا يملك المرء أمام هذا إلا أن يكرر الأصوات التي يسمعها دون أن يحيط بها إحاطة كاملة.

كما تظهر جيتوية المصطلح أيضاً في ترجمة أسماء الأعلام (والأسماء لها دلالة خاصة في الدين اليهودي)، فالمصطلح الصهيوني نابع من الإيمان بأن اليهودية هي انتماء قومي، ولذا يجب عبرنة كل الأسماء فيصبح «موسى هس» هو «موشيه» بغض النظر عن انتمائه القومي الحقيقي ويصبح «سعيد» هو «سعديا» ويصبح «إسحق» هو «يتسحاق» كما لو كان

الأمر المنطقي هو أن تنطق هذه الأسماء بالعبرية، مع أن بعض حملة هذه الأسماء لا يعرفون العبرية ولم ينادوا بهذه الأسماء مرة واحدة طيلة حياتهم.

ويظهر الانغلاق الجيتوي التام في اصطلاحات مثل «الهولوكوست» و«العالياه» وهي اصطلاحات وجدت طريقها أيضا إلي اللغة العربية. و«العالياه» هي اصطلاح ديني يعني العلو والصعود إلي أرض الميعاد ولا علاقة له بأية ظاهرة اجتماعية، ومع هذا يستخدم الصهاينة الكلمة للإشارة للهجرة الاستيطانية، أي أن ظاهرة لها سبب ونتيجة أصبحت شيئاً فريداً وظاهرة ذاتية لا تخضع للتقنين والمناقشة. و«الهولوكوست» هو تقديم قربان للرب في الهيكل يُحرق كله ولا يبقى منه شيء للكهنة، ومع هذا يستخدم الصهاينة هذه الكلمة للإشارة إلى الإبادة النازية لليهود. والغرض من استخدام كل هذه المصطلحات الدينية العبرية هو إزالة الحدود والفوارق بين الظواهر المختلفة بحيث تصبح «عالياه» هي الهجرة الصهيونية الاستيطانية وتصبح الهجرة الصهيونية هي العلو والصعود إلى أرض الميعاد أما الهجرة منها فهي «يريداه» أي هبوط ونكوص وردة. ولعل مما له دلالته أن العبرية توجد فيها كلمة محايدة تصف الهجرة وحسب (هجيراه)، ولكن الصهاينة استبعدوها وهو ما يؤكد المضمون الأيديولوجي لهذا المصطلح.

وقد اختار الصهاينة عدة مصطلحات دينية مختلفة ليطلقوها على كيانهم الاستيطاني، فسموه «كنيست يسرائيل» ثم «يشوف» ثم سُمي أخيراً «إسرائيل»، وكلها مصطلحات تحمل دلالات دينية لا علاقة لها بأية ظواهر سياسية أو اجتماعية. ولكن الغرض من استخدام المصطلح الديني للإشارة إلى ظاهرة سياسية هو الخلط بين الحدود، ثم نقع نحن في المأزق ونجد أنفسنا نناقش ما إذا كانت حدود إرتس يسرائيل كما وردت في العهد القديم مطابقة لحدود إسرائيل كما فرضت نفسها علي الوطن الفلسطيني، وننسى أن ما حدد هذه الحدود هو العنف الذاتي الصهيوني والدعم الغربي من الخارج.

وتصل الجيتوية إلى قمتها في رفض المراجع الصهيونية وبعض المراجع الغربية استخدام كلمة «فلسطين» للإشارة إلى هذه الرقعة الغالية من الأرض العربية حتى قبل عام ١٩٤٨، ولذا نجد مرجعاً صهيونياً علمياً يتحدث عن المسرح العربي في فلسطين في الثلاثينيات فيشير إلى المسرح العربي في إرتس يسرائيل، ولا يملك الإنسان إزاء هذا إلا أن يضحك في مرارة من سخف وتفاهة الجيتوية وتحيزاتها.

٤ ـ وهناك بُعد آخر في المصطلح الصهيوني يقف علي طرف النقيض من «الجيتوية» وهو ما

نسميه «التطبيع»، وهو محاولة إسباغ صفة العمومية والطبيعية على الظواهر الصهيونية رغم ما تتسم به في بعض جوانبها من تفرد بسبب طبيعتها الاستيطانية الإحلالية. فالحركة الصهيونية في إحدى ديباجاتها تحاول تقديم الحركة الصهيونية ومن بعدها الكيان الصهيوني باعتبارهما ظواهر سياسية عادية، وكأن الكيان السياسي الإسرائيلي لا يختلف في أساسياته عن أي كيان سياسي آخر. فيتم الحديث عن نظام الحزبين في الديمقراطية الإسرائيلية وعن الصهيونية باعتبارها القومية اليهودية بل وحركة التحرر الوطني للشعب اليهودي، وكأن الأقليات اليهودية في العالم ليست سوى شعوب صغيرة مثل شعوب العالم الثالث، وكأن الصهيونية ليست شكلاً من أشكال الاستعمار الاستيطاني الإحلالي وإنما حركة تطرد المغتصبين وتستعيد لهم أرض الأجداد المستعمرة. وقد سميت بعض جوانب التجربة الاستيطانية الصهيونية بالحركة التعاونية والصهيونية الاشتراكية، وبهذا نجحت الصهيونية في تطبيع ذاتها على مستوى المصطلح واكتسبت مضموناً عاماً وعادياً وطبيعياً غير مضمونها الحقيقي.

ورغم رفضنا لتفرُّد الظواهر اليهودية والصهيونية ورفض جيتوية المصطلح وإيماننا بأن الظاهرة التي يشير إليها دال ما تخضع في كثير من جوانبها للقوانين العامة التي تحكم هذه الظاهرة، فإن كل ظاهرة تظل لها خصوصيتها ومنحناها الخاص، ولها ما يميزها عن غيرها من الظواهر. وعملية التطبيع تتجاهل هذا كله، فكلمة «ديمقراطية» حينما تطبق على إسرائيل فهي تطبق على كيان سياسي يستند إلى عملية سرقة تاريخية لا تزال آثارها واضحة. ولذا يجب على هذا الكيان الديمقراطي قمع أصحاب الأرض بشكل مستمر حتى يضمن بقاءه. كما أن هذا الكيان يستند إلى عملية تمويل ودعم مستمرة من الغرب تضمن أمنه وانتماءه للغرب وعمالته له، وهو ما يعني أن هذه الديمقراطية في واقع الأمر ليست لها إرادة أو سيادة مستقلة، ولا تنطبق على كل المواطنين، فهي ديمقراطية «استيطانية».

تطبيع المصطلح

«التطبيع» هو تغيير ظاهرة ما بحيث تتفق في بنيتها وشكلها واتجاهها مع ما يعده البعض «طبيعياً». وكلمة «طبيعي» يمكن أن تعني «المألوف» و«العادي»، ومن ثم فإن التطبيع هو إزالة ما يعده المطبِّع شاذاً، ولا يتفق مع «المألوف» و«العادي» و«الطبيعي».

وقد ظهر المصطلح لأول مرة في المعجم الصهيوني للإشارة إلى يهود المنفى (أي يهود

العالم كله ما عدا فلسطين). فالصهاينة يرون أن يهود المنفى هؤلاء شخصيات طفيلية شاذة منغمسة في الأعمال الفكرية وفي الغش التجاري ويعملون في أعمال هامشية مثل الربا وأعمال مشينة مثل البغاء. وقد طرحت الصهيونية نفسها على أنها الحركة السياسية والاجتماعية التي ستقوم بتطبيع اليهود، أي إعادة صياغتهم بحيث يصبحون شعباً مثل كل الشعوب. ومع إنشاء الدولة الصهيونية اختفى المصطلح تقريباً من المعجم الصهيوني بسبب حاجة الدولة الصهيونية الماسة لدعم يهود العالم لها، فتوقفت عن وصفهم بالطفيلية.

ولكن المصطلح عاود الظهور مرة أخرى في أواخر السبعينيات بعد توقيع معاهدة كامب ديفيد، ولكنه طُبق هذه المرة على العلاقات المصرية الإسرائيلية، إذ طالبت الدولة الصهيونية بتطبيع العلاقات بين البلدين أي جعلها علاقات طبيعية عادية مثل تلك التي تنشأ بين أي بلدين، وقد قاوم الشعب المصري هذا التطبيع.

والشاذ هو عكس الطبيعي، وإذا كانت بنية الظاهرة هي مجموعة العلاقات المتشابكة التي تكون هذه الظاهرة وتمنحها صفاتها الأساسية ومنحناها الخاص الذي يميزها عن غيرها من الظواهر، فإن الشذوذ البنيوي هو حالة لصيقة ببنية هذه الظاهرة أي بتركيبها الجوهري، وإصلاح هذا الشذوذ يعني تغيير بنية هذا الشيء تماماً.

ونحن نذهب إلى أن السمة الأساسية للدولة الصهيونية أنها تجمع استيطاني إحلالي يوظف الديباجات اليهودية، وأن نقطة انطلاقه هي الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة التي تذهب في نهاية الأمر وفي التحليل الأخير إلى أن اليهود شعب عضوي يعيش في الغرب ولا ينتمي إليه ولذا يجب أن يوطن في أرض أجداده أي فلسطين التي يجب أن تفرغ ممن قد يتصادف وجودهم فيها من البشر. ولذا فبنية الصهيونية بطبيعتها وحسب منطقها الداخلي بنية تتسم بالشذوذ فهي تؤدي إلى طرد العرب أو إبادتهم، بعد أن تقوم بنقل اليهود من أوطانهم.

ويمكن الحديث عن أشكال مختلفة من التطبيع:

١ - التطبيع السياسي والاقتصادي:

هو إعادة صياغة العلاقة بين إسرائيل والبلاد العربية بحيث تصبح علاقات طبيعية. وتصر إسرائيل على أن التطبيع السياسي والاقتصادي بينها وبين الدول العربية هو شرط

أساسي لتحقيق السلام في الشرق الأوسط. ولكن هناك خلل أساسي في المفهوم وفي المحاولة. فالتطبيع السياسي والاقتصادي يجب أن يتم بين بلدين طبيعيين، وهو الأمر الذي لا يتوافر في الجيب الاستيطاني الصهيوني بسبب شذوذه البنيوي. فالدولة الصهيونية تعتبر نفسها امتداداً للحضارة الغربية، وأنها موجودة في الشرق العربي وليست منه. وهي لا تزال تجمعاً استيطانياً وليست دولة للمواطنين الذين يعيشون داخل حدودها. وقانون العودة يعطي الحق ليهود العالم في العودة إلى فلسطين المحتلة باعتبارها وطن أجدادهم بعد أن تركوها منذ ألفي عام، وينكر هذا الحق نفسه على الفلسطيني الذي اضطر لمغادرة وطنه منذ بضعة أعوام بسبب الإرهاب والضغط المستمرين. كما يتبدى الشذوذ البنيوي في علاقة الدولة الصهيونية بالمنظمة الصهيونية وبالوكالة اليهودية فهي علاقة شاذة ليس لها نظير في أي دولة أخرى. وإسرائيل هي الدولة الوحيدة في العالم التي تتمتع بعضوية مشروطة بهيئة الأمم المتحدة وشرط قبولها في المنظمة الدولية هو إعادة توطين اللاجئين الفلسطينيين وهو الأمر الذي لا توجد أية مؤشرات على احتمال تنفيذه في المستقبل القريب.

ويتبدى شذوذ إسرائيل البنيوي بشكل واضح في علاقتها بالفلسطينيين. فهي تحاول بشكل دائب أن تحاصرهم مجازياً وفعلياً، وأن تفتت وجودهم القومي، وأن تضرب عليهم بيد من حديد، وأن تستغلهم باعتبارهم مادة بشرية وسوقاً للسلع. كما يتبدى هذا الشذوذ في علاقتها بالعالم العربي الذي تراه باعتباره «المنطقة» أي مجرد مكان لا تاريخ له ولا اتجاه، ولذا فهي تعتبره سوقا للسلع ومصدرا للمواد الخام والعمالة الرخيصة وحسب، ولذا فهي تطرح السوق الشرق أوسطية بديلاً للسوق العربية المشتركة. لكل هذا تصبح محاولة التطبيع مع الدول العربية محاولة يائسة ترتطم ببنية الكيان الصهيوني الشاذة غير الطبيعية التي تتبدى في سلوكه الشاذ غير الطبيعي.

٢ـ التطبيع المعرفي:

وهناك «التطبيع المعرفي» أي محاولة إضفاء صبغة طبيعية على ظاهرة لها خصوصيتها وتفردها وشذوذها بحيث تبدو هذه الظاهرة وكأنها تنتمي إلى نمط عام متكرر هي في واقع الأمر لا تنتمي له، ومن ثم يتم إدراكها وتخيلها ورصدها داخل هذا الإطار. ونحن نذهب إلى أن الخطاب السياسي العربي في تحليله للظاهرة الصهيونية قد سقط في محظورين:

(أ) المغالاة في التخصيص إلى درجة الأيقنة، وهي سمة يتسم بها الخطاب المعادي لليهود الذي يرى أن اليهود مصدر كل شرور العالم، وأن الدولة الصهيونية تعبير عن المؤامرة الصهيونية الأزلية، وهذا الخطاب يخرج بالظاهرة الصهيونية من عالم الظواهر الإنسانية ويدخل بها عالم الظواهر الشيطانية، ومن ثم فلا يمكن حسم الصراع معها، فهو صراع أزلي مستمر بين قوى الخير وقوى الشر.

(ب) المغالاة في التعميم وإسقاط كل سمات الخصوصية، وهي سمة يتسم بها الخطاب الذي يصف نفسه بأنه «علمي» و«موضوعي» والذي يذهب إلى أن الدولة الصهيونية هي دولة ديمقراطية مثل أي دولة أخرى، ومن ثم يصبح الحديث عن الدولة الصهيونية حديثاً عاماً عن قوة العدو العسكرية والاقتصادية دون أي اهتمام بالمنحنى الخاص للظاهرة الصهيونية.

وقد أدت المغالاة في التعميم باسم العلمية والموضوعية إلى تطبيع النظام السياسي الإسرائيلي، أي محاولة دراسته باعتباره كياناً سياسياً طبيعياً عادياً بحيث تُستخدم نفس المقولات التحليلية العامة التي تستخدم في دراسة النظم السياسية في العالم الغربي، وكأن الكيان السياسي الإسرائيلي لا يختلف في أساسياته عن أي كيان سياسي آخر. فيتم الحديث عن نظام الحزبين في الديمقراطية الإسرائيلية، وعن أن كلاً من إنجلترا وإسرائيل لا يوجد فيهما دستور، أو أن النظام السياسي الإسرائيلي يتبع النمط الأنجلو أمريكي الثنائي لا النمط الأوروبي الأكثر تعددية؛ وأن النقابات العمالية قوية في إسرائيل كما هو الحال في أوروبا، وليس كما هو الحال في الولايات المتحدة.

وعلماء السياسة العرب الذين يتبنون مثل هذه الرؤية يُخطئون مرتين من الناحية المعرفية ومن الناحية الأخلاقية. فمن الناحية المعرفية يمكن القول بأن وصفهم للظاهرة الصهيونية ليس ذا مقدرة تفسيرية عالية، فهو غير قادر علي تفسير ظاهرة مثل المنظمة الصهيونية أو دور الوكالة اليهودية التي تساعد سكان الدولة الصهيونية من اليهود وتستبعد العرب. فهذه المؤسسة ليس لها نظير في أية «ديمقراطية» أخرى. كما أنه غير قادر علي تفسير قانون العودة ولا ضخامة الدعم المادي والمعنوي الذي يقدمه العالم الغربي للجيب الصهيوني. كما أنهم يخطئون من الناحية النضالية والأخلاقية، إذ كيف يمكن الحديث عن ديمقراطية تستند إلى حادثة اغتصاب أرض وذبح بعض سكانها وطرد البعض الآخر واستبعاد لمن تبقى من العملية السياسية نفسها. والفشل الإدراكي المعرفي التفسيري هنا هو نفسه الفشل

النضالي الأخلاقي إذ إن التطبيع يخفي عن الأنظار وعن الضمير الظروف الخاصة بالكيان الصهيوني ككيان استيطاني إحلالي، كما يخفي حقيقة أن استيطانية الكيان الصهيوني وإحلاليته واعتماده الكامل على الدعم الغربي هو القانون الأساسي الذي يحكم حركياته ومساره في الماضي والحاضر. فهذه الاستيطانية الإحلالية هي التي تفسر عدم وجود دستور حتى الآن في إسرائيل وتفسر أهمية قانون العودة ومركزيته. وهذه الاستيطانية الإحلالية هي التي تجعلنا نكتشف أن الأحزاب الإسرائيلية ليست في أساسها أحزاباً وإنما مؤسسات استيطانية استيعابية تضطلع بوظائف لا تضطلع بها الأحزاب السياسية في الدول الأخرى ويتم تمويلها عن طريق المنظمة الصهيونية العالمية. وهذه الاستيطانية الإحلالية هي التي تفسر ضخامة الدعم الإمبريالي لإسرائيل ودور إسرائيل كدولة وظيفية.

وظاهرة مثل الكيبوتسات والمزارع الجماعية وظواهر أخرى مثل عسكرة المجتمع الإسرائيلي، والطبيعة الاستيطانية الإحلالية للدولة الصهيونية واعتماد وجودها واستمرارها على الولايات المتحدة بشكل تام، وإدراك الصهاينة لهذا الواقع بدرجات متفاوتة، هو الذي يحدد سلوكهم وحربهم وسلمهم وما ينكرونه علينا وما قد يقررون منحنا إياه. وإسقاط هذه الأبعاد الخاصة يجعل عملية التطبيع المعرفية المنهجية عملية تسويغ وتبرير غير واعية للوجود الصهيوني وإضفاء درجة من الشرعية عليه.

٣ـ تطبيع المصطلح:

حاول الخطاب السياسي العربي أن يتعامل مع الظاهرة الصهيونية في تفردها وعموميتها، فقد كانت بالفعل ظاهرة جديدة كل الجدة على الشعب العربي سواء في فلسطين أم خارجها: أن تأتي كتلة بشرية تحت رايات الاستعمار البريطاني وتبدأ تدريجياً في احتلال الأرض إما بالقوة العسكرية أو من خلال شراء الأراضي، إما مباشرة من بعض كبار الملاك أو بشكل غير مباشر من خلال وسطاء، ثم تتحول الكتلة البشرية الغازية بين يوم وليلة إلى دولة تستولي على جزء كبير من فلسطين ثم تقوم بطرد السكان الأصليين يساندها في ذلك العالم الغربي بأسره.

ورغم أن التجربة الصهيونية الاستيطانية تجربة فريدة في كثير من جوانبها، فإن هناك جوانب منها مشتركة مع ظواهر أخرى. فهي جزء من الغزوة الاستعمارية التي أخذت

شكل استعمار عسكري مباشر في بعض البلدان العربية، فهناك التجربة المصرية والسودانية والعراقية واليمنية مع الاستعمار البريطاني، والتجربة السورية واللبنانية والمغربية والتونسية مع الاستعمار الفرنسي، والتجربة الليبية والصومالية مع الاستعمار الإيطالي. كما أخذت الغزوة الاستعمارية شكل الاستعمار الاستيطاني الفرنسي في الجزائر. ويُلاحظ أيضاً أن الاستعمار الإنجليزي أخذ شكل الاستعمار الاستيطاني الإحلالي في جنوب السودان حيث قام بنقل (ترانسفير) السودانيين المسلمين حتى يجعل الجنوب خالياً من العرب (بالألمانية: أراب راين Arabrein).

وفي محاولة الخطاب العربي وصف الغزوة الصهيونية في خصوصيتها وعموميتها كان أول مصطلح استُخدم هو «إسرائيل المزعومة»، وهو مصطلح ليس له أية مقدرة تفسيرية وكان تعبيراً عن عدم التصديق العربي لما حدث. وظهرت مصطلحات مماثلة أخرى مثل «شذاذ الأفاق»، وهو مصطلح استخدم في فلسطين للإشارة إلى المستوطنين الصهاينة يحاول التهوين بشكل مبالغ فيه من ظاهرة الغزو الصهيوني، وإن كان قد نجح في رصد ظاهرة عدم التجذر التي تسم المجتمعات الاستيطانية. ولكن مع منتصف الخمسينيات بدأ الحديث عن إسرائيل باعتبارها «مخلب القط» للاستعمار الغربي (وهو مصطلح استمر فيما بعد في عبارة إسرائيل كحاملة طائرات»)، وباعتبارها «قاعدة الاستعمار الغربي». وهي مصطلحات تقترب إلى حدٍّ ما من الطبيعة الوظيفية للظاهرة الصهيونية.

ولا يزال الخطاب العربي يتأرجح في محاولته تسمية دولة إسرائيل فهي أحياناً «الدولة الصهيونية» وأحياناً أخرى «الدولة اليهودية» وهناك من يشير إليها أحياناً بأنها «الدولة العبرية». ونحن لا نستخدم اصطلاح «الدولة اليهودية» إلا إذا اضطرنا السياق لذلك لأن ليس له قيمة تصنيفية أو تفسيرية، إذ لا يمكن تفسير سلوك إسرائيل استناداً إلى التوراة والتلمود. كما لا نستخدم مصطلح «الدولة العبرية» لأنه لا دلالة له ولأنه يحاول تطبيع الدولة الصهيونية، إذ إنه يفترض وجود ثقافة عبرية وهوية عبرية ذات مصالح قومية محددة، وهو أمر خلافي إلى حدٍّ كبير. فالدولة الصهيونية لا تزال تدعي أنها دولة كل يهود العالم، وهي ولا شك مجتمع مهاجرين غير مستقر ولم تتحدد هويته بعد، وهي لا تزال تحتل الأرض الفلسطينية وترفض عودة الفلسطينيين. ومن ثم فنحن نشير لإسرائيل باعتبارها «الدولة الصهيونية»، و«الصهيونية» هنا تعني «الاستعمار

الاستيطاني الإحلالي الصهيوني» كما نشير لها بأنها «الدولة الوظيفية» أو «الدولة الصهيونية الوظيفية»!

وهناك بعض المصطلحات مثل «فلسطين المحتلة» و«التجمع الصهيوني» و«الكيان الصهيوني» ذات مقدرة تفسيرية عالية لأنها لا تعكس الإدراك العربي للظاهرة الصهيونية وحسب وإنما تقترب إلى حدٍّ كبير من بنية الكيان الصهيوني. وسنتناول هذه المصطلحات في الفصل الثالث.

الفصل الثالث
الخطاب الصهيوني المراوغ

كلمة «خطاب» العربية هي ترجمة لكلمة «ديسكورس discourse» الإنجليزية. وكلمة «خطاب» كلمة مركبة وخلافية ولها معان عديدة إذ تطور حقلها الدلالي بشكل ملحوظ منذ الخمسينيات مع ظهور البنيوية وما بعدها. وقد عُرِّف الخطاب بالمعنى المعجمي المباشر بأنه كل كلام تجاوز الجملة الواحدة سواء كان مكتوباً أو ملفوظاً. ولكن للكلام دلالات غير ملفوظة يدركها المتحدث والسامع دون علامة معلنة واضحة. ولذا عُرِّف الخطاب بأنه نظام من القول له قواعده وخواصه التي تحدد شكل الجمل وتتابعها، والصور المجازية، والخواص اللفظية، ونوع الأسئلة التي تسأل، والموضوعات الأساسية الكامنة، وما يُقال وما يُسكت عنه، أي أنها تحدد الاستدلالات والتوقعات الدلالية.

ولكل مجتمع خطابه إذ تتآلف الجمل لتشكل نصاً مفرداً، وتتآلف النصوص لتشكل نصاً شاملاً، أي نسقاً فكرياً متكاملاً ورؤية للكون. ولكل خطاب تحيزاته المعرفية، ولذا فالمعرفة التي ينقلها الخطاب ليست محايدة أو بريئة كما قد يبدو من ظاهرها.

وتحليل الخطاب هو استنباط القواعد التي تحكم التوقعات الدلالية، ولهذا يتشابك تحليل الخطاب بالسيموطيقا أو علم العلامات من حيث هو أيضاً بحث في القواعد أو الأعراف التي تحكم إنتاج الدلالة (الرويلي والبازعي).

سمات الخطاب الصهيوني المراوغ

الخطاب الصهيوني له سمات محددة أهمها المراوغة النابعة من تعدد الجهات التي يتوجه لها هذا الخطاب:

١ ـ الصهيونية حركة تابعة يدعمها ويمولها الاستعمار الغربي، ولذلك يتوجه الخطاب الصهيوني إلى الدول الاستعمارية الراعية.

٢ ـ لا تتوجه الصهيونية لهذه الدول وحسب أو لنخبها وحسب وإنما للرأي العام غير اليهودي فيها، والذي قد لا يدرك الأبعاد الإستراتيجية للتحالف بين إسرائيل والحضارة الغربية. وهو رأي عام غير متجانس، فهناك العلمانيون الليبراليون الذين يطالبون بفصل الدين عن الدولة ولكن هناك أيضاً المسيحيين الأصوليين الذين يرون الدولة الصهيونية باعتبارها إحدى علامات آخر الأيام.

٣ ـ لابد أن يتوجه الخطاب الصهيوني للمادة البشرية المستهدفة، أي تلك الجماعات اليهودية في العالم التي تنتمي إلى تشكيلات ثقافية وحضارية واجتماعية مختلفة.

٤ ـ تعود الصهيونية إلى أصول ثقافية ودينية واجتماعية وطبقية متباينة وهو ما يجعل لكل فريق صهيوني رؤية وأولويات مختلفة.

٥ ـ تركت التيارات الصهيونية بعض القضايا الأساسية دون اتفاق، فلم يتم الاتفاق على هوية اليهودي بل ولم يتم الاتفاق على هوية الصهيوني، كما لم يتحدد التوجه الاجتماعي أو الاقتصادي للعقيدة الصهيونية.

والمشكلة التي واجهها الخطاب الصهيوني هي كيف يمكن التوجه لكل هذه القطاعات في وقت واحد، إذ كان على الدولة الصهيونية أن تقدم نفسها باعتبارها دولة ديمقراطية تنبع من أيديولوجية ليبرالية وتنتمي إلى الحضارة الغربية العقلانية، ولكنها أيضاً دولة يهودية استبعادية حصرية، ولذا فهي تقوم بطرد الفلسطينيين وهدم قراهم وديارهم وخوض حروب توسعية تذكر الإنسان بدولة مثل إسبرطة أو بروسيا لا بأثينا. وكان على الدولة الصهيونية أن تقدم نفسها باعتبارها دولة علمانية متطرفة في علمانيتها، ولكنها في الوقت نفسه تدَّعي أنها دينية متطرفة في تدينها، ورأسمالية مغالية في رأسماليتها، واشتراكية مغالية في اشتراكيتها. والحركة الصهيونية تقبل اندماج اليهود في غرب أوروبا (حتى لا تثير حفيظة يهود أو حكومات هذه البلاد)، ولكنها في الوقت نفسه تطالب بتهجير يهود شرقها.

ولإنجاز هذا، ولتحقيق هدفها في اغتصاب فلسطين وطرد أهلها وتجنيد يهود العالم لدعم مشروعها ومده بالمادة البشرية المطلوبة، طورت الصهيونية خطاباً هلامياً مبهماً غير متجانس بشكل متعمد، يتسم بدرجة عالية من عدم الاتساق، ويحتوي على فجوات كثيرة بهدف تغييب الضحية وتشويه صورته.

وقد كتب هرتزل قائلاً إنه «حقق شيئاً يكاد يكون مستحيلاً: الاتحاد الوطيد بين العناصر

اليهودية الحديثة المتطرفة (أي اليهود المندمجين في غرب أوروبا واليهود غير اليهود)، والعناصر اليهودية المحافظة (أي يهود شرق أوروبا واليهود المتدينين) - وقد حدث ذلك بموافقة الطرفين دون أي تنازل من الجانبين ودون أية تضحية فكرية، كما تباهي هرتزل بمصالحة أخرى أجراها بين الحضارة الغربية ويهود العالم.

وقد كان هرتزل محقاً تماماً فيما يقول، فالخطاب الصهيوني المراوغ الذي وضع هو أساسه نجح في إخفاء كل التناقضات وفي التوجه إلى كل قطاع من القطاعات المعنية بصوت يرضيه. كما أنه تجاهل العرب تماماً (على الأقل في تصريحاته وكتاباته العلنية) فلم يذكرهم بخير أو شر. وقد احتفظ هذا الخطاب بتوجهه الأساسي من خلال التمسك بالصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة والمهودة وإخفائها إلى حدٍّ كبير في آن واحد، على أن تعبِّر عن نفسها من خلال تنويعات عليها تخبئها سحابة كثيفة منَ الإستراتيجيات والحيل البلاغية المتنوعة التي سندرسها حتى يمكننا أن نفك شفرة الخطاب الصهيوني.

١ - إخفاء مرجعية المصطلحات والمفاهيم الكامنة وراءها:

الحيلة الأساسية في الخطاب الصهيوني المراوغ هو محاولة إخفاء المرجعية النهائية للمصطلح والمفاهيم الكامنة وراءه. فحينما يتحدث الصهاينة عن «السلام» أو عن «الحكم الذاتي» فهم يخفون تماماً مرجعية هذه المصطلحات، فهل مرجعية هذا السلام هو قرارات هيئة الأمم المتحدة، أم المفهوم الإسرائيلي للسلام؟ وهل الحكم الذاتي للفلسطينيين يعني حق تقرير المصير أيضاً، أم أنه يعني قيام سلطة خاضعة لتوجيهات النظام الصهيوني؟

٢ - محاولة تجاهل الأصول التاريخية أو تزييفها:

من الحيل الأساسية في الخطاب الصهيوني محاولة عزل الظواهر والمصطلحات عن أصولها التاريخية والاجتماعية والثقافية بحيث يبدو الواقع كما لو كان مجرد عمليات وإجراءات وأحداث ليس لها تاريخ واضح ولا سياق تاريخي محدد، وبالتالي فليس لها سبب معروف أو اتجاه محدد. فالسبب لا علاقة له بالنتيجة، والنتيجة لا علاقة لها بسياقها التاريخي، والمعلومة لا تنضوي تحت نمط. ومن ثم يمكن أن يتحول الهامشي إلى جوهري والجوهري إلى هامشي، ويمكن فرض أي معنى على أية واقعة وأن توضع داخل نمط ما

(عادةً نمط يهودي متكرر). فالصراع العربي الإسرائيلي على سبيل المثال ليس ثمرة العقد الصهيوني الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية والذي قامت الدول الإمبريالية بمقتضاه بغرس كتلة بشرية غريبة في وسط العالم العربي والإسلامي، وتحولت هذه الكتلة إلى دولة وظيفية تحتفظ بعزلتها وتقوم بضرب السكان الأصليين وجيرانها لصالح الراعي الإمبريالي، أي أنه صراع له أسباب تاريخية واضحة وينضوي تحت نمط واضح أي نمط الاستعمار الاستيطاني الإحلالي. يتم تناسي كل هذا ويُقدم الصراع العربي الإسرائيلي باعتباره نتيجة رفض العرب قرار التقسيم (وهكذا يتحول الهامشي إلى جوهري) ونتيجة هجومهم «الغاشم» على اليهود المسالمين دون سبب واضح ومفهوم (وهكذا تتحول النتيجة إلى سبب). وتقدَّم الصهيونية لا باعتبارها حركة استعمارية استيطانية إحلالية وإنما باعتبارها تعبيراً عن الحلم اليهودي المشيحاني الخاص بالعودة إلى صهيون أو أرض الميعاد، أو باعتبارها حركة إنقاذ يهود العالم من هجوم الأغيار. داخل هذا الإطار، تصبح المقاومة شكلاً من أشكال الإرهاب غير العقلاني وغير المفهوم، بينما تصبح هجمات إسرائيل على العرب مجرد دفاع مفهوم ومشروع عن النفس. ومن ثم، فإن الجيش الإسرائيلي هو «جيش الدفاع الإسرائيلي».

وقد سُمِّيت هذه الحيلة «الأكاذيب الصادقة» (بالإنجليزية: ترو لايز true lies)، فهي صادقة بمعنى أن هجوم العرب هو حقيقة مادية لا مراء فيها فهي واقعة قد وقعت بالفعل، ولكنها أكاذيب بلا شك باعتبار أن هجوم العرب على إسرائيل ورفضهم قرار التقسيم ليس نتيجة عناد لاعقلاني وإنما هو دفاع مشروع عن الحقوق الثابتة التي أقرتها المواثيق الدولية والقيم الأخلاقية.

في هذا الإطار يمكن أن نفهم بعض الحيل الصهيونية البلاغية الأخرى. فالإصرار على «المفاوضات وجهاً لوجه» باعتبارها الحل الوحيد والناجع للصراع العربي الإسرائيلي هو إصرار على إجراءات دون تحديد أية مرجعية أخلاقية أو تاريخية، وكأن الصراع أمر غير مفهوم ليس له أصل، وكأنه ليس هناك حالة من التفاوت والظلم ناتجة عن الغزو.

٣ـ تغليب عنصر المكان:

ويرتبط بالاتجاه السابق نحو إنكار الجذور التاريخية للظواهر تغليب عنصر المكان على عنصر الزمان فتتحول «فلسطين» إلى «أرض» أو حتى «إرتس يسرائيل» و«الوطن العربي» إلى «منطقة». وتبحث إسرائيل عن «الحدود الآمنة» الجغرافية التي لا تأبه

بالتاريخ. وتعبر نظرية الأمن الإسرائيلية عن هذا التحيز الشديد للجغرافيا والتجاهل الكامل للتاريخ. ولذا فإن أية حركة من العرب تذكر الصهاينة بوجود عنصر الزمان (كماض وتراث ومخزون للذاكرة وكحاضر وصراع وكمستقبل وإمكانية ومجال للحرية والحركة) تولد الذعر الشديد في قلوب المستوطنين الصهاينة وتسمَّى مثل هذه الحركة «إرهاب».

٤ـ النظر للظواهر الصهيونية من الداخل فقط:

حينما يتعامل الصهاينة مع ظاهرة يهودية فإنهم يعزلونها عن الظواهر المماثلة في المجتمعات الإنسانية. فالإبادة النازية هي حدث وقع لليهود، ولليهود وحدهم، دون الإشارة إلى ما حدث للغجر والمثقفين البولنديين والعجزة. واضطهاد أعضاء الجماعات اليهودية في بولندا وروسيا القيصرية يعزل عن اضطهاد أعضاء الأقليات الأخرى. وكل هذا بقصد عزل الواقعة عن النمط، حتى يمكن فرض معنى صهيوني عليها، وهي أن الأغيار، كل الأغيار، يضطهدون اليهود، واليهود وحدهم، ولذا فلابد من أن يوجد لهم وطن قومي يأويهم.

٥ـ استخدام مصطلحات تبدو محايدة ولكنها في جوهرها تقوم بتغييب التاريخ والواقع العربيين:

من الحيل الصهيونية البلاغية استخدام مصطلحات تبدو كما لو كانت بريئة محايدة تحل محل المصطلحات ذات المضمون التاريخي والإنساني العربي. ولعل أهم هذه المحاولات بطبيعة الحال هو الإشارة إلى فلسطين باعتبارها «أرضاً بلا شعب»، فهذه عبارة محايدة للغاية، ففلسطين قد لا تكون أرض الميعاد التي وعد بها اليهود ولكنها ليست فلسطين أساساً وإنما هي مجرد أرض والسلام، مكان بلا زمان ولا تاريخ.

وتتبدى نفس الظاهرة في الخلاف بشأن قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢، فهو ينص في مقدمته على مبدأ عدم جواز الاستيلاء على الأرض بالقوة ويتعامل مع الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة عام ١٩٦٧ ويدعو إلى الانسحاب منها. وهنا طرح الإسرائيليون إشكالية الأراضي المعنية وهي «أراض» كما في النص بالإنجليزية، أو «الأراضي» كما في النص بالفرنسية، وكانوا يفضلون بطبيعة الحال النص الإنجليزي لأنه يحيِّد الأرض ويفقدها حدودها فتصبح كلها قابلة للتفاوض.

وتظهر عملية التحييد في حديث الصهاينة عن «التقدم» في المنطقة وتحويل الصحراء إلى مزارع خضراء . . . إلخ ، دون أن يحدد لحساب مَنْ وعلى حساب مَنْ سيتم هذا التقدم . وقد لجأ مارتن بوبر لحيلة مماثلة في خطاب أرسله لغاندي إذ كتب له محاولا تبرير الغزو الصهيوني قائلاً : إن الأرض لمن يزرعها ، وكأن المستوطنين الصهاينة مجرد فلاحين مسالمين وجدوا أرضاً فقاموا بحرثها وزرعها في صبر وأناة بينما يقوم العرب (اللئام) بالتنغيص عليهم! وفي هذا إلغاء كامل لأصول الصراع واستخدام لمصطلحات تبدو محايدة ولكنها في واقع الأمر تُلغي التاريخ .

٦ ـ استخدام مصطلحات دينية يهودية في سياقات تاريخية زمنية:

هذه الحيلة البلاغية هي أيضاً محاولة لنزع الظاهرة من سياقها التاريخي ، ولكنها من الأهمية والشيوع بمكان بحيث قد يكون من المفيد معالجتها بشكل مستقل . ويمكن القول إن الخطاب اليهودي الديني الحلولي لا يفرِّق بين الإله والشعب ، ولذا فهو لا يفرِّق بين التاريخ الزمني والتاريخ المقدس ولا بين المطلق والنسبي . وهذا ما يفعله الخطاب الصهيوني حين يشير إلى فلسطين باعتبارها الأرض المقدسة أو «أرض الميعاد» أو «إسرائيل» (وهو اسم إسحق بعد أن صارع الرب) . واستخدام المصطلحات الدينية في سياق زمني يخلق استمرارية تقع خارج إطار التاريخ . فالعبرانيون الذين خرجوا من أرض المنفى في مصر وصعدوا إلى أرض كنعان يصبحون نمطاً متكرراً يُطبق على تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية في كل زمان ومكان . ومن ثم فالاستيطان الصهيوني في فلسطين هو أيضاً خروج من أرض المنفى ، وهو أيضاً صعود إلى فلسطين . وهذا لا يختلف كثيراً عن خروج اليهود السوفييت أو يهود الفلاشاه من بلادهم (المنفى) وصعودهم إلى أرض كنعان (دولة إسرائيل) . ومن هنا تسمى الهجرة الاستيطانية إلى فلسطين «عالياه» ، من العلو والصعود ، بينما الهجرة منها هي «يريداه» بمعنى «الارتداد والكفر» .

٧ ـ إخفاء مصطلح معين تماماً أو محوه من المعجم السياسي والحضاري أو استخدام مصطلحات تؤدي إلى تغييب العرب:

يلجأ الصهاينة لمحو بعض المصطلحات أو المفردات تماماً من المعجم السياسي والحضاري حتى يمكن محو المفهوم أو الشيء الذي تشير إليه ، وإخفاؤه من الخريطة

الإدراكية. وهذه الإستراتيجية تضرب بجذورها في الخطاب الاستعماري الاستيطاني الغربي الذي يستخدم ديباجات توراتية. فالمستعمرون الاستيطانيون هم «عبرانيون» أو «الشعب المختار»، والبلاد التي يفتحونها (سواء في أمريكا الشمالية أو جنوب أفريقيا أو فلسطين) هي «صهيون» أو «إسرائيل»، ويشار إلى سكان هذه البلاد بـ «الكنعانيين»، ولذا فمصيرهم الإبادة. ثم تمت علمنة هذا الاتجاه وأصبح المستعمرون الاستيطانيون «حملة مشعل الحضارة الغربية والاستنارة» وسكان البلاد المغزوة هم «السكان الأصليون» أو «البدائيون» أو «الهمجيون» أو «المتخلفون» أو «الهنود الحمر». وفقدت بلادهم أسماءها فزيمبابوي أصبحت على سبيل المثال «روديسيا»، ولم تعد بلاد الأباشي والتشيروكي تسمَّى بأسمائها وإنما أصبحت «أمريكا» نسبة إلى «مكتشف» هذه البلاد (أميريجو فيسبوتشي). وقد حدث شيء مماثل في الخطاب الصهيوني فالمستوطنون الصهاينة هم «العبرانيون» (و«الحالوتسيم» في المعجم العلماني، أي الرواد الذين وصلوا إلى الأرض فاكتشفوها) أما سكان البلاد الأصليون فقد أصبحوا إما «كنعانيين» أو «إشماعيليين» (وفي الصياغة البلفورية العلمانية «الجماعات غير اليهودية»). وتمت إعادة تسمية فلسطين فأصبحت «إسرائيل»، وأصبحت عملية الاستيلاء على فلسطين هي مجرد «إعلان استقلال إسرائيل». واستمرت هذه العملية بعد عام ١٩٤٨، فأصبحت أم الرشراش «إيلات» والضفة الغربية «يهودا والسامرة». وقد اتسع نطاق هذه العملية في الوقت الحاضر بحيث بدأ الاتجاه نحو تغييب العالم العربي بأسره وليس الفلسطينيين وحدهم، ومن هنا الحديث عن «السوق الشرق أوسطية» بدلاً من الحديث عن «العالم العربي». فالسوق الشرق أوسطية تعني أن هناك بلدانا مختلفة في هذه «المنطقة» وأن عروبتها مسألة وهمية أو هامشية ليست ذات قيمة تفسيرية أو تصنيفية عالية.

ويبدو أن هناك اتجاهاً في هذه الأيام لمحو كلمة «مقاومة» من المعجم السياسي بحيث يهيمن دال واحد هو كلمة «إرهاب»، وتصبح أعمال المقاومة التي لها جذور تاريخية ومعنى محدد وكأنها مجرد «إرهاب» أو «هجمات انتحارية» ليس لها سبب واضح ولا اتجاه مفهوم.

٨ـ الخلط المتعمد بين بعض المصطلحات وفرض نوع من الترادف بينها:

يعمد الصهاينة إلى الخلط بين بعض المصطلحات التي لها حدود معروفة. فهم يحاولون الخلط بين مصطلحات «يهودي» و«صهيوني» و«إسرائيلي» وأحياناً «عبراني»

وذلك على الرغم من أن كل مصطلح له مجاله الدلالي الواضح. وقد جرى الخلط بينها لتأكيد مفهوم الوحدة اليهودية الذي يشكل جوهر الرؤية الصهيونية. وقد شاع الاستخدام الصهيوني في العقول حتى أصبح من الممكن الحديث عن «الدولة اليهودية» و«دولة اليهود» و«الدولة الصهيونية» باعتبارها عبارات مترادفة، وحتى أصبح من الشائع القول «إن كل يهودي صهيوني وكل صهيوني يهودي» وأن كل اليهود يؤيدون الدولة الصهيونية، على الرغم من وجود يهود غير صهاينة وصهاينة غير يهود.

٩ـ استخدام اسم يشير إلى مسميات مختلفة:

يُستخدم اسم مثل «الشعب اليهودي» دون تعريف هذا الشعب اليهودي، و«إرتس يسرائيل» دون التحدث عن حدودها. وحيث إن لكل صهيوني تعريفه الخاص فإن الاسم هنا يشير إلى مسميات مختلفة، وتختلف باختلاف من يستخدم المصطلح: توطينياً كان أم استيطانياً، علمانياً كان أم متديناً؟ وهذا الإبهام يعني أن الصهيوني يمكن أن يكون معتدلاً إن شاء فيصرح بأن الشعب اليهودي هو من هاجر بالفعل إلى إسرائيل، ويمكنه أن يكون متطرفاً فيقول إن الشعب اليهودي هو كل يهودي أينما كان. وحدود إرتس يسرائيل هي حدود ١٩٤٨ أو ١٩٦٧ أو من النيل إلى الفرات أو من النهر إلى البحر، والأمر متروك دائماً للاعتبارات البرجماتية. والشيء نفسه ينطبق على مصطلح «صهيوني» ذاته، فهو مصطلح مطلق يشير إلى كل من يرى نفسه كذلك بغض النظر عما يفعله بعد ذلك. فاليهودي الذي يجعل الولايات المتحدة وطنه ويقود سيارته مكيفة الهواء ويدفع بضعة دولارات للمنظمة الصهيونية يمكن أن يعتبر نفسه صهيونياً (إن كان ذلك يروق له)، ومن ينتقل إلى الضفة الغربية ويحمل السلاح ضد أهلها هو صهيوني كذلك، مع أن ثمة فرقاً واضحاً بين الأول والثاني.

١٠ـ استخدام أسماء مختلفة تشير إلى مسمىً واحد أو إلى مسميات مختلفة توجد رقعة عريضة مشتركة بينها:

يستخدم الصهاينة اصطلاحات كثيرة مثل «الصهيونية السياسية» و«الصهيونية التصحيحية» و«الصهيونية العمالية» و«الصهيونية الدينية»... إلخ. وهي تيارات صهيونية عديدة يمكن اختزالها في نوعين اثنين: صهيونية استيطانية وصهيونية توطينية. كما يُشار إلى فلسطين المحتلة باعتبارها «اليشوف» أو «إرتس يسرائيل» أو «إسرائيل».

والأسلوبان السابقان في التعامل مع المصطلحات يهدفان إلى خلق فراغات يملأها كل صهيوني بالديباجات الملائمة وبالمضمون المناسب على أن يظل الإطار النهائي هو الإجماع الصهيوني والثوابت الصهيونية.

١١ـ استخدام مصطلحات لكل منها معنيان؛ معنى معجمي مباشر ظاهر ومعنى آخر حضاري كامن:

يستخدم الصهاينة عبارات تبدو بريئة وساذجة إن عُرِّفت حسب مجالها الدلالي المعجمي المباشر وحسب، ولكن معناها الحقيقي يتضح إن عرف مجالها الدلالي من خلال المعجم الحضاري وسياقها التاريخي المحدد، فتعبيرات مثل «القانون الدولي العام» أو «القانون العام» أو «قانون الأمم» تعني في المعجم اللفظي دلالاتها الحرفية. ولكنها في المعجم الحضاري الغربي في القرن التاسع عشر تعني «قانون الدول الغربية الاستعمارية» أو «القانون الاستعماري الدولي» وينطبق الوضع نفسه على عبارة مثل «شركة ذات براءة» (أي شركة حصلت على عقد لإنجاز مهمة معينة). فمعناها الحرفي أنها «شركة» حصلت على براءة لا أكثر ولا أقل، ولكنها في المعجم الحضاري والسياسي الغربي تعني «شركة استيطانية تشبه الدولة تقوم بنقل كتلة بشرية غربية وتوطنها منطقة في آسيا أو أفريقيا لاستغلالها اقتصادياً». ولذا، فإن المعنى الحقيقي الاستعماري لكثير من الدوال الصهيونية يُخفى بعناية وراء الكلمات البريئة.

ويمكننا أن ندرج مصطلح «السلام» أو «عملية السلام» تحت هذا التصنيف، فقد تُركت كلمة «السلام» مبهمة عامة وهي يمكن أن تعني «السلام الدائم» – «السلام العادل» – «السلام المؤسس على العدل»، ولكنها يمكن أن تعني أيضاً «السلام حسب الشروط الصهيونية/ الأمريكية» أو «السلام المبني على الحرب والذي يترجم موازين القوى القائمة». وسلوك الإسرائيليين وحلفائهم الأمريكيين يدل على أن المعنى الأخير هو المعنى المقصود.

١٢ـ استخدام مصطلحات تعبر عن مدلولات هي دون الحد الأدنى الصهيوني المعلن ولكنها تشير إليه:

لعل أهم الأمثلة على هذا هو المصطلح الذي استُخدم في مؤتمر بازل للإشارة للدولة اليهودية، أي الإطار المفترض لعملية نقل اليهود وتوطينهم وتوظيفهم، وهذا ما عبَّر عنه

شعار المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧): «تأسيس الدولة هو الحل الوحيد للمسألة اليهودية». وكان هرتزل قد دوّن في مذكراته: «اليوم وضعت أساس دولة اليهود». ومع هذا، فعند مناقشة القرارات حاول المجتمعون أن يبتعدوا قدر الإمكان عن استخدام كلمة«دولة» في الإعلان النهائي كيلا يثيروا مخاوف السلطات العثمانية. كما أدرك واضعو البرنامج أن أكثرية اليهود كانت إما مندمجة في مجتمعاتها أو مؤمنة بإمكانية الاندماج، ومن ثمّ لم تكن موافقة في ذلك الوقت على فكرة القومية اليهودية وكانت ترفض فكرة الدولة اليهودية. ولهذا، اقترح الزعيم الصهيوني ماكس نوردو كلمة «هايمشتات Heimstatte»، وهي كلمة ألمانية مبهمة قد توحي بمعنى «الاستقلال» ولكنها لا تعني بالضرورة «دولة». ويقول نوردو نفسه إنه استخدم طريقة المواربة أو الدوران حول المعنى واقترح الكلمة المذكورة (ومعناها: بيت - دار - ملاذ - مأوى - موطن - منزل) كبديل لكلمة «دولة»، ثم أضاف نوردو قائلاً: «ولكننا جميعا فهمنا المقصود بها، وقد دلت آنذاك بالنسبة لنا على دولة يهودية كما هي الآن».

وكتب هرتزل في صحيفة «دي فيلت» يقول الاحتمال الوحيد أمامي هو إنشاء «بيت ملجأ» بحماية «قانون الأمم» أو «قانون الشعوب» (فولكرشتليخ Volkerrechtlich) لهؤلاء اليهود الذين لا يمكنهم الحياة في مكان آخر. وحين وردت عبارة «قانون الأمم» أثناء المؤتمر أثارت كثيراً من النقاش، فالبعض أخذ على هذه العبارة ما تتضمنه من الاعتراف بفكرة تدخل الدول الغربية العظمى. ولذا اقترح نوردو كلمة «رختليخ Rechtlich» أي «قانون وحسب» فرفض الاقتراح وأخيراً تم التوصل للصيغة المراوغة «أوفينتليخ ريختليخ Offentlich Rechtlich» أي «القانون العام» فهي أوسع من كلمة «قانون» التي قد يفهم منها قوانين بلدية أو مدينة ولكنها لا تحمل معنى السيادة القومية أو أي شكل منها.

ويرتبط هذا الجانب من الخطاب الصهيوني بمقدرة الصهاينة على قبول المصطلحات (أو الحلول) المعروضة عليهم حتى لو كانت دون الحد الأدنى الصهيوني، مع تأكيد أن القبول أمر مرحلي مؤقت وأن المضمون الحقيقي للمصطلح أو الحل يشير إلى الحد الأدنى الصهيوني الذي قد يكون من الخطر الإعلان عنه أو الإصرار عليه في مرحلة معينة. فعلى سبيل المثال، أصدرت سلطات الانتداب عملة كانت تحمل كلمة «فلسطين» بالعربية وكلمة «بالستين Palestine» بالإنجليزية، ولكنها لم تحمل سوى حرفي .E.I. بالعبرية (وهما أول حرفين في عبارة «إرتس يسرائيل»)، فقد سُجل الحرفان تأكيداً لحقوق المستوطنين الصهاينة

واكتفى بهما دون العبارة كاملة حتى لا يتم استفزاز العرب. وقد قبلت القيادة الصهيونية هذا الحل (رغم اعتراض بعض «المتشددين»). وحينما عرض على وايزمان قرار التقسيم الذي أصدرته اللجنة الملكية عام ١٩٣٧، لم يكن يشتمل على صحراء النقب. ولكنه قبل القرار ثم أضاف أن النقب باقية في مكانها «ولن تجري» (وهو ما يعني إمكانية ضمها فيما بعد). وقد تكرر الموقف نفسه حين أصر بعض الصهاينة على رفض الكتاب الأبيض الأول وعلى عدم القبول إلا بميثاق يهودي، فقال وايزمان انطلاقاً من مبدأ العمل بما هو واقع بدلاً من الإلحاح على الحد الأدنى الصهيوني: «الكتاب الأبيض أمر واقع ولكن الميثاق ليس كذلك».

وهذه حيل لفظية للمراوغة عمل بها الاستعماريون الإنجليز من قبل، فحين صدر وعد بلفور الذي ينص على أن فلسطين وطن قومي للشعب اليهودي قبله الصهاينة كتسوية مرحلية مع الإبقاء على الحد الأدنى مسكوتاً عنه. وهي حيلة قبلها لويد جورج رئيس الوزارة البريطانية إذ قال «حين يأتي الوقت لمنح فلسطين مؤسسات نيابية ويصبح اليهود الأكثرية المطلقة في السكان فإن فلسطين ستصبح كومنولث يهودياً».

١٣ـ ترك فراغات كثيرة ومساحات خالية بين العناصر المختلفة وعدم ربط المقدمات بالنتائج:

يعمد الخطاب الصهيوني إلى ترك فجوات واسعة بين العناصر المختلفة وبين المقدمات والنتائج، فيذكر النتائج دون المقدمات والمقدمات دون النتائج. وتُترك هذه المساحات خالية ويُلزم الصمت حيال بعض النقاط عن عمد لأن ملأها والإفصاح عنها قد يكشف أهداف الصهاينة في مرحلة مبكرة قد لا يحسن الكشف عنها مرحلياً. وهذا تكتيك معروف في عالم السياسة، فبعد أن ضمت بروسيا الألزاس واللورين كان شعار أهل هاتين المنطقتين من الفرنسيين هو «لا تتحدث عنهما قط ولا تكف عن التفكير فيهما قط!». ويقول بن هالبرن، مؤرخ فكرة الدولة اليهودية، إن يهود اليديشية ويهود غرب أوروبا اتفقوا على ضرورة الصمت بشأن فكرة السيادة اليهودية والطرق السياسية لتحقيقها، وكتب هرتزل في يومياته قائلاً «يجب ألا يكشف كل شيء للجمهور يجب كشف النتائج وحسب أو ما قد يحتاج المرء لكشفه في مناقشة ما». وحذّر آحاد هعام من الإفصاح العلني عن «آرائنا بشأن مستقبل فلسطين» لأن مثل هذا الإفصاح حينذاك يشكل خطراً حيث إن مستقبل تركيا لم يكن قد تقرر بعد. وحينما نُوقشت قضية مصطلح «الدولة» في المؤتمر الصهيوني الأول واستخدم مصطلح «وطن قومي» طمأن هرتزل الجميع

قـائلاً: «لا داعي للقلق فسـوف يقـرؤه الناس «دولـة يهـودية» على أية حـال»، و«لا داعي لتوخي الدقة لأن الكل يعرف المطلوب في الممارسـة، ولا يوجد أي مبرر لجعل مهـمة اللجنة التنفيذية أكثر صعوبة مما هي عليه بالإصرار على الدقة». ومعنى قوله هو أن الجميع يعرفون القصد الصهيوني الصامت ويعرفون الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة اليهودية وقد قرروا الالتزام بهما، ولكن لا داعي للإفصاح عنهما.

ولا يلتزم بعض «المتطرفين» أحياناً بعملية الصمت وعدم الإفصاح، كما حدث مع جابوتنسكي إبان فترة الانتداب، حين أصر على أن يُكتب اسم «إرتس يسرائيل» كاملاً على العملة، وكان لا يكف عن المطالبة بأن يعلن صراحةً أن هدف الصهيونية هو إنشاء دولة يهودية على ضفتي الأردن. ولكن القيادة العمالية الحصيفة - كما أسلفنا - اكتفت بالحرفين الأولين E.I. بالعبرية فهما يشيران إلى الحد الأدنى الصهيوني.

وهناك حادثة طريفة تبين التصادم نفسه بين من يلتزمون الصمت ومن يحاولون كشفه. ففي إحدى الحملات الانتخابية في إسرائيل أشار إسحق نافون إلى العرب باعتبارهم إخوته وهو يعني في واقع الأمر أنهم أعداؤه، وكل ما في الأمر أنه يحاول خداعهم حتى يحصل على أصواتهم الانتخابية. وحين اعترض بعض السامعين من الإسرائيليين على إشارته الأخوية للعرب صاح نافون قائلاً «أنتم عباقرة، أنتم دبلوماسيون، ألا تفهمون؟ إنها مسألة رياضية بسيطة. إن هدف البرنامج العمالي الصهيوني هو الحصول على أكبر قدر ممكن من الأرض وأقل عدد ممكن من العرب». فلابد من التخلص من العربي، وهذا ما يقوله البرنامج العمالي وما يقوله نافون دون إفصاح، أما حكاية الأخوة هذه فهي دعاية انتخابية، ولكن بعض المتشددين البلهاء أفسدوا مخططه واضطروه للإفصاح عن هدفه النهائي الحقيقي.

١٤- التأرجح المستمر والمتعمد بين أعلى مستويات التعميم والتجريد وأدنى مستويات التخصيص:

يحاول الصهاينة أن يتحركوا من أعلى مستويات التعميم والتجريد إلى أدنى مستويات التخصيص حسبما تمليه عليهم الظروف. فحين يكون الحديث موجهاً إلى اليهود وإلى الرأي العام في الغرب، يصبح حديثاً عاماً مجرداً عن أرض الميعاد المقدسة وحق اليهود الأزلي فيها والوعد الإلهي الذي ورد في العهد القديم. وهناك الحديث عن النفي إلى بابل والعودة منها كنمط أزلي متكرر وعما لحق باليهود من اضطهاد . . . إلخ. كما يمكن الحديث عن المستوطنين باعتبارهم ممثلين للحضارة الغربية والتقدم، وأنهم هزموا فلسطين

والفلسطينيين، ولذا من حقهم أن يستعيدوا الأرض التي غزوها، فهذا جزء من الخطاب الاستعماري الإنجيلي الداروينى الذي يفهمه أهل الغرب. ولكن إذا كان الخطاب الصهيوني موجهاً إلى العرب، فيتم الحديث عن ضرورة تناسي الماضي والتركيز على الحاضر وعلى التفاوض وجهاً لوجه ودراسة التفاصيل المباشرة والإجراءات والعائد الاقتصادي. وبدلاً من الحديث عن صهيون (المجردة) يكون الحديث عن سنغافورة (المحددة) كمثل أعلى يحتذى، وبدلاً من الحديث عن رؤى الأنبياء يكون عن مشاريع الاستثمار، وبدلاً من الحديث (المجرد) عن البلاد والأوطان يكون الحديث (المحدد) عن الفنادق والكازينوهات، وبدلاً من ارتداء ثياب المعارك يكون التركيز على آخر الموضات والمايوهات.

وبطبيعة الحال يمكن استخدام الخطاب النفعي الإجرائي حين يتوجه الصهاينة إلى الحكومات الغربية طلبا للمعونات إذ يسقط الحديث عن صهيون والأراضي المقدسة بطبيعة الحال، ويكون الحديث بدلاً من ذلك عن العائد الإستراتيجي العسكري والاقتصادي للدولة الصهيونية الوظيفية المملوكية. ويظهر هذا التأرجح بين أعلى درجات التعميم وأقصى درجات التخصيص في الطريقة التي ينفذ بها شعار «الأرض مقابل السلام». فرغم أن الأرض أمر محدد، فقد تحولت تدريجياً إلى مفهوم شديد العمومية على عكس السلام الذي تحول من كونه مفهوماً عاماً إلى مجموعة محددة من الإجراءات الاقتصادية والأمنية المادية الصارمة.

١٥ـ أيقنة بعض المصطلحات والعبارات:

من الحيل الصهيونية الأساسية ما نسميه «أيقنة» المصطلح أو العبارة، أي تحويل المصطلح إلى ما يشبه الأيقونة بحيث يصبح المصطلح مرجعية ذاته وتختزل الحقيقة المركبة إلى مثل هذه الأيقونة التي لا تقبل المناقشة أو المراجعة أو الدراسة أو التساؤل. وهذا ما حدث بعض الوقت لعبارة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» ولعبارة «المفاوضات وجهاً لوجه». وفي الوقت الحاضر ظهرت مصطلحات مثل «عملية السلام» و«السلام مقابل الأرض».

ولعل من أهم العبارات المتأيقنة عبارة «ستة ملايين يهودي» والتي يفترض أنها تشير إلى عدد ضحايا الإبادة النازية من اليهود، وأصبح مجرد التساؤل عن مدى دقة هذا العدد شكلاً من أشكال الكفر يسمَّى «إنكار الإبادة».

١٦ ـ إشاعة بعض الصور التي تختزل الواقع:

وترتبط بالأيقنة محاولة إشاعة بعض الصور المجازية التي تختزل الواقع وتترجمه إلى أطروحة صهيونية فإسرائيل من أكثر الدول تسلحاً وشراسة وقوة عسكرية، إلا أن الصورة التي تُشاع يجب أن تكون صورة إسرائيل صاحبة الحق المسالمة التي تدافع عن نفسها، وقد تمت ترجمة هذا كله إلى صورة داود وطالوت المجازية، بحيث أصبحت إسرائيل داود الصغير الذي لا يوجد معه سوى مقلاع ضد طالوت المدجج بالسلاح والذي يهاجم داود الصغير بشراسة (ومن الطريف أن انتفاضة ١٩٨٧ قلبت الأمور رأساً على عقب إذ إن الفلسطينيين كانوا هم المسلحين بالمقاليع أما الإسرائيليون فكانوا هم طالوت المدجج بالسلاح).

ومن الصور الأخرى التي تمت إشاعتها صورة إسرائيل باعتبارها واحة الديمقراطية الغربية، الأمر الذي يتطلب إخفاء كل ما تقوم به من عمليات قمع وإرهاب، وكذلك صورة إسرائيل باعتبارها نموذجاً للإنتاجية والكفاءة، وهو الأمر الذي يتطلب إخفاء المساعدات الغربية التي تصب في هذا المجتمع.

١٧ ـ تغيير الاعتذاريات وتنويعها حسب تنوُّع الجمهور المستهدف:

يتبدى الخطاب الصهيوني المراوغ ومقدرته على التلون الحربائي في الدعاية الصهيونية في تلونها السريع. ففي مرحلة ما قبل بلفور، على سبيل المثال، كانت الدعاية الصهيونية تركز على حاجة اليهود لوطن قومي في أي مكان في العالم. ومع تحدد الإستراتيجية الإمبريالية البريطانية ومع قرار تقسيم الدولة العثمانية أصبحت فلسطين، وفلسطين وحدها، البلد الذي يمكن أن يعيش فيه اليهود. «أيقنة».

وقبل عام ١٩٤٨، كان الحديث عن ضرورة اقتسام فلسطين مع العرب، ولكن هذا الحديث يختفي تماما بعد ذلك التاريخ. بل إن الدعوة إلى التقسيم أصبحت تطرفاً وإرهاباً وتهديداً للبقاء اليهودي. ومع هذا، يلاحظ أن الدعاية الصهيونية/ الإسرائيلية اتخذت حتى عام ١٩٥٦ موقف الدفاع عن الذات اليهودية وعن الدولة اليهودية مع عدم تشويه الطابع القومي العربي، بل كانت هذه الدعاية لا تتردد في تذكير العرب بالأصل المشترك مع اليهود. أما بعد حرب ١٩٥٦، فقد انتقلت الدعاية إلى موقع الهجوم بتشويه الطابع القومي للعرب وتضخيم فضل العنصر اليهودي على العالم. وقد انتقلت هذه الدعاية في

الآونة الأخيرة إلى أسلوب الاستفزاز، بتأليه الطابع اليهودي والحديث عن السلام العبري وضرورة فرضه على المنطقة، والإلحاح على إسرائيل كدولة وظيفية قادرة قوية وكذراع للمصالح الغربية بالمنطقة ضد القومية العربية.

وفي المرحلة الممتدة من كامب ديفيد إلى أوسلو، والتي واكبت سقوط الاتحاد السوفيتي وتقهقر القومية العربية وظهور منظمتي حماس والجهاد الإسلامي، بدأت إسرائيل تتبنى منطقاً إعلامياً جديداً وهو الدفاع عن النظام العالمي الجديد وتأكيد الروابط الاقتصادية بين إسرائيل ودول الشرق الأوسط (الدول العربية سابقاً) والهجوم على الحركات الإسلامية، وإعادة إنتاج صورة الإسرائيلي باعتباره خبيراً اقتصادياً مرناً متفاهماً، وباعتباره فنياً لا يكترث كثيراً بالأبعاد الأيديولوجية، بعد أن كان مقاتلاً في جيش ذي ذراع طويلة تمتد لتصل إلى الجميع.

الموضوعات الأساسية في الدعاية الصهيونية

تعتمد الدعاية الصهيونية/ الإسرائيلية على مبدأ التضليل بصفة عامة، ولا يتم هذا من خلال الكذب المباشر وإنما من خلال الاختصار والاختزال والاعتماد على الإبهام والغموض. كما يلجأ الصهاينة أحيانا للغش المصقول. وقد بين أبا إيبان أن الدبلوماسية الإسرائيلية عادة ما تختار حلاً للصراع العربي الإسرائيلي تعلم مسبقاً أن العرب لا يمكن أن يقبلوه، ثم تبدأ آلة الإعلام الصهيونية في التهليل له، وحينما يرفض العرب مثل هذا الاقتراح يتوجه الصهاينة للعالم متظاهرين بأن الألم يعتصرهم لرفض العرب اقتراحهم السلمي. ولما كانت الأهداف المتعددة تقتضي أساليب متعددة وأصواتاً متعددة، فإن الدعاية الإسرائيلية توظف الأدوات بحيث يمكنها إصدار عدة أصوات مختلفة. فهناك صوت يساري معتدل، وآخر يميني متطرف، وثالث صوت وسط يقف بين الاثنين، ثم يسمح لكل الأصوات بأن تظهر فيما يشبه الجوقة على أن يصل لكل متلق الصوت الذي يحبه (ولذا يطلق على هذه الآلية «دبلوماسية الجوقة»).

وقد قدِّر للصيغة المراوغة الاستمرار للأسباب التالية:

(أ) كان من الممكن ترك الفراغات والتسلح بالصمت أو التشاجر بصوت عال بشأن الديباجات دون أن يلجأ فريق إلى تصفية الآخر، وذلك لوجود اتفاق تام على الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة والعقد الصهيوني الصامت، الذي تمت ترجمته إلى واقع تاريخي يتمثل في احتلال فلسطين وطرد أهلها والاستيطان فيها.

(ب) كان جميع الصهاينة يدركون تماماً أن حركتهم ودوافعهم ليس لها استقلال حقيقي أو حركية مستقلة ذاتية. فالصهيونية، كما يعرف الجميع، تدين بوجودها واستمرارها لتبعيتها للغرب الذي يقوم بتمويل المشروع الصهيوني، وبالتالي فإن الاختلاف على الديباجات هو اختلاف على أمور فرعية لا تؤثر في الحركة الفعلية.

(جـ) بعد أن كانت الصهيونية الاستيطانية تطالب بتصفية الجماعات اليهودية في العالم (يهود الدياسبورا)، أصبح من صالحها بقاء هذه الدياسبورا لتقدم الدعم السياسي والعون المالي للدولة الصهيونية. ولذا فقد أصبحت الصيغة المراوغة الإطار الوحيد الممكن الذي يمكن من خلاله الاستمرار في العمل والتعايش مع التناقض.

(د) وأخيراً كُتب للصياغة المراوغة الاستمرار بسبب فشل العرب في التمييز بين التيارات المختلفة داخل الحركة الصهيونية بل وفشلهم في التمييز بين اليهود الصهاينة واليهود الذين لا يكترثون بالحركة الصهيونية، وبين اليهود الذين يدعون الصهيونية على مستوى القول ويتملصون منها على مستوى الفعل واليهود الذين يناصبونها العداء صراحة وعلانية قولاً وفعلاً. كما أن فشل العرب في إلحاق هزيمة ضخمة بالكيان الصهيوني (باستثناء الانتفاضتين) قد خلق تربة خصبة يمكن أن تنمو فيها الأساطير وتترعرع، بما في ذلك ادعاء الصهاينة عدم وجود العرب.

وتستطيع الصياغات المراوغة أن تستمر دون تحدٍّ، فالإنسان يسائل نفسه بشأن أساطيره وأكاذيبه وخداعه لذاته وللآخرين إن كان هناك ثمن يُدفع، أما إن ظلت الصياغة المراوغة صالحة للتعامل مع الواقع فهي تمنح المرء ما يحتاج إليه من اتزان داخلي وطمأنينة نفسية دون أن يزعجه هذا الواقع، ولذا فبوسعه أن يستمر في استخدامها والترويج لها.

ولكن رغم كل التنويعات الصوتية والحيل البلاغية والأكاذيب المصقولة يمكن القول إن ثمة موضوعات أساسية في الدعاية الصهيونية نوجزها فيما يلي:

١ ـ تؤكد الدعاية الصهيونية أن الجماعات اليهودية هي في واقع الأمر «أمة يهودية واحدة» لابد من جمع شمل أعضائها لتأسيس دولة يهودية في فلسطين، مع التزام الصمت الكامل حيال العرب لتغييبهم أو محاولة تشويه صورتهم إن كان ثمة ضرورة لذكرهم.

٢ ـ من الموضوعات الأساسية التي تطرحها الدعاية الصهيونية قضية البقاء، فالدولة الصهيونية ليست دولة معتدية وإنما هي تحاول الحفاظ على بقائها وأمنها وحسب، وتختلف طبيعة هذا البقاء من حقبة لأخرى وحسب موازين القوى.

٣ـ ركزت الدعاية الصهيونية على حقوق المستوطنين الصهاينة التاريخية المطلقة.

٤ـ طورت الدعاية الصهيونية رؤية مزدوجة للمستوطن الصهيوني. فبقاؤه مهدد دائماً من قبَل العرب، ولكنه في الوقت ذاته قوي للغاية لدرجة أنه لا يمكن أن يهدده أحد، فهو قَادر على البقاء وعلى سحق أعدائه وضربهم في عقر دارهم.

٥ـ تؤكد الدعاية الصهيونية على أن إسرائيل واحة للديمقراطية الغربية في وسط عالم عربي متقلب.

٦ـ تدخل الدعاية الصهيونية/ الإسرائيلية الموجهة للعرب في إطار الحرب النفسية، والتي تهدف إلى تحطيم معنويات العرب بل تحطيم الشخصية القومية العربية وغرس مفاهيم مثل جيش الدفاع الإسرائيلي الذي لا يقهر والسلام العبري.

٧ـ تحاول الدعاية الصهيونية/ الإسرائيلية تحويل مشاعر معاداة السامية من الفرع اليهودي إلى الفرع العربي. ولهذا، استبدلت بصورة اليهودي التقليدية في الوجدان الغربي (خائن – بخيل – تاجر – مرابي – عدواني – طفيلي) صورة جديدة تماماً، فأصبح اليهودي: مسالماً – متحضراً – أميناً – ذكياً – صديقاً – منتجاً – مقاتلاً. وفي المقابل، نجحت الدعاية الصهيونية في ترسيخ صفات سلبية عن العربي فقد أصبح: متخلفاً – بربرياً – جشعاً – عدوانياً بطبعه، وفي نهاية الأمر غائباً لا وجود له.

٨ـ ركزت الدعاية الصهيونية على قضية العداء الأزلي لليهود وعلى الإبادة النازية لليهود والستة ملايين يهودي، وهي تهدف من هذا إلى ابتزاز العالم الغربي وتبرير عملية اقتلاع الفلسطينيين من بلادهم كما أن هذه القضية تقوي التضامن اليهودي في الوقت نفسه.

٩ـ ركزت الدعاية الصهيونية في الغرب (وبخاصة في مرحلة ما قبل بلفور) على محاولة إعادة إنتاج صورة اليهودي حتى يمكن توظيفه في خدمة المشروع الصهيوني، فيهودي المنفى إنسان لا جذور له، طفيلي، يشعر بالاغتراب ما دام خارج أرض الميعاد، وهو مضطهد بشكل دائم عبر التاريخ ابتداءً من طرد اليهود بعد هدم الهيكل على يد تيتوس إلى إبادتهم بأعداد ضخمة على يد هتلر. وهكذا، أصبح هذا اليهودي الإنسان المثالي العبري القوي المحارب الذي يمكنه أن يدافع عن نفسه وعن مصالح الحضارة الغربية داخل إطار الدولة الصهيوني. وقد خفت حدة الهجوم على شخصية اليهود في المنفى بعد عام ١٩٦٧، بعد أن أدرك الصهاينة أن يهود العالم الغربي (الذين يشكلون غالبية

يهود العالم) سيبقون في بلادهم ولن يهاجروا إلى فلسطين، وأن وجودهم في العالم الغربي (في الولايات المتحدة بالدرجة الأولى) يشكل أداة ضغط مهمة على صانع القرار الأمريكي.

١٠ - توجهت الدعاية الصهيونية إلى الجماعات اليهودية مبينةً لها أن وجودها في عالم الأغيار يهددها ويهدد هويتها بالخطر، وركزت الدعاية الصهيونية على دعوة اليهود للخروج من الجيتو والهجرة إلى إسرائيل للحفاظ على خصوصيتهم وهويتهم اليهودية. وقد تراجع هذا الموضوع في الآونة الأخيرة وكاد أن يختفي لنفس الأسباب التي سبق ذكرها.

ومن الآليات الأساسية التي لجأت لها الدعاية الصهيونية اعتماد أجهزة الدعاية الإسرائيلية على محترفين في الحرب الإعلامية يعلمون أسرار المهنة قلباً وقالباً. ومن أهم وسائل الإعلام الإسرائيلي:

١ - مراسلو وكالات الأنباء الغربية والصحف وشبكات التليفزيون في إسرائيل.

٢ - إقامة علاقات اتصال مع شخصيات وجمعيات أمنية مؤثرة سواء عن طريق الزيارات المتبادلة أو المراسلة وتوظيف ذلك دعائياً بما يخدم أهداف إسرائيل.

٣ - تقوم المنظمات الصهيونية في كل أنحاء العالم بنشاطات إعلامية من خلال تجنيد شخصيات ومؤسسات ومراكز إعلامية ومراكز أبحاث تزود بمطبوعات ونشرات تتحدث عن إسرائيل بالتعاون مع الملحقيات الصحفية.

٤ - تنشط المنظمات الصهيونية لإقامة جمعيات صداقة بين إسرائيل والدول التي توجد فيها جاليات يهودية كجمعيات التضامن والصداقة (طبية - اقتصادية - حقوقية... إلخ)، وتضم هذه اللجان شخصيات يهودية وأخرى غير يهودية مهمتها الدعاية لإسرائيل.

٥ - شبكة واسعة من الدوريات الصهيونية في أنحاء العالم كافة.

ويرجع نجاح الدعاية الصهيونية إلى عدة عناصر:

١ - تعدُّد المنظمات الدعائية وتنوعها وضخامة عددها واعتمادها التخطيط العلمي.

٢ - تقوم الدعاية الصهيونية بتوظيف أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب فهم يشكلون

جزءاً عضوياً داخل الجسد الغربي رغم استقلاله النسبي. ومن ثم، تبدو الدعاية الصهيونية كما لو أنها ليست وجهة نظر دولة أجنبية وإنما تعبير عن مصالح أقلية قومية.

٣ـ غياب الدعاية العربية وفجاجتها في كثير من الأحيان.

ولكن السبب الحقيقي والأول هو أن إسرائيل دولة وظيفية أسسها التشكيل الحضاري والإمبريالي الغربي لتقوم على خدمته، ولذا فهي تحظى بكثير من التعاطف لأن بقاءها كقاعدة للاستعمار الغربي جزء من الإستراتيجية العسكرية والسياسية والحضارية للعالم الغربي.

الفصل الرابع
فك شفرة الخطاب الصهيوني المراوغ

الخطاب الصهيوني - كما أسلفنا - يتسم بعدم التجانس والإبهام والمراوغة نظراً لاستخدامه آليات أسلوبية عديدة مثل استخدام أسماء ذات مسميات مختلفة، أو عدة أسماء لها في واقع الأمر مسمًّى واحد، أو كلمات لها معنى مبهم تخبئ التحيزات والمفاهيم الصهيونية العنصرية أو ترك فراغات عديدة داخل الخطاب الصهيوني، أو استخدام اعتذاريات وديباجات متنوعة ومختلفة. ولكن إذا كان جوهر المراوغة هو فصل الظاهرة عن سياقها التاريخي والمعلومة عن النمط الذي تنتمي إليه والسبب عن النتيجة، فإن فك شفرة أي نص صهيوني تتطلب أن نفعل العكس، فنتجاوز الاعتذاريات والديباجات والأوهام والأكاذيب، ونقرأ ما بين السطور، ونملأ الفراغات، ونحاول التوصل للمعنى الحقيقي للمصطلحات والمفاهيم المتحيزة الكامنة خلفها، ونحدد العلاقة بين الأسماء والمسميات وبين السبب والنتيجة، والظاهرة وسياقها التاريخي، والمعلومة والنمط. ويمكن أن يتم هذا من خلال عملية تفكيك وإعادة تركيب للمصطلحات والنصوص. ويمكن القول إن التفكيك هو استدعاء حقائق الماضي والحاضر التاريخية والإحصائية ومضاهاة لادعاء الصهيوني بالواقع، أما التركيب فهو ربط الأسباب بالنتائج والظاهرة بالسياق والمعلومة بالنمط.

بعض الخطوات المحددة لفك شفرة الخطاب الصهيوني

ثمة خطوات عديدة لإنجاز هذا من أهمها ما يلي:

١- استعادة الثقة بالذات:

لعل أولى الخطوات لفك شفرة الخطاب الصهيوني هو استعادة الثقة في الذات

ونفض غبار الهزيمة. ولنتذكر انتصاراتنا على العدو الصهيوني، فقد هزمناهم في حرب الاستنزاف ثم في حرب أكتوبر ١٩٧٣ وأجبرناهم على الانسحاب من لبنان ثم من جنوب لبنان. ولقد اندلعت انتفاضة ١٩٨٧ وبعدها انتفاضة الأقصى، اللتان تركتا أعمق الأثر على التجمع الصهيوني. هذا الإحساس بالثقة يجعلنا لا نقبل تعريفات ومصطلحات وادعاءات العدو عن نفسه أو عن أنفسنا، ولن نقبل تصريحاته باعتبارها حقائق ولا حتى برامج، فهي قد تكون محاولة واعية للتضليل، وقد تكون محاولة غير واعية لخداع النفس. وبدلاً من كل ذلك سنحاول أن نصف الواقع كما نراه نحن لا كما يراه هو، ثم نحاول بعد ذلك تفسيره. وحتى لو كانت أقواله برنامجاً أو مخططاً فيجب ألا نفترض أن برامج العدو أو مخططاته قابلة للتنفيذ بشكل حتمي، فبوسعنا التصدي لها وإفشالها.

٢- الحذر من قبول الصيغ اللفظية الشائعة الجاهزة:

يجب الحذر من مصطلحات وعبارات مثل «عملية السلام» و«الحوار» و«ستة ملايين»، فهي مصطلحات وعبارات نجح الصهاينة في إشاعتها كما لو كانت بديهيات، فيجب رفضها أو إعادة تعريفها أو التحفظ عليها كأن نقول «الحوار في إطار قبول الشرعية الدولية» وهكذا.

٣- رفض الثنائيات المتعارضة:

يجب أن يبتعد الباحث عن السقوط في الثنائيات المتعارضة الاختزالية التي تقسم كل الظواهر إلى سالب وموجب، قابل ورافض، ناجح وساقط، صقور وحمائم. . . إلخ. ولعل الثنائيات المتعارضة في المصطلحات قد تسللت لنا من نماذج العلوم الطبيعية والرياضية. فنحن نميل للتحدث عن الطبيعة باعتبارها إما سالب أو موجب وهو أمر مريح للغاية حتى وإن كان غير دقيق، ولكن حينما يُنقل هذا إلى عالم الإنسان فإن النتيجة تكون سلبية إلى أقصى حد. ولعل هذا أحد العيوب الأساسية للخطاب السياسي العربي ولطريقته في التصنيف، أعني سقوطه في الثنائيات المتعارضة التي استوردها من العلوم الطبيعية من خلال المراجع الأجنبية. فالواقع الإنساني (بما يتضمن من ثغرات وتركيب واستمرار وانقطاع) أكثر تركيبية ورحابة وأقرب إلى قوس قزح تتداخل فيه الألوان برغم استقلالها، لا توجد له بداية حادة ولا نهاية حادة ولا حتى وسط مطلق (رغم إمكان

افتراض وجود هذه الأشياء من الناحية التحليلية). ومع هذا، توجد نقطة تركز للظاهرة يمكن أن يجتهد الإنسان في اكتشافها، ولذا فإن النموذج التركيبي يشجع على رصد الواقع من خلال متصل مستمر من المقولات المتداخلة ليست بالضرورة سالبة أو موجبة وإنما بين/ بين. والمقولات الوسطية عادةً ما تكون أكثر تركيباً ودلالة من المقولات المتطرفة، كما أن هذه المقولات الوسطية تعبر عن نفسها من خلال مصطلحات جديدة استبعدها الصهاينة (والمعادون لليهود) تماماً، فهم يدورون في إطار ثنائيات صلبة متعارضة ساذجة. وتتضح المقولة الوسط المستبعدة في مجموعة من المصطلحات الجديدة. فبين ثنائية «الرفض اليهودي للصهيونية» و«الإذعان اليهودي لها» يوجد «التملص اليهودي» منها، وبين «العداء لليهود» و«التحيز لهم» يوجد «التحامل عليهم» و«عدم الاكتراث بهم»، وبين ثنائية «نجاح التحديث» و«فشله» يوجد «تعثر التحديث».

٤ ـ المصطلح ليس هو المفهوم الكامن وراءه:

يجب أن يدرك الباحث أن المصطلح والمفهوم الكامن وراءه ليسا نفس الشيء، ولذا يجب ألا يقنع الباحث بالمصطلح المعطى بل يجب أن يلجأ إلى سبل كثيرة للوصول للمفهوم الكامن. وهذه العملية تختلف من مصطلح لآخر. فهناك، كما بيَّنا، مصطلحات مبهمة وأخرى جزئية، أي أنها تجتزئ من الواقع ما يخدم الرؤية الصهيونية. وهناك مصطلحات عبارة عن أكاذيب، وأخرى عبارة عن أمنيات وثالثة هي تعبير عن مخطط يود الصهاينة تنفيذه ويمكن التصدي له وإفشاله، ورابعة تستند إلى قراءة صهيونية للتاريخ. وعلى الباحث أن يتنبه لكل هذا ويطور طريقه للوصول إلى المفهوم الحقيقي الكامن. ولعل من أهم الطرق تعريض المصطلح للواقع التاريخي والمباشر، ووضعه في سياقه الحقيقي وداخل نمط متكرر. فحين يدَّعي الصهاينة أن اليهود يشكلون شعباً واحداً علينا أن نذهب إلى حقائق التاريخ فنرصد عدم التجانس بين أعضاء الجماعات اليهودية الذي تزايد على مر الأيام حتى نصل إلى العصر الحديث، الذي تتسم فيه الجماعات اليهودية بعدم التجانس الشديد على نحوٍ متبلور واضح.

٥ ـ لابد من تعريف مرجعية المصطلح:

يحاول العدو دائماً أن يستخدم مصطلحات عامة مثل «السلام» و«التطبيع» ويتجاهل مرجعياتها، أو يفرض عليها مرجعيات صهيونية. ولذا يجب أن يحاول الباحث تحديد مرجعية المصطلح كما يستخدمه العدو، وتحديد مرجعيته كما نستخدمه نحن.

٦- إدراك البعد الاستيطاني:

الجيب الصهيوني هو جيب استعماري استيطاني إحلالي، وهذه هي حقيقته التاريخية القائمة ومرجعيته النهائية. وهي حقيقة ومرجعية يحرص على إخفائهما. ولذا على الباحث أن يستخدم دائماً كلمة «استيطاني» أو «استعماري» أو «محتل» فهذه المصطلحات تستدعي المرجعية النهائية وتذكرنا بحقيقته.

٧- البحث عن نصوص صهيونية تفصح عن وجه الصهيونية الحقيقي:

من أسهل السبل لفك شفرة الخطاب الصهيوني هو العثور على نصوص صهيونية تفصح عن وجه الصهيونية الحقيقي، ومثل هذه النصوص موجودة وبكثرة في الكتابات الصهيونية التي نشرت قبل تأسيس الدولة، خاصة كتابات الصهاينة الذين يقال لهم متطرفون مثل جابوتنسكي وشارون.

٨- الاستشهاد بالواقع الصهيوني:

المصطلحات الصهيونية هي محاولة للتغطية على المجازر الصهيونية وعلى فعل الاغتصاب الصهيوني، ولذا لابد وأن نستشهد بالواقع، فنشير إلى السلوك الصهيوني وإلى الواقع الذي تشكل من خلال غزوهم للأرض.

٩- اصطلاحية المفردات الصهيونية:

يجب أن يتنبه الباحث إلى أن المفردات التي ترد في نص صهيوني عادةً لها مضمون مختلف تماماً عن مضمونها حينما ترد في نص سياسي عادي. فحينما ترد كلمة «ديمقراطية» فهي عادةً تعني «ديمقراطية المستوطنين» وحينما ترد كلمة «حقوق» فهي عادةً «حقوق المستوطنين»، وهكذا.

١٠- البعد عن المقولات التحليلية ذات الأصل التوراتي والإنجيلي:

يجب ألا نخلط بين ما جاء في التوراة وما حدث في التاريخ، فالخطاب التوراتي والإنجيلي يرى اليهود باعتبارهم شعباً ليس له سياق تاريخي محدد، وهو شعب يوجد خارج الزمان ويتسم بالتماسك والوحدة، وهذه مقولات دينية لها شرعية داخل

سياقها الديني، ولكن حين تُنقل إلى السياق التاريخي الزمني، فإنها تصبح المقولات الصهيونية، التي تستند إليها نظرية الحقوق الصهيونية، التي تعطي اليهود حقوقاً مطلقة في فلسطين.

١١ـ تأكيد البعد التاريخي والنسبي للظواهر اليهودية والصهيونية:

يجب ألا يسقط الباحث في مقولات عامة مطلقة مثل «إن اليهود كانوا دائماً عبر التاريخ عباقرة أو مجرمين»، فمثل هذه المقولات ليست لها قيمة تفسيرية أو تحليلية، وعليه أن ينظر دائماً لليهود باعتبارهم جماعات موجودة في الزمان والمكان تتفاعل معه وتتأثر به، وليس كجماعة بشرية متماسكة لها طبيعة ثابتة.

١٢ـ استنطاق النص:

أهم الخطوات في عملية تفكيك وإعادة تركيب المفاهيم والمصطلحات الصهيونية هو تذكُّر الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة والمهودة (أي تعريف الصهيونية بطريقة مركبة أكثر تفسيرية)، فهي تشكل الأساس الراسخ والمقولات الثابتة وراء كل الديباجات والحيل البلاغية الأخرى. وعلى الباحث بعد ذلك أن يضع المصطلح أو المفهوم الصهيوني في سياقه التاريخي، والحقائق التاريخية ستقوم بعملية التفكيك، ثم يضعها داخل نمط متكرر. ويستطيع الدارس بعد ذلك أن يقوم بما نسميه «عملية استنطاق النص» أي أن يجعله ينطق بما هو متخف وكامن فيه ولا يفصح عنه (المسكوت عنه)، فيتم تفكيك العبارات والمصطلحات الصهيونية المختلفة وصولاً إلى المقولات الثابتة وراءها، ثم يعاد تركيب العبارات والنصوص والتصريحات في ضوء هذه المقولات (وعلى كل لم تعد هذه المقولات الثابتة أمراً يحتاج للتخمين أو قدح زناد الفكر فبعد مائة عام من الاستيطان الصهيوني وبعد حوالي نصف قرن من تأسيس الدولة، أصبحت هذه المقولات مسألة واضحة تماماً).

١٣ـ توليد مصطلحات جديدة:

من أهم آليات فك شفرة الخطاب الصهيوني المراوغ توليد مصطلحات جديدة أكثر تركيبية وتفسيرية وشمولاً ودقة. وهذه المصطلحات تنبع من نموذج تحليلي جديد مركب لا يتبنى المرجعية الغربية أو الصهيونية بل يستند إلى إدراك عربي للظواهر وإلى مرجعية

عربية. ويجب أن نتجاوز التلقي حتى ننطلق إلى الإبداع من خلال تجربتنا الحضارية المتعينة ومعجمنا الحضاري الخاص، كما فعل الفلاحون الفلسطينيون في نهاية القرن الماضي حينما قابلوا المستوطنين الصهاينة فلم يطلقوا عليهم اسم «الرواد» أو «الحالوتسيم» كما نفعل نحن (الموضوعيين المتجردين من الذات) وإنما سموهم «المسكوب»، أي «أولئك الذين جاءوا من موسكو» أي «الغرباء الغربيين» الذين جاءوا لاغتصاب الأرض، شأنهم في هذا شأن كل النفايات البشرية التي كانت تسبق جيوش الاحتلال الغربي أو تمشي في ذيلها. فالفلاحون هنا نظروا بعيونهم العربية وشعروا بما شعروا به ثم سموا الأشياء بأسمائها خارج نطاق الديباجات والاعتذاريات والادعاءات عن الذات وعن الآخر.

كما أننا نتصور أن المصطلحات التي تستند إلى تجربتنا التاريخية الحية ستتضمن جوانب من الواقع آثر الغربيون والصهاينة تجاهلها عن وعي أو غير وعي، ولذا ستكون مصطلحاتنا أكثر تفسيرية. إلا أن تعبير هذه المصطلحات عن ذاتيتنا العربية الإسلامية لا يعني بالضرورة أنها محصورة في هذه الذاتية لا تتجاوزها.

ويمكن أن يقوم الباحث بإدخال مصطلحات جديدة تعبر عن مفاهيم تحليلية جديدة مثل «حوسلة» (كلمة منحوتة من صياغتنا بمعنى «يحول إلى وسيلة») - «العربي الغائب» و«اليهودي الخالص» (مفاهيم تحليلية كامنة في الخطاب الصهيوني ولم يفصح عنها لأنها تفضحه وتسبب له الحرج) - «الجماعة الوظيفية» (مفهوم تحليلي جديد) - «الإقطاع الاستيطاني» (مفهوم تحليلي جديد يستند إلى مفاهيم قديمة).

١٤ـ بعض سمات المصطلحات الجديدة:

يجب أن تتسم المصطلحات بالانفتاح بدلاً من الانغلاق والتماسك العضوي الصلب، وهو ما يجعلها قادرة على رصد الأجزاء في علاقتها بالكل دون أن يذوب الجزء في الكل، وترصد العام والخاص دون أن تتجاهل أياً منهما. وهي مصطلحات منفتحة قابلة للتعديل ولا تطمح للوصول إلى مستوى من الدقة واليقينية يقترب من المستوى الذي يتوهم البعض أن بإمكانه الوصول إليه في العلوم الطبيعية. والبناء المصطلحي ككل لا يتسم بالدقة والالتزام بالمعايير المجردة الثابتة وإنما بالتركيب. والتركيب لا يعني عدم الدقة، وإنما يعني محاولة زيادة المقدرة التفسيرية عن طريق محاولة الإحاطة بأكبر عدد ممكن من المكونات المادية الواضحة للظاهرة مع إدراك وجود جوانب مجهولة لا يعرف عنها الإنسان الكثير،

وبعضها لا يمكن رده لقوانين المادة ومع هذا يمكن الإشارة إليها والتعبير عنها بطرق مختلفة.

١٥ ـ مشكلة ترجمة المصطلح:

في محاولة تفكيك المصطلح الصهيوني، على الباحث أن يورد المصطلح كما هو فهذا ما تتطلبه الرؤية الموضوعية المركبة. وفي هذه الحالة عليه أن يترجم المصطلح ترجمة مباشرة ودقيقة من العبرية أو الإنجليزية أو الألمانية فـ «الفولك Volk» هو «الشعب العضوي»، و«الجويش بيبول Jewish People» هو «الشعب اليهودي». والـ «exile» أو «الجالوت» هو «المنفى»، و«الدياسبورا» هي «الدياسبورا» أو «الشتات»، والـ «anti-Semitism» هي «معاداة السامية». ويمكن ترجمتها حرفياً بهذه الطريقة في محاولة نقل وجهة نظر الآخر، ولكن علينا أن ننسبها للعدو ولمرجعيته، ونخلق مسافة بيننا وبين مصطلحاته من خلال عبارات مثل «حسب الزعم الصهيوني» أو «من وجهة النظر الصهيونية» أو «حسبما جاء في التوراة».

وبعد أن يقوم الباحث بتفكيك المصطلح الصهيوني وإثبات اختزاليته وضعف مقدرته التفسيرية، عليه أن يولِّد مصطلحاً بديلاً أقل تحيزاً وأكثر تفسيرية مثل «الجماعات اليهودية» بدلاً من «اليهود»، و«انتشار الجماعات اليهودية في العالم» بدلاً من «المنفى» و«الشتات»، و«معاداة اليهود» بدلاً من «معاداة السامية». والعبارات التي اخترناها أكثر دقة وتفسيرية من المصطلحات والعبارات الصهيونية.

أما كلمة «هولوكوست» (والتي تعني حرفياً «القربان الذي يقدَّم للرب ويُحرق بأكمله»، والتي تترجم بكلمة «شواه» أي «المحرقة» أو «الهولوكوست») فهي كلمة عامة وخاصة في ذات الوقت. ونحن نقترح عبارة «الإبادة النازية ليهود أوروبا وبعض الجماعات الأخرى» وهي عبارة تعكس رؤيتنا لما حدث في الغرب، فالمحرقة ليست أمراً عاماً عالمياً، بل هي جريمة ارتكبها المجتمع النازي ليس ضد كل يهود العالم وإنما يهود العالم الغربي، وليست ضدهم وحدهم بل ضد بعض الجماعات الأخرى مثل الغجر والسلاف. وما فعلناه هو أننا نظرنا للظاهرة ودرسناها ودرسنا المفاهيم الكامنة وراءها ثم سميناها بمصطلحات تقع خارج نطاق التحيزات الغربية والصهيونية.

١٦ـ تحديد المستوى التعميمي والتخصيصي:

يجب تحديد المستوى التعميمي والتخصيصي للمصطلح ليتناسب مع الظاهرة بدلاً من محاولة الوصول إلى أعلى مستويات التعميم دائماً، فمثل هذه محاولة تنتهي بنا دائماً في عالم الجبر والهندسة والرياضة والأشياء، وهو عالم يقتل الإنسان ولا يعرف الضحك أو البكاء. ولعل مصطلح «جماعات يهودية» المركب في مقابل مصطلح «اليهود» البسيط (الذي يتأرجح بشدة بين العمومية [اليهود بشكل عام] (والتفرّد) [اليهود بشكل متماسك فريد]) هو مثل على هذا. فمصطلح «الجماعات اليهودية» يحاول أن يشير في ذات الوقت إلى قدر من الوحدة وإلى قدر أكبر من عدم التجانس، ويتعامل مع الخاص («جماعات») والعام («يهودية»). ولذا فهو مصطلح دقيق لا بسبب بساطته وإنما بسبب تركيبيته. ونفس الشيء ينطبق على مصطلح «تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية». ويجب ألا نتحدث عن «المسألة اليهودية» بشكل عام، بل يجب أن نخصص فنقول «المسألة اليهودية في شرق أوروبا»، ثم نزيد في التخصيص فنقول «المسألة اليهودية في روسيا»، وبذلك نربط بين العام («المسألة اليهودية») والخاص («في شرق أوروبا») والخاص الذي يقترب من التفرد («في روسيا»)، دون أن نغلب مستوى على الآخر، فالمستوى التحليلي هو الذي يحدد المصطلح المناسب لدرجة التعميم أو التخصيص.

١٧ـ تفتيت بعض المصطلحات الشائعة:

يمكن للباحث أن يفتت بعض المصطلحات الصهيونية التي تشير إلى أكثر من ظاهرة، فاصطلاح «إسرائيل» يجب تفتيته إلى «إسرائيل» (الدولة الصهيونية) و«يسرائيل» (العبرانيون بالمعنى الديني) و«يسرائيل (إفرايم)» (مملكة يسرائيل العبرانية). كما يجب توضيح الحدود بين مصطلحات متداخلة مثل «عبراني» و«يهودي» و«إسرائيلي» و«يسرائيلي» و«صهيوني». واصطلاح «الصهيونيتان» هو محاولة لتفتيت مصطلح «الصهيونية» الذي يشير إلى ظاهرتين: «الصهيونية الاستيطانية» و«الصهيونية التوطينية» كما لو كانا ظاهرة واحدة. ومن خلال التفتيت يمكن أن يبين الباحث حدود وتاريخ تطور كل منهما. ويستحسن الإشارة إلى «المسيح المخلص اليهودي» باعتباره «الماشيح» (وهذا هو المنطوق العبري) حتى نحتفظ بمسافة بين التراث الديني اليهودي والتراث الديني المسيحي.

١٨ ـ التعريف من خلال الحقل الدلالي:

وقد طورت طريقة جديدة في التعريف أطلق عليها «التعريف من خلال دراسة الحقل الدلالي لمجموعة من المصطلحات المتداخلة المتشابكة». وهي طريقة تتسم بالتركيب، إذ يقوم الباحث باستعراض كل التعريفات المتاحة ثم يحاول اكتشاف الرقعة المشتركة (النموذج الكامن) فيما بينها ويجردها ويصبح هذا هو التعريف الجديد. وتعدُّد المصطلحات وتنوُّعها (بل وتناقضها أحياناً) يفرض على الباحث ألا يكتفي بدراسة التعريفات المعجمية الهزيلة، بل عليه أن يخرج من نطاق الكلمات والتعريفات ليتواصل مع الظواهر الاجتماعية والتاريخية نفسها، ومن ثم يتسع نطاق عملية التعريف. وإذا كان التعريف هو النموذج النظري، فتوسيع نطاق عملية التعريف يعني دراسة الطريقة التي تمت من خلالها ترجمة هذا النموذج في الواقع والمشاكل الناجمة عن هذا التطبيق، وهو الأمر الذي تتجاهله طريقة التعريف السائدة.

وفي تعريفنا للصهيونية قمنا برفض كل التعريفات القائمة، وصلنا إلى ما نتصور أنه الثوابت البنيوية أو المسلمات الأساسية الكامنة ومن خلال عملية تفكيك وتحليل، ثم قمنا بعملية إعادة تركيب ركزت على هذه الثوابت والمسلمات وفصلتها عن الديباجات ووصلنا إلى ما سميناه «الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة» (كما هو موضح في الفصل التالي).

١٩ ـ المجاز كوسيلة تحليلية:

يمكن استخدام المجاز كوسيلة تعبيرية تحليلية مشروعة. فالمجاز هو اعتراف ضمني بتركيبية العالم واستحالة رده إلى عالم الطبيعة/ المادة الأحادي. والمجاز ليس مجرد زخرفة وإنما هو أداة لغوية مركبة طورها الإنسان لتساعده على إدراك حالات إنسانية بعينها لا يمكن للغة النثرية العادية أن تحيط بها. واستخدام المجاز ليس أمراً جديداً أو غير مألوف فنحن حين نتحدث عن «الإنسان الاقتصادي» أو «رجل أوروبا المريض» نستخدم صوراً مجازية تتسم بقدر من التركيب من وجهة نظر صاحبها كما تتسم بمقدرتها التفسيرية للواقع. وقد استخدمنا المجاز أيضاً في صياغة المصطلحات فبجوار «رجل أوروبا المريض» وضعنا «رجل أوروبا النهم» واصطلاح «العربي الغائب» هو اصطلاح يستند إلى قدر من المجاز. كما أن اصطلاح «التركيب الجيولوجي التراكمي»، الذي نستخدمه لوصف العقيدة اليهودية والهويات اليهودية، هو صورة مجازية تحاول أن

تنقل فكرة عدم تجانس الجماعات اليهودية رغم الادعاء الصهيوني بأنها تتسم بالوحدة والتجانس. وهذه الصورة تعني أن العقيدة اليهودية توجد داخلها مجموعة من العقائد والشعائر المختلفة والمتنوعة بل والمتناقضة، ولكنها تتعايش الواحدة بجوار الأخرى دون أن تتفاعل الواحدة مع الأخرى، وقد سميت كل هذه الشعائر والعقائد «اليهودية» وكأنها بنية واحدة متجانسة.

٢٠ـ تفعيل المعجم العربي:

يجب أن يحاول الباحث استخدام كلمات عربية وأن يفعِّل إمكانيات المعجم العربي، وهي عظيمة. وقد نسينا ميزان الصرف الذي هو من صميم عبقرية اللغة العربية وهو مفتاح لفهم إمكانياتها الحقيقية. ولعل مصطلحي «حوسلة» و«صهيونية توطينية» هما محاولة لتفعيل هذا المعجم.

تفكيك وإعادة تركيب بعض المصطلحات الصهيونية

ويمكننا الآن أن نتناول بعض المصطلحات والمفاهيم الصهيونية الأساسية لنقوم بعملية تفكيكية وتركيبية:

١ـ أرض بلا شعب لشعب بلا أرض:

هذه هي الأكذوبة الصهيونية الكبرى التي استخدمها الصهاينة عشرات السنين لخداع الرأي العام الغربي. وشعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» شعار صهيوني يصعب معرفة تاريخ ظهوره. ومع هذا يمكن أن نبدأ عملية التفكيك بأن نشير إلى صياغة معلمنة للرؤية الإنجيلية القائلة بأن فلسطين هي أرض الميعاد والأرض المقدسة وأن اليهود هم الشعب المقدس. ومن ثم فالشعب المقدس لابد أن يعود للأرض المقدسة فهو صاحبها. ولعل أول من قام بعلمنة الصياغة هو اللورد شافتسبري (الصهيوني غير اليهودي) الذي تحدث في منتصف القرن التاسع عشر عن الأرض القديمة للشعب القديم، ثم اكتملت عملية العلمنة في الصياغة الحالية «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض».

وهذا الشعار السوقي الساذج ينتمي إلى نمط متكرر في الخطاب الحضاري الغربي

الحديث الذي أفرز الرؤية المعرفية العلمانية الإمبريالية، التي قامت بعلمنة الرؤى الإنجيلية وحولتها من صياغات مجازية تتحقق في آخر الأيام بمشيئة الإله إلى شعارات استيطانية حرفية تتحقق الآن وهنا وبقوة السلاح. وهذه الرؤية للكون (الطبيعة والبشر) باعتباره مادة استعمالية تضع الإنسان الغربي في المركز، ومن ثم يصبح العالم كله فراغاً بلا تاريخ وبلا بشر، وإن وجد بشر فهم مادة استعمالية عرضية لا قيمة لها. ولعل من أهم تطبيقات هذه الرؤية ومن أكثرها تبلوراً، ما حدث في أمريكا الشمالية. فالإنسان الأبيض وصل إلى هناك مدركا تماماً أنه مركز الكون وأن الأرض التي اكتشفها ملك له وحده وأنها أرض بلا شعب، ولذا لم يكن من الصعب عليه أن يبيد السكان الأصليين وأن ينقل إليها ملايين الأفارقة ليوظفهم لصالحه. وقد تحرك الصهاينة في نفس الإطار، ففلسطين بالنسبة لهم هي إرتس يسرائيل، أرض الميعاد، منطقة غير مأهولة بالسكان، أرض بلا شعب، من حقهم أن يوظفوا من وجدوا فيها من بشر، ومن ثم تصبح فلسطين أرضاً غير مأهولة أي بلا شعب، ويصبح الفلسطينيون مادة استعمالية لا قيمة لها في حد ذاتها.

ويخضع أعضاء الجماعات اليهودية لنفس العملية فبدلاً من أن يكونوا الشعب المقدس بالمعنى الديني المجازي، يصبحون الشعب اليهودي بالمعنى الحرفي (العرْقي أو الإثني)، وحيث إنهم شعب فهم إذن لا ينتمون للحضارة الغربية ومن ثم لا أرضَ لهم. ولا يبقى بعد هذا إلا عملية الحوسلة والتوظيف التي تأخذ شكل ترانسفير مزدوج، تحريك اليهود من المنفي إلى الأرض، وتحريك السكان الأصليين من الأرض إلى المنفى، وذلك لخدمة المصالح الغربية، وهذا هو المشروع الصهيوني.

ويتسم شعار «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» بتناسقه اللفظي الساحر فهو ينقسم إلى قسمين متساويين يستخدم كل قسم القدر نفسه من الكلمات. وكلمة «بلا» في القسمين هي المركز الثابت والعنصر المشترك، وما يتحرك هو كلمتا «الأرض» و«الشعب» فيتبادلان مواقعهما تماماً كما سيتبادل اليهود والعرب مواقعهم.

ويتسم الشعار بالتماسك العضوي والوحدة الكاملة فلا يوجد حرف زائد ولا توجد كلمة ليست في موضعها، وهو تعبير جيد عن الرؤية العضوية المغلقة التي تسم الخطاب الحضاري الغربي الحديث الذي يفضل الصيغ الجميلة المتماسكة لفظياً، بحيث تصبح الصيغة مرجعية ذاتها مكتفية بذاتها كالأيقونة. وقد ينبهر المرء بجمال العبارة فينسي أنها

عبارة إبادية تعني اختفاء العرب وتغييبهم، وينسى أنها اقتلاع كتلة بشرية (يهودية) من أوطانهم وغرسها غرساً في وسط تشكيل حضاري يرفضهم. والترجمة السياسية للعبارة في وعد بلفور هي الإشارة للعرب باعتبارهم «الجماعات غير اليهودية». وقد عبَّر الشعار عن نفسه فيما نسميه مقولة «العربي الغائب» في الخطاب الصهيوني العنصري. ونحن نذهب إلي أن إدراك العالم الغربي للفلسطينيين لا يزال يتحرك في إطار مقولة «أرض بلا شعب»، ومن هنا سلوكه الذي قد يبدو لاعقلانياً بالنسبة لنا.

وغني عن القول أن هذه الصيغة الصهيونية السوقية التي تكشف المضمون الحقيقي للصهيونية وتبين نزعتها العنصرية الإبادية الشرسة قد اختفت تماماً من الخطاب الصهيوني وحلت محلها صيغ أكثر صقلاً وتركيباً، مثل «الحقوق المطلقة للشعب اليهودي»، التي تعني في واقع الأمر أن حقوق الآخرين (العرب) نسبية عرضية، ومن ثم يمكن تهميشها وإلغاءها في نهاية المطاف. كما أن الخطاب الصهيوني بعد عام ١٩٦٧، وبعد ضم الأراضي الفلسطينية التي تحوي كثافة بشرية عالية اضطر أن يعترف بوجود شعب على الأرض، فلجأ لعملية تحايل كي يفرض الشعار القديم على الواقع. فمفهوم الحكم الذاتي الإسرائيلي يعني حقوق الفلسطينيين في إدارة شئونهم دون أن يكون لهم أي حقوق على الأرض، أي أن الفلسطينيين ظلوا شعباً بلا أرض. كما أن الطرق الالتفافية هي تعبير عن اعتراف ضمني بوجود الشعب الفلسطيني الذي لا يملك المستعمرون إلا «الالتفاف» حوله. وبذا تحول الشعار من «أرض بلا شعب» إلى «أرض فيها شعب لابد من إخضاعه وتسخيره وتجاهله والالتفاف حوله». وقد حدث نفس التراجع بالنسبة للنصف الثاني من الشعار «شعب بلا أرض»، فقد قبل الصهاينة بما يسمونه «الدياسبورا الدائمة»، أي أن قطاعات كبيرة من «الشعب الذي لا أرض له» اكتشفت أن لها أرضاً ووطناً، وأنها تؤثر البقاء فيها.

٢ـ ماسادا:

أسطورة «ماسادا» ليست في أهمية أكذوبة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» ولكنها ذات فعالية على مستويين: بعث الخوف في قلوب العرب وتعبئة الشباب الإسرائيلي. وتذهب الأسطورة إلى أن ثمة اتجاهًا شمشونيّا فيما يسمَّى «الشخصية اليهودية أو الإسرائيلية»، وهو أنه إن حوصر اليهود فإنهم يؤثرون الانتحار على الاستسلام وأنهم قد يقولون «عليَّ وعلى أعدائي» ويدمرون العالم العربي بأسره.

ومن السهل تفكيك هذه الأسطورة بتسليط بعض الحقائق التاريخية عليها. و«ماسادا» كلمة آرامية تعني «القلعة»، وهي آخر قلعة يهودية سقطت في أيدي الرومان أثناء التمرد اليهودي الأول ضد الإمبراطورية الرومانية. وقد بناها أحد ملوك الحشمونيين، ثم بنى هيرود فيها قصراً وزاد تحصينها وأدخل بها نظاماً متقدماً نسبياً للري وتخزين المياه خوفاً من خطر كليوباترا ملكة مصر، وجعلها ملاذاً يحتمي به عند الحاجة. وقد احتل الرومان القلعة، ولكن مجموعة من اليهود الغيورين بقيادة مناحم الجليلي ابن أحد قادة التمرد استولوا على ماسادا عام ٦٦م.

وقد اغتيل مناحم الجليلي على يد المتمردين في القدس بسبب ادعاءاته الملكية المشيحانية واستبداده، لكن بقية أتباعه فروا إلى ماسادا تحت قيادة إليعازر بن يائير، وهو أحد زعماء عصبة الخناجر ولعله ابن عم مناحم. واختبأ هؤلاء في القلعة حتى نهاية الحرب، وحين حاصرهم الرومان لم يستسلم المتمردون اليهود وآثروا الانتحار على الاستسلام.

هذه هي الرواية الصهيونية لواقعة ماسادا، وهي رواية تحتوي على حقائق تاريخية كثيرة، ولكنها حذفت حقائق تاريخية أخرى في غاية الأهمية، حتى تؤكد ما يسمَّى «الشخصية اليهودية». إلا أن أية قراءة لكتب التاريخ ستقوض الرواية الصهيونية تماماً. فالصهاينة، على سبيل المثال، يضفون مركزية معينة على ماسادا، ولكننا حين نقرأ كتب التاريخ نعرف أن الرومان قد تركوا قلعة ماسادا إلى أن فرغوا من إخماد التمرد اليهودي نظراً لعدم أهميتها قياساً إلى مواقع أخرى. ثم قامت قوة رومانية بقيادة فلافيوس سيلفا بحصارها من كل الجهات لمدة ثلاثة وسبعين أسبوعاً وشقت طريقاً ارتفاعه ٢٠٠ ذراع، وأحدثت ثغرة في جدرانها (يسخر بعض المؤرخين من كل هذه التفاصيل ويؤكدون أن الحصار لم يدم أكثر من ثمانية أسابيع وأن الطريق المشار إليه ليس إلا امتداداً طبيعياً ناشئاً عن عمليات نحر وانحسار مياه البحر الميت وأنه جزء من التكوين الصخري للأرض). ويسقط الصهاينة على ماسادا معنى صهيونياً عن طريق حذف بعض الحقائق التاريخية بحيث تصبح رمزاً لوحدة الشعب اليهودي ولرفضه التام الاستسلام. فمثلاً لا تذكر المصادر الصهيونية شيئاً عن الحرب الطبقية التي كانت تدور رحاها بين فقراء اليهود وأثريائهم، والتي تشكل خلفية هذا التمرد اليهودي. كما أنها لا تذكر أنه قبل حادثة ماسادا تم ذبح ما لا يقل عن اثني عشر ألف يهودي من الأثرياء على يد إخوانهم من اليهود الفقراء. ولا تشير المراجع الصهيونية من قريب أو بعيد إلى أن جماعة المتمردين التي

استولت على ماسادا لم تقدم أية مساعدة لليهود المحاصرين في القدس، واقتصر نشاطهم الأساسي على الهجوم على القرى اليهودية في المنطقة المحيطة بماسادا وابتزاز أهلها. وقد انضم إليهم شمعون برجيورا أحد زعماء التمرد هو وأتباعه الذين اشترك معهم بعد ذلك في الإغارة على القرى اليهودية، أي أن تقديم ماسادا على أنها رمز الوحدة اليهودية ليس له أساس من الصحة.

وتقول الرواية الصهيونية إن القائد اليهودي إليعازر بن يائير حاول إقناع رفاقه بممارسة انتحار جماعي بدلاً من الوقوع أسرى في أيدي الرومان. وقد جاء ذلك في خطبة نسب فيها إلى إليعازر أنه قال إن الانتحار هو ما تأمر به الشريعة. وبحسب رواية المؤرخ اليهودي يوسيفوس نجح إليعازر في إقناع المحاصرين برأيه وقد أدى هذا إلى انتحار تسعمائة وستين من الرجال والنساء والأطفال وذلك إلى جانب أنهم أضرموا النيران في منازلهم ومخازن مؤنهم عام ٧٣م. ويدَّعي يوسيفوس أن امرأتين وخمسة أطفال اختبئوا في أحد الكهوف أثناء تنفيذ العملية وهم الذين قصوا ما حدث.

ويمكن أن نورد بعض العناصر التي تقوض من الرواية الصهيونية:

(أ) تحرِّم الديانة اليهودية الانتحار (تثنية ٢٠/ ١٩)، شأنها في هذا شأن الديانات السماوية الأخرى، ولذا قال الحاخامات عن الانتحار إنه ضرب من «الميثاق مع الموت».

(ب) في دراسة دوركهايم عن الانتحار لاحظ أن معدلات الانتحار بين أعضاء الجماعات اليهودية أقل من مثيلاتها بين الجماعات البشرية الأخرى في نفس المجتمع، وليس هذا بمستغرب فاشتغال أعضاء الجماعات اليهودية بالأعمال المالية جعلهم من أكثر القطاعات البشرية استعداداً للتكيف. ولذا فالتعميم من واقعة ماسادا لا يستند إلى وقائع التاريخ وممارسات أعضاء الجماعات اليهودية.

(ج) من المعروف أن القوات الإسرائيلية التي حُوصرت في خط بارليف عام ١٩٧٣ استسلمت بطريقة عملية ورشيدة للغاية على مسمع ومرأى الصليب الأحمر الدولي والتليفزيون المصري. وفي أحد هذه المواقع سأل الجنود قيادتهم بتهكم إن كان المطلوب هو القتال حتى الموت لإقامة ماسادا ثانية، فأتاهم الرد بالاستسلام على أن يتبسموا أمام عدسات التليفزيون المصري. أما الجنود الإسرائيليون الذين انتحروا أثناء عملية لبنان فيبدو أنهم قاموا بفعلتهم هذه يأساً من الحرب وثمنها الفادح، إذ لم يكونوا داخل موقع محاصر، وبالتالي فإن انتحارهم لم يكن من أجل الدولة والمثل

الصهيونية وإنما كان احتجاجا عليها. وقد تزايد بشكل ملحوظ عدد الجنود الإسرائيليين الذين ينتحرون في مواجهة الضغوط النفسية وما تشكله محاولة إخماد الانتفاضة من إرهاق، وقد شكلت أكثر من لجنة تحقيق لدراسة هذا الموضوع. وقد امتدت الظاهرة لتشمل المهاجرين الفلاشاه والسوفييت، إذ لوحظ مؤخراً تزايد معدلات الانتحار بينهم بسبب الإحباط الذي يعانونه في الدولة الصهيونية وفشلهم في تحقيق أحلامهم وآمالهم.

(د) ومع اندلاع الانتفاضة لا يتحدث الصهاينة عن النهاية في الإطار الانتحاري للماسادا، فيهوشفاط حركبي وآرييل شارون تحدثا عن نهاية الكيان الصهيوني ولكنهما لم يشيرا إلى ماسادا وإنما إلى الطائرة المروحية التي ستأخذ بقية المستوطنين من على سطح السفارة الأمريكية تماماً، كما حدث في فيتنام.

وقد أثارت قصة ماسادا هذه شكوكاً كثيرة حتى عند بعض علماء الآثار اليهود، فهم يؤكدون أنها قصة خرافية وأسطورة ملفقة إذ لا يمكن البرهنة تاريخياً على سلامة الاكتشافات الأثرية التي تستند إليها هذه القصة:

(أ) المصدر الوحيد للقصة هو يوسيفوس، وهو كاتب لا يعتد به كمؤرخ، كما أنه حينما كان قائداً لحامية الجليل التي استسلمت للرومان أرغمه جنوده على الفرار والاختباء في كهف بعد أن قرروا جميعاً الانتحار. وقد اضطر هو إلى مجاراتهم بل وأشرف على القرعة التي أجريت وعلى عملية الانتحار نفسها إلى أن جاء دوره فأقنع الجندي المتبقي بعدم جدوى الانتحار وخرجا سالمين. وبعد ذلك انضم إلى الرومان وأصبح داعية لهم بين اليهود. ولعل القصة التي نسجها يوسيفوس فلافيوس عن ماسادا هي نوع من أنواع التعويض يقوم بها كاتب أدبي لم يستطع أن يصبح بطلا في الواقع فقام بعملية تعويض عن طريق إسقاط القيم البطولية التي يحلم بها على من حوله وهو ما سميناه «عقدة فلافيوس» أو «الفلافيوس كومبلكس».

(ب) تصنف بعض المراجع الصهيونية يوسيفوس باعتباره أديباً وليس مؤرخاً، وخطبة أليعازر، واختباء امرأتين وخمسة أطفال في أحد الكهوف ليكونوا شهوداً على الواقعة هو تقليد أدبي معروف في كثير من الأعمال الأدبية الخيالية.

(ج) لا تذكر المصادر الصهيونية شيئاً عن القلاع اليهودية الأخرى، مثل هيروديوم

وماكايروس، وهما قلعتان تفوقان في أهميتهما قلعة ماسادا وقد آثرتا الاستسلام والبقاء على الانتحار والموت.

(د) حينما استولى المتمردون اليهود على ماسادا استسلم لهم أعضاء الحامية الرومانية فقاموا بإبادتهم، وهذه معلومة أساسية عادةً ما تستبعدها المراجع الصهيونية لأنها تفسر أن السبب الذي جعل المحاصرين يؤثرون الانتحار على الاستسلام، هو أن مصيرهم كان القتل، تماماً كما فعلوا بأعضاء الحامية الرومانية. هذا على عكس سكان قلعتي هيروديوم وماكايروس، الذين لم يرتكبوا جريمة الإبادة ضد الحاميات الرومانية التي استسلمت لهم. وكانت قلعة ماكايروس أقوى وأهم حصن بعد القدس، وإذا كان لابد من اختيار رمز ما فإن هذه القلعة أصلح لذلك من ماسادا.

(هـ) لا تذكر المراجع الصهيونية أيضا قادة التمرد الذين استسلموا وسيقوا إلى روما حيث أعدموا.

وكل هذا يدعونا إلى رؤية حادثة ماسادا باعتبار أنها الاستثناء وليس القاعدة، وأنها ليست ممثلة لما يسمًّى «التاريخ اليهودي» أو «العبقرية اليهودية»، وأن الوحدة القومية التي تتحدث عنها الصهيونية هي وحدة أسطورية وهمية. ومما يجدر ذكره أن يهود العالم لم يكونوا يعرفون شيئاً عن ماسادا حتى القرن التاسع عشر.

وبالرغم من هذا كله، فقد أحاطت الحركة الصهيونية والدولة الصهيونية من بعدها، قصة ماسادا بهالات صوفية وحولتها إلى أسطورة قومية محورية، ونظمت إسرائيل حملات دعائية ضخمة حول عملية الكشف عن القلعة قادها رئيس أركان الجيش الإسرائيلي الجنرال يادين وشارك فيها الجيش بإمكانيات واسعة. وتقوم أجهزة الإعلام الإسرائيلي بمحاصرة العقلية الإسرائيلية واليهودية بأسطورة ماسادا. ففي كل عام تقيم بعض أسلحة الجيش الإسرائيلي احتفالات ترديد يمين الولاء على قمة القلعة ويقسمون في نهايته بأن ماسادا، لن تسقط ثانية. وتنظم رحلات لأفواج من السياح اليهود وطلبة المدارس الإسرائيلية للحج إلى القلعة، كما تحرص إسرائيل على أن تدرج زيارة هذه القلعة ضمن برنامج كل زعيم سياسي أجنبي يذهب إلى إسرائيل بل وأعادت الدولة الصهيونية عام ١٩٦٩ دفن المنتحرين.

ويمكن الإشارة إلى أن الهدف السياسي من كل هذه الضجة حول ماسادا، والآثار اليهودية الإسرائيلية بصفة عامة، هو محاولة صهينة الشباب من جيل الصابرا أو غيره

ومحاولة ربطهم بالتاريخ اليهودي القديم. لكن الواقع أن قطاعات واسعة من الشباب الإسرائيلي لا تعير هذا التاريخ اهتماماً كبيراً، كما أن التركيز الزائد على الآثار هو محاولة للبرهنة على وجود جذور تاريخية لدولة إسرائيل الحالية تمتد في أغوار الماضي اليهودي في فلسطين. والحركة الصهيونية في إشاعتها لهذه الأساطير الانتحارية عن الذات اليهودية تحاول أن تؤثر في الرأي العام العالمي والعربي وأن تكسب كثيراً من المعارك النفسية والفعلية دون خوض أية حرب.

٢ - هياكل اليهود:

يتحدث اليهود عن «إعادة بناء الهيكل»، و«الهيكل الثالث»، و«هدم الهيكل». وكلها في صيغة المفرد وكأن مركز الوجدان اليهودي كان ولا يزال هو «الهيكل». ومرة أخرى يمكن تفكيك هذا المفهوم باللجوء لإستراتيجيات تحليلية مختلفة. فيمكن الإشارة إلى واقع اليهود المعاصر، وسنلاحظ أن اليهودية الإصلاحية واليهود العلمانيين (وهم يشكلون الغالبية الساحقة ليهود العالم وإسرائيل) لا يكترثون بالهيكل ولا بأي من العبادات القربانية وغير القربانية اليهودية، ويجدونها بقايا ماض غابر ميت لا يعنيهم البتة، بل إن بعضهم يجد أن متحف الهولوكوست في واشنطن، أو نُصب يادفاشيم التذكاري لضحايا الإبادة النازية ليهود أوروبا، هو الهيكل الحقيقي.

ويمكن العودة إلى الماضي فنشير إلى حقيقة تاريخية يحرص الصهاينة على إخفائها وهي أنه توجد هياكل يهودية كثيرة. فالعبرانيون القدامى كانوا يحجون إلى مكان يسمَّى «شيلو» إلى أن تأسست المملكة العبرانية المتحدة وأصبحت القدس العاصمة وأصبح الهيكل هو مركز العبادة القربانية. ولكن المملكة المتحدة لم تدم أكثر من ثمانين عاماً، وعند انقسامها إلى مملكتين صغيرتين (٩٢٨ ق.م) فَقَدَ الهيكل كثيراً من أهميته، إذ شيد ملوك المملكة الشمالية (يسرائيل إفرايم) مراكز مستقلة للعبادة. فبنى يربعام (أول ملوك المملكة الشمالية) معبدين أو هيكلين أحدهما في دان بالشمال والآخر في بيت إيل، وجعل فيهما عجولاً ذهبية واتخذهما مزاراً ملكياً مقدساً له. وقد أحاط المعبدين بهالة من القدسية وغير موعد الأعياد وطرد اللاويين الذين كانوا يشكلون البيروقراطية الدينية للمملكة العبرانية المتحدة. وكان دافعه من هذا كله هو تقويض العبادة المركزية والحيلولة دون ذهاب مواطني مملكته إلى هيكل القدس في المملكة الجنوبية يهودا. ورغم التحالفات التي كانت تعقد أحياناً بين ملوك الشمال والجنوب، فإن هيكل

القدس لم يستعد قط مركزيته القديمة. وكثيراً ما كان ملوك اليهود يضطرون إلى إدخال العبادات غير اليهودية تعبيراً عن تحالفاتهم السياسية، فأنشأ سليمان التوراتي مذابح لآلهة زوجاته الأجنبيات، وهو الأمر الذي يتنافى مع مبدأ التوحيد. كما أن العبادات المختلفة كانت تعبيراً عن التبعية السياسية، فقد أدخل منسَّى العبادة الآشورية تعبيراً عن خضوعه للآشوريين.

ومن أطرف الأمثلة على تعدد الهياكل ما يسمَّى بهيكل أونياس، وهو الهيكل الذي شيَّده الكاهن الأعظم اليهودي أونياس الرابع الذي خلع من منصبه في فلسطين ففر إلى مصر ومعه بعض الجنود اليهود، ولعلهم تحولوا إلى مرتزقة بعد وصولهم إلى مصر. ويبدو أن هذا الهيكل شيِّد بإيعاز من البطالمة حكام مصر في عصر بطليموس السادس (١٨١-١٤٥ ق.م) لخلق مركز ليهود مصر يصبح مركزاً لولائهم ويبعدهم عن هيكل فلسطين التابع للسلوقيين. وقد مُنح أونياس وجنوده أرضاً ليستوطنوها ويعيشوا من ريعها. وشيِّد المعبد في ليونتوبوليس بالقرب من هليوبوليس، مكان معبد مصري للإلهة باشت. وقد استند أونياس إلى نبوءة أشعياء (١٩/١٨/١٩) التي جاء فيها أنه سيشيد مذبحا للإله في وسط أرض مصر، حتى يعطي هيكله شرعية دينية، وأصبح أونياس الكاهن الأعظم لهذا الهيكل.

وكان كثير من اليهود يعملون جنوداً مرتزقة ضمن حامية عسكرية تُرابط حول المعبد. وقد بُني الهيكل على هيئة قلعة يحيطها سور ربما بسبب طابعه الاستيطاني القتالي. ورغم اختلافه من الناحية المعمارية عن هيكل القدس فإنه كان يحوي الأواني الشعائرية نفسها وكان يتدلى من السقف فانوس حل محل شمعدان المينوراه. ومنح البطالمة لكهنة هذا الهيكل قطعة من الأرض ليعيشوا من ريعها.

ولم يكن هيكل أونياس معبداً (سيناجوج)، بل كان هيكلاً مركزياً لإقامة شعائر العبادة القربانية، وكان الهدف هو إحلاله محل هيكل فلسطين. كما كان اليهود في مصر يقدمون فيه القرابين ويحجون إليه. ورغم أن أقلية من يهود مصر اتخذت موقف المعارضة فإن بعض فقهاء اليهود أبدوا اهتماماً خاصاً به ودرسوا شعائره، وهو ما يعني اعترافاً ضمنياً به. ولكن الرأي الحاخامي الشائع هو رفضه، لأنه كان يشكل منافسة للعبادة القربانية. وقد قام الرومان بإغلاق هذا المعبد عام ٧٣م إثر تمرد قام به يهود مصر، أي أنه أغلق بعد مرور عامين على إغلاق هيكل فلسطين.

وينتمي هيكل أونياس إلى نمط معماري أعم وأشمل هو نمط المعبد/ القلعة، وهو نمط معماري انتشر في أوكرانيا (حين كانت تابعة لبولندا في القرن السابع عشر) في المناطق الحدودية التي تفصل بين بولندا وبين روسيا. وكان أعضاء الجماعة اليهودية يقومون بالعبادة والدراسة في مثل هذه المعابد التي صُممت بطريقة يمكن استخدامها أيضاً كحصون وقلاع عسكرية في آن واحد.

ونشأت الحاجة لمثل هذا الطراز من المعابد في إطار الإقطاع الاستيطاني البولندي في أوكرانيا. فقد وظف النبلاء البولنديون (شلاختا) بعض أعضاء الجماعة اليهودية في عملية اعتصار أكبر قدر ممكن من الأرباح من الفلاحين الأوكرانيين، فأصبحت الجماعة اليهودية جماعة وظيفية من الوكلاء الماليين (أرنداتور) يعيشون في مدن خاصة بهم (شتتلات) منعزلين لغوياً ودينياً واجتماعياً وثقافياً عن جماهير الفلاحين. وكانت الجماعة اليهودية محل سخط الجماهير وغضبها (كما هو الحال مع أعضاء الجماعات الوظيفية، خصوصاً العميلة)، ولذا كانت القوات العسكرية البولندية تقوم بحمايتها من الجماهير ومن الانتفاضات الشعبية المحتملة. ومع هذا كان أعضاء الجماعة اليهودية يتدربون على السلاح وكان عليهم الاحتفاظ بأسلحة بعدد الذكور القادرين على حملها وبكمية معينة من البارود (حسبما كانت تنص العقود المبرمة بين النبلاء البولنديين ووكلائهم اليهود).

وكانت هذه المعابد/ القلاع مصممة بطريقة تجعل بالإمكان استخدامها كمكان للعبادة والدراسة وكحصون وقلاع عسكرية، فكانت تزود بحوائط سميكة للغاية، كما كانت المتاريس (حاجز السقف أو الشرفة) مزودة بكوات لتخرج منها المدافع والبنادق أثناء الاشتباك مع الجماهير. ومن أشهر المعابد/ القلاع معبد لتسك Lutsk الذي بُني عام ١٦٢٦ لخدمة الأغراض العسكرية بالدرجة الأولى، وصدر قرار ملكي ببنائه كان ينص على ضرورة أن يلتزم اليهود بتزويد معبدهم هذا بكوات من الجهات الأربع وبالسلاح الكافي على نفقتهم. كما كان يتعين تزويد المعبد/ القلعة بعدد من الرجال يكفي لصد الهجمات عليه. وصدر أمر لمعبد ريسيسوف بأن يزود نفسه بالبنادق والرصاص والبارود. وكانت المعابد/ القلاع تُزود عادة ببرج مراقبة ضخم (كان يستخدم في زمن السلم كسجن يُودع فيه المجرمون من أعضاء الجماعة اليهودية).

وقد تكرس هذا النمط تماماً في الدولة الصهيونية، فكثير من اليهود (على حد قول أحد

الحاخامات المعادين للصهيونية) ينظرون إلى إسرائيل باعتبارها تحقيقاً لنبوءة إعادة بناء الهيكل، فهي هيكلهم الثالث ورئيس وزرائها هو الكاهن الأعظم، وإن صدق هذا الحديث فإن إسرائيل هي الهيكل/ القلعة بامتياز، مكان في حالة حرب دائمة ضد السكان الأصليين، وهي حالة حرب دائمة ما دام الاحتلال.

ويشير الصهاينة إلى «جبل الهيكل» باعتباره المكان الذي يضم الحرم القدسي الشريف، أي قبة الصخرة المشرفة والمسجد الأقصى وجامع عمر وكل المنشآت العربية التاريخية المجاورة لهذه المقدسات.

٤ ـ هدم الهيكل:

تشير عبارة «هدم الهيكل» عادةً إلى عملية هدم الهيكل على يد تيتوس عام ٧٠م، وإن كان من المعروف أن نبوختنصر كان قد هدمه من قبل عام ٦٨٥ ق. م. كما أن هيرود هدمه عام ٢٠-١٩ ق. م، ليعيد تشييده مرة أخرى. وقد هُدم الهيكل، حسب الكتابات الفقهية اليهودية، في التاسع من آب، ولذا يصوم اليهود في ذلك اليوم. لكن هناك من يذهب إلى أن هدم الهيكل تم في ٧ أو حتى ١٠ آب. ولحسم هذا التناقض، تقول هذه الكتابات إن هدم الهيكل بدأ في التاسع من آب وانتهى في العاشر منه. وتذهب الكتابات الصهيونية، والمتأثرة بها، إلى أن هدم الهيكل على يد الرومان هو الذي تَسبَّب في شتات اليهود، الذين كانوا يشكلون شعباً واحداً متجانساً مثل كل الشعوب يعيشون على أرض وطنهم القومي. وعندما جاء الغزاة الرومان وهدموا هيكلهم، تشتت اليهود في أنحاء العالم على هيئة أقليات. ومن هنا الحديث عن «الشتات» و«المنفى» و«الدياسبورا»، ومن هنا أيضاً الحديث عن «عودة اليهود، وإشارتهم للدولة الصهيونية باعتبارها «الهيكل الثالث».

وكل هذه الأساطير الصهيونية يمكن تقويضها من خلال وقائع التاريخ. فمن المعروف أن انتشار اليهود خارج فلسطين وتوزعهم على كل بقاع الأرض كان قد بدأ قبل هدم الهيكل بزمن طويل وبدون قسر. والواقع أن مجموع اليهود خارج فلسطين كان يفوق بكثير عددهم داخلها قبل هدم الهيكل. ومن المعروف أيضاً أن تيتوس لم يهدم الهيكل بمفرده، فقد كان يقف إلى جواره جيش يهودي بقيادة أجريبا الثاني، وكانت بيرنيكي، أخت أجريبا، تقاسم تيتوس سريره!

وتجب ملاحظة الفرق بين عمليتي هدم الهيكل ونهبه، إذ نُهب عدة مرات قبل هدمه، فقد نُهب مثلاً على يد شيشنق فرعون مصر، ومرة أخرى على يد يوآش ملك المملكة الشمالية. ويرى بعض حاخامات اليهود أن هدم الهيكل كان عقاباً لهم على ما اقترفوه من ذنوب. وهذا الرأي يأخذ به المسيحيون، حيث يرون أن ذنب اليهود الأكبر هو إنكارهم أن المسيح عيسى بن مريم هو الماشيَّح. ويُشار إلى هدم الهيكل بتعبيرات أخرى مثل «خراب الهيكل»، ولكننا نفضل تعبير «هدم الهيكل» لحياده النسبي. وفي الكتابات العبرية، يُشار إلى تخريب الهيكل بكلمة «حوربان» التي تُستخدَم أيضاً للإشارة إلى أي دمار يلحق باليهود، ومن ذلك الإبادة النازية ليهود أوروبا.

٥ ـ إعادة بناء الهيكل:

عبارة «إعادة بناء الهيكل» تُستخدَم بمعنيين:

١ ـ إعادة بناء الهيكل بعد عودة اليهود من بابل بمرسوم قورش الأخميني (٥٣٨ ق. م)، ومن ثَم فإنه يُسمَّى «الهيكل الثاني» تمييزاً له عن الهيكل الأول الذي هدمه نبوختنصر. وقد أصدر ملك الفرس دارا الأول أمراً بالاستمرار في بناء الهيكل بعد أن اعترضت بعض الأقوام المقيمة في أرض فلسطين على عملية إعادة البناء هذه. والواقع أن استخدام العبارة بهذه الصورة أمر نادر، إذ إن الاستخدام الأكثر شيوعاً يشير إلى:

٢ ـ إعادة بناء الهيكل بعد عودة الشعب اليهودي إلى صهيون، في آخر الأيام، تحت قيادة الماشيَّح. وهذا هو الهيكل الثالث باعتبار أن الهيكل الثاني هو الذي بناه هيرود وهدمه تيتوس. وبالنسبة لرأي الفرق اليهودية المختلفة في العصر الحديث في مسألة إعادة بناء الهيكل، فإنه يمكننا منذ البداية أن نقسِّمهم إلى صهاينة وغير صهاينة. أما غير الصهاينة، فيعارضون العودة الفعلية ومن ثم إعادة بناء الهيكل. وقد حذف الإصلاحيون الأدعية الخاصة بإعادة بناء الهيكل، ويستعملون كلمة «تمبل Temple» الإنجليزية، أي «المعبد»، منذ عام ١٨١٨ للإشارة إلى المعابد اليهودية. وهم، في الواقع، يقصدون أن المعبد، أينما وُجد، يحلّ محل الهيكل، وأن الهيكل لن يتم استرجاعه أبداً. أما اليهود الأرثوذكس، فيفضلون استخدام الكلمة اليونانية «سيناجوج» للإشارة إلى المعبد اليهودي، على أن تظل كلمة «هيكل»

محدَّدة الدلالة، لا تشير إلا إلى هيكل القدس. وقد احتفظ الأرثوذكس بالأدعية الخاصة بالعودة، وتبعهم المحافظون. وتظل العودة، بالنسبة إلى الأرثوذكس مسألة مرتبطة بعودة الماشيَّح. أما بالنسبة إلى المحافظين، فهي تشبه المجاز والتطلع الطوباوي المثالي.

وينقسم الصهاينة، في موقفهم من قضية إعادة بناء الهيكل إلى قسمين: صهاينة لادينيون وصهاينة دينيون. وفي الواقع، فإن الفريق الأول لا يكترث كثيراً بالعبادة القربانية، ولا بإعادة بناء الهيكل، فهم ينظرون إلى القضية من منظور عملي، ويرون أن محاولة الصهاينة المتدينين إعادة بناء الهيكل هي مسألة هَوَس ديني يهدد المُستوطَن الصهيوني بالخطر دون عائد مادي ملموس. ومن ثم، نجد أن مسألة إعادة بناء الهيكل لا تتمتع بشعبية كبيرة داخل إسرائيل التي تتمتع بـ - أو تعاني من - واحد من أعلى مستويات العلمنة في العالم. وقد أشار تيدي كوليك (عمدة القدس) إلى المهووسين الذين قاموا بوضع حجر أساس بناء الهيكل، وبيَّن أنهم يسيرون في خط شبتاي تسفي؛ ذلك الماشيَّح الدجال الذي ألهب حماس معظم اليهود في القرن السابع عشر، ووعدهم بالعودة إلى فلسطين، وعيَّن بعض أتباعه حكاماً للأرض، ثم انتهت الحركة بالفشل، الأمر الذي رجّ اليهودية رجاً من أساسها وألقى بها في أزمة لم تُفق منها قط.

ويرى الصهاينة المتدينون (المتطرفون) المسألة من منظور مختلف، فمسألة إعادة بناء الهيكل مسألة ذات أهمية مركزية بالنسبة إليهم، ولهذا يركزون جُلَّ اهتمامهم على هذه العملية، والقضية بالنسبة إليهم مسألة عقائدية وليست علمية. والواقع أن كثيراً من المنظمات الإرهابية الصهيونية الجديدة قد جعلت إعادة بناء الهيكل، وهدم الآثار الإسلامية الموجودة في هذا الموقع، من أهم أهدافها.

ورغم هذا الانقسام، بشأن إعادة بناء الهيكل، فإن بعض الأطروحات التي صُنِّفت في الماضي باعتبارها دينية ومتطرفة صارت مقبولة بل وأصبحت جزءاً من الخطاب السياسي الصهيوني، أو من برامج الأحزاب المعتدلة! فالاعتدال والتطرف الصهيونيان يتحددان من خلال التوسع الصهيوني، والقوة الذاتية الصهيونية. وكما قال بن جوريون «إن خير مفسر للتوراة هو الجيش الإسرائيلي». ولذا فليس من المستبعد أن نجد جميع الصهاينة (الأقلية المتدينة والأغلبية الملحدة) تؤيد كلها بعد قليل إعادة بناء الهيكل باعتباره أمراً أساسياً للعقيدة الصهيونية لا تكتمل بدونه.

٦ـ الصهيونية الاشتراكية:

من المصطلحات المتواترة في الخطاب الصهيوني اصطلاح «الصهيونية الاشتراكية»، وهو اصطلاح يفترض أن الصهيونية تنطلق من المفاهيم الاشتراكية الأساسية مثل العدالة والمساواة وسيطرة الطبقة العاملة. ولكننا لو قمنا بتفكيك وإعادة تركيب هذا المصطلح، لاكتشفنا أن الصهيونية الاشتراكية لا علاقة لها بالاشتراكية، وإنما تنبع من متطلبات الاستيطان الاستعماري. والملاحظ في كل التجارب الاستعمارية الاستيطانية أنه بعد أن يغتصب المستوطنون الأرض من أصحابها ويطردونهم منها، يُواجهون عادةً بمقاومة المغتصَبين لهم، مما يسفر عن عزلة هؤلاء المستوطنين وسيطرة الهاجس الأمني عليهم، فيُضطرون إلى حشد كل جهودهم البشرية والمادية، ويقومون بتنظيم أنفسهم اقتصادياً وعسكرياً. وهذا ما فعله المستوطنون الصهاينة، فقد حوَّلوا أنفسهم إلى جماعة استيطانية متماسكة منظمة عسكرياً تستبعد العرب، وقاموا بتطوير مؤسسات «اقتصادية» وزراعية لا تخضع لمقاييس الرشد الاقتصادي ولا تنبع من مفهوم الجدوى الاقتصادية وتهدف إلى تكثيف جهود الأفراد وتجميع مصادرهم البشرية (المزارع الجماعية ـ الهستدروت)، وطوَّروا مجموعة من المفاهيم ذات الطابع الجماعي التي لا تكترث بالعائد الاقتصادي (العمل العبري ـ اقتحام الأرض والعمل والحراسة والإنتاج).

وقد صرح أحد الزعماء الصهاينة بأن المشروعات الناجحة هي أقل المشروعات نفعاً من الناحية الاستيطانية (لاعتمادها على العمل العربي والمستهلك العربي ولصعوبة الدفاع عنها... إلخ). أما المشروعات الصهيونية الخاسرة مالياً، فهي أكثرها نفعاً لانفصالها الكامل ولاعتمادها على العمل العبري والسوق العبرية، أي أنها النواة الحقيقية للدولة الصهيونية المنفصلة.

وجماعية هذا الاقتصاد أو «تعاونيته» تعبير عن ضرورات الاستيطان العسكرية الأمنية وليست تعبيراً عن رؤية إنسانية ترى أسبقية المجتمع على الفرد والعدالة الاجتماعية على الربح. ولذا نجد أن كل المجتمعات الاستيطانية، وخصوصاً الإحلالية، تأخذ هذا الشكل الجماعي في التنظيم في مراحل الاستيطان الأولى. فالبيوريتان (المتطهرون) المستوطنون الأوائل في الولايات المتحدة كانوا أصحاب واحدة من أكثر الأيديولوجيات الرأسمالية البروتستانتية تطرفاً في فرديتها، ومع هذا نظموا أنفسهم سياسياً واقتصادياً واجتماعياً بشكل جماعي، ففي مواجهة السكان الأصليين كان عليهم أن يفعلوا هذا.

وقد أثبتت الصيغة الجماعية العسكرية (التي تسمَّى اشتراكية) أنها أفضل الصيغ لاستيعاب المهاجرين الجدد، فهي قادرة على إيجاد أعمال ووظائف لهم، لأن المزارع التعاونية والتنظيمات الجماعية كانت تشمل كل جوانب الحياة. كما ساهم التنظيم الجماعي في تخفيف حدة الصراعات العرْقية داخل جماعات المستوطنين. فكل مهاجر كان ينضم للتنظيم التعاوني الذي تسود فَيه قيمه الحضارية ويسيطر عليه بنو جلدته من رومانيين أو روس أو بولنديين وهكذا.

وقد أدرك القائمون على المنظمة الصهيونية والوكالة اليهودية هذه الحقيقة، وأن الطريقة الوحيدة المتاحة أمام المشروع الصهيوني ليس مجرد الاستيلاء على الأرض وإنما إدارته على أساس جماعي عسكري. ورغم أن اتجاهاتهم الأيديولوجية كانت رأسمالية ليبرالية تؤمن بالاقتصاد الحر، فقد قبلت عملية التنظيم الجماعي هذه (التعاونية الاشتراكية) وقامت بدعمها وتمويلها بلا تردد ودون التقيد بأية اعتبارات اقتصادية أو أيديولوجية خارجية. فكانت الوكالة اليهودية تقوم بشراء الأرض (من سلطات الانتداب أو بعض الإقطاعيين العرب المقيمين خارج فلسطين أو من خلال وسطاء) باسم «الشعب اليهودي»، وتؤجرها لتعاونية عمالية تدفع أجور العمال فيها حسبما تنتجه كل مجموعة، ثم تعين المنظمة الصهيونية مديراً لكل تعاونية. وقد حل هذا الشكل من الزراعة كثيراً من مشاكل الاستيطان الصهيوني. فعلى سبيل المثال، يستطيع تجمُّع المستوطنين أن يُقسِّم نفسه إلى مجموعتين، تقوم واحدة بالزراعة والأخرى بالحراسة ومطاردة العرب وإرهابهم (والزراعة الصهيونية التي نسميها «الزراعة المسلحة» مرتبطة تمام الارتباط بالعسكرية الصهيونية، بحيث لا يمكن الفصل بينهما، فهما وجه واحد لعملية الاستيطان والاستيعاب). كما أن الحركة الصهيونية تستطيع أن تموِّل هذه التجمعات بحيث لا تؤدي عدم إنتاجيتها، بسبب جهل المستوطنين بشئون الزراعة، إلى سقوط الأرض مرة أخرى في يد العرب. أما المستوطنات التي تُمنى بالخسائر الفادحة، فكانت المنظمة الصهيونية تقوم بدفع خسائرها، كما أن المستوطنة الجماعية التي يتلقى أعضاؤها أجرهم من المنظمة الصهيونية لن تحتاج للعمالة العربية الرخيصة.

وتبدَّى عنصرا الجماعية والأمن باعتبارهما أهم أسس الاقتصاد العمالي في تنظيم الكيبوتس على أسس شبه عسكرية لتفريخ المُستوطن المقاتل. وقد تم تأسيس الهاجاناه بعد تأسيس الهستدروت بعام واحد، وتم تدريب عشرات الآلاف من أعضائها، ثم تأسست

بعد ذلك قوتها الضاربة البالماخ عام ١٩٤١ لتأدية المهام الصعبة. وكان معظم أعضائها مرتبطين بالكيبوتس، وخصوصاً تلك الكيبوتسات التابعة للحزب الصهيوني ذي الديباجة اليسارية: المابام. وكانت الهاجاناه ضمن مسئولية الهستدروت، وضباطها في معظمهم مسئولون فيه، واعتبرت بمنزلة الجناح العسكري للمجتمع الجديد لتقوم بمهام الحماية وتوفير الأمن للاقتصاد الاستيطاني العمالي.

تفكيك وإعادة تركيب بعض النصوص الصهيونية

سنحاول قراءة بعض قرارات المؤتمرات الصهيونية بالطريقة التفكيكية التركيبية التي نقترحها، فندرس الواقع والممارسات الصهيونية، ونضع الأقوال المتناثرة في الأنماط المتواترة، ونبين التحيزات الكامنة خلف العبارات المراوغة، وندرس المرجعية النهائية لهذه القرارات من خلال دراسة الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة. نستنتج ما نتصور أنه المعنى المقصود الذي سندرجه داخل النص في عبارات سنضعها بين أقواس معقوفة [هكذا].

وأول هذه القرارات هي قرارات المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) التي تسمَّى برنامج بازل، وهو يتكون من جملة افتتاحية تحدد الغرض من الحركة الصهيونية وأربع نقاط تقترح الوسائل اللازمة لتحقيق هذا الغرض.

«تستهدف الصهيونية إنشاء وطن [أي دولة] للشعب اليهودي [أي الفائض اليهودي من شرق أوروبا] في فلسطين [الأرض ذات الموقع الإستراتيجي] تحت حماية القانون العام [أي بحماية الدول الغربية]».

ويوصي المؤتمر بالوسائل التالية لتحقيق هذا الغرض:

(أ) تطوير عملية توطين المزارعين والحرفيين والعمال اليهود في فلسطين [وبالتالي طرد العرب منها] من خلال الأطر المناسبة [أي إقامة استعمار استيطاني يهودي في فلسطين عن طريق المكر أو العنف، فهذه هي الطريقة الوحيدة المتبعة لتأسيس جيب استيطاني].

(ب) تنظيم جميع اليهود وتوحيدهم عن طريق تنظيمات وهيئات محلية وعالمية ملائمة وفقاً لقوانين كل دولة [أي الهيمنة على الجماعات اليهودية مع عدم إحراج يهود غرب أوروبا].

(جـ) تقوية الشعور القومي اليهودي والوعي القومي وتدعيمهما [أي المزيد من الهيمنة والتخلص من الجيوب غير الصهيونية بين اليهود وإرضاء يهود شرق أوربا من دعاة الخطاب الإثني الديني والعلماني].

(د) اتخاذ خطوات تمهيدية للحصول على موافقة الحكومات [الغربية]، باعتبار أن ذلك ضروري لتحقيق الهدف الصهيوني [أي الحصول على الشرعية الاستعمارية من خلال الدول الغربية]».

إن صياغة برنامج بازل تعبير بليغ عن الخطاب الصهيوني المراوغ، فلم يُذكر فيه ما هو مفهوم من الجميع ويمكن أن يسبب الحرج، وتُركت في بنوده فراغات كثيرة ليملأها كل صهيوني على طريقته تعريفاً لليهود، ولم يذكر لا الدولة ولا حدودها، وتم تغييب العرب تماماً من خلال التزام الصمت الكامل تجاههم، ولم يتم الإفصاح عن أيٍّ من المفاهيم الأساسية الكامنة إلا بعد نصف قرن تقريباً في برنامج بلتيمور (الذي أصدره مؤتمر استثنائي عقده الصهاينة الأمريكيون والأوروبيون في نيويورك مع ممثلي المستوطنين في فلسطين في مايو ١٩٤٢) وجاء فيه ما يلي: «الاعتراف بأن الغرض من شروط تصريح بلفور والانتداب التي تبين ارتباط الشعب اليهودي التاريخي بفلسطين هو إيجاد حكومة يهودية هناك وجعل فلسطين حكومة يهودية». ويعلق ألان تايلور، أحد مؤرخي الحركة الصهيونية، على هذا بقوله: «وهكذا ظهر على السطح الآن وضوح الهدف الخفي [المقولة الثابتة] الذي رافق الصهيونية دوماً». ولم يجانب هذا المؤرخ الصواب ولا حاول أن يفرض تفسيراً متعسفاً على الأحداث أو الكلمات، فقد وصف المجتمعون في فندق بلتيمور في مدينة نيويورك برنامج بلفور بأنه «تطبيق كامل لبرنامج بازل». وكل ما حدث هو أن بعض الفراغات قد مُلئت، وبعض العبارات الصامتة قد استُنطقت، وبعض العبارات الهلامية قد تحددت، ومع هذا استمر التزام الصمت تجاه مصير السكان الأصليين. وقد ظل برنامج بازل ساري المفعول مع تفسير بلتيمور إلى أن تم تعديله بعد إنشاء الدولة.

وقد عُقد المؤتمر الصهيوني الثالث والعشرون (١٩٥١) بهدف التوصل إلى تعريف للصهيونية يحل محل برنامج بازل، فتقدم بعض الصهاينة الاستيطانيين بمشروع قرار يعرف هدف الصهيونية بأنه «خلاص الشعب اليهودي من خلال تجميع المنفيين [أي كل أعضاء الجماعات اليهودية في العالم] في أرض إسرائيل [أي فلسطين المحتلة]» وهي

صيغة متشددة لا تتسم بأية هلامية ولا تحوي أية فراغات، ولهذا كانت تهدد بتفجير التناقضات، فتم التغاضي عنها واتخذ المؤتمر بدلاً من ذلك قراراً يحدد مهمة الصهيونية بالطريقة المراوغة التالية: «تدعيم دولة إسرائيل وتجميع المنفيين في أرض إسرائيل وتأمين وحدة الشعب اليهودي». وبينما تتضمن الصيغة المرفوضة أن الخلاص «لا يكون إلا من خلال الدولة، وأن تجميع المنفيين هو الوسيلة الوحيدة للخلاص، وأن الشعب اليهودي بأسره هو في المنفى ما دام باقياً خارج إسرائيل»، نرى أن الصيغة المراوغة الجديدة لما سُمي «برنامج القدس» تترك الفراغات وتكتفي بسرد ثلاث مهمات مستقلة عن بعضها البعض ومتناقضة. فمن يرغب في دعم دولة إسرائيل يمكنه أن يفعل ذلك من الخارج، أي باعتباره صهيونياً توطينياً، الأمر الذي يعني أنه سيظل صهيونياً سواء هاجر أم لم يهاجر ما دام يدعم الدولة الصهيونية. بل إن عبارة «تجميع المنفيين» نفسها عبارة مراوغة، فالمنفى على ما يبدو حالة عقلية وليست فعلية، لأن يهود أمريكا يعتبرون أمريكا وطناً قومياً لا منفى، على عكس يهود روسيا، ومن ثم فإن العبارة تعني تجميع المنفيين من شرق أوروبا بمساعدة المندمجين في غربها، أما وحدة الشعب اليهودي فهو أمر هلامي عائم غائم، إذ يمكن أن يشعر الصهيوني التوطيني بهذه الوحدة ويدافع عنها وهو جالس في غرفته المكيفة في منزله الوثير في أمريكا أو أستراليا، ورغم كل التحولات والتغيرات لا تذكر القرارات الصهيونية العرب بخير أو بشر.

وقد تم تعديل مهام الصهيونية مرة أخرى في المؤتمر الصهيوني السابع والعشرين بمقتضى «برنامج القدس ٥٧٢٨ (١٩٦٨)» الذي لا يزال البرنامج المعتمد للحركة الصهيونية. وسوف نورد مرة أخرى ما نتصور أنه المعنى المقصود من خلال عبارات سنضعها بين أقواس معقوفة ونصه كما يلي:

أهداف الصهيونية هي:

- وحدة الشعب اليهودي [سواء استمر في الحياة في نيويورك أم حيفا] ومركزية إسرائيل في حياته [والمركزية مسألة شديدة العمومية].
- تجميع [من يريد من] الشعب اليهودي في وطنه التاريخي، أرض إسرائيل، عن طريق الهجرة من مختلف البلدان.
- تدعيم دولة إسرائيل التي قامت على أساس رؤية الأنبياء للعدل والسلام [وهي رؤية يمكن تفسيرها بطريقة حلولية كمونية عضوية ترضي كلا من الدينيين والعلمانيين].

- الحفاظ على هوية الشعب اليهودي من خلال تشجيع التربية اليهودية والعبرية والقيم الروحية والثقافية اليهودية [سواء في إسرائيل أو في الولايات المتحدة] وحماية الحقوق اليهودية أينما كانت».

والواقع أن صيغة البرنامج هي التسليم بالأمر الواقع، أي بانقسام الحركة الصهيونية إلى اتجاهين أحدهما توطيني والآخر استيطاني لكلٍّ تعريفه الخاص للشعب اليهودي. وهو يشكل محاولة للحفاظ على وحدة غير موجودة ولتغطية تناقض يزداد تفاقماً، ولذا ازدادت درجة المراوغة والصمت. وثمة افتراضان متناقضان كامنان في برنامج القدس:

(أ) إن الشعب اليهودي شعب واحد وأن وطنه التاريخي هو أرض إسرائيل، وبالتالي يكون هدف الصهيونية هو تجميع الشعب اليهودي عن طريق الهجرة، أي تصفية الجماعات اليهودية، وهذه هي صهيونية المستوطنين.

(ب) إن حالة التشتت حالة نهائية، ومن ثم المناداة بحماية الحقوق اليهودية أينما كانت والحديث عن «مركزية إسرائيل في حياة الشعب». أما القرار الخاص بالهوية اليهودية وضرورة الحفاظ عليها فهو يشير ولا شك إلى «خطر الاندماج» خصوصاً في الولايات المتحدة، الأمر الذي يعني أيضاً استمرار حالة الشتات في الوقت الحاضر على الأقل ونسيان مسألة «تصفية الجماعات»، وهو مصطلح صهيوني كان يعني ضرورة تصفية كل الجماعات اليهودية عن طريق استيطان أعضائها في فلسطين (وانصهار الباقين).

وتجدر ملاحظة أن برنامج القدس الذي حدد أهداف الصهيونية قد لجأ إلى صيغة مراوغة تسمح لكل صهيوني بأن يفسر حدود إسرائيل بالطريقة التي تروق له. فلم ينص البرنامج صراحة على أن «إقامة الدولة على ضفتي نهر الأردن هو هدف الصهيونية»، وإنما تحدث عن «الوطن التاريخي - أي أرض إسرائيل»، وهي عبارة مطاطة لها دلالات كثيرة في العقل الصهيوني (خصوصاً في إطار «رؤية الأنبياء»)، من بينها ولا شك ضفتا نهر الأردن وضفاف النيل والفرات إذا انفتحت الشهية. ولا يزال هناك عنصر واحد ثابت لايتغير وهو عدم التوجه للقضية الفلسطينية ولمصير العرب.

الفصل الخامس
الصهيونية: اختلاط الدلالة وإشكالية التعريف

من المصطلحات التي يتداولها الكثيرون وكأن لها معنى واضحًا محدداً مصطلح «صهيونية»، مع أنه مصطلح مختلط الدلالة بسبب تركيبه الجيولوجي، إذ ظل حقله الدلالي يتغير وتتراكم داخله الدلالات الواحدة فوق الأخرى أو بجوارها، دون أن تمتزج بها ودون أن تجبُّ الواحدة الأخرى، ودون أن يحاول أحد الوصول إلى الوحدة الكامنة خلف الدلالات المتنوعة بل والمتناقضة المتراكمة.

اختلاط الدلالات

على الرغم من أن مصطلح الصهيونية لم يُسك إلا في القرن التاسع عشر، فإنه يستخدم للإشارة إلى بعض النّزعات التي يقال لها صهيونية والتي ظهرت قبل ذلك التاريخ. وفيما يلي بعض، وليس كل، استخدامات المصطلح، سنوردها على قدر المستطاع في تسلسلها التاريخي لنبين الطبيعة الجيولوجية التراكمية للمصطلح:

١ ـ الصهيونية بالمعنى الديني: تشير كلمة «صهيون» في التراث الديني اليهودي إلى جبل صهيون والقدس، بل وإلى الأرض المقدسة ككل، ويشار إلى اليهود أنفسهم باعتبارهم «بنت صهيون»، كما تستخدم الكلمة للإشارة إلى اليهود كجماعة دينية. والواقع أن العودة إلى صهيون فكرة محورية في النسق الديني اليهودي، إذ إن أتباع هذه العقيدة يؤمنون بأن الماشيح المخلص سيأتي في آخر الأيام ليقود شعبه إلى صهيون (الأرض- العاصمة) ويحكم العالم فيسود العدل والرخاء. ولكلمة «صهيون» إيحاءات شعرية دينية في الوجدان الديني اليهودي، فقد جاء في المزمور رقم ١٣٧/ ١، على لسان جماعة يسرائيل بعد تهجيرهم إلى بابل، «جلسنا على ضفاف أنهار بابل وذرفنا الدمع حينما تذكرنا صهيون». وقد وردت إشارات شتى في الكتاب

المقدس إلى هذا الارتباط بصهيون الذي يطلق عليه عادة «حب صهيون»، وهو حب يعبِّر عن نفسه من خلال الصلاة والتجارب والطقوس الدينية المختلفة، وفي أحيان نادرة على شكل الذهاب إلى فلسطين للعيش فيها بغرض التعبد. ولذا كان المهاجرون اليهود الذين يستقرون هناك لا يعملون ويعيشون على الصدقات التي يرسلها أعضاء الجماعات اليهودية في العالم. وكان العيش في فلسطين يعد عملاً من أعمال التقوى لا عملاً من أعمال الدنيا وجزاؤه يكون في الآخرة أو في آخر الأيام، ولهذا لا تربطه رابطة كبيرة بالاستيطان الصهيوني، خصوصاً وأن اليهودية الحاخامية الأرثوذكسية تحرم محاولة العودة الجماعية الفعلية إلى فلسطين وتعتبرها تجديفا وهرطقة ومن قبيل «دحيكات هاكتس»، أي «التعجيل بالنهاية». فاليهودية تؤمن بأن العودة إلى أرض الميعاد ستتم في الوقت الذي يحدده الرب وبطريقته، وأنها ليست فعلاً بشرياً يتم على يد البشر. وهذه النزعة الصهيونية الدينية التي تؤكد عنصر تجاوز المادة لا علاقة لها بالاستيطان الصهيوني الفعلي والمادي في فلسطين، ولا حتى بما يسمَّى «الصهيونية الدينية» في الوقت الحالي.

٢ـ يُطلق اصطلاح «الصهيونية» أيضاً على نظرة محددة لأعضاء الجماعات اليهودية ظهرت في أوروبا (خصوصاً في الأوساط البروتستانتية في إنجلترا ابتداءً من أواخر القرن السادس عشر)، تذهب إلى أن اليهود ليسوا جزءاً عضوياً (فولك) من التشكيل الحضاري الغربي لهم ما لبقية المواطنين وعليهم ما عليهم، وإنما باعتبارهم شعباً عضوياً مختاراً وطنه المقدس في فلسطين، ولذا يجب أن يهجر إليه فهو مرتبط بشكل عضوي به. وقد استمر هذا التيار المنادي بتوطين اليهود في فلسطين حتى بعد أن خمد الحماس الديني الذي صاحب حركة الإصلاح الديني، ويطلق على هذه النزعة اسم «الصهيونية المسيحية»، وهي تشهد في الولايات المتحدة الآن بعثاً جديداً، وخصوصاً في بعض الأوساط البروتستانتية (الأصولية) المتطرفة.

٣ـ مع تزايد معدلات العلمنة في المجتمعات الغربية ظهرت نزعات ومفاهيم صهيونية في أوساط الفلاسفة (ولا سيما الرومانسيين) والمفكرين السياسيين والأدباء تنادي بإعادة توطين اليهود في فلسطين، باعتبار أنهم شعب عضوي منبوذ تربطه علاقة عضوية بها استناداً لأسباب تاريخية وسياسية بل و«علمية». ويُطلق على هذا الضرب من الصهيونية «صهيونية غير اليهود» أو «صهيونية الأغيار».

و«الشعب العضوي» هو الشعب الذي يترابط أعضاؤه ترابط الأجزاء في الكائن

العضوي الواحد، والذي تربطه رابطة عضوية بأرضه وتراثه. وهذا المفهوم يشكل حجر الزاوية في التفاهم بين الصهاينة وأعداء اليهود، فهم جميعاً يرون أن اليهود شعب عضوي واحد مكتف بذاته لا ينتمي إلى الغرب أو إلى أي وطن لأنه يرتبط عضوياً بإرتس يسرائيل أي فلسطين، ولذا يجب نقله إلى هناك.

٤ ـ يلاحظ حتى الآن أن مصطلح «صهيونية» نفسه لم يكن قد تم صكه بعد ومع هذا كان مفهوم الصهيونية مفهوماً متداولاً على نطاق واسع بين الفلاسفة والمفكرين والشعراء والمهووسين الدينيين. ولكن مع تبلور الهجمة الإمبريالية الغربية على الشرق وبخاصة الشرق الإسلامي، ومع تبلور الفكر المعادي لليهود في الغرب بسبب ظهور الدولة العلمانية المركزية التي همشت اليهود كجماعة وظيفية، ومع تصاعد معدلات العلمنة، بدأ مفهوم الصهيونية نفسه في التبلور والتخلص من كثير من أبعاده الغيبية الدينية أو الرومانسية، وانتقل إلى عالم السياسة والمنفعة المادية ومصالح الدول.

٥ ـ ليس من الغريب إذن أن نجد أن نابليون بونابرت، أول غاز غربي للشرق الإسلامي في العصر الحديث وواحد من أهم المعادين لليهود في العالم الغربي (كما يدل على ذلك سجله في فرنسا) وواحد من أهم دعاة العلمانية الشاملة، هو أيضاً صاحب أول مشروع صهيوني حقيقي، إذ دعا الصهاينة إلى الاستيطان في «بلاد أجدادهم»!

٦ ـ أصبح مفهوم الصهيونية مفهوماً أساسياً في الخطاب السياسي الغربي عام ١٨٤١، مع نجاح أوروبا في بلورة مشروعها الاستعماري ضد العالم العربي والإسلامي، وهو المشروع الذي حقق أول نجاح حقيقي له في القضاء على مشروع محمد علي في تحديث مصر والدولة العثمانية. ومع تفاقم المسألة اليهودية التقت المسألة الشرقية بالمسألة اليهودية وساد التصور القائل بإمكان حل المسألتين من خلال دمجهما.

٧ ـ تبلورت المفاهيم الصهيونية وملامح المشروع الصهيوني بشكل كامل في الفترة بين منتصف القرن التاسع عشر وعام ١٨٨٠ على يد المفكرين الصهيونيين غير اليهود لورد شافتسبري ولورانس أوليفانت. وقد لخص شافتسبري التعريف الغربي لمفهوم الصهيونية في عبارة «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض»، في كلمات تقترب كثيراً من الشعار الصهيوني، بينما حاول أوليفانت أن يضع المشروع الصهيوني موضع التنفيذ.

٨ ـ يلاحظ أننا نضع تاريخ تطور مفهوم الصهيونية في سياق التاريخ الفكري والسياسي والعسكري الغربي، ولا نعود إلى العهد القديم أو ما يسمَّى «التاريخ اليهودي» (إلا في محاولة دراسة الديباجات). فالصهيونية في تصورنا ليست ظاهرة يهودية وإنما هي ظاهرة غربية ولدت من رحم الفكر الغربي الإمبريالي. فحتى العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر لم يكن يربط اليهود أو اليهودية علاقة كبيرة بالصهيونية كفكرة أو مفهوم أو مشروع سياسي واقتصادي عسكري، وقد كان هذا هو الرأي السائد في الأوساط الصهيونية حتى عهد قريب، فأول تاريخ رسمي للصهيونية كتب بتكليف من المنظمة الصهيونية وكتبه ناحوم سوكولوف (الذي تولى رئاسة المنظمة الصهيونية بعض الوقت) مكون من جزأين، كرس الأكبر منهما لتاريخ الصهيونية بين غير اليهود.

٩ ـ مع هذا بدأت النزعات الصهيونية تظهر بين اليهود أنفسهم في أواخر القرن التاسع عشر مع تفاقم المسألة اليهودية، وعبَّرت عن نفسها في بادئ الأمر عن طريق المساعدات التي كان أثرياء اليهود في الغرب يدفعونها للجمعيات التوطينية المختلفة التي تهدف إلى توطين يهود شرق أوروبا في أي بلد، ويشمل ذلك فلسطين، حتى لا يهاجروا إلى غرب أوروبا فيعرضون مكانة هؤلاء الأثرياء الاجتماعية وأوضاعهم الطبقية للخطر.

١٠ ـ عبَّرت النزعة الصهيونية في شرق أوروبا عن نفسها من خلال جماعات أحباء صهيون التي حاولت التسلل إلى فلسطين للاستيطان فيها، وتوصف هذه النزعات أيضا بأنها «صهيونية» رغم اختلاف الدوافع بين الفريقين الأول والثاني.

١١ ـ قام المفكر اليهودي النمساوي نيثان بيرنباوم بنحت مصطلح «صهيونية»، في مقال نشره في أبريل في مجلة الانعتاق الذاتي، وشرح معناه في خطاب بتاريخ ٦ نوفمبر ١٨٩١ قال فيه «إن الصهيونية هي إقامة منظمة تضم الحزب القومي السياسي بالإضافة إلى الحزب ذي التوجه العملي (أحباء صهيون) الموجود حالياً». وفي مجال آخر (في المؤتمر الصهيوني الأول [١٨٩٧]) صرح بيرنباوم بأن الصهيونية تري أن القومية والعرق والشعب شيء واحد، وهكذا أعاد بيرنباوم تعريف دلالة مصطلح «الشعب اليهودي» الذي كان يشير فيما مضى إلى جماعة دينية إثنية فأصبح يشير إلى جماعة عرْقية بالمعنى السائد في ذلك الوقت، واستُبعد الجانب الديني منه تماماً، وأصبحتَ الصهيونية الدعوة القومية اليهودية التي جعلت السمات العرقية اليهودية

(ثم السمات الإثنية الثقافية في مرحلة لاحقة) قيمة نهائية مطلقة بدلاً من الدين اليهودي، وخلصت اليهودية من المعتقدات المشيحانية والعناصر العجائبية الأخروية، وهي الحركة التي تحاول أن تصل إلى أهدافها من خلال العمل السياسي المنظم لا من خلال الصدقات. ورغم أن بيرنباوم كان يهدف إلى الدعوة إلى ضرب جديد من التنظيم السياسي مقابل جهود أحباء صهيون التسللية، فإن المصطلح استخدم للإشارة إلى الفريقين معاً.

وبعد المؤتمر الصهيوني الأول (١٨٩٧) في بازل، تحدد المصطلح وأصبح يشير إلى الدعوة التي تبشر بها المنظمة الصهيونية وإلى الجهود التي تبذلها، وأصبح الصهيوني هو من يؤمن ببرنامج بازل (في مقابل المرحلة السابقة على ذلك أي مرحلة أحباء صهيون بمحاولتها المتفرقة للاستيطان في فلسطين من خلال التسلل وليس تحت مظلة إمبريالية قوية).

١٢ ـ بعد ذلك بدأت دلالات الكلمة تتفرع وتتشعب، فهناك «صهيونية سياسية» (يشار إليها أحيانا بعبارة «الصهيونية الدبلوماسية»)، وأخرى «عملية»، وتبعتها «الصهيونية التوفيقية». وكل صهيونية لها توجهها وأسلوبها الخاص وإن كانت جميعاً لا تختلف في الهدف النهائي. وتذهب الصهيونية التوفيقية إلى أن كل الاتجاهات الصهيونية غير متناقضة بل يكمل الواحد منها الآخر ومن ثم يسهل التوفيق بينها.

١٣ ـ تبلور المفهوم الغربي للصهيونية تماماً في وعد بلفور الذي مُنح للشعب اليهودي (أُسقطت عبارة «العرْق اليهودي»)، والذي أشار للعرب باعتبارهم الجماعات غير اليهودية، أي أنَ اليهود أصبحوا شعباً بلا أرض وفلسطين أصبحت أرضا بلا شعب.

١٤ ـ ثم ظهرت بعد ذلك «الصهيونية الثقافية» و«الصهيونية الدينية» التي أضافت إلى الصهيونية البعد الإثني (الديني والعلماني).

١٥ ـ ثم ظهرت «الصهيونية الديموقراطية» و«الصهيونية العمالية» و«الصهيونية التصحيحية» و«الصهيونية الراديكالية».

١٦ ـ وبعد عام ١٩٤٨ ظهرت «صهيونية الدياسبورا».

١٧ ـ يشبِّه يوري أفنيري الصهيونية بالبيوريتانية (بالإنجليزية: بيوريتانيزم Puritanism) في

أمريكا، فهي أيديولوجيا الأصول التي أدت إلى ظهور المجتمع الأمريكي ولكنها ماتت ولم تعد لها فعالية في هذا المجتمع. ويرى الكاتب الإسرائيلي بوعز إفرون أن على الإسرائيلي في علاقته بالصهيونية أن يكون مثل الأمريكي في علاقته بالبيوريتانية، وبذا تصبح الدوافع الأيديولوجية أو الاقتصادية التي دفعت الرواد الأوائل الصهاينة أو البيوريتان إلى الاستيطان في فلسطين أو الولايات المتحدة موضوعاً ذا أهمية تاريخية أو أكاديمية محضة وليس موضوعاً أساسياً.

ويتحدث الكاتب الإسرائيلي أبراهام يهوشاوا عن الصهيونية بوصفها حركة إنقاذ عملية ظهرت حلا للمأزق اليهودي منذ قرن (أي المسألة اليهودية في شرق أوروبا)، وهو يعتقد أن العملية قد وصلت إلى نهايتها، أي أن الصهيونية كانت ولم تعد. وهذا التصور له أساس في الواقع، فالصهيونية لم تعد الأيديولوجية التي ينظر المستوطنون الصهاينة لأنفسهم وللعالم من خلالها. فالدولة الصهيونية لها حركيات ومصالح مستقلة عن حركيات ومصالح أعضاء الجماعات اليهودية في العالم. ومع هذا لا تزال الدولة الصهيونية محتفظة بالصهيونية في صميم بنيتها، فهي لا تزال جيباً استيطانياً يحاول استجلاب يهود العالم لتوطينهم في فلسطين المحتلة، ولا يزال السكان الأصليون يقاومون.

١٨ ـ وهناك مصطلح «الصهيونية الجغرافية» الذي ورد في رسالة بعث بها يوسف ضياء الدين الخالدي رئيس بلدية القدس إلى حاخام فرنسا الأكبر صادوق كاهن (الصديق المقرَّب لكلٍّ من هرتزل ونوردو)، يذكره بأن فلسطين جزء لا يتجزأ من الإمبراطورية العثمانية ويسكنها غير اليهود، ويتنبأ بقيام حركة شعبية ضد الصهيونية فيما لو استمرت الحال على ما هي عليه، ولذا نصح الصهاينة بالتخلي عن «الصهيونية الجغرافية»، أي الربط بين صهيون وفلسطين، وبضرورة البحث عن أرض أو بلاد أخرى. ولعل هذا المصطلح هو المحاولة العربية الوحيدة لسك مصطلح مستقل لوصف الظاهرة، وهو مصطلح دقيق إلى حدٍّ كبير، فهو يفصل بين الصهيونية وبين أية ديباجات دينية أو علمانية ويبين أن المستهدف هو الأرض الفلسطينية، كما أن التركيز على عنصر الجغرافيا يوضح أن عنصر التاريخ الحي قد استبعد. ولذا فقد أشار الخالدي في خطابه إلى أن فلسطين هي بلاد اليهود تاريخياً بمعنى أن جزءاً من تاريخهم مرتبط بها ولكنه تاريخ متحفي بائد، إذ إن فلسطين أصبحت الآن جزءاً من التاريخ العربي

الإسلامي. والواقع أن كلمة «جغرافية» تبين شراهة المشروع الصهيوني واستعماريته وإنكاره تاريخ المنطقة ووجود أهلها.

١٩ـ وفي الوقت الحاضر فإن كلمة «صهيونية» تعني في العالم العربي «الاستعمار الاستيطاني الإحلالي في فلسطين الذي ترسخ بدعم من الغرب».

٢٠ـ تحمل الكلمة إيحاءات دينية لدي كثير من العرب المسلمين أو المسيحيين الذين يرون أن الصراع العربي/ الإسرائيلي صراع ديني سيستمر حتى نهاية الأيام، وأنه في واقع الأمر صراع إسلامي يهودي.

٢١ـ لا تحمل كلمة «صهيونية» أي معنى ديني في بلاد العالم الثالث، ولا تشارك شعوب العالم الثالث في الديباجات الصهيونية المختلفة عن حق اليهود بسبب اضطهادهم في أوروبا، أو عن الرابطة الأزلية بأرض الميعاد. وتحمل الكلمة تقريباً الدلالات نفسها التي تحملها في العالم العربي، أي الصهيونية باعتبارها حركة استعمارية استيطانية إحلالية.

٢٢ـ وحتى نبين مدى خلل المجال الدلالي يمكن أن نشير إلى أن الصهيونية حركة عنصرية حسب أحد قرارات هيئة الأمم، ولكنها ليست كذلك حسب قرار آخر صدر بضغط من الولايات المتحدة.

٢٣ـ وازدادت الأمور تشوشاً حين تم الخلط بين تعريف الصهيونية كما تتشكل على أرض الواقع من جهة، والأمل الصهيونية والاعتذاريات والادعاءات والأكاذيب الصهيونية فتعرف الصهيونية من جهة أخرى. على سبيل المثال بأنها «الحركة الرامية إلى عودة اليهود إلى وطن أجدادهم إرتس يسرائيل حسبما جاء في الوعد الإلهي والآمال المشيحانية لليهود»، وأنها حركة التحرر الوطني القومي اليهودي، بل وأنها حركة اشتراكية عمالية تهدف إلى تحرير الطبقة العاملة اليهودية وإلى تثوير العالم العربي لتحريره من الاستغلال إلى آخر هذه الترهات. فالصهيونية قد تكون من منظور الصهاينة والعالم الغربي (الذي يود التخلص من اليهود) هي تحقيق الآمال المشيحانية، ولكنها من منظور الفلسطينيين الذين اغتصبت أرضهم مخطط استعماري استيطاني إحلالي.

٢٤ـ وإذا كانت الصهيونية تعني تهجير بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين وتوطينهم فيها، فبأي معنى إذن يمكننا الحديث عن «صهيونية الدياسبورا» أو «الشتات»

(الجماعات اليهودية في العالم) - أي صهيونية اليهودي الذي يرفض أن يشترك في عملية الاستيطان الصهيوني - وإن كان في الوقت نفسه يري أنه الحل الوحيد لمشاكل اليهود؟ ولعل هذا هو الذي حدا بالمفكر الصهيوني العمالي بوروخوف إلى أن ينحت مصطلحاً في غاية الأهمية اختفي من الأدبيات والتواريخ الصهيونية وهو «صهيونية الصالونات»، ويعني صهيونية الطبقة الوسطي التي تهتم بالجوانب الحضارية والثقافية والإثنية (أي ما يسمّى «الوعي اليهودي») ولا تهتم كثيراً بالاستيطان.

٢٥ - وهنا يجب أن نثير قضية تتصل بالمجال الدلالي. فإن قبلنا بأن الصهيوني هو من يدعو إلى تهجير اليهود إلى فلسطين وتوطينهم فيها دون أن يهاجر هو نفسه، فهل يمكن أن نطلق المصطلح على دعوة المعادين لليهود بطرد اليهود من أوطانهم وتوطينهم في فلسطين؟ بل هل يمكن أن نطلق المصطلح على المشاريع النازية المختلفة للتخلص من اليهود؟ وهل يمكن الحديث عن النازيين كصهاينة؟ وعلى كل حال فإن هذا ما فعله أدولف أيخمان أثناء محاكمته فقد أشار إلى نفسه باعتباره صهيونياً يحاول أن يضع شيئاً من الأرض الراسخة تحت أقدام اليهود (باعتبار أن اليهود شعب بلا أرض أما الأرض الراسخة فهي فلسطين أرض بلا شعب).

إن التعريفات المختلفة للصهيونية التي ترد في معظم الدراسات الغربية، حتى تلك التي يقال لها محايدة، تخبئ مفاهيم متحيزة تماما للصهيونية. وحينما واجه الباحثون العرب ظاهرة الصهيونية وقعوا في فخ ترجمة المصطلح «زايونيزم zionism» دون توضيح المفهوم الكامن وراءه فترجموه إلى «صهيونية» مع أنه كان من المفروض أن يُترجم إلى «الحركة الصهيونية الاستيطانية الإحلالية». وحينما توجه الباحثون العرب لدراسة ظاهرة المستوطنات «ستلمنتس settlements» فقد ترجموها إلى «مستوطنات»، وكان من الواجب أن تُترجم إلى «المستوطنات الإحلالية» حتى يوضحوا المفهوم الكامن وراء المصطلح انطلاقاً من تجربتهم المعاشة ومن ملاحظتهم المباشرة للظاهرة الصهيونية وتبدياتها المختلفة. لكل هذا يصبح من الواجب أن نعيد تعريف الصهيونية.

الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة

تتسم التعريفات الشائعة في المعاجم الغربية للصهيونية بضعف مقدرتها التفسيرية. فإن كانت الصهيونية هي حركة القومية اليهودية وعودة اليهود لأرض الأجداد (كما تقول بعض المعاجم)، فكيف نفسر أن أغلبية هذا الشعب اليهودي الساحقة لا تزال تعيش في

«المنفى» متمسكة به تدافع عن حقوقها فيه؟ وكيف نفسر امتلاء مخيمات اللاجئين بملايين الفلسطينيين؟ كيف نفسر ما يقومون به من مقاومة؟ وإذا كان الصهاينة يحاولون طرح تعريفات تخبئ حقيقة البرنامج الصهيوني فمن حقنا نحن الضحية أن نحاول أن تسمية الأشياء بأسمائها، فمن يسمِّي الأشياء يدركها حق الإدراك ويمكنه تصنيفها حسب هويتها الحقيقية وبذلك يمكنه التصدي لها. ولذا لابد من طرح تعريفات جديدة أكثر تركيبية وشمولاً وتفسيرية تتجاوز كل الاعتذاريات والديباجات والأوهام الصهيونية لنصل إلى بعض الثوابت الكامنة، وسنحاول إنجاز هذا من خلال عملية تفكيك لما هو ظاهر واكتشاف لما هو كامن وبلورته، ثم نعيد التركيب ونطرح تعريفاً جديداً له مقدرة تفسيرية أعلى.

ونحن نذهب إلى أن ثمة صيغة صهيونية أساسية شاملة تشكل التعريف الحقيقي للصهيونية. و«الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة» مصطلح قمنا بصكه للإشارة إلى الثوابت والمسلمات النهائية الكامنة في الاتجاهات الصهيونية كافة مهما اختلفت دوافعها وميولها ومقاصدها وطموحاتها وديباجاتها واعتذارياتها، ولا يمكن وصف أي قول أو اتجاه بأنه صهيوني إن لم يتضمن هذه المسلمات فهي بمنزلة البنية العامة الكامنة وهي التي تشكل الأساس الكامن للإجماع الصهيوني ويمكن تلخيصها فيما يلي:

١ - اليهود شعب عضوي، أي كتلة بشرية متماسكة تدين بالولاء لنفسها، وهي لهذا السبب لا تنتمي للحضارة الغربية، ومن ثمَّ فاليهود شعب عضوي منبوذ (من المجتمعات التي يعيش فيها). واليهود أيضاً جماعة وظيفية فقَدت وظيفتها، وأصبحت بلا نفع، لكل هذا يجب نقل هذه الكتلة البشرية - هذا الشعب العضوي المنبوذ - خارج أوروبا لتتحول إلى شعب عضوي نافع.

٢ - ينقل هذا الشعب إلى أية بقعة خارج أوروبا [استقر الرأي، في نهاية الأمر، على فلسطين بسبب أهميتها الإستراتيجية للحضارة الغربية] ليوطن فيها وليحل محل سكانها الأصليين الذين لابد أن تتم إبادتهم أو طردهم على الأقل [كما هو الحال مع التجارب الاستعمارية الاستيطانية الإحلالية المماثلة]، تماماً كما حدث مع كتل بشرية أخرى تم توظيفها في أمريكا الشمالية وأستراليا وجنوب أفريقيا.

٣ - يتم توظيف هذا الشعب لصالح العالم الغربي الذي سيقوم بدعمه وضمان بقائه واستمراره داخل إطار الدولة الوظيفية في فلسطين.

ولم تظهر الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة كاملة بين يوم وليلة، وإنما ظهرت بالتدريج وكان يضاف لكل مرحلة عنصر جديد إلى أن اكتملت مع صدور وعد بلفور وتحولت إلى الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة. والواضح أن الصيغة الصهيونية الأساسية تضرب بجذورها في الحضارة الغربية. وهنا نعرض لتاريخ تشكلها واكتمالها:

١ ـ تضرب الصيغة بجذورها في موقف الحضارة الغربية من الجماعات اليهودية وفي وضعهم داخلها، وهو موقف صهيوني ومعاد لليهود في آن واحد، أو صهيوني لأنه معاد لليهود. فاليهود، حسب هذا الموقف، شعب مختار عضوي متماسك (شعب شاهد - جماعة وظيفية)، ووجوده في مجتمع ما ليس له أهمية في حد ذاته، بل تتحدد أهميته بمقدار ما يخدم الوظيفة الموكلة إليه. وحين يفقد الشعب وظيفته لابد من التخلص منه عن طريق نقله (على طريقة بلفور) أو ربما إبادته (على طريقة هتلر). ومن هنا، فإن نقطة الانطلاق (الشعب العضوي المنبوذ) هي الرقعة المشتركة بين معاداة اليهود والصهيونية، وهي صيغة خروجية تصفوية، إذ تطالب بإخراج اليهود من أوروبا وتصفيتهم، فالعنصر الأول بشقيه هو جوهر عداء اليهود وهو أيضاً المقدمة الأساسية للصهيونية.

٢ ـ وأضيف لهذه الصيغة العنصر الثاني (الكامن تاريخياً وبنيوياً في العنصر الأول) وهو اكتشاف نفع اليهود ومن ثم إمكانية توظيفهم خارج أوروبا (وإصلاحهم). وقد اكتشف هذا الجزء أو تم تأكيده ابتداءً من القرن السابع عشر، وهو عصر ظهور الرؤية المعرفية العلمانية الشاملة الإمبريالية. ويلاحظ أن ما يميز الصهيونية عن معاداة اليهود هو هذا الجزء، فكلاهما يرى اليهود عنصراً غير نافع يوجد داخل الحضارة الغربية ولكنه لا ينتمي إليها ولا حل للمشكلة إلا بإخراج اليهود وبينما يلجأ أعداء اليهود إلى إخراج اليهود بشكل عشوائي عن طريق طردهم أو إبادتهم دون تخطيط أو ترشيد، فإن الصهاينة يرشدون العملية كلها ويرون إمكانية إخراج اليهود بشكل منهجي وتحويلهم إلى عنصر نافع.

٣ ـ تظل الصيغة الصهيونية حتى نهاية القرن التاسع عشر مجرد فكرة رومانسية عنصرية ولكنها تتحول إلى حركة منظمة بعد مرحلة هرتزل وبلفور، ومضمونها أن يتم التوظيف من خلال دولة وظيفية على أن تشرف على العملية إحدى الدول الاستعمارية الغربية الكبرى التي تؤمن للمستوطنين موطئ قدم وتضمن بقاء واستمرار

الدولة الوظيفية الاستيطانية. ومع وعد بلفور يصبح المكان الذي ستقام فيه الدولة الوظيفية هو فلسطين وتتحول الصيغة الأساسية إلى الصيغة الشاملة.

ولنا أن نلاحظ أن المفهوم الكامن وراء الصيغة الأساسية الشاملة في الصهيونية الغربية مفهوم محوري في الحضارة الغربية، فلم يتم إدراك اليهود وحدهم من خلاله وإنما تم إدراك كل المنحرفين اجتماعياً. فعلى سبيل المثال، كان يتم نقل المساجين إلى أستراليا وتوظيفهم هناك بحيث يتحولون إلى عناصر صالحة، أي أعضاء في الحضارة التي نبذتهم ونقلتهم.

والصيغة الأساسية الشاملة هي القاسم المشترك الأعظم بين كل الصهيونيات: صهيونية اليهود - صهيونية غير اليهود - صهيونية اليهود المتدينين - صهيونية اليهود العماليين - صهيونية اليهود المتمسكين بإثنيتهم - صهيونية اليهود غير اليهود، وذلك بغض النظر عن الديباجات والاعتذاريات وزوايا الرؤية، ولا شك في أنها تصلح أساساً تصنيفياً للتفرقة بين الصهيونية وغيرها من الحركات التي توجهت للقضايا نفسها.

والصيغة الشاملة هي الأساس الذي يستند إليه ما نسميه «العقد الصهيوني الصامت» بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود الغرب، فهذا العقد يتيح الفرصة أمام يهود الغرب لأن يحققوا من خلال الخروج من العالم الغربي ما فشلوا في تحقيقه من خلال البقاء فيه. وعلى المستوي السياسي يمكن القول بأن الصيغة الشاملة تعني ربط حل المسألة اليهودية (مشكلة الجماعات الوظيفية اليهودية التي أصبحت بلا وظيفة) بالمسألة الشرقية (مشكلة تقسم الدولة العثمانية) وذلك بأن تنقل الجماعة الوظيفية اليهودية وتعهد لها بوظيفة قتالية جديدة، هي الدفاع عن المصالح الغربية.

والصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة محايدة تماماً، فهي صيغة علمانية نفعية مادية تماماً، رغم كل ما قد يحيط بها من ديباجات مسيحية أو رومانسية، فهي ترى اليهود باعتبارهم مادة نافعة لا قداسة لها، وهي تنظر لوجود اليهود في العالم نظرة سلبية لابد من وضع نهاية لها. ولذا فهي صيغة تدعو اليهود إلى إنهاء السلبية والعودة المادية إلى فلسطين دون انتظار أي أمر إلهي (الأمر الذي يتنافى مع العقيدة المسيحية الكاثوليكية واليهودية الأرثوذكسية). والصيغة تعلمن اليهود فهم مادة نافعة تنقل، كما تعلمن المكان الذي سينقلون إليه فهو مجرد حيز، وتعلمن سكانه الأصليين فمصيرهم إما النقل أو الإبادة، وتعلمن وسيلة النقل (فهي الإمبريالية) والهدف منه (تأسيس قاعدة للاستعمار الغربي).

ليس من السهل على المرء قبول أن يتحول إلى وسيلة وأن ينقل كما لو كان شيئاً لا قيمة له إلى أرض (أي أرض)، حتى لو كان عضو جماعة وظيفية أصبحت بلا وظيفة. ولذا نجد أن المقدرة التعبوية للصهيونية دون ديباجات واعتذاريات يهودية تكاد تكون منعدمة، إذ إنها تفترض أن ينظر اليهود إلى أنفسهم بشكل براني ويشيئون أنفسهم، وهذا أمر مستحيل بطبيعة الحال.

وقد طوَّر هرتزل الخطاب الصهيوني المراوغ الذي فتح الأبواب المغلقة أمام كل الديباجات اليهودية المتناقضة والتي غطت بسبب كثافتها على الصيغة الأساسية الشاملة، وأخفت إطارها المادي النفعي حتى حلت بالنسبة لأعضاء الجماعات اليهودية في الغرب بل وبالنسبة لمعظم قطاعات العالم الغربي محل الصيغة الأساسية الشاملة.

وقد تم التوصل إلى الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهودة بأن قامت الصهيونية الإثنية الدينية والعلمانية بإسقاط ديباجات الحلولية الكمونية، التي تلغي الحدود بين الإله والأرض والشعب وتوحد بينهم وكأنهم نفس الشيء، وتخلع القداسة على كل ما هو يهودي، بحيث يتحول اليهود من مادة نافعة إلى كيان إنساني له هدف وغاية ووسيلة ورسالة وتجعل عملية نقله مسألة إنسانية نبيلة، أو حتمية تاريخية، أو حتى ذات أبعاد صوفية أو شبه صوفية. وقد يسر هذا على المادة البشرية أن تستبطن الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة، كما يسرت عملية التحالف بين الصهاينة الدينيين والعلمانيين: الجميع يتفق على قداسة الشعب ورسالته (ومطلقيته) ويختلفون حول مصدر القداسة وتجلياتها. ورغم كثافة الديباجات وإغراقها في الحلولية تظل الثوابت كما هي وتظل الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة كما هي.

وتذهب الصيغة المهودة إلى أن العالم هو «المنفى» وأن اليهود يشكلون «شعباً عضوياً واحداً» (أرض الأغيار)، شعب منبوذ لابد أن ينقل من المنفى إلى فلسطين «أرض الميعاد». ورغم هذا الاتفاق المبدئي على الثوابت فإن الديباجات تختلف، فالشعب العضوي المنبوذ لا ينبذ بسبب أنه جماعة وظيفية فقدت دورها أو لأنه قاتل المسيح وإنما لعدد من الأسباب تتغير بتغير صاحب الديباجة، منها أنه شعب مقدس مكروه من الأغيار في كل زمان ومكان بسبب قداسته (الصهيونية الإثنية الدينية)، أو بسبب تركيبه الطبقي غير السوي، مما يجعل من اليهود جماعات طفيلية (الصهيونية العمالية)، أو لأن هويته الإثنية العضوية

لا يمكن أن تتحقق إلا في أرضه (الصهيونية الإثنية العلمانية [الثقافية])، أو لأنه شعب ليبرالي عادي يود أن يكون مثل كل الشعوب، خصوصاً الشعوب الغربية (الصهيونية السياسية). ومهما اختلفت الأسباب فإن هذا الشعب ينظر إلى نفسه فيرى كياناً عضوياً مطلقاً له قيمة إيجابية ذاتية (بل يجد أنه المطلق وموضع الحلول والكمون، ولذا فإن له حقوقاً مطلقة في وطنه القومي اليهودي، أي فلسطين).

أما الهدف من النقل فليس التخلص من اليهود أو تأسيس دولة وظيفية تقوم على خدمة الغرب، وإنما هو إصلاح الشخصية اليهودية وتطبيعها وتأسيس دولة اشتراكية تحقق مثل الاشتراكية (الصهيونية العمالية)، أو الاستجابة للحلم الأزلي في العودة وتحقيق رسالة اليهود الإلهية وتأسيس دولة تستند إلى الشريعة اليهودية (الصهيونية الدينية)، أو تحقيق الهوية اليهودية وتأسيس دولة يهودية بالمعني العلماني تكون بمنزلة مركز روحي وثقافي ليهود العالم (الصهيونية الإثنية العلمانية)، أو تحقيق مثل الحرية وتأسيس دولة ديموقراطية غربية (الصهيونية السياسية). كما اكتسب المكان الذي سينقل إليه الشعب معنىً داخلياً، إذ تصبح الأرض هي الأرض الوحيدة التي تصلح للخلاص (المشيحاني أو الاشتراكي أو الليبرالي)، فهي «أرض الميعاد» الإثنية الدينية أو العلمانية، بل إن خلاص الشعب هو خلاص الأرض وهو نفسه مشيئة الإله.

آليات الانتقال ليست الاستعمار الغربي أو العنف والإرهاب، وإنما هي القانون الدولي العام متمثلاً في وعد بلفور (في الصياغة الصهيونية السياسية)، أو تنفيذاً للوعد الإلهي والميثاق مع الإله (في الصياغة الدينية)، أو بسبب قوة اليهود الذاتية (في الصياغة الصهيونية التصحيحية). ويلاحظ أن هناك عنصراً واحداً ثابتاً لا يتغير، وهو نقل الكتلة البشرية اليهودية من الغرب إلى فلسطين وتحويلهم إلى مستوطنين صهاينة وطرد الفلسطينيين من وطنهم وتحويلهم إلى لاجئين. وما يتغير هو الديباجات وحسب ويبقى الفعل الصهيوني الاستيطاني الإحلالي. وعلى هذا فإن عملية نقل اليهود من المنفي إلى فلسطين (سواء بسبب الوعد الإلهي أو بسبب وعد بلفور) تؤدي إلى نقل الفلسطينيين خارج وطنهم (إلى المنفى).

ويلاحظ أن الصهيونية التصحيحية هي أكثر التيارات الصهيونية صراحةً، فهي تفصح عن الارتباط بالاستعمار ووظيفية الدولة وضرورة اللجوء للعنف، أي أنها تقترب من الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة ولا تختفي إلا وراء الحد الأدنى من الديباجات.

وقد اتجهت الصيغة المهودة لقضية يهود الغرب المندمجين في مجتمعاتهم، والذين لا ينوون (لعدة أسباب خاصة بهم) الانتقال إلى أرض الميعاد الاشتراكية أو الرأسمالية أو اليهودية، فقبلت قرارهم هذا نظير تلقي دعمهم والتفافهم حولها، على أن تلزم الحركة الصهيونية الصمت تجاه فضيحة الصهاينة الذين لا يهاجرون.

وقد تنبه كثير من المفكرين الصهاينة إلى وجود الصيغة الشاملة المهودة أو اليهودية من وجهة نظرهم (رغم أن أحداً منهم لم يسمها). فيشير حاييم لانداو، على سبيل المثال، إلى أن البرنامج الصهيوني يدور حول فكرة ثابتة واحدة وكل القيم الأخرى إن هي إلا أداة في يد المطلق ثم يحدد هذا المطلق على أنه الأمة. وقد وافقه موشيه ليلينبلوم، وكان ملحداً، على قوله هذا «إن الأمة كلها أعز علينا من كل التقسيمات المتصلبة المتعلقة بالأمور الأرثوذكسية أو الليبرالية في الدين فلا مؤمنين وكفار فإن الجميع أبناء إبراهيم وإسحق ويعقوب لأننا كلنا مقدسون سواء كنا غير مؤمنين أو كنا أرثوذكسيين». والمعنى أن الشعب كله هو مركز الحلول، تجري في عروقه هذه القداسة بشكل متوارث. أما كلاتزكين فيوضح القضية بما ينم عن الذكاء في مقاله «الحدود» حيث يبين أن اليهودية تعتمد على الشكل لا على المضمون، والشكل يعني في واقع الأمر بنية العلاقات الكامنة وليس الشكل بالمعنى الدارج للكلمة. وهذا الشكل الأساسي - كما يقول - هو تخليص «الشعب اليهودي» للأرض، أما المضامين الروحية أو الفكرية فتختلف بشكل جذري، ولكن هذا لا يهم لأن مضمون الحياة نفسه (أي واقعها) سيصبح قومياً عندما تصبح أشكالها قومية وقد تنبه هؤلاء المفكرون الصهاينة - وأولهم ديني متطرف في تدينه والآخران علمانيان - إلى أن ثمة فكرة ثابتة تشكل جوهراً ما «مطلقاً» على حد قول الأول، و«شكلاً أساسياً» أو «قداسة معينة» على حد قول المفكرين الآخرين. كما تنبهوا إلى أن هذا الجوهر هو الثابت وأنه يغير ما عداه ويحوره ويسمه بميسمه، وقد حددوه بأنه مفهوم الأمة اليهودية.

بعض المصطلحات المتفرعة عن الصيغة الصهيونية

لإلقاء المزيد من الضوء على الصيغة الصهيونية الشاملة وعلى النمط الذي تنتمي إليه، قمنا بصياغة بعض المصطلحات مثل: «الوعود البلفورية» و«المسألة الأوروبية» و«إجماع المستوطنين».

١ـ الوعود البلفورية:

«الوعود البلفورية» مصطلح نستخدمه للإشارة إلى مجموعة من التصريحات التي أصدرها بعض رجال السياسة في الغرب يدعون فيها اليهود لإقامة وطن قومي لهم في فلسطين ويعدون بدعمه وتأمينه نظير أن يقوم اليهود على خدمة مصالح الدولة الراعية، أي أنها دعوة لتوقيع العقد الصامت بين الحضارة الغربية واليهودية.

والوعود البلفورية تعبير عن نموذج كامن ونمط متكرر في الحضارة الغربية يضرب بجذوره فيها، وهي حضارة تنحو منحى عضوياً وتجعل التماسك العضوي مثلاً أعلى. ونظراً لأن التماسك العضوي هو المثل الأعلى فإن عدم التجانس يصبح سلبياً كريهاً، وينتج عن هذه الرؤية للكون رفض للآخر في شكل الأقليات. ومن ثم نجد أن الحضارة الغربية (والمسيحية الغربية) لم تتوصل إلى إطار تتعامل من خلاله مع الأقليات، وبالذات اليهود، وإنما همشتهم (شعب شاهد) وحوسلتهم (جماعة وظيفية). ومنذ عصر النهضة الغربية والثورة العلمانية الشاملة بدأت أزمة الجماعات اليهودية وظهرت الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة، التي تعد جزءاً من فكرة العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية بشأن يهود العالم: شعب عضوي منبوذ - نافع - ينقل خارج أوروبا إلى فلسطين ليوظف لصالحها في إطار الدولة الوظيفية التي أصبحت إطار التعامل مع اليهود والمسألة اليهودية.

وقد صدرت معظم الوعود البلفورية في القرن التاسع عشر واستمرت حتى صدور وعد بلفور عام ١٩١٧، الذي حسم مسألة علاقة اليهود بالحضارة الغربية، كما صدرت عدة وعود بلفورية ألمانية.

ويمكننا هنا أن نتوقف قليلاً عند واحد من أهم إسهامات هرتزل للحركة الصهيونية وهو أنه إذا كانت الفكرة الصهيونية، إمكانية كامنة في الحضارة الغربية تود أن تتحقق، فلم يكن بإمكانها أن تخرج من عالم الوجود بالقوة إلى عالم الوجود بالفعل إلا من خلال آليات محددة أهمها تنظيم المادة البشرية (اليهودية) التي سيتم ترحيلها وتأسيس إطار تنظيمي يمكنه أن يتلقى الوعود وأن يقوم بتنفيذها. وحينما أصدر نابليون وعده البلفوري لم يكن هناك تنظيم يهودي يمكنه تلقي هذا الوعد والعمل على تسخير المادة البشرية لتنفيذه، وهذا ما أنجزه هرتزل بعد أن نشر كتابه دولة اليهود، الذي وضح فيه ما نسميه «العقد الصامت بين الحضارة الغربية والحركة الصهيونية». فقد قرر هرتزل أن يأخذ بزمام الأمور وأن يتوجه

للدول العظمى، وساعده في مسعاه هذا القس (الواعظ) الصهيوني نصف المجنون هشلر، إذ قدمه إلى أحد كبار المسئولين الألمان الذي تحدث إلى القيصر عن الموضوع وكانت ثمرة هذه الاتصالات وعد بلفوري ورد في خطاب من دون إيلونبرج باسم حكومة القيصر إلى هرتزل (مؤرخ في سبتمبر ١٨٩٨).

ومن الأمثلة الأخرى على الوعود البلفورية الوعد البلفوري الروسي القيصري. فقد قام هرتزل بمقابلة فون بليفيه وزير الداخلية الروسي المعادي لليهود، بتفويض من المؤتمر الصهيوني الخامس (١٩٠١)، حتى يحصل على تصريح يعبر عن نوايا الروس يتلوه في المؤتمر الصهيوني السادس المزمع عقده سنة ١٩٠٣.

وتوصل هرتزل أيضاً إلى اتفاق مع المسئولين الروس مفاده أن تبذل الحكومة الروسية مساعيها الحميدة لدى تركيا لتسهيل دخول اليهود إلى فلسطين، وتقدم مساعدات مالية للمهاجرين تُجمع من مصادر يهودية، وتسهل تنظيم الجمعيات الصهيونية الملتزمة ببرنامج بازل. كما سمح لبنك الاستيطان اليهودي ببيع أسهمه في روسيا شريطة أن يفتح فرعاً له في البلد لكي تستطيع السلطات مراقبة عمليات البيع. كذلك قام بليفيه بتزويد هرتزل برسالة موقعة منه وبعد أن بحث محتوياتها مع القيصر أعلن فيها أن الحكومة الروسية تنظر بعين العطف إلى الصهيونية مادام هدفها إقامة دولة مستقلة في فلسطين، وأنها على استعداد لمساعدتها، وهذه المساعدة قد تتخذ شكل حماية الممثلين الصهيونيين أمام الحكومة العثمانية، وتسهيل نشاط جمعيات الهجرة ومساعدتها مالياً من الضرائب التي تجبى من اليهود. وقد استغل هرتزل هذه الرسالة في أكثر من مناسبة فيما بعد.

ويمكن أن ننظر إلى مشروع شرق أفريقيا (أي محاولة وزارة الاستعمار البريطاني توطين الفائض البشري اليهودي في كينيا) باعتباره أحد أهم الوعود البلفورية، وهو لا يختلف كثيراً عن الوعود البلفورية التي أشرنا إليها وإن كان أكثر جدية وأكثر تحدداً منها، كما أنه يشبه في كثير من النواحي وعد بلفور الذي صدر في نهاية الأمر.

وقد صدر آخر الوعود البلفورية عن ألمانيا بعد صدور وعد بلفور نفسه عن إنجلترا، إذ استغل الصهاينة الوضع الدولي الناشئ عن الجمود الذي ساد جبهات القتال عام ١٩١٦ واتجهوا إلى حث الحكومة الألمانية على إصدار بيان رسمي يتضمن العطف على الصهيونية في فلسطين، ولكن الحكومة الألمانية كانت لا تزال مرتبطة بتحالف مع الحكومة

العثمانية، كما كانت تخشي أن يؤدي تدهور الوضع العسكري إلى أن تسارع الحكومة العثمانية بعقد صلح منفرد مع الحلفاء. وحيث إن ألمانيا لم تشأ التضحية بتحالفها من أجل الصهاينة، فقد ترددت كثيراً في الاستجابة للمطلب الصهيوني، ثم صدر وعد بلفور نفسه عام ١٩١٧.

ويمكننا القول إن وعد بلفور، أهم الوعود البلفورية، هو أيضاً أهم حدث في تاريخ الصهيونية وتاريخ الجماعات اليهودية في العالم كما أن أهميته بالنسبة لفلسطين والفلسطينيين لا تخفي على أحد.

٢- المسألة اليهودية والمسألة الأوروبية:

لا يمكن فهم حقيقة الصهيونية كمصطلح ومفهوم إلا بوضعها في سياقها الغربي الاستعماري، وهذا يتطلب تحديد المفاهيم الكامنة وراء مصطلحين آخرين، أحدهما يتكرر في الخطاب الغربي والثاني من وضعنا.

نحن نذهب إلى أنه لا توجد مسألة يهودية عالمية وإنما توجد مسألة يهودية شرق أوروبية، وهي مشكلة أعضاء الجماعات اليهودية في شرق أوروبا الذين كانوا يعيشون في مجتمعات تعثرت فيها عملية التحديث في الوقت الذي حدثت فيها طفرة سكانية بينهم فتحول أعضاء الجماعات اليهودية من جماعات وظيفية تقوم بوظيفة حيوية إلى جماعات وظيفية بلا وظيفة، وبالتالي تحولوا إلى فائض بشري وبدءوا في الهجرة إلى غرب أوروبا فواجهت أوروبا إشكالية هذا الفائض البشري الذي كان يهدد أمنها الاجتماعي وبدأت تتخذ إجراءات للحد من هذه الهجرة. فعلى سبيل المثال، استصدر لورد بلفور، حينما كان يشغل منصب رئيس الوزراء في بريطانيا عام ١٩٠٥، قانون الغرباء لمنع اليهود من دخول إنجلترا وطرح الحل الغربي للمسألة اليهودية.

ولا يمكن فهم هذا الحل إلا في إطار ما أسميه «المسألة الأوروبية»، وهو مصطلح قمنا بسكه لوصف ظاهرة لها انعكاسات عالمية، ولا يمكن فهم كثير من الظواهر في كل أنحاء العالم ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر إلا في علاقتها بالمسألة الأوروبية. فقد تفجرت داخل القارة الأوروبية ثورة صناعية غيرت من علاقة الإنسان بالطبيعة تغييراً جوهرياً، فاستطاع الإنسان أن ينتج وفرة من السلع تفوق بمراحل ما يمكنه استهلاكه، ولكن هذه الوفرة من السلع - هذا «الخير» إن أردنا استخدام مصطلح أخلاقي - لم

يحسن استخدامه بأي شكل، فالثروة في حد ذاتها لا تنتج ولا تثمر شيئاً وما يهم هو كيفية استخدامها وكيفية توزيعها واستهلاكها ولهذا، نجم عن الثورة الصناعية في أوروبا خلل اجتماعي. فالسلع الوفيرة لم توزع بالعدل بين الناس، مما أدى إلى انقسام المجتمع إلى أغلبية من الفقراء المُعدمين الذين ينتجون ولا يستهلكون إلا النزر اليسير بسبب فقرهم وأقلية من الأثرياء الذين لا ينتجون ولا يستهلكون إلا النذر اليسير بسبب قلة عددهم. وقد تسبب هذا في دورات من الكساد الاقتصادي، حيث تتكدس السلع التي لا يستهلكها أحد والعمال العاطلون غير قادرين على استهلاك شيء. ومن ثمَّ، كان حل المسألة الأوروبية في ذلك الوقت يتلخص في تصريف الفائض السلعي والفائض الإنساني والتخلص منهما بل إنه ظهرت مشكلة أخرى وهي الحاجة للمواد الخام اللازمة للمصانع، أو الطواحين الشيطانية كما سماها أحد الشعراء حتى تدور ولا تتوقف قط عن الدوران وتنتج السلع التي لا يستهلكها أحد. إلا أن الثورة الصناعية ذاتها سخرت الطاقة لخدمة الإنسان وجعلت من اليسير عليه أن ينتقل من مكان إلى مكان بيسر وسهولة، كما أصبح من الممكن لأي إنسان، بغض النظر عن أصله القومي أو الثقافي أن يقطن في أي مكان يختاره، سواء كان حاراً شديد الحرارة أو بارداً شديد البرودة.

وتشكل هذه العوامل مجتمعة، أي الفائض السلعي والفائض البشري والقدرة على التوسع والانتشار في كل بقاع الأرض، جوهر المسألة الأوروبية في القرن التاسع عشر، كما تشير إلى الحل الأساسي المطروح. والحل - في اقتصاد مبني على الإنتاج والتصدير- كان يكمن في تصدير المشاكل الأوروبية إلى شعوب آسيا وأفريقيا، وتصدير المشاكل هو في جوهره الاستعمار، إذ جيشت أوروبا الجيوش وبنت الأساطيل وأنتجت السلاح واقتسمت العالم كله (باستثناء بضعة جيوب صغيرة نائية مثل اليابان كانت تحف بمحاولة استعمارها مصاعب كبيرة). وكان الاستعمار الغربي ضروباً وأصنافاً، فحل مشكلة الحصول على المواد الخام وتصريف السلع المباشرة كان يتطلب أن تسير الجيوش وتخضع البلاد التي تشكل مصدرا للمواد الخام أو سوقا محتملة للسلع فتسلبها الإرادة السياسية والاقتصادية وتحولها إلى مصدر أساسي للمواد التي يريدها المستعمر وتحطم صناعاتها الأساسية التقليدية والجديدة لتحولها إلى سوق خصب للسلع. وهذا ما حدث في مصر والهند، حيث تحولت مصر إلى مزرعة قطن لمصانع لانكشير وكانت القوى الأوروبية قد حطمت كل الصناعات التي أسسها محمد علي وأغرقت مصر بالديون. ويمكن أن نسمي هذا النوع من الاستعمار «الاستعمار التقليدي».

أما مشكلة تصريف «الفائض البشري» فتتطلب نوعاً آخر من الاستعمار. فبعد أن كانت جيوش أوروبا الاستعمارية تسيطر على بلد ما كانت تخصص مناطق معينة لتوطين السكان الأوروبيين فيها ومن هنا كانت تسمية هذا النوع من الاستعمار بـ «الاستعمار الاستيطاني أو السكاني». فإذا كان الاستعمار التقليدي يأخذ شكل جيش يغزو بلداً ما ثم يستغله ككل لصالح البلد الغازي، فإن الاستعمار الاستيطاني يأخذ شكل نقل مستوطنين أوروبيين من بلادهم إلى البلد الجديد ليعيشوا فيه وليتخذوه وطناً جديداً لهم. ورغم اختلاف هذين النوعين من الاستعمار فإنهما يشكلان وحدة لا تنفصم عراها، فكلاهما يشكل بُعداً إستراتيجياً للقارة الأوروبية، وكلاهما يشكل قاعدة انطلاق فالجيوش تحمي المستوطن، والمستوطن يشكل قاعدة سكانية للجيوش. ولا يمكن بأية حال فصل الاستعمار الفرنسي في المغرب وتونس حيث كان يأخذ شكلاً تقليدياً عنه في الجزائر حيث كان يأخذ شكلاً استيطانياً، وليس من قبيل الصدفة أن طلائع الاستعماريين الاستيطانيين الصهاينة وصلت إلى فلسطين في عام ١٨٨٢، وهو نفس العام الذي دخلت فيه الجيوش البريطانية مصر.

وقد ربط المفكرون الإستراتيجيون الغربيون في منتصف القرن التاسع عشر بين المسألة اليهودية والمسألة الشرقية، أي مشكلة الدولة العثمانية التي وُصفت بأنها رجل أوروبا المريض، وبدأ التساؤل إن كان من المصلحة الإبقاء عليه متماسكاً أم تقسيمه ومن سيرثه بعد عملية التقسيم؟ وقد اهتدى هؤلاء المفكرون إلى أنه يمكن حل المسألة اليهودية عن طريق توظيفها في حل المسألة الأوروبية بطريقة تخدم مصالح العالم الغربي، فينقل الفائض البشري الوظيفي إلى الشرق ليتحول إلى جماعة وظيفية استيطانية توطن في فلسطين على هيئة دولة وظيفية تخدم المصالح الغربية فتقوم بتقسيم العالم العربي إلى قسمين، وهي دولة تطل على الممرات المائية الإستراتيجية فتحول دون ظهور قوة محلية تملأ الفراغ الذي سينجم عن تقسيم الدولة العثمانية التي قد تهدد المصالح الغربية، وهذا هو أيضاً الحل الصهيوني للمسألة اليهودية.

٣ ـ من الإجماع الصهيوني إلى إجماع المستوطنين:

«الإجماع» في عالم السياسة هو الاتفاق بين النخبة والغالبية الساحقة من الشعب بشأن عدد من المسلمات الفلسفية والأخلاقية والسياسية، و«الإجماع الصهيوني» هو اتفاق داخل الدولة الصهيونية بين «التيارات والاتجاهات والأحزاب الصهيونية» التي تضم

الغالبية الساحقة من المستوطنين الصهاينة بشأن الأمن وحدود الدولة والعلاقة مع الفلسطينيين ومع يهود العالم ودول العالم وبخاصة دول العالم الغربي وفي مقدمتها الولايات المتحدة التي ترعى الكيان الصهيوني. وقد تظهر اختلافات بشأن الوسائل والنهج، ولكنها لا تنصرف مطلقاً إلى المسلمات النهائية، والعقد الاجتماعي الذي يستند إليه التجمع الصهيوني هو نفسه هذا الإجماع، وهو الذي كان يشكل المرجعية النهائية لكل الأحزاب والتيارات الصهيونية.

والإجماع الصهيوني يصدر عن جملة واحدة: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض». هذه الجملة البسيطة العنصرية الإبادية يتم تطويرها على شكل بناء أيديولوجي ومصطلحي متماسك مع إضافة الديباجات اليهودية التي أضفت بعداً تاريخياً وجمالياً على الرؤية العنصرية الإبادية حتى تبدو كما لو كانت أمراً إنسانياً رائعاً، ويمكن تلخيص بنود الإجماع الصهيوني فيما يلي:

(أ) اليهود شعب واحد طليعته هم المستوطنون الصهاينة وفلسطين هي أرض الميعاد أو إرتس يسرائيل (وطن اليهود القومي) وليست فلسطين وطن أهلها، وعلى يهود العالم أن يهاجروا إلى إرتس يسرائيل وأن يلتفوا حول دولتهم الصهيونية القومية ويقوموا بدعمها مالياً وسياسياً، فهي المركز وهم الهامش. وهذه الدولة يجب أن تكون دولة يهودية خالصة (دولة اليهود ودولة يهودية في آن واحد) تجسد الرؤى اليهودية، وبإمكان اليهودي أن يحقق فيها ذاته وهويته.

(ب) وجود الفلسطينيين في وطنهم فلسطين - حسب التصور الصهيوني - أمر عرضي زائل، ومن ثم لابد من التخلص منهم إما بالطرق السلمية أو الإرهابية. وانطلاقاً من كل هذا يصبح من حق الدولة الصهيونية أن تدافع عن نفسها وعن حقوقها المطلقة بكل ضراوة من خلال «جيش الدفاع الإسرائيلي» ضد «إرهاب» السكان الأصليين، أي الفلسطينيين ممن يرفضون الإذعان للرؤية الصهيونية. وقد تتفاوت مفاهيم السلام بين حزب صهيوني يميني وآخر صهيوني يساري، ولكن في التحليل الأخير نجد أن مفهوم الأمن لدى الأحزاب الصهيونية من أقصى اليمين إلى أقصى اليسار يشير إلى مضمون جوهري واحد، فالتيار العمالي يتبنى مقولة بن جوريون إن العرب لا يفهمون سوى لغة القوة أما التيار التصحيحي فيتبنى نظرية فلاديمير جابوتنسكي بشأن الجدار الحديدي، وهي النظرة التي طورها شارون إلى مفهوم الجدار الفولاذي وأكدها نتنياهو (وقد وافق باراك على هذا بطريقة ملتوية مراوغة) في كتابه مكان

تحت الشمس في مفهومه عن سلام الردع. وقد تبدى هذا في كل الترتيبات العسكرية الصهيونية ابتداء من أصغر الأسلحة شأناً حتى الردع النووي.

وينظر الصهاينة إلى القضية الفلسطينية باعتبارها «قضية أخلاقية» وحسب، ومن ثم يجب عدم الحديث عن عودة الفلسطينيين إلى ديارهم («إعادة توطينهم» في المصطلح العربي)، وإنما يجب الحديث عن منح تعويضات مالية للمتضررين منهم (وهذا استمرار للعقلية التجارية القومية الصهيونية التي ترى أن كل شيء يُباع ويُشترى بما في ذلك الأوطان). أما المتبقون فيستوعبون في أماكن وجودهم (أي في البلدان العربية المختلفة وبخاصة سوريا ولبنان).

(جـ) سياسة الأمر الواقع هي السياسة الوحيدة التي يمكن اتباعها مع العرب، فالأمر الواقع هو الذي يغير الواقع [العربي] ويفرض واقعاً [صهيونياً] جديداً عليه ويمكن تحقيق السلام وبالشروط الصهيونية من خلاله.

(د) لا يمكن تفكيك المستوطنات القائمة بالفعل، فتفكيك المستوطنات يضرب في صميم الشرعية الصهيونية ولابد من الحفاظ عليها بشكل أو بآخر. ولكن هل يجب أن تكون هذه المستوطنات متصلة بطرق برية أم أنفاق تحت الأرض أم تظل منفصلة؟ وهل هي مستوطنات مؤقتة أمنية أم دائمة عضوية إن صح التعبير؟ كل هذه أمور ثانوية يمكن الاختلاف بشأنها بين أعضاء حزب العمل وحزب الليكود.

(هـ) القدس هي العاصمة الموحدة والأزلية للدولة الصهيونية (وليست موضوعا للمساومة)، وبإمكان الفلسطينيين أن يأخذوا مكانا خارج القدس وليسمونه ما يشاءون الـ Quds علي سبيل المثال وهذه مع الأسف ليست مجرد نكتة سياسية وإنما حقيقة صهيونية.

(و) الدولة الصهيونية تضم الضفة الغربية وحدودها هي نهر الأردن، ويختلف العماليون فيما بينهم كما يختلفون مع أعضاء الليكود عما إذا كان الوجود الإسرائيلي علي نهر الأردن مستمراً عضوياً دائماً أم مؤقتاً أمنياً. إذ يرى أعضاء الليكود أن حدود إسرائيل هي نهر الأردن بالفعل وأن الوجود الإسرائيلي هناك وجود دائم، أما العماليون فهم مستعدون للخروج من هذه الأرض من الناحية النظرية علي الأقل.

(ز) الكيان الفلسطيني الذي سينشأ بعد ذلك (في الضفة والقطاع) كيان سياسي منقوص السيادة منزوع السلاح وبدون جيش، ويشبه هذا الكيان ببورتوريكو وأندورا

(والأولى دولة حرة تابعة للولايات المتحدة لسكانها حق التصويت دون أن يحملوا الجنسية الأمريكية، أما الثانية فتخضع لنظام حكم تحت سيادة فرنسا وأسقف من إسبانيا [فهي تقع بين البلدين]). أما ماذا تسمّى هذه الدولة (هل هي «حكم ذاتي» أم «دولة فلسطينية مستقلة»؟) فهذه مسألة ثانوية يمكن الاختلاف بشأنها.

(ح) تنازل معظم الصهاينة عن الشعارات القديمة مثل إسرائيل الكبرى «حدودياً» (أي إسرائيل الممتدة من النيل إلى الفرات)، وبدءوا في تبني شعارات مثل «إسرائيل العظمى اقتصادياً» المهيمنة على المنطقة الممتدة من المحيط إلى الخليج، فهذا هو عصر النظام العالمي الجديد وما بعد الحداثة، وقد أثبت الصهاينة مقدرة غير عادية على التكيف مع المعطيات الدولية وهذه سمة أساسية للدولة الوظيفية.

(ط) يذهب الإجماع الصهيوني - رغم كل ديباجات الاستقلال الصهيوني والاعتماد على الذات ورفض الأغيار - إلى أنه دون الدعم الغربي وبخاصة الأمريكي للمستوطن الصهيوني لن يقدر له البقاء والاستمرار، وأن هذا المستوطن الصهيوني هو أساساً دولة وظيفية أسست للاضطلاع بوظيفة أساسية هي الدفاع عن المصالح الغربية، وأن الغرب قد تبنى المشروع الصهيوني وضمن له البقاء والاستمرار كي يدافع عن مصالح الغرب في المنطقة، ودون أداء هذه الدولة لوظيفتها لن يكون هناك دعم.

وقد اهتزت بنود هذا الإجماع الواحد تلو الآخر، فمسألة أن اليهود شعب واحد ثبت كذبها، إذ إن هذا الشعب سعداء في منفاهم ولم يهرعوا إلى أرض الميعاد، كما أن الفشل الصهيوني/ الإسرائيلي في تعريف اليهودي مشكلة أساسية تقوض الإجماع الصهيوني وتهدده.

أما بخصوص الفلسطينيين فقد أدرك الصهاينة صعوبة التخلص منهم ومن وجودهم «العرضي الزائل»، ولذا يحاول الصهاينة الآن قبول الأمر السكاني الواقع مع الاتجاه نحو تقليل الاحتكاك بالفلسطينيين ومحاصرتهم عبر إقامة كيان خاص بهم لأنهم يهددون شرعية الوجود الصهيوني ذاته ولكن الحديث عن محاصرة السكان هو نفسه دليل على الفشل الصهيوني في إنشاء الدولة الصهيونية الخالصة وفي حماية المزاعم الصهيونية التي تحدتها انتفاضة ١٩٨٧ وانتفاضة الأقصى، وقد تحول النظام الاستيطاني الصهيوني عن الإحلال وأصبح نظاماً مبنياً على التفرقة العنصرية (الأبارتهايد).

وقد أثبتت انتفاضة ١٩٨٧ وانتفاضة الأقصى والحزام الأمني في لبنان عدم جدوى الأمر الواقع وعبثيته واستحالة فرض السلام بالشروط الصهيونية، ولذا نجد أن الإجماع الصهيوني قد اهتز بشأن غزوات إسرائيل العسكرية (والتي تحاول من خلالها فرض الأمر الواقع والسلام بالشروط الصهيونية).

وقد تساقطت وتفككت كثير من بنود الإجماع الصهيوني، حتى أن دارسي الكيان الصهيوني يذهبون إلى أن الصهيونية لم تعد هي الأيديولوجية التي تهدي المستوطنين في سلوكهم ولم تعد هي الإطار الذي يدركون العالم من خلاله.

وقد أدرك المستوطنون أن الاعتذاريات والديباجات الصهيونية هي مجرد اعتذاريات وديباجات، وأن الجيب الاستيطاني الصهيوني لا يختلف من قريب أو بعيد عن الجيوب الاستيطانية الأخرى، أي أنه قائم على قوة السلاح والدعم العسكري والاقتصادي والسياسي الغربي، وأن المستوطنين الصهاينة لا يختلفون عن المستوطنين الآخرين. وهذا الإدراك هو الذي أدى إلى ظهور ما أسميه «إجماع المستوطنين»، أي مجرد البقاء بغض النظر عن كل الادعاءات والديباجات. ولعل قيام الجيب الصهيوني بفتح أبوابه للهجرة من الاتحاد السوفيتي السابق حيث أتت مئات الآلاف من المهاجرين الروس الذين ليس لهم علاقة باليهودية هو أكبر دليل على إدراك الجيب الصهيوني لذاته باعتباره جيباً استيطانياً إحلالياً أساساً وبالدرجة الأولى، وأن ما عدا ذلك هو اعتذاريات ليس لها أي سند في الواقع.

الفصل السادس
القومية اليهودية وأوهام أخرى

تدَّعي الصهيونية أن اليهودي عنده إحساس عميق دائم بأنه منفي ولا ينتمي إلى المجتمع الذي يقيم فيه، لأنه مرتبط بشكل عميق ببلده الأصلي فلسطين، ولذا فهو يريد العودة إليها. والصهيونية هي التعبير السياسي عن هذه الرغبة المتأصلة في النفس اليهودية، وهي لهذا السبب يمكن أن تطلق على نفسها اصطلاح «القومية اليهودية». وهذه الأكذوبة تبلور النموذج الكامن وراء كثير من الدراسات التي تتناول الجماعات اليهودية في العالم والمصطلحات المستخدمة في تناولها، إذ يتم رصد أعضاء الجماعات اليهودية وتحركاتهم وكأن عندهم إحساساً بالنفي الأزلي ورغبة دائمة في العودة، وكأن هذا الإحساس وهذه الرغبة هما جزء من جوهر يهودي ثابت ومن المكونات الأساسية لطبيعة اليهود البشرية.

المنفى والعودة

اليهودي - حسب هذا النموذج التفسيري - هو غريب ينتقل من مكان لآخر ويحس بأنه في المنفى، ومن ثم فعنده رغبة عارمة دائمة في إنهاء حالة النفي هذه والعودة إلى وطنه الأصلي فلسطين، ولذا أصبحت عبارات مثل «المنفى» و«الشتات» و«الدياسبورا» و«العودة» كلمات متواترة مألوفة في الأدبيات الخاصة باليهود واليهودية الصهيونية والمعادية لليهود وغيرها، وتم تطبيعها تماماً وكأنها مجرد وصف موضوعي ومحايد لأعضاء الجماعات اليهودية ولسلوكهم. فيما يلي محاولة لتفكيك المصطلحات المرتبطة بفكرة المنفى والعودة:

١- المنفى والعودة:

تشير كلمة «جالوت» أو «جولا» إلى المنفى، والمنفى القهري بالذات خارج إرتس

يسرائيل أي فلسطين (مقابل المنفى الطوعي أي «تيفوتسوت»)، ولذا فهي تترجم عادة إلى العربية بكلمة «المنفى». كما تستخدم كلمة «دياسبورا» وهي كلمة يونانية تعني «الشتات»، للإشارة إلى الجماعات اليهودية التي تعيش مشتتة بين الشعوب الأخرى، وأحياناً ما تستخدم كلمة «دياسبورا» بشكل محايد بحيث تعني «الانتشار» بوصفه ظاهرة إنسانية عادية طبيعية. ويستخدم اليهود الإصلاحيون والاندماجيون المصطلح بهذا المعنى. وفي اللغة العربية تستخدم كلمتا «الشتات» و«المهجر» للإشارة إلى المكان الذي هاجر إليه اليهود أو هجروا إليه. وتعني الكلمات السابقة («المنفى» و«الدياسبورا» و«الشتات» و«المهجر») وجود أعضاء الجماعات اليهودية المؤقت خارج إرتس يسرائيل (أي فلسطين) حتى تتحقق لهم الحالة الأصلية العادية والطبيعية بعودتهم إليها.

أما العودة فيشار إليها في المصطلح الديني بكلمة «تشوفاه» (بمعنى «التوبة» أيضاً على عكس «حزره» وهي عودة بالمعني الدنيوي)، كما توجد عبارة «كيبوتس جاليوت» أي «تجميع المنفيين» (بالإنجليزية: إنجاذرينج أوف ذي إكزايلز ingathering of the exiles).

وتشكل عقيدة المنفى والعودة إحدى النقاط المحورية في الرؤية اليهودية إلى التاريخ والكون، وهي ترتبط مثل كل العقائد الدينية اليهودية بعقائد أخرى مثل عقيدة الماشيح والشعب المختار. وحسب هذه العقيدة فإن إله اليهود حكم على شعبه المختار بالنفي والتشتت في بقاع الأرض لسبب يختلف الحاخامات اليهود في تحديده، وستستمر حالة المنفى هذه إلى أن يعود الماشيح المخلص.

وقد تركت عقيدة النفي أثرها العميق على الوجدان اليهودي، فقد أضعفت إحساس اليهود بالزمان والمكان وأضفت طابعاً مؤقتاً على كل شيء، وربما ساعد اضطلاع اليهود بدور الجماعة الوظيفية واشتغالهم المستمر بالتجارة والأعمال المالية والربا وانتقالهم من مكان إلى مكان دون الانتماء الكامل لأي مكان (فالجماعة الوظيفية توجد في المجتمع لكنها لا تصبح منه) على استمرار عقيدة المنفى والعودة وعلى اكتسابها هذه المركزية.

والموقف الديني التقليدي من المنفى والعودة ليس واضحاً ولا قاطعاً. فعلى سبيل المثال، أكد الحاخامات أن محاولة العودة الفردية والفعلية دون انتظار مقدم الماشيّح هو من قبيل التجديف والهرطقة، ومن قبيل «دوحيكات هاكتس» أي «التعجيل

بالنهاية»، أو من قبيل تحدي الإرادة الإلهية. ولكن توجد في اليهودية الحاخامية وفي التلمود نصوص ومواقف يفهم منها أن هناك ضرباً من التقبل أو التأييد لفكرة إنهاء المنفى والعودة.

وعلى وجه العموم يمكن القول بأن أعضاء الجماعات اليهودية قد قبلوا وجودهم في الأوطان التي كانوا يعيشون فيها، وأن الحديث عن المنفى أصبح جزءاً من الخطاب الديني وأصبحت العودة تطلعاً دينياً وتعبيراً عن حب صهيون أي تعبيراً عن التعلق الديني بالأرض المقدسة، وهو تعلق ذو طبيعة مجازية لا يترجم نفسه إلى عودة حرفية إلى فلسطين حتى وإن خلق استعداداً كامناً لذلك، ولذا ظهر مفهوم «شريعة الدولة هي الشريعة» في الفقه اليهودي. وقد قلص هذا المفهوم من نطاق تطبيق شريعة التوراة، إذ إنه يتضمن اعترافاً بالقانون المدني غير اليهودي كما يتضمن تقبل الفقهاء اليهود لحالة المنفى إلى درجة أن محاولة العودة دون انتظار للأمر الإلهي) كانت تعد شكلاً من أشكال الكفر والهرطقة.

ولكن مع بدايات العصر الحديث والحركة الإمبريالية وظهور الفكر الوضعي والتجريبي والنماذج المادية العلمانية المعرفية وتفسيرات العهد القديم الحلولية والحرفية، بدأت تظهر حركات مشيحانية تهدف إلى تحويل فكرة العودة من تطلع ديني مجازي إلى عودة فعلية، أي إلى استيطان. ومع تصاعد الحركة الإمبريالية بدأت الأفكار الصهيونية تتغلغل بين اليهود، خصوصاً وأن هذا قد تزامن مع ضعف اليهودية الحاخامية الأرثوذكسية التي تقبلت المنفى كحالة نهائية. وأخيراً ظهرت الصهيونية بين اليهود في أواخر القرن التاسع عشر، وأخذت من التراث الديني اليهودي ما يتفق مع أهوائها السياسية، واستولت على الخطاب الديني وحولت كل المفاهيم الدينية المجازية إلى مفاهيم قومية حرفية.

وطرحت الصهيونية رؤية للتاريخ تصدر عن تصور أن اليهود في حالة نفي قسرية فعلية منذ هدم الهيكل، وأنهم لو تركوا وشأنهم لعادوا إلى فلسطين بدون تردد، وأن وجود اليهود على هيئة جماعات في أنحاء العالم هو حالة مؤقتة، وأن هذا الوجود إن هو إلا جسر يعبر عليه الشعب اليهودي إلى فلسطين. ومن دعاة هذا الرأي بن جوريون وممثلو الصهيونية الاستيطانية، ولكن ليس كل الصهاينة على هذا الرأي، فالصهيونية الإثنية على سبيل المثال ترى أن وجود الجماعات اليهودية خارج فلسطين ليس أمراً مؤقتاً وإنما حقيقة

ثابتة، وأن هذه الجماعات لا تحتاج إلى إسرائيل موطناً وإنما تحتاج إليها كمركز روحي لا كبلد يهاجر إليه جميع اليهود، فالنفي هنا حالة ثقافية ومن ثم يتم علاجه بطرق ثقافية أيضاً!

وبعد إنشاء إسرائيل لم يُهرع اليهود إلى أرض الميعاد ولم يتم تجميع المنفيين كما كان يتوقع الصهاينة، أي أن اليهودية حتى بعد إنشاء الدولة الصهيونية لا تزال يهودية الدياسبورا، ولذلك أصبح الجالوت أو «المنفى القسري» يسمَّى «تيفوتسوت» أو «المنفى الاختياري»، وهذا تناقض عميق في المصطلح. وتشكل الولايات المتحدة تحدياً عميقاً لفكرة المنفى إذ إنها تمثل نقطة جذب هائلة للغالبية الساحقة من يهود العالم، وقد اتجهت لها الكتلة البشرية اليهودية من شرق أوروبا يهود اليديشية وغيرها من أنحاء العالم ولم تتجه سوى أقلية صغيرة إلى فلسطين، لأن أبواب الولايات المتحدة كانت موصدة دونها. وقد بدأ يهود الولايات المتحدة ينظرون إلى إسرائيل لا باعتبارها وطناً قومياً وإنما باعتبارها «الوطن الأصلي» أو «مسقط الرأس»، تماماً كما ينظر الأمريكيون من أصل أيرلندي إلى أيرلندا. ولكن هذه النظرة تفترض أن الولايات المتحدة ليست بمنفى، وإنما البلد التي يهاجر إليها أعضاء الجماعات اليهودية بمحض إرادتهم بحثاً عن فرص جديدة، وإن كانت الولايات المتحدة ليست هي أرض الميعاد التي تحقق أحلامهم الدينية - وهي أحلام أصابها الضمور على أية حال - فهي على الأقل «جولدن مدينا»، أي البلد الذهبي التي حققت لهم معظم أحلامهم الدنيوية. وهذه الرؤية تعني أن يهود الولايات المتحدة لا يعتبرون بلدهم الجديد منفى، وبالفعل نجد أن كتاب هوارد ساخار الأخير الذي صدر بعنوان الدياسبورا لا يضم فصولاً عن الولايات المتحدة، وذلك باعتبار أنها وطن قومي جديد. كما تعني هذه الرؤية أن يهود الولايات المتحدة لا يفكرون أيضاً في العودة، لأن العودة لا تكون إلا إلى الوطن الأصلي، بل إن من الطريف أن الحاخام مناحم شنيرسون وحاخامات جماعة الناطوري كارتا المعادية للصهيونية يعتبرون دولة إسرائيل جزءاً من المنفى.

أما في إسرائيل فقد ظهر جيل جديد من الصابرا لا يفهم سيكولوجيا يهود المنفى وإن فهمها فهو لا يكن لها احتراماً كبيراً لهم. وهذا الانقسام بين يهود العالم ويهود إسرائيل من الصابرا وغيرهم يمثل مشكلة ضخمة تواجه الفكر الصهيوني، بل يبدو أن الولايات المتحدة بجاذبيتها تهدد المستوطن الصهيوني ذاته، إذ إن أعداداً كبيرة من المستوطنين، بما

في ذلك الصابرا، يهاجرون إلى الولايات المتحدة فيتركون الوطن إلى المنفى! ويطلق على المهاجرين الإسرائيليين إلى الولايات المتحدة الدياسبورا الإسرائيلية.

٢ـ تجميع المنفيين:

«تجميع المنفيين» ترجمة للعبارة العبرية «كيبوتس جاليوت». وهو مصطلح ديني تبنته الصهيونية يشير إلى فكرة عودة كل أعضاء الجماعات اليهودية المنفيين أو المنتشرين في أنحاء العالم إلى فلسطين وتجميعهم هناك. بيد أن تجميع المنفيين (حسب التصور اليهودي الأرثوذكسي التقليدي) هو مثل أعلى ديني لا يتحقق إلا بعد عودة الماشيح، كما لا يتحقق إلا بإرادة الإله، وعلى المؤمن أن ينتظر بصبر وأناة إلى أن يأذن الإله بذلك. ولكن الصهيونية كعادتها فهمت الفكرة فهما حرفياً وجعلتها أساساً لعقيدتها السياسية، وجعلت من واجب اليهودي ألا ينتظر الإرادة الإلهية بل يعمل من أجل هذا الهدف بنفسه، وهو ما يسمى «التعجيل بالنهاية»، وأصبحت العبارة تعني استيطان اليهود في فلسطين (إسرائيل). ورغم كل المحاولات الصهيونية الدائبة لم يتحقق هذا الهدف حتى الآن، إذ تظل غالبية من يقال لهم المنفيون من أعضاء الشعب اليهودي لا يشعرون بحالة النفي الافتراضية ومن ثم فإنهم يؤثرون البقاء في أوطانهم على العودة إلى أرض الميعاد.

٣ـ التعجيل بالنهاية (دحيكات هاكتس) وصهينة اليهودية:

«التعجيل بالنهاية ترجمة للعبارة الأرامية «دحيكات هاكتس»، ومعناها «الضغط على الإله لإجبار الماشيح على المجيء»، ويشار إلى المعجلين بالنهاية على أنهم «دوحاكي هاكتس». فاليهودية الحاخامية في أحد جوانبها تؤمن بأن العودة إلى أرض الميعاد ستتم في الوقت الذي يحدده الإله وبالطريقة التي يقررها، وأن العودة ليست فعلاً يحدث بمشيئة البشر، وقد جاء في التلمود (سفر الكتبوت)» «لا تعودوا ولا تحاولوا أن ترغموا الإله». وقد اتهم الحاخامات الصهيونية بأنها تسعى إلى التعجيل بالنهاية وتحدي مشيئة الإله، وغني عن القول أن الصهاينة يحرصون على إخفاء هذه المصطلحات رغم مركزيتها في الخطاب الديني اليهودي حتى أوائل القرن العشرين، وإن كانت قد تراجعت مع صهينة اليهودية التي جعلت من العودة إلى أرض الميعاد أمراً دينياً.

٤ـ الدياسبورا الإسرائيلية:

«الدياسبورا الإسرائيلية» عبارة تستخدم للإشارة إلى المستوطنين الصهاينة الذين ينزحون عن إسرائيل ويستوطنون خارجها في الولايات المتحدة عادةً. وهذا المصطلح ينطوي على تناقض عميق، فكلمة «دياسبورا» تشير عادةً إلى اليهود الموجودين خارج فلسطين برغم إرادتهم ولذا فهم «منفيون». ولكن أن تكون هناك دياسبورا إسرائيلية، أي مجموعة بشرية يهودية كانت تقطن في أرض الميعاد ذاتها في ظل الكومنولث اليهودي الثالث أي الدولة الصهيونية وتقرر بكامل إرادتها أن تهاجر (بحثاً عن الرزق والحراك الاجتماعي غالباً)، فهذا أمر صعب إذ كيف يمكن الحديث عن «دياسبورا» أو عن «منفى» إذا لم يكن هناك قسر؟ ويمكن أن نقول (لذلك) إن كلمة دياسبورا مستخدمة هنا بمعناها المحايد أي مجرد الانتشار.

والواقع أن الدياسبورا الإسرائيلية تتحدي نظامنا التصنيفي، فالمهاجرون الإسرائيليون ليسوا صهاينة استيطانيين بطبيعة الحال، إذ إنهم تخلوا عن المشروع الصهيوني، كما أنهم ليسوا بصهاينة توطينيين، إذ ليس من المحتمل أن يقوموا بتشجيع الآخرين على الاستيطان ومجرد وجودهم في البلد الذهبي (جولدن مدينا)، أي الولايات المتحدة، يقف دليلا على عدم جاذبية الدولة الصهيونية. وهم يسببون كثيرا من الحرج ليهود الولايات المتحدة وللصهاينة التوطينيين حين يطرح هذا السؤال هل من الواجب إغاثة هؤلاء اللاجئين باعتبارهم يهوداً أم يجب مقاطعتهم باعتبارهم مرتدين أو هابطين تركوا أرض الميعاد ونكصوا على أعقابهم؟

ويبلغ عدد أعضاء الدياسبورا الإسرائيلية في الولايات المتحدة حوالي مليون شخص حسب بعض التقديرات الرسمية. وقد أشارت إحدى الصحف الإسرائيلية إلى هذه الظاهرة باعتبارها «خروج صهيون». وكلمة «خروج» تستدعي للذهن الغربي خروج اليهود من مصر واستيطانهم في فلسطين. ولذا حينما «يخرج» اليهود من فلسطين فإنهم يعكسون الآية تماماً. كما ذكرت صحيفة إسرائيلية أخرى أن عدد سكان الدولة الصهيونية (عند إنشائها في عام ١٩٤٨) لم يكن لا يتجاوز ٧٠٠ ألف، أي أقل من عدد المهاجرين منها، وهو ما يفقدها كثيراً من الشرعية.

٥ـ الدياسبورا الدائمة:

«الدياسبورا الدائمة» مصطلح قمنا بسكه لنصف وضع أعضاء الجماعات اليهودية في

العالم. فرغم كل الادعاءات الصهيونية ورغم استخدام مصطلح «الدياسبورا» لوصف وضعهم، فإن غالبيتهم تؤثر البقاء خارج فلسطين في المنفى. فالدياسبورا أو الشتات اليهودي مسألة طوعية وليست مسألة مرتبطة بعملية قسر خارجية، وحالة الدياسبورا أو الانتشار هي حالة دائمة بغض النظر عما يحدث في فلسطين، بل إن اتجاه بعض أعضاء الجماعات اليهودية إلى فلسطين للاستقرار فيها ينبع أحياناً من حركيات لا علاقة لها بصهيون.

وفيما يلي جدول بأعداد أعضاء الجماعات اليهودية في فلسطين المحتلة والعالم يدل على أن الدياسبورا حالة دائمة ونهائية بالفعل.

أعداد اليهود في فلسطين المحتلة والعالم

السنة	عددهم في فلسطين	نسبتهم ليهود العالم
١٨٨٢	٢٤,٠٠٠	٠,٣٪
١٩٠٠	٥٠,٠٠٠	٠,٥٪
١٩٢٥	١٢٢,٠٠٠	٠,٨٪
١٩٤٠	٤٦٧,٠٠٠	٢,٨٪
١٩٤٨	٦٥٠,٠٠٠	٥,٧٪
١٩٥١	١,٤٠٤,٠٠٠	١٢,٢٪
١٩٦٥	٢,٢٩٩,٠٠٠	١٧,١٪
١٩٧٥	٢,٩٥٩,٠٠٠	٢٠,٩٪
١٩٨٠	٣,٢٨٢,٧٠٠	٢٥٪
١٩٨٥	٣,٥١٠,٠٠٠	٢٧٪

أي أن رُبع الشعب اليهودي وحسب قرر الاستيطان في فلسطين، الأمر الذي يعني أن أغلبيته الساحقة آثرت العيش في المنفى، رغم أن الدولة الصهيونية فتحت أبوابها على مصراعيها أمامهم.

كل هذا يعني في واقع الأمر أن المنفى ليس بمنفي، وأن أرض الميعاد والعودة ليست أرض الميعاد أو العودة رغم كل الادعاءات الصهيونية.

٦- الدياسبورا الإلكترونية:

«الدياسبورا الإلكترونية» مصطلح صهيوني جديد ظهر مؤخراً يعبر عن أن المؤسسة الصهيونية قد قبلت الدياسبورا كحالة نهائية. فبدلاً من مطالبة أعضاء الجماعات اليهودية في العالم بأن يهاجروا إلى إسرائيل، ويستوطنوا فيها وبدلاً من النظر إليهم باعتبارهم خونة لعدم عودتهم إلى إسرائيل تقبل الحركة الصهيونية بقاء يهود العالم في أوطانهم وتحاول أن تربط الخبراء والفنيين منهم بمستقبل إسرائيل بحيث يساهمون في تقدم إسرائيل العلمي، وبخاصة في مجال الإلكترونيات، على أن تطور إسرائيل شبكة للتعاون الإلكتروني يتحكم فيها يهود العالم تحت إشراف إسرائيل. وهذا التصور تعبير عن اليأس الصهيوني من عودة اليهود.

٧- انتشار أعضاء الجماعات اليهودية:

نكل ما سبق لابد من الابتعاد عن استخدام مصطلحات صهيونية مثل «العودة» و«المنفى» و«الدياسبورا»، فهي مصطلحات لا يربطها رابط بواقع أعضاء الجماعات اليهودية في العالم ومقدرتها التفسيرية والتصنيفية ضعيفة للغاية لأنها تجسد التحيزات والأكاذيب الأيديولوجية الصهيونية ولا تعبر الواقع المتعين أي التفات، أما مصطلح «انتشار» فهو مصطلح محايد ومقدرته التفسيرية عالية.

القومية اليهودية

ثمة مصطلحات تخبئ أو تجسِّد الرؤية الأيديولوجية الصهيونية وتدور حول فكرة القومية اليهودية.

١ـ القومية اليهودية:

«القومية اليهودية» عبارة مرادفة لمصطلح «الصهيونية»، وهي تفترض أن اليهود يشكلون جماعة قومية أو شعباً يهودياً. فالنسق الديني اليهودي من حيث هو تركيب جيولوجي يحوي داخله تياراً قومياً قوياً جداً يرتبط ارتباطاً تاماً بالبنية الحلولية، إذ يرى اليهود أنفسهم كياناً دينياً متماسكاً يسمى «بنو يسرائيل» يتمتع بعلاقة خاصة مع الإله الذي يحل فيهم ويمنحهم درجة عالية من القداسة ويتولى قيادتهم وتوجيه تاريخهم القومي المقدس الفريد، الذي بدأ بخروجهم من مصر. وقد أرسل الإله التوراة إليهم باعتبارهم شعبه المختار، ولذا فإن اليهودية من هذا المنظور قومية دينية، وهي بذلك لا تختلف كثيراً عن الأديان الوثنية الحلولية حيث يقتصر الدين والإله على شعب واحد دون غيره من الشعوب، وتتلخص مهمة هذا الشعب اليهودي المقدس في أنه يقف شاهداً على التاريخ وعلى وجود الإله أمام الشعوب الأخرى.

اليهودية إذن من هذا المنظور هي دين قومي عِرْقي أو قومية دينية مقدسة تمزج الوجود التاريخي المتعين والتصور الديني المثالي.

هذا من ناحية الرؤية، أما من ناحية الواقع التاريخي المتعين فنحن نرى أنه لا توجد قومية يهودية أو شعب يهودي وإنما جماعات يهودية منتشرة في العالم تحكمت في صياغتها حركيتان أساسيتان متكاملتان:

(أ) فالجماعات اليهودية لم تشكل قط كتلة بشرية متماسكة تتبع مركزاً ثقافياً أو دينياً واحداً يحدد معايير مثالية أو واقعية يصوغ أعضاء هذه الجماعات رؤيتهم لأنفسهم وأسلوب حياتهم تبعاً لها، بل ولم يكن لديهم ميراث ثقافي أو ديني واحد. فالجماعات اليهودية كانت منتشرة في كثير من بقاع الأرض داخل معظم التشكيلات الحضارية المعروفة وداخل البنى التاريخية والقومية المختلفة تتفاعل معها وتساهم فيها وترقي برقيها وتتخلف بتخلفها، فاليهودي في الأندلس كان عربياً واليهودي في روسيا كان روسيا وفي اليمن كان يمنياً وهو أمريكي في الولايات المتحدة. وقد أدى هذا إلى تحول أعضاء الجماعات اليهودية إلى تركيب جيولوجي غير متجانس، ولا يختلف ذلك عن العقيدة اليهودية بخاصيتها الجيولوجية.

(ب) وقد كانت معظم الجماعات اليهودية تشكل جماعات وظيفية، وهي جماعات تحافظ على عزلتها وانفصالها ويساعدها المجتمع على ذلك حتى يتيسر لها أن تلعب

دورها الوظيفي، فهي إذن ذات سمات إثنية خاصة تميز كل واحدة منها عن أعضاء الأغلبية في المجتمعات التي يعيش اليهود بين ظهرانيها. ولكن هذه السمات الإثنية لم تكن قط سمات قومية عامة تسم كل اليهود أينما كانوا، فرغم أن كل جماعة يهودية كانت منفصلة عن محيطها فإنها كانت تحدد هويتها من خلاله كما أن انفصالها عن محيطها لا يعني بالضرورة اتصالها بأعضاء الجماعات اليهودية الأخرى. فاليديشية الجرمانية كانت تعزل أعضاء الجماعة اليهودية عن محيطهم الثقافي السلافي في بولندا، ولكنها مع هذا لم تكن لها أية علاقة باللادينو اللاتينية التي كانت تعزل يهود السفارد عن محيطهم العربي الإسلامي في الدولة العثمانية، أما العبرية وهي اللغة الوحيدة المشتركة فقد ظلت من ناحية الأساس لغة الصلاة واللغة التي كتبت بها النصوص الدينية وحسب. أي أن العنصر المشترك لم يتعد في جوهره الصلوات والعبادات وبعض المؤلفات، وظلت العلاقة بين أعضاء الجماعات اليهودية علاقة دينية أو وظيفية باعتبارهم أعضاء في الجماعة الدينية نفسها أو أعضاء في جماعات تضطلع بالوظيفة نفسها في كثير من المجتمعات. وعلى كلٍّ لم تكن الرابطة الدينية بمعزل عن الوظيفة الاقتصادية أو الاجتماعية تماماً، إذ إن الجماعة الوظيفية تضرب حول نفسها العزلة ويساعدها في ذلك المجتمع المضيف وتعد العقائد الحلولية من أهم آليات العزلة.

٢ـ الوطن القومي اليهودي:

«الوطن القومي» مصطلح يتواتر في الكتابات الصهيونية والمعادية لليهود، ويعني أن اليهود لا ينتمون إلى أوطانهم وإنما إلى وطن قومي واحد هو فلسطين، التي يشار إليها أيضا باسم «إرتس يسرائيل» أو«إسرائيل» أو «أرض الميعاد» أو «الأرض المقدسة» أو «الأرض» وحسب. كما يعني المصطلح أن البلاد التي يقيم اليهود فيها إنما هي منفى أو مهجر أو بابل (بإيحاءات السبي البابلي) أو مصر (بإيحاءات العودة والخروج). ويعني المصطلح أيضاً أن اليهود في حالة شتات يشكلون دياسبورا، وهي حالة يشعرون بها منذ هدم الهيكل على يد تيتوس. وقد ورد المصطلح في وعد بلفور رغم احتجاجات قيادة الجماعة اليهودية في إنجلترا واكتسب شرعية سياسية منذ ذلك التاريخ.

لكن مصطلح «الوطن القومي» ليست له مقدرة تفسيرية عالية، إذ إن كثيراً من الوقائع التاريخية لا تسانده. فمن الثابت تاريخياً أن عدد اليهود خارج فلسطين فاق عددهم

داخلها قبل هدم الهيكل، كما أن من الثابت أن أكبر هجرة في تواريخ الجماعات اليهودية، والتي بدأت في أواخر القرن التاسع عشر، اتجهت إلى الولايات المتحدة (ولو أن فلسطين هي الوطن القومي لليهود لاتجهوا إليها). وقد بلغت نسبتهم نحو ٨٠٪ من جملة المهاجرين اليهود، بل ولم يعد يشار في الأدبيات الصهيونية إلى الولايات المتحدة باعتبارها منفي وإنما أصبح يشار إليها باعتبارها وطنا قوميا آخر لليهود وباعتبارها أيضاً «البلد الذهبي» (باليديشية: جولدن مدينا) الذي يحقق تطلعات المهاجرين المادية. ولا ندري هل هي وطن قومي ثان أم هي وطن قومي أول بالنسبة إلى اليهود، ففي الخطاب السياسي يأتي مصطلح «الوطن القومي» دائماً في صيغة المفرد إذ لا معنى له في صيغة المثني أو الجمع. وعلى كلٍّ، فقد حسم يهود الولايات المتحدة القضية بأن حولوا إسرائيل/ فلسطين من وطن قومي إلى مسقط الرأس والوطن الأصلي السابق، أما الولايات المتحدة فهي الوطن القومي الحالي الذي يعيشون فيه بالفعل، وبذا أصبح الأمريكيون اليهود أمريكيين يهودا على غرار الأمريكيين العرب أو الأمريكيين الأيرلنديين، ولكن هذا يعني أن أسطورة الذات الجديدة تصفي الأسطورة الصهيونية إذ إن مسقط الرأس إسرائيل هو البلد الذي يهاجر اليهودي منه لا إليه!

٣ـ الدولة اليهودية:

«الدولة اليهودية» اصطلاح مرادف لمصطلح «الدولة الصهيونية»، ونحن نفضل المصطلح الأخير لدقته، إذ يفترض المصطلح الأول أن دولة إسرائيل هي استمرار للمملكة العبرانية المتحدة التي يشار إليها بـ«الكومنولث الأول». كما أن الاصطلاح يفترض وحدة اليهود في العالم وأن هذه الدولة دولتهم التي تعبر عن إرادتهم وتطلعاتهم، وهذا أبعد ما يكون عن الصحة إذ لا تزال دولة إسرائيل هي دولة ٢٠٪ من يهود العالم وحسب.

وعلاوة على كل هذا يفترض المصطلح أيضا يهودية هذه الدولة، وهذا أمر محل نقاش حتى في إسرائيل نفسها، فالدولة الصهيونية لا ترتبط بأية قيم أخلاقية يهودية بل تسلك حسبما تملي عليها مصلحتها العملية، ولعل إيمانها بمصلحتها العملية هو الذي جعلها تحول نفسها إلى ثكنات عسكرية يصعب وصفها باليهودية. ويلاحظ أن سكان إسرائيل من الصابرا لا يشعرون بالانتماء اليهودي بل إن بعضهم يكن الاحتقار ليهود العالم الدياسبورا

الهامشيين. ومن الطريف حقاً أن هذه الدولة التي تصف نفسها باليهودية لم تصل بعد إلى تعريف لليهودي.

ولذا يظل مصطلح الدولة الصهيونية أكثر دقة وتحددا في وصف الكيان الصهيوني، فهو يؤكد استيطانية الكيان القائم الآن في الشرق العربي وطموحاته الإحلالية ويفصله عن أية تصورات دينية أو عاطفية.

٤- الصهيونية العالمية:

«الصهيونية العالمية» ترجمة للمصطلح الإنجليزي «ورلد زايونيزم World Zionism» وقد شاع المصطلح في اللغة العربية، وهو يفترض أن الصهيونية حركة عالمية، أي تمارس نشاطها في أنحاء العالم بين جميع أعضاء الجماعات اليهودية في كل البلاد وثمة. خلل أساسي في المصطلح يعود إلى ما يلي:

(أ) نشأت الصهيونية في الغرب في البلاد الاستعمارية (البروتستانتية) في بداية الأمر ثم تبناها يهود العالم الغربي (في شرق أوروبا ثم غربها) لأغراض مختلفة، فالصهيونية ليست عالمية من ناحية النشأة، خصوصا وأن ٩٠٪ من يهود العالم كانوا يوجدون داخل التشكيل الحضاري الغربي مع نهاية القرن التاسع عشر وهي المرحلة التي نشأت فيها الصهيونية.

(ب) كانت الصهيونية ولا تزال جزءاً من التاريخ الاقتصادي والسياسي والحضاري للغرب، والإمبريالية الغربية هي الآلية الأساسية لتحويل الصهيونية من مجرد فكرة إلى دولة استيطانية.

وعلى هذا، فإن الصهيونية لم تنشأ في العالم ككل أو داخل التاريخ العالمي بشكل مطلق أو حتى بين كل أعضاء الجماعات الدينية والإثنية اليهودية المتناثرة في العالم، وإنما هي إفراز تشكيل حضاري محدد في لحظة زمنية محددة ولا يمكن دراستها خارج هذا التشكيل ولا يمكن فهمها دون الرجوع إلى مراحل تطوره وأزماته وطريقة حله لهذه الأزمات، وإن كان هذا لا يعني بطبيعة الحال إسقاط السمات التي تشكل خصوصية الحركة الصهيونية الغربية.

ولعل الإنسان الغربي أطلق صفة العالمية على الصهيونية للأسباب التالية:

(أ) ينظر الخطاب الإنجيلي إلى اليهود باعتبارهم شعباً مختاراً وجزءاً من الدراما

الكونية التي يتحرك في إطارها تاريخ العالم والعالمين، والتاريخ اليهودي حسب الرؤية الإنجيلية تاريخ مستقل عن تاريخ الأغيار، ومع هذا يشكل هذا التاريخ الركيزة الأساسية لتاريخ العالم، وهذا الخطاب الإنجيلي متغلغل تماماً في الوجدان الغربي.

(ب) بعد أن ظهرت الصهيونية بين يهود الغرب قامت بصهينة معظم يهود العالم خصوصاً بعد إنشاء الدولة الصهيونية، ومن ثم فهي حركة عالمية بهذا المعنى. ولابد أن نسارع بالقول بأن الغالبية الساحقة من يهود العالم توجد الآن إما داخل التشكيل الحضاري الغربي (فرنسا - إنجلترا - روسيا)، أو داخل التشكيل الاستعماري الاستيطاني الغربي (الولايات المتحدة - كندا - أستراليا ونيوزيلندا - أمريكا اللاتينية - جنوب أفريقيا - إسرائيل)، وعلى وجه التحديد داخل التشكيل الاستعماري الاستيطاني الأنجلو ساكسوني.

(جـ) الحركة الإمبريالية التي حولت الصهيونية إلى كيان استيطاني هي حركة عالمية رغم أصولها الغربية، فقد جعلت العالم كله مجالاً لحركتها والتهامها وافتراسها. والإمبريالية عالمية لا لأنها حركة نشأت بين كل البشر وإنما لأنها حركة حولت البشر كلهم إلى مستعمِر أو مستعمَر، وتكتسب الصهيونية صفة العالمية من ارتباطها بالإمبريالية الغربيةَ العالمية.

(د) يلاحظ أن الأدبيات السياسية الغربية الصهيونية وغير الصهيونية تستخدم كلمة «عالمي» بمعنى «غربي». ولعل هذا يعود إلى أن الإنسان الأبيض في الغرب في القرن التاسع عشر كان يتصور أنه مركز العالم وقمة رقيه، وأن الحضارات الأخرى حضارات متخلفة ستتطور لتلحق به وتصل إلى النموذج الحضاري العالمي نفسه. ويلاحظ أن هرتزل يتحدث في كتاباته عن ضرورة إقامة المشروع الصهيوني بضمان القانون الدولي العام، ويعني بذلك «القانون الغربي»، ولذا والتزاماً بالدقة يجب أن نتحدث عن «الصهيونية الغربية» أو عن «الصهيونية» وحسب دون وصفها ليكون مفهوماً أنها حركة غربية وليست عالمية.

الخلاف داخل الإجماع

يعد أن قَبل كل الصهاينة الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة (والعقد الصامت بين الحضارة الغَربية والمنظمة الصهيونية بشأن يهود العالم)، وبعد أن تم تهويد هذه الصيغة

وإضافة الديباجات المختلفة حتى يمكن تجنيد المادة البشرية المستهدفة، ظهرت مجالات عديدة للخلاف بين الصهاينة قد تبدو لأول وهلة عميقة ولكنها في واقع الأمر سطحية إلى حدٍّ كبير، إذ إن رقعة الاختلاف تظل محكومة بالقبول المبدئي والجوهري للصيغة الأساسية الشاملة.

ويوجد في تصورنا عدة مصادر أساسية للخلاف من أهمها:

١ ـ الخلاف بين الصهاينة التوطينيين والاستيطانيين وهو ما نسميه «إشكالية الصهيونيتين».

٢ ـ الخلاف بين الصهاينة الإثنيين الدينيين والإثنيين العلمانيين.

١ ـ الصهيونيتان: التوطينية والاستيطانية:

تُستخدم كلمة «صهيونية» للإشارة إلى عدة مدلولات مختلفة يمكن أن تضمها جميعاً الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة، وهي الصيغة التي تم تهويدها بحيث أصبحت صالحة كإطار لكلٍّ من الصهاينة اليهود والصهاينة غير اليهود. وتوجد داخل هذه الوحدة العامة عدة انقسامات لعل أهمها ما نسميه «الصهيونيتان»، فنحن نذهب إلى أنه يوجد ضربان أساسيان من الصهيونية: صهيونية توطينية وصهيونية استيطانية لكلٍّ اتجاهه وتاريخه وجماهيره:

١ ـ صهيونية توطينية: وقد ظهرت في بداية الأمر بين الصهاينة غير اليهود (من المسيحيين والعلمانيين) وبين يهود الغرب المندمجين وعلى وجه الخصوص أثرياؤهم، ثم عبرت عن نفسها في الصهيونية الدبلوماسية وصهيونية الدياسبورا. وجمهور هذه الصهيونية هم مؤيدو المشروع الصهيوني في العالم الغربي ويهود الغرب الذين يؤيدون المشروع الصهيوني ويقبلون الدولة الصهيونية باعتبارها مركز يهود العالم الديني والثقافي الذي يمدهم بالهوية والإحساس بالانتماء واحترام الذات ويمدونها هم بالدعم المادي والسياسي والمعنوي، وضمن ذلك قبولهم أن توظفهم الدولة الصهيونية لصالحها ولصالح الراعي الإمبريالي ولكنهم مع هذا لا ينوون الهجرة والاستيطان في فلسطين ولكنهم يساعدون في توطين الآخرين فصهيونيتهم من ثم صهيونية توطينية وهي التي أطلق عليها بوروخوف اصلاح «صهيونية الصالونات» ويشكل الصهاينة التوطينيون غالبية يهود وصهاينة العالم وكذلك كل يهود غرب أوروبا والولايات المتحدة تقريباً.

٢ ـ صهيونية استيطانية: وقد ظهرت في بداية الأمر على هيئة صهيونية تسللية ثم تحولت إلى صهيونية استيطانية بعد مرحلة هرتزل وبلفور، وأهم التيارات الاستيطانية التيار العم إلى ويأتي معظم الصهاينة الاستيطانيين من يهود شرق أوروبا.

وتقسيم «توطيني/ استيطاني» ينصرف إلى المجال الذي يختاره كل صهيوني ليمارس نشاطه ولنا أن نلاحظ وجود انقسامات فرعية داخل كل تيار بشأن التوجه السياسي (اشتراكي/ رأسمالي) والموقف من التراث والهوية (ديني/ علماني). ويجب ألا نتصور أن هناك فصلاً قاطعاً بين الفريقين فثمة تشابك وتداخل بين الصهيونيتين (التوطينية والاستيطانية) قد يتبدى في الشخص الواحد نفسه، كما هو الحال مع وايزمان الذي قضى معظم حياته يقوم بنشاط في الخارج نيابة عن الداخل ولكنه عاد بعد إعلان الدولة ليترأسها ويصبح من المستوطنين (وإن كان قد عاش في عزلة نظراً لأن زعيم الصهاينة الاستيطانيين - بن جوريون - لم يكن يرغب في أن يشاركه وايزمان السلطة). ويظهر هذا التداخل في شخصية آحاد هعام فيلسوف الصهيونية الإثنية العلمانية، الذي قام بجهود دبلوماسية لتحقيق المشروع الصهيوني ثم استوطن فلسطين نهائيا ولكنه ظل يشعر بالغربة فيها وبالحنين إلى المنفى والشتات!

ويظهر التداخل في الوقت الحاضر حين يقرر يهودي من دول الكومنولث المستقلة (الاتحاد السوفيتي سابقاً) الهجرة إلى إسرائيل، فيبدأ بالحديث عن هويته اليهودية ورغبته العارمة في الهجرة إلى وطنه القومي المزعوم ثم يحصل على تأشيرة على أساس نيته الصهيونية الاستيطانية، ولكنه يغير رأيه في النمسا ويقطع مسار هجرته ويتجه إلى الولايات المتحدة بدلا من إسرائيل لينخرط في صفوف صهاينة الخارج التوطينيين، وهناك بطبيعة الحال الصهاينة الاستيطانيون الذين يتركون إسرائيل ليستوطنوا الولايات المتحدة ويستمرون في تأييد المشروع الصهيوني (ولكن من منظور توطيني هذه المرة).

ولا يعني هذا أن الصهيونية أصبحت وحدة متكاملة بين التوطينيين والاستيطانيين بل العكس، فقد ظلت التوترات تعبر عن نفسها بحدة وكل ما حدث أنه تم امتصاصها (وليس استيعابها) من خلال الخطاب الصهيوني المراوغ. وأهم هذه التوترات الصراع الذي نشب على قيادة المنظمة الصهيونية بين الصهاينة التوطينيين والصهاينة الاستيطانيين بعد إنشاء الدولة، وقد حسم الخلاف باستيلاء الاستيطانيين على المنظمة تماماً. ولم تختف الصراعات حتى بعد إنشاء الدولة تظهر صراعات فبعض الصهاينة التوطينيين

لا يقنع بالعمل في مجاله في الخارج ويحاول أن يفرض توجهات بعينها على الداخل. ومن المعروف أن القوى التي كانت تهيمن على المنظمة الصهيونية لا تختلف في توجها السياسي عن تلك التي كانت تحكم إسرائيل. ولكن الوضع قد اختلف في الآونة الأخيرة، إذ يسيطر على المنظمة في الوقت الحاضر تحالف من اليهود العلمانيين والأحزاب العلمانية داخل إسرائيل، وهو تحالف مختلف عن ذلك الذي يحكم إسرائيل. ويحدث أحيانا ألا يقنع الصهاينة الاستيطانيون بالدعم المالي والسياسي فيطلبون من الصهاينة التوطينيين أن يتخذوا مواقف أكثر راديكالية كما حدث في المؤتمر الثامن والعشرين (١٩٧٢)، حينما تقدم بعض الصهاينة الاستيطانيين بمشروع قرار ينص على أن القادة الصهاينة الذين لا يستوطنون في إسرائيل بعد فترتين من الخدمة يفقدون الحق في ترشيح أنفسهم مرة أخرى، فانسحب كل مندوبي الهاداساه (أكبر تنظيم صهيوني في العالم)، والذي يمثل أكثر من نصف الوفد الأمريكي، احتجاجاً على الاقتراح. وحدث الشيء نفسه تقريباً حينما وقعت الأزمة بين الدينيين والعلمانيين في إسرائيل مؤخراً، إذ قامت جماعة من العلمانيين بحرق معبد يهودي وقامت جماعة من الدينيين برش الإعلانات الإباحية في محطات الأتوبيس، فألقى المفكر الإسرائيلي العلماني شلومو أفنيري باللائمة على يهود الولايات المتحدة الإصلاحيين والمحافظين المندمجين التوطينيين (والذين لا يكفون عن الشكوى من التزمت الديني في إسرائيل) قائلاً لهم إنه لو هاجر منهم ١٠٠ ألف وحسب فإن هذا سيرجح كفة العلمانيين وسيتم تكوين الحكومة دون الحاجة إلى أصوات الأحزاب الدينية.

ويحدث العكس أحياناً، إذ يجد الصهاينة التوطينيون أن سلوك حكومة المستوطن تسبب لهم كثيراً من الحرج في مجتمعاتهم الديمقراطية كما يحدث عادة بعد ارتكاب المذابح الواضحة (مثل مذبحة صبرا وشاتيلا) وبعد الغزوات الفاضحة (غزو لبنان)، إذ يصبح من الصعب الحفاظ على أساطير كثيرة مثل إسرائيل المحاصرة أو إسرائيل الباحثة عن السلام، أو كما حدث بعد تفجر قضية بولارد (المواطن الأمريكي اليهودي الذي قام بالتجسس على حكومة بلده لصالح الدولة اليهودية).

ولكن معظم هذه الخلافات خلافات سطحية، إذ تظل الصهيونية بشقيها التوطيني والاستيطاني متسمة بالوفاق. ففي المؤتمر الثامن والعشرين المشار إليه آنفاً، عاد وفد الهاداساه المنسحب إلى قاعة المؤتمر بعد أن قرر منظمو المؤتمر أن مشروع القرار المقدم لم يكن دستورياً، ولا يزال معظم الصهاينة التوطينيين يؤيدون الدولة الصهيونية علنا ويقفون

وراءها رغم كل توسعاتها. وتتولى المؤسسة الصهيونية القضاء على معظم الجماعات اليهودية والصهيونية المنشقة. وتحاول الشيء نفسه الآن مع التنظيمات اليهودية التي لا تقبل الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة أو توجه لها بعض النقد

٢- الصهيونية الإثنية الدينية والصهيونية الإثنية العلمانية:

نشب صراع حاد بين الصهاينة الإثنيين الدينيين والإثنيين العلمانيين. والصهيونية الإثنية العلمانية (التي يقال لها «الصهيونية الثقافية» أو «الصهيونية الروحية») هي الصهيونية التي ترى اليهود باعتبارهم جماعة إثنية لا يربط أعضاءها رباط العقيدة وإنما الصفات الإثنية، مثل حنينهم الأزلي إلى فلسطين وإحساسهم أنها وطنهم القومي، كما يشير الصهاينة إلى بعض الصفات الإثنية الأخرى التي يدعون أنها يهودية بشكل عالمي (مع أنها صفات يهود شرق أوروبا من يهود اليديشية). في هذا الإطار تصبح كتب اليهود المقدسة غير ملزمة أخلاقياً بالنسبة لليهود فهي مجرد كتب فلكلور، والعقيدة اليهودية في التصور الصهيوني الإثني العلماني إن هي إلا إحدى مكونات القومية اليهودية.

وتختلف الصهيونية الإثنية الدينية (التي يقال لها «الصهيونية الدينية») عن الصهيونية الإثنية العلمانية في أنها لا تزال تؤمن بأن ما يجمع اليهود هو رباط العقيدة وليس الانتماء الإثني، بل ويرون أن أساس القومية والإثنية اليهودية هو الدين اليهودي، أو كما عبر أحدهم عن الموقف بقوله: «الدين كقومية، والقومية كدين».

ولكن رغم هذا الاختلاف فإن كلا التيارين يؤمن بأن اليهود شعب عضوي له حقوق مطلقة في فلسطين فهو مرجعية ذاته ومكتف بذاته. ويفسر الدينيون هذا الوضع على أساس الوعد الإلهي، ويفسر العلمانيون نفس الظاهرة على أساس الوعي الإثني. وغني عن القول أن كلا التيارين يقبل الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة.

٣- الصهيونية التوفيقية:

لعل أكبر دليل على سطحية الاختلاف والاتفاق بين التيارات الصهيونية المختلفة مصطلح «الصهيونية التوفيقية»، وهو مصطلح استخدمه وايزمان في المؤتمر الصهيوني الثامن (١٩٠٧) حين طالب الصهاينة العمليين والصهاينة الدبلوماسيين بمزج أساليبهم في

العمل. وقد أكد وايزمان أنه لا يرفض الأساليب الدبلوماسية الاستعمارية ولكنه يجدها غير كافية في حد ذاتها، إذ لابد أن يساعدها نشاط استيطاني، وبذلك يكون قد قبل الصهيونية الاستيطانية والصهيونية التوطينية.

وقد عبَّر أتو ووربورج رئيس المنظمة منذ عام ١٩١١ وحتى عام ١٩٢٠ عن هذه الصهيونية التوفيقية بشكل أدق إذ قال إن «الحق التاريخي» الذي يستند على ملكيتنا لفلسطين قبل ألفي سنة لا تأثير له وحده وفي حد ذاته على الدول الكبرى، بل يتوجب علينا إيجاد صيغة عصرية لذلك الحق تضاف إليه، وهذه الصيغة تقوم على برهنتنا إن لم يكن شرعياً أو حقوقياً (دي جوري de jure) فبحكم الواقع الفعلي (دي فاكتو de facto)، على أن فلسطين تخضع اقتصاديا لنفوذنا وأن جميع ما أحرزته تلك البلاد من تقدم كبير وملموس يرجع في الأصل إلى مبادرتنا وقوة وسائلنا الاقتصادية وفعاليتها ولم ينشأ إلا بفضلها. وهو هنا لا يشير إلى الصهيونية الدبلوماسية التوطينية وحسب أو إلى الصهيونية الاستيطانية وحسب، وإنما يشير أيضا إلى الصهيونية الإثنية (الحق التاريخي)، كما أنه ينظر إلى فلسطين من منظور التيارات الصهيونية الثلاثة وإن كان يؤكد أهمية الاستيطان وسياسة خلق الحقائق.

ولعل كلمات أوسيشكين (بعد وفاة هرتزل) هي أدق التصريحات، فقد اقترح العودة لا إلى صهيونية أحباء صهيون الاستيطانية ولا إلى الصهيونية الروحية (الصهيونية الإثنية) ولا إلى الصهيونية الدبلوماسية (التوطينية) وإنما إلى مزيج من هذه التيارات الثلاثة معا، أي إلى الصهيونية السياسية كما نص عليها برنامج بازل، وهي إذن دعوة إلى الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهودة وإلى وحدة كل التيارات الصهيونية داخل إطار هذه الوحدة.

وقد حقق الصهاينة قدراً كبيراً من الوحدة عبر تاريخهم فأثناء المحادثات بشأن وعد بلفور بذل وايزمان التوطيني جهودا دبلوماسية غير عادية واستفاد من التغيرات الدولية من أجل تحقيق هدف استيطاني (استصدار ضمان دولي لعملية الاستيطان الصهيوني في فلسطين)، وفي خلفية هذه النشاطات كان يوجد آحاد هعام (أستاذ وايزمان ومؤسس التيار الصهيوني الإثني العلماني) يزودهم منذ عام ١٩٠٨ بالمشورة وينصحهم بأن يبحثوا عن موافقة وتأييد بريطانيا لمشاريعهم الاستيطانية المختلفة، ثم يصدر وعد بلفور بالفعل على هيئة رسالة موجهة إلى أحد أثرياء الغرب المندمجين الذين غيروا موقفهم من رفض المشروع الصهيوني إلى قبوله.

ويمكننا أن نقول إن الصهيونية الحقة ، شأنها في هذا شأن إسرائيل ، هي الصهيونية التي تمزج جميع التيارات الصهيونية عمالية كانت أو رأسمالية راديكالية أو تصحيحية دينية أو علمانية توطينية أو استيطانية ، ذلك أن صهاينة الخارج يتحركون على الصعيد السياسي لصالح المستوطن الصهيوني ويقومون بتجنيد يهود العالم وراءه ويجمعون الضرائب لدعمه (الصهيونية التوطينية ، أي كل التيارات الصهيونية في الخارج) ، بينما يقوم المستوطنون بخلق حقائق جديدة (الصهيونية الاستيطانية أي التيارات الصهيونية المختلفة في الداخل) . وتصر الصهيونية في الداخل على وحدة الهوية اليهودية (صهيونية إثنية) ، وهي هوية نابعة من التراث الديني (صهيونية إثنية دينية) وفق أحد التيارات الدينية أو لا علاقة لها بالدين وإنما تنبع من التراث (صهيونية إثنية علمانية) حسب تصور التيار العلماني . ومع ذلك وبغض النظر عن كل هذه التصنيفات ، فإن جميع التيارات الصهيونية تشترك في الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهودة وفي الاعتماد شبه الكامل على الدعم الإمبريالي من خلال الراعي الإمبريالي والجماعة اليهودية في الغرب . ولذا يمكننا القول إن جميع الصهاينة في نهاية الأمر توفيقيون .

الفصل السابع
الوحدة والخصوصية اليهودية

المفهوم المحوري الكامن في الخطاب الصهيوني هو افتراض الوحدة بين أعضاء الجماعات اليهودية حتى وإن كانوا مشتتين في أنحاء الأرض، وهذا المفهوم هو ذاته أساس الرؤية المعادية لليهود، فالصهيونية والعداء للسامية كما يسمونها أو العداء لليهود واليهودية كما نسميها نحن الساميين يستندان إلى نفس المفهوم. وفي هذا الفصل سنتناول بعض المصطلحات التي تعبر عن هذا التحيز الصهيوني العنصري الكامن.

الوحدة اليهودية وبعض المصطلحات الأخرى

مفهوم الوحدة اليهودية هو المفهوم المحوري في الخطاب الصهيوني والرؤية الصهيونية للواقع. وقد أفرز هذا المفهوم مجموعة من المصطلحات التي تجسد هذه الرؤية.

١ـ الوحدة اليهودية:

«الوحدة اليهودية» عبارة تفترض أن ثمة وحدة تربط بين أعضاء الجماعات اليهودية كافة في كل زمان ومكان، وأن هذه الوحدة تتمثل في وحدة الهوية والشخصية والسلوك وفي أشكال مختلفة من التضامن، وفي نهاية الأمر في القومية اليهودية وفي الشعب اليهودي الواحد ذي الهوية الواحدة المستمرة وكذلك في التاريخ اليهودي الواحد. ويذهب البعض إلى القول بوجود عرْق يهودي واحد، وينتهي هذا الافتراض إلى أن اليهود حافظوا على هذه الوحدة منذ خروجهم من مصر الفرعونية حتى يومنا هذا وهناك تفسيرات عدة لمصدر هذه الوحدة، فالصهاينة الدينيون يرون أن مصدر الوحدة هو حلول الروح الإلهية أو الشخيناه وكمونها في الشعب اليهودي، فهي تقطن وسطهم وهي التي تحولهم إلى شعب من الكهنة والقديسين، بينما يري الصهاينة اللادينيون أن مصدر وحدة

اليهود هو الجوهر اليهودي الكامن في كل اليهود أو هو نزعة معاداة اليهود في مجتمعات الأغيار أو تميز اليهود وظيفياً واضطرارهم إلى الاضطلاع بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة وبالأعمال التجارية والربوية. ويميل الخطاب الصهيوني في الوقت الحاضر إلى تأكيد أن هذه الوحدة هي تعبير عن تطلع قومي في حالة اللادينيين وعن تطلع قومي ديني في حالة الدينيين.

ولكن النموذج الصهيوني الاختزالي يختلف عن الواقع التاريخي المركب المتعين لأعضاء الجماعات اليهودية، وهو واقع لا يتسم بالوحدة. فمن الناحية الدينية تأخذ اليهودية شكل تكوين جيولوجي تراكمي غير متجانس، تتعايش فيه العناصر المختلفة جنباً إلى جنب أحياناً وتتفجر أحياناً أخرى، وقد حدثت تفجرات وانقسامات كثيرة من البداية من أهمها ما كان يحدث داخل المملكتين العبرانيتين المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية من صراع بين عبادة يهوه وعبادة بعل، وصراع بين عبادة مملكة الشمال وعبادة مملكة الجنوب، وعند عودة بعض اليهود من بابل إلى فلسطين حدث انقسام حاد بينهم وبين اليهود المقيمين الذين جاء منهم فريق السامريين، وقد انقسم اليهود دينياً بعد ذلك إلى صدوقيين وفريسيين وأسينيين، ثم ظهر الاحتجاج القرائي على اليهودية الحاخامية كما ظهرت الحركات المشيحانية المختلفة وآخرها الحركة الحسيدية وهي حركات احتجاج ضد المؤسسة الحاخامية تنفي مفهوم الوحدة تماماً، كما انفصلت بعض الجماعات اليهودية مثل الفلاشاه ويهود الهند عن اليهودية الحاخامية وأصبح لها صيغ يهودية مختلفة جوهرياً عن الصيغة الحاخامية. وفي العصر الحديث انقسمت اليهودية إلى فرق اليهودية الإصلاحية واليهودية المحافظة واليهودية التجديدية واليهودية الأرثوذكسية واليهودية الأرثوذكسية الجديدة، وهناك بطبيعة الحال الانقسام بين الإشكناز والسفارد على المستوى الديني. وكثير من هذه الفرق قد تكفر بعضها البعض وقد تجد أن الانقسام من الحدة بحيث تقاطع الواحدة منها الأخرى، وهو ما يجعل الحديث عن الوحدة اليهودية أمراً صعباً. ومما زاد من تعميق هذا التفتت غياب سلطة مركزية يهودية جماعية دينية أو دنيوية تحدد المعايير لأعضاء الجماعات اليهودية.

والخاصية الجيولوجية التراكمية نفسها تسم أعضاء الجماعات اليهودية وهوياتهم المختلفة، فحتى قبل دخول العبرانيين إلى مصر يحدثنا العهد القديم عن الخلاف بين يوسف وأعضاء أسرته، كما اشتركت القبائل العبرانية جميعها في الثورة ضد الفلستيين

وأعداء العبرانيين الآخرين إبان حكم القضاة، وقد اندلعت الثورات الأهلية داخل مملكة داود وسليمان ووصل التوتر إلى درجة عالية داخل المملكة المتحدة فانحلت بعد موت سليمان وانقسمت إلى مملكتين تتصارعان معاً، واستعانت المملكة الجنوبية بآشور ضد المملكة الشمالية، الأمر الذي أدى إلى تدخل هذه القوة العظمى فقامت بتدمير المملكة الشمالية تماماً وتهجير نخبتها الحاكمة.

وقد حقق اليهود قدراً من الوحدة والاستقرار حينما سيطرت الدولة الفارسية على الشرق الأوسط القديم، حيث كانت كل التجمعات اليهودية تحت هيمنتها، وقد انتهت هذه الوحدة المؤقتة بانحسار نفوذ هذه الإمبراطورية بعد غزو الإسكندر لكلٍّ من مصر وسوريا وفلسطين وغيرها من المناطق. وكانت الخصومات بين بعض قطاعات اليهود تتطور إلى حروب أهلية طاحنة يقتتل فيها اليهود ويتعرضون للإبادة الجسدية على أيدي بعضهم البعض، كما حدث في العام الرابع الميلادي في عهد أرخيلاوس ابن هيرود الذي أباد ثلاثة آلاف يهودي، أو كما حدث في تمرد عام ٧٠م حين قتل المتطرفون من اليهود اثني عشر ألف يهودي من الأثرياء، وقد كان هناك إلى جانب تيتوس جيش يهودي تحت قيادة أجريبا الثاني يحارب ضد المتمردين اليهود. وفي العصور الوسطي كان لسكان أي جيتو في أوروبا حق تحريم استيطان اليهود الآخرين فيه (حيريم هايشوف)، وهو حق كانت تمارسه كل الجيتوات. وكان الصراع بين أعضاء الجماعات اليهودية واضحاً في أوروبا في القرن السابع عشر، أما في الدولة العثمانية فكان لكل مجموعة يهودية معبدها اليهودي وحاخامها الخاص، وكانت كل مجموعة يهودية تستعدي السلطة على المجموعة الأخرى. وعندما هاجر يهود اليديشية إلى الولايات المتحدة ناصبهم اليهود ذوو الأصل الألماني العداء وكان هؤلاء قد لاقوا رفضاً من جانب اليهود السفارد الذين سبقوهم، غير أن الولايات المتحدة قامت بصهرهم ضمن من صهرتهم من مهاجرين فحققوا شيئاً من الوحدة والتماسك لا بوصفهم يهوداً بشكل عام وإنما بوصفهم يهوداً أمريكيين تحولوا بالتدريج إلى أمريكيين يهود.

وتكررت الظاهرة في أمريكا اللاتينية، ولكن نظرا لأن الحضارة الكاثوليكية هناك لم تقم بصهر أعضاء الجماعات اليهودية الذين هاجروا إليها فقد احتفظوا بخاصية عدم التجانس، وقامت كل جماعة يهودية تنتمي إلى هذا البلد أو ذاك بتنظيم نفسها بشكل مستقل، فنجد أن المكسيك تضم عشرات التنظيمات اليهودية من بينها تنظيمان ليهود سوريا، واحد للدمشقيين والآخر للحلبيين. والمعركة الدائرة بين اليهود الأرثوذكس

واليهود غير الأرثوذكس حول تعريف اليهودي داخل وخارج إسرائيل أصبحت معركة أساسية تفوق في أهميتها الصراع بين الإشكناز والسفارد.

ويمكننا أن نقول إن أعضاء الجماعات اليهودية لم يحققوا وحدة عامة شاملة إلا حينما كانوا جماعة عرْقية أو إثنية دينية متماسكة (عبرانيين)، ولكن الخلافات السياسية وأحيانا الثقافية والدينيَة كانت تمزقهم حتى في تلك الآونة. ومع انتشار الجماعات اليهودية لم تعد الخلافات مجرد خلافات سياسية وإنما أصبحت خلافات حضارية قومية عميقة، وقد حققت بعض الجماعات اليهودية وحدة قومية داخل التشكيلات الحضارية المختلفة، كما حدث ليهود شرق أوروبا من يهود اليديشيّة ويهود الولايات المتحدة، ولكن أية وحدة بين هؤلاء هي وحدة يتمتعون بها داخل التشكيل القومي الذي ينتمون إليه ومن خلاله وبسببه لا من خارجه ورغما عنه، كما أنها من ناحية أخرى لا ترقى البتة إلى مستوى الوحدة اليهودية العالمية الشاملة.

وقد تمتع أعضاء الجماعات اليهودية في الحضارة الغربية منذ العصور الوسطى بشكل من أشكال الوحدة، وذلك من خلال علاقاتهم كجماعات وظيفية وسيطة تشكل ما يشبه النظام الائتماني العالمي ومن مصلحتهم الحفاظ على هذه العلاقات. ورغم أنها بدت كما لو كانت وحدة قومية فقد كانت علاقات مالية فحسب، إذ إن كل جماعة وظيفية يهودية كانت مرتبطة في نهاية الأمر بالمجتمع الذي تنتمي إليه وتتفاعل معه وتستمد هويتها منه، ولكن الصهاينة يؤكدون مع هذا أن هناك وحدة أزلية لليهود، ويخلصون من ذلك إلى أن الدولة الصهيونية في فلسطين أمر منطقي بل وحتمي.

٢- الجوهر اليهودي:

«الجوهر» هو مجموعة الخصائص الثابتة في ظاهرة، أو هو ما لا يتغير بتغير المكان أو الزمان. وفكرة الجوهر اليهودي الخالص (الثابت) هي فكرة كامنة وراء عديد من المفاهيم والمصطلحات والنماذج التفسيرية المستخدمة في دراسة الجماعات والعقائد اليهودية مثل «التاريخ اليهودي» و«الشخصية اليهودية» و«العبقرية اليهودية» و«الجريمة اليهودية» و«الشعب اليهودي» و«العرْق اليهودي» و«الإثنية اليهودية». فكل هذه المصطلحات تفترض وجود هذا الجوهر اليَهودي الخالص الثابت الذي يجعل من يهودية اليهودي النقطة المرجعية الأساسية لتفسير سلوكه، أما العناصر غير اليهودية مثل السياق الحضاري الإنساني الذي يوجد فيه أعضاء الجماعات اليهودية أو حركيات المجتمعات التي ينتمون

إليها أو تفاعلهم مع أعضاء الأغلبية بل والعناصر الإنسانية المشتركة مع بقية البشر فهي عناصر يفترض فيها أنها عرضية تنتمي إلى السطح ولا تفيدنا كثيراً في تفسير الظواهر اليهودية، حيث يتم تفسير هذه الظواهر من الداخل فقط.

ففي حالة دراسة تاريخ يهود بولندا، على سبيل المثال يتم التركيز على ما جاء في التوراة والتلمود وعلى الحياة داخل الشتتل، ولا يظهر العالم الخارجي غير اليهودي إلا على هيئة هجمات ومذابح ضد اليهود أو تسامح معهم، ولكل هذا تبدو حياة أعضاء الجماعات اليهودية وكأنها لا علاقة لها بحياة كل البشر وتختلف تماماً عن حياة الأقليات الأخرى، ويبرز الجوهر اليهودي باعتباره محركاً أساسياً للأحداث. وغني عن الذكر أن المعادين لليهود يتبنون النموذج نفسه ويرددون على سبيل المثال أن عزلة اليهود هي تعبير عن جوهرهم الانعزالي، وأن اشتغالهم بالتجارة تعبير عن نزوعهم الطبيعي إلى الاشتغال بأمور المال، وأن اتجاههم نحو الصحافة الإباحية هو تعبير عن نزوعهم الأزلي نحو الشر.

وهذا النموذج التفسيري الذي يفترض وجود الجوهر اليهودي هو نموذج صهيوني بشكل واعٍ أو غير واعٍ، حيث إن كلاً من الصهاينة والمعادين لليهود يسقطون عن اليهود إنسانيتهم ولا يرونهم بشرا يتسمون بالقدر نفسه من الخير والشر الذي يتسم به بقية البشر.

وقد تكون هناك بعض الأنماط المتكررة والسمات المشتركة التي تسم وجود كثير من الجماعات اليهودية، ولكن هذه السمات ليست أساسية وبالتالي فإن مقدرتها التفسيرية ضعيفة، كما أن هذه السمات مرتبطة بعشرات التفاصيل والسمات الأخرى النابعة من البيئات المختلفة التي يوجد فيها أعضاء الجماعات اليهودية. وإذا كانت ثمة سمة أو سمات أساسية متكررة في معظم الجماعات اليهودية فهي اضطلاعهم بدور الجماعة الوظيفية وتصاعد الحلولية الكمونية داخل النسق الديني اليهودي، وهاتان السمتان ذاتهما تأخذان أشكالاً مختلفة، فهناك جماعة وظيفية قتالية استيطانية في جزيرة إلفنتاين في مصر الفرعونية، وهناك جماعة وظيفية استيطانية في قبرص العثمانية وجماعة وظيفية وسيطة في أوروبا حتى عصر النهضة، وهذه السمة بالذات ليست مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية وإنما هي سمة مشتركة تجمع بينها وبين أقليات أخرى (مثل الصينيين في شرقي آسيا).

٣ـ الاستقلال اليهودي:

«الاستقلال اليهودي» عبارة تفترض أن لليهود شخصيتهم اليهودية المستقلة وتاريخهم اليهودي المستقل عن تواريخ الأغيار. وتشير الأدبيات الصهيونية إلى مؤسسات الإدارة الذاتية مثل القهال ومجلس البلاد الأربعة باعتبارها مؤسسات الحكم الذاتي، كما تشير إلى اللهجات التي يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية باعتبارها لغات اليهود. وتستند كل من العقيدة الصهيونية ونزعة معاداة اليهود إلى هذا المفهوم نفسه، فيتحدث أعداء اليهود عن حب اليهود للعزلة ورفضهم الاندماج وتفضيلهم الجيتو على الحياة مع الأغيار بل ويتحدثون عن سمات جوهرية داخل الطبيعة البشرية اليهودية تجعلهم مستقلين عن باقي البشر ومختلفين عنهم، ومن المفارقات أن القبالاه اللوريانية تذهب إلى درجة من التطرف حيث تطرح تصورا لليهود باعتبارهم قد خلقوا من عجينة مغايرة لتلك التي خلق منها الأغيار، وهذا يتناقض مع قصة الخلق في العهد القديم.

وغني عن القول إنه لا يوجد استقلال يهودي، إذ تدل القرائن التاريخية على أن أعضاء الجماعات اليهودية اندمجوا وانصهروا في مجتمعاتهم، وأن ما يتمتع به أعضاء الجماعات اليهودية من استقلال أو انفصال نسبي عن مجتمع الأغلبية لا يختلف بأية حال عما يتمتع به أعضاء أية أقلية دينية أو إثنية في أي مجتمع خصوصاً في المجتمعات التقليدية. ويعود شيوع مفهوم مثل مفهوم استقلال اليهود إلى اضطلاع أعضاء الجماعات اليهودية في كثير من المجتمعات، خصوصاً في العالم الغربي، بوظيفة الجماعة الوظيفية التي يعيش أعضاؤها في عزلة عن بقية أعضاء المجتمع.

ونحن نرى أن استخدام مصطلح كمصطلح اليهود يؤكد على مثل هذا الاستقلال، وقد يشي بدرجة من الوحدة والتجانس لم يتمتع بهما اليهود قط، ولذا فإننا نؤثر استخدام مصطلح مثل «الجماعات اليهودية» لأنه يؤكد على التنوع وعدم التجانس والانفصال، ولا ينفي في الوقت نفسه ذلك القدر من الوحدة والتجانس.

٤ـ الأخلاقيات اليهودية:

«الأخلاقيات اليهودية» عبارة تفترض أن ثمة أنماطاً سلوكية يهودية متكررة تعبر عن جوهر يهودي وطبيعة يهودية وشخصية يهودية تنعكس في رؤية أخلاقية محددة. وهي أنماط متكررة باعتبار أن هذه الأخلاقيات ثابتة لا تتغير وأينما وجد يهود في أي زمان

ومكان فإن المتوقع أن يسلكوا السلوك اللاأخلاقي نفسه الذي ينم عن الرغبة في تحطيم الآخرين والتآمر ضدهم. وبسبب هذه الأخلاقيات اليهودية المزعومة يتسم سلوك اليهود بحب العزلة عن الآخرين وعدم الولاء للدولة والانحلال الجنسي، كما أنهم لهذا السبب ينخرطون بأعداد كبيرة في المحافل الماسونية وينضمون إلى صفوف دعاة العلمانية الشاملة، وعادة ما يعملون بالتجارة والربا والأعمال المالية. ومصدر هذه الأخلاقيات حسب هذه الرؤية هو كتب اليهود المقدسة كالعهد القديم والتلمود، ويضاف إليها الآن بروتوكولات حكماء صهيون وهي كتب تعبر عن طبيعتهم وجوهرهم لكن هذا النموذج التفسيري متهافت تماماً فسلوك اليهود يختلف باختلاف الزمان والمكان – ومن هنا يجري حديثنا عنهم لا باعتبارهم أعضاء شعب يهودي وإنما باعتبارهم أعضاء جماعات يهودية.

فمن المعروف أن أعضاء الجماعة اليهودية لم يعزلوا أنفسهم في بابل ولا في الجزيرة العربية قبل الإسلام ولا في إسبانيا الإسلامية، بل اندمجوا إلى حدٍّ كبير في محيطهم الحضاري، أما في آشور والصين فقد انصهروا تماماً. وكان العبرانيون القدامى بدواً رحلاً وعملوا بالزراعة وليس بالتجارة أو الربا حين استقروا في كنعان، وكذلك فإن ولاء يهود ألمانيا في القرن التاسع عشر لوطنهم كان كبيراً جداً وانصهروا إلى حد بعيد وأصبحوا جزءاً لا يتجزأ من الشعب الألماني، كما أن ولاء الأمريكيين اليهود للولايات المتحدة من القوة بحيث إنهم يموتون من أجلها، أما عداء اليهود للأغيار فإنه ليس مطلقاً، فقد ساعدوا المسلمين في الفتح الإسلامي سواء في فلسطين أو في إسبانيا. وبالمثل، فإن انحلالهم الجنسي غير مطلق أيضاً، فظاهرة الطفل اليهودي غير الشرعي أو البغي اليهودية لم تكن معروفة تقريباً في أوروبا حتى منتصف القرن التاسع عشر، وأما الماسونية والعلمانية فإن اليهودية الأرثوذكسية تعاديهما بشراسة وهكذا ولا يصعب على أي دارس متحيز أن ينتقي مجموعة من التفاصيل والقرائن منتزعة من سياقها الزمني والمكاني للتدليل على أية مقولة عامة، كأن يأخذ قرينة من المدينة أيام الرسول عليه الصلاة والسلام وأخرى من إسبانيا أثناء الغزو المسيحي وثالثة من روسيا في القرن التاسع عشر ثم يستخدمها جميعا لإثبات مقولة ما مثل عدم ولاء اليهود متجاهلا كل القرائن الأخرى كتلك التي ذكرناها.

والصورة العامة التي ترسخت في أذهان الكثيرين عن أعضاء الجماعات اليهودية تعود ولا شك إلى الرؤي الإنجيلية الخاصة بالشعب المختار الذي لا يسلك سلوكاً حراً

وإنما يعبر دائما عن قصد إلهي، كما أن اضطلاع أعضاء الجماعات بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة في الغرب ساهم في ترسيخ هذه الصورة الإدراكية، فالجماعات الوسيطة لا تدين بالولاء للأغلبية وتستخدم عادة المعايير الأخلاقية المزدوجة باعتبار أن أعضاء الجماعة يتمتعون بالقداسة أما أعضاء الأغلبية فهم مباحون لا قداسة ولا حرمة لهم. ولكن المصدر المباشر لهذه الصورة السلبية للأخلاقيات اليهودية هو يهود اليديشية في مرحلة ضعفهم وتفسخهم في العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر حتى ثلاثينيات القرن العشرين، إذ تركزت نسبة كبيرة منهم في تجارة البغاء حتى أصبحت شخصية القواد اليهودي والبغي اليهودية أمرا شائعاً كما أن نسبة المهاجرين منهم كانت مرتفعة للغاية والمهاجر في كثير من الأحيان شخصية غير منتمية لا ولاء لها كما ترتفع عادة معدلات العلمنة بين المهاجرين مرتفعة للغاية وهكذا فإن الصورة العنصرية النمطية السائدة عن الأخلاقيات اليهودية قد يكون لها أساس واقعي ولكنها تنتمي إلى زمان ومكان محددين، كما أنها فقدت كثيراً من فعاليتها إذ اختفى يهود اليديشية تقريبا وظهرت أنماط سلوكية جديدة بين أعضاء الجماعات.

وتنتشر فكرة الأخلاقيات اليهودية بين المعادين لليهود، لكنها شائعة أيضا بين الصهاينة الذين يعطونها مضموناً إيجابياً فالأخلاقيات اليهودية تعبير عن العبقرية اليهودية التي تجعل من اليهودي مبدعاً قادراً على التماسك الاجتماعي محبا لقومه وقوميته اليهودية وأرضه إلخ. وغني عن القول أن رؤية المعادين لليهود لا تختلف في بنيتها عن رؤية الصهاينة، فاليهود في نظرهم هم اليهود يسلكون دائما السلوك نفسه أينما وجدوا.

٥ـ العِرْق اليهودي:

«العرْق» هو جملة السمات البيولوجية مثل حجم الجمجمة ولون الجلد أو العيون أو الشعر. . . إلخ) التي يفترض وجودها في جماعة بشرية وتميزها بشكل حتمي (بيولوجي) عن غيرها من الجماعات. وكلمة «عرْق» ترادف أحياناً كلمة «سلالة» أو «جنس» أو «دم»، وهناك تقسيمات عدة للسلالات أو الأعراق أو الأجناس البشرية المختلفة أو الدماء التي تجري في عروقها.

وهناك اتجاه صهيوني يؤمن بأن ثمة عرْقا يهودياً مستقلاً وأن أساس الهوية اليهودية والشخصية اليهودية هو الانتماء العرْقي، كما يقول ماكس نوردو الذي يعد واحداً من أهم مفكري العنصرية الغربية (حتى قبل تحوله إلى الصهيونية)، في لغة لا تقبل

الشك وتخلو تماماً من الإبهام، «إن اليهودية ليست مسألة دين وإنما هي مسألة عِرْق وحسب».

وقد وصف العالم الصيهوني هو إغناتز زولتشان (١٨٧٧ - ١٩٤٨) اليهود بأنهم «أمة من الدم الخالص لا تشوبها أمراض التطرف أو الانحلال الخلقي». وقدم الاجتماع الصهيوني آرثر روبين تعريفاً عرْقياً لليهود بين فيه أنهم «استوعبوا عناصر عرْقية أجنبية بدرجة محدودة ولكنهم في أغلَبيتهم يمثلون جنساً متميزاً على عكس ما هو سائد في دول وسط أوروبا».

وكان اللورد بلفور، الصهيوني غير اليهودي، يفكر في اليهود على أساس عِرْقي، وربما كان من المهم هنا أن نتذكر أن إحدى المسودات الأولي لوعد بلفور كانت تدعَو إلى إقامة وطن قومي للجنس اليهودي، وهي جملة تحمل في طياتها تعريفاً بيولوجياً واضحاً للهوية اليهودية.

ثمة، إذن، إجماع صهيوني على التعريف العرْقي لليهودي وهو أمر متوقع ومفهوم، فقد كانت الصهيونية تبحث عن الشرعية منَ أوروبا لا من اليهودية، ولذا كان عليها أن تصبح عِرْقاً مستقلا لأن العرْق المستقل وحده هو الذي من حقه أن تكون له دولة مستقلة حَسب الإطار المعرفيَ السائد في أوروبا العلمانية آنذاك. ولكن من الواضح أن تعريف اليهودي كعضو في عرْق مستقل أمر مغرق في الخيال والوهم، إذ يدحض واقع الأقليات اليهودية بسهولَة مثل هذه الأساطير، وكان على الصهاينة بالذات أن يتعاملوا لسوء حظهم مع يهود بيض ويهود سود وبضعة يهود صفر إلى جانب الكثير من الظلال اللونية. وكما أشرنا من قبل فقد كان هرتزل معجباً بالنظرية العرْقية، ولكنه كان صديقا لإسرائيل زانجويل (١٨٦٤ - ١٩٢٦) الروائي الإنجليزي والَزعيم الصهيوني اليهودي ذي الأنف الطويل والشبيه بأنوف الزنوج والشعر الكث الحالك السواد، وكانت نظرة واحدة إليه تكفي، على حد قول هرتزل نفسه، لدحض أي تصور عِرْقي لليهود.

وثمة سبب آخر لاختفاء التعريف العرْقي لليهود يرتبط بالمجال الدلالي لكلمة «عرْق»، إذ إنه بحلول الثلاثينيات كانت الحَياة في الغرب قد تحولت عن العنصرية التي فقَدت إلى حد كبير ما كانت تحظي به من قبول وتأييد في الأوساط العلمية، وهو ما عبر عنه الزعيم الصَهيوني ناحوم سوكولوف بقوله «بعد أن عشنا عصرا أصبحت فيه كلمة

«عنصر» أو «عرْق» معادلة للقسوة والبربرية فإن معظم الناس ينفرون من استخدام هذا المصطلح». ويَضاف إلى هذا أن علم الأجناس قد أظهر أن هذا المصطلح لا يمكن أن يطبق حقاً على اليهود وذلك رغم أنه كان من المعتاد تماماً الإشارة إلى اليهود في عصر ما قبل هتلر على أنهم جنس، وكان الكثيرون يعتقدون أن يهودية المرء مسألة تتعلق بمولده وسماته.

ولذا، كان لابد من العدول عن استخدام كلمة «عرْق»، وبدلاً من ذلك بدأ تعريف اليهودي على أساس إثني، أي على أساس التراث والثقافة المشتركة، ومن ثم حلت الإثنية محل العرْقية كنقطة مرجعية وكأساس للهوية. لكن التعريف الإثني لا يختلف في جوهره عن التعَريف العرْقي، فكلاهما يفرز نظرية في الحقوق العرْقية أو الإثنية تعطي صاحب الهوية (العرْقية أَو الإثنية) مزايا معينة وقوة مطلقة تنكرها علَى غيره من البشر.

٦ـ نقاء اليهود عِرْقياً:

«نقاء اليهود عرْقياً» عبارة تفترض أن أعضاء الجماعات اليهودية قد حافظوا عبر التاريخ وفي كل زمان ومَكان على نقائهم العرْقي، فلم يختلطوا بالأجناس والشعوب الأخرى. وهذه فكرة يروج لها المعادون لليهودَ ويسوقونها دليلاً على رغبة اليهود في عزل أنفسهم وعلى خطورة العرْق اليهودي، فهوستون تشامبرلين يزعم أن ذلك النقاء العرِْقي هو سر قوة اليهود وأنه هوَ أيضاً ما يجعلهم «غرباء بين الأمم».

كما كان الصهاينة يروجون هذه الفكرة ويؤسسون عليها ادعاءهم حتمية إنشاء دولة يهودية مستقلة تكون يهودية مثلما أن إنجلترا إنجليزية وفرنسا فرنسية؛ دولة يعيش فيها الشعب اليهودي المنفصل عرْقيا عن بقية شعوب الأرض من الأغيار، ولذا بذل كثير من «العلماء» الصهاينة كثيراً منَ المحاولات التي ترمي إلى إثبات نقاء اليهود عرِْقياً.

والحديث عن الوحدة العرْقية بين اليهود (كما بين الدكتور جمال حمدان وغيره من العلماء) لا محل له من حقيَقة أو علم على الإطلاق واليهود لم يعرفوا الوحدة العرْقية تماما كما أنهم لم يعرفوا الوحدة الجغرافية، وثمة اتفاق بين الدارسين في الوقت الحَاضر على أن نقط التشابه بين أعضاء الجماعات اليهودية وبين أبناء المجتمعات التي يعيشون فيها تفوقاً كثيراً أي تشابه قد يوجد بين أية جماعة يهودية وأية جماعة يهودية أخري في مجتمع آخر.

وهذا أمر متوقع تماماً، ورغم التشريعات اليهودية الخاصة بتحريم الزواج المختلط فمن المعروف أن اليهود تزاوجوا بغيرهم من الشعوب، بل وكان من الصعب عليهم أن يفعلوا غير ذلك لأنهم كانوا شعباً من البدو الرحل الذين يتنقلون من مكان إلى آخر. لقد جاء الآباء أسلاف العبرانيين من بابل فهم إذن من أصل سامي عربي، وحينما وصلوا إلى كنعان تزاوجوا مع الحيثيين الذين هم من أصل أرمني، ولا شك في أن العبرانيين تأثروا حضارياً وعرْقياً بالمصريين أثناء إقامتهم في مصر بعد هجرة يوسف ويعقوب، وقد خرجوا من مصر ومَعهم اللفيف العرْقي الذي يشير إليه العهد القديم، وتزوج موسي أثناء الخروج أو الهجرة من مصر من امَرأة مدينية (من مديَن) ثم من كوشية، وتزاوج العبرانيون بالكنعانيين بعد تسللهم إلى أرض كنعان وبغيرهم من الأقوام السامية التي كانت تقيم هناك. ومن الطريف أن أم داود (الذي سيأتي من نسله الماشيح ملك اليهود) لم تكن حسبما ورد يهودية، أي أنه هو نفسه مشكوك في انتمائه إلى الشعب اليهودي. وفي العصر الهيليني كانت نسبة التزاوج بالأجانب مرتفعة إلى حدٍّ كبير.

ورغم أن اليهودية ليست ديانة تبشيرية فقد تهوَّد كثير من الشعوب، حيث فرض الحشمونيون اليهودية قسراً على بعض الشعوب المجاورة لهم مثل الأدوميين والإيطوريين، كما تهودت قبائل الخزر (أو نخبتها القائدة) في ظروف لا تزال غامضة. ويلاحظ أن الكنيسة في العصور الوسطي كانت تكرر من آونة لأخرى تحريم الزواج بين اليهود والمسيحيين، وهو أمر يدل على استمرار الظاهرة، أما في العصر الحديث فإن معدلات الزواج المختلط في ألمانيا في الثلاثينيات في روسيا السوفيتية (سابقاً) وفي الولايات المتحدة وفي معظم البلاد التي تزايدت فيها معدلات العلمنة تصل إلى نحو ٥٠٪ في كثير من الأحيان وأدى الزواج المختلط إلى عدم النقاء العرْقي.

وقد اتضحت الخلافات العرْقية بين اليهود في الدولة الصهيونية، التي تسمى «يهودية»، بشكل مثير لا يمكن الجدل بشأنه، فاليهود الإشكناز الشقر ويهود الفلاشاه السود ويهود بني إسرائيل الداكنو اللون (الذين جاءوا من الهند) لا يمكن أن ينتموا إلى عرْق واحد مهما بلغت الادعاءات العنصرية (الصهيونية أو المعادية لليهود) من حنكة وموضوعية!

ولو كانت هناك سمات يهودية عرْقية واضحة لما ادعي بعض اليهود (أيام هيمنة النازية) أنهم ينتمون للجنس النوردي ولا علاقة لهم بالجنس السامي، ولما طلب النازيون من أعضاء الجماعات اليهودية أن يعلقوا نجمة داود حتى يستطيع الآريون

التعرف عليهم. ولكن التفكير العنصري الاختزالي يمكنه التعايش ببساطة مع مثل هذه التناقضات فهو لا يشعر بالأمن أو الاستقرار إلا في عالم واحدي مادي كل الأمور فيه بسيطة ويمكن ردها لعنصر مادي واحد يدرك بالحواس الخمس مثل العِرْق وشكل الأنف وحجم الرأس.

٧- نقاء اليهود حضارياً (إثنياً):

«نقاء اليهود حضارياً (إثنياً)» هي عبارة تعني أن ثمة شعبًا يهوديًا ذا تقاليد حضارية يهودية خالصة احتفظت باستقلالها ووحدتها ونقائها.

والنقاء الحضاري هو المفهوم الأساسي الكامن في الكتابات الصهيونية عن اليهود ومن ثم، فهم يتحدثون عن «الخصوصية اليهودية» أو «التراث اليهودي» أو «الثقافة اليهودية» وعن «التاريخ اليهودي: وكأن هناك بنية تاريخية مستقلة يدور اليهود في إطارها بمعزل عن الأغيار، وذلك برغم انتشارهم في كل أنحاء الأرض، بل ويتحدثون عن النظام السياسي اليهودي والاقتصاد اليهودي وهكذا باعتبارها كلها ناتجة عن هذا النقاء الحضاري اليهودي وباعتبارها الأطر التي احتفظ اليهود من خلالها بنقائهم.

ويلاحظ أن النقاء الثقافي غير منفصل عن النقاء العرْقي، فاستناداً إلى فكرة الشعب العضوي (فولك) ترتبط حضارة أي شعب بالدماء التي تجري في عروقه، ومن ثم فإن هناك وحدة لا تنفصم عراها بين الحضارة والعرْق. وقد سادت هذه الفكرة أوروبا في القرن التاسع عشر وكانت من أكثر الأفكار شيوعا وأثرت في الفكر القومي الغربي وفي الفكر النازي والصهيوني وفي النظرية الإمبريالية الغربية.

ونحن نذهب إلى أن هناك ثقافات يهودية مختلفة باختلاف التشكيلات الحضارية التي يوجد داخلها اليهود - ومن هنا عدم نقاء الظواهر الحضارية اليهودية ابتداءً باللغة العبرية ذاتها وانتهاء بالنشيد الوطني الإسرائيلي «الهاتيكفاه» (أي الأمل).

والواقع أن الامتزاج مع الحضارات والشعوب الأخرى ليس أمراً معيباً أو مشيناً فهو قانون الوجود الإنساني، ولكن الصهاينة، شأنهم شأن المعادين لليهود، يحاولون خلع صفة النقاء الحضاري وأحياناً العرْقي على اليهود، وفي هذا إنكار لإنسانيتهم لأنهم حين ينتزعون اليهود من سياقهم التاريخي المتعين إنما ينتزعونهم من سياقهم الإنساني الوحيد.

يذهب الصهاينة والمعادون لليهود إلى أن ثمة خصوصية يهودية تؤدي إلى عدم قدرة أعضاء الجماعات اليهودية على الاندماج في المجتمعات الإنسانية، ومن ثم يجب تأسيس الدولة الصهيونية حتى لا يشعر اليهودي بالاغتراب وفيما يلي بعض هذه المصطلحات.

١ ـ الخصوصية اليهودية:

«الخصوصية اليهودية» تعبير ينطلق من أن هناك سمات وخصائص ثابتة يفترض أنها مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية ومن ثم تمنحهم خصوصيتهم. وهذه الفكرة كامنة في جميع الأدبيات الصهيونية والأدبيات المعادية لليهود، إذ إن كلاً منهما يرى أن ثمة طبيعة بشرية يهودية أو تاريخاً يهودياً خاصاً مقصوراً على اليهود. ولكن دارس الجماعات اليهودية في العالم سيري أن مفهوم الخصوصية اليهودية ليس له ما يسنده في الواقع، إذ يتسم أعضاء الجماعات اليهودية بل والنسق اليهودي الديني ذاته بعدم التجانس، ولذا فقد يكون من الأدق الحديث عن خصوصيات الجماعات اليهودية، وهي خصوصيات أدت العناصر التالية إلى ظهورها:

١ ـ اضطلعت أعداد كبيرة من الجماعات اليهودية بدور الجماعات الوظيفية مما أدي إلى عزلها عن المجتمع، ومن ثم كان لهذه الجماعات لون خاص بها وشخصية شبه مستقلة لكن هذه الخصوصية وظيفية أكثر منها حضارية، أي أنها مرتبطة بالوظيفة لا بالتراث المشترك.

٢ ـ ما يضفي على أعضاء الجماعات اليهودية (في معظم الأحوال) طابع الاستقلال النسبي الإثني هو ميراثهم من تشكيل حضاري سابق كانوا يتواجدون فيه وحملوا بعض عناصره وسماته معهم إلى التشكيل الحضاري الجديد الذي انتقلوا إليه وتمسكوا بها وحافظوا عليها، دون أن تكون هذه العناصر والسمات يهودية بالضرورة.

٣ ـ الخصوصية اليهودية التي تتمتع بها الجماعات اليهودية الوظيفية هي أقرب إلى الحالة الذهنية الافتراضية منها إلى الحالة الواقعية الفعلية، فرغم العزلة التي يفرضها المجتمع على الجماعة الوظيفية فإن أعضاء الجماعة اليهودية يكتسبون كثيراً من خصائص هذا المجتمع ويندمجون فيه.

لكل هذا لا يمكن الحديث عن خصوصية يهودية واحدة عالمية مستمدة من معجم حضاري واحد، بل ويمكننا أن نقول إن هناك خصوصيات يهودية شتي اكتسبها أعضاء الجماعات اليهودية لا من تراث يهودي عالمي أو من خلال حركيات حضارية يهودية عامة، وإنما من خلال التفاعل مع عدة تشكيلات حضارية، ومن خلال التكيف معها بطرق مختلفة، ومن خلال الاندماج فيها في نهاية الأمر. ومن ثم، أصبح أعضاء الجماعة اليهودية في الصين يهوداً صينيين (أو صينيين يهوداً) تحددت خصوصيتهم داخل التشكيل الحضاري الصيني وبسببه لا خارجه أو بالرغم منه، ولذا انضمت قيادة الجماعة اليهودية في الصين إلى طبقة كبار الموظفين العلماء (ماندرين) وتطبع أعضاء الجماعة اليهودية بطبائع الصينيين في كثير من النواحي. ويقال الشيء نفسه عن يهود الهند ويهود إثيوبيا ويهود العالم العربي، بل ونجد داخل التشكيل الحضاري الواحد، كالتشكيل الحضاري العربي، أن يهود العراق يختلفون عن يهود اليمن بمقدار اختلاف العراق عن اليمن، وفي اليمن يختلف يهود صنعاء عن يهود الجبال (صعدا وغيرها) بمقدار اختلاف أهل صنعاء عن أهل الجبال.

وتختلف الأزياء التي يرتديها أعضاء الجماعات اليهودية باختلاف التشكيل الحضاري الذي ينتمون إليه، فالبنطلون الجينز أو الميني جيب زي الفتاة اليهودية الأمريكية الحديثة يختلف عن زي الفتاة الأمريكية في الجنوب الأمريكي قبل الحرب الأهلية، حيث كانت تلبس أزياء الأرستقراطية الإنجليزية، وزي كلتيهما لا علاقة له بالزي الذي ترتديه الفتاة اليهودية من قبائل البربر في المغرب وتونس، وكل هذه الأزياء لا علاقة لها بما ترتديه الفتاة اليهودية المحجبة في بخاري أو نساء السفارد الأرستقراطيات في شبه جزيرة أيبريا اللائي كن يرتدين ملابس الأرستقراطية الإسبانية أو العربية. ويصدق القول نفسه عن فلكلور المجتمعات اليهودية الذي هو في واقع الأمر فلكلورات الجماعات المختلفة التي ينتمون إليها، فطاسة الخضة التي يستخدمها يهود مصر أمر غير معروف ليهود بولندا الذين تأثروا بالتراث الشعبي السلافي، وكلاهما سيصدم حينما يعرف بعض العادات التي يمارسها يهود إثيوبيا مثل ختان الإناث وعزل المرأة في كوخ مستقل أثناء الحيض. والشيء نفسه ينطبق على الفنون الجميلة، فرسوم شاجال تختلف اختلافا جوهريا عن الزخارف الهندسية التي تظهر على النحاسيات المملوكية التي لا يزال الحرفيون اليهود يصنعونها في دمشق، وكلاهما يختلف عن الحلي الفضية التي يصنعها الصاغة اليهود في اليمن أو تونس.

وقد يقال إن اللغة العبرية تشكل عنصراً مشتركًا بين أعضاء الجماعات اليهودية، لكن من المعروف أن العبرية ظلت في معظم الأحيان لغة الصلاة التي كتبت بها بعض الكتابات الفقهية ولم يكن يجيدها سوى أعضاء الأرستقراطية الدينية. وبعبارة أخرى كانت اللغة العبرية كعنصر مشترك مستمر مقصورة على فئة صغيرة من الجماعات اليهودية ولا تمتد إلى كل النشاطات الإنسانية، أما الغالبية الساحقة من أعضاء الجماعات اليهودية فكانوا يتحدثون لغات ولهجات استقوها من الحضارات والمجتمعات التي وجدوا فيها وهذه اللغات تحدد ولا شك جانباً كبيراً من رؤيتهم للعالم.

ولعل الصورة اللغوية بين يهود العالم توضح ما نرمي إلى تأكيده، فالغالبية الساحقة ليهود العالم في نهاية القرن التاسع عشر كانت تتحدث اليديشية (لا العبرية)، وفي الوقت الحالي يشكل غالبية يهود العالم (الولايات المتحدة - إنجلترا - كندا - جنوب أفريقيا - أستراليا - نيوزيلنده) جزءاً لا يتجزأ من التشكيل الاستعماري الاستيطاني الأنجلو ساكسوني، ولذا فهم يتحدثون الإنجليزية لا العبرية، أما يهود الفلاشاه فهم يتحدثون الأمهرية ويتعبدون بالجعيزية التي لم يسمع بها كثير من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، تماماً كما لم يسمع الفلاشاه من قبل بالعبرية أو اليديشية وربما الإنجليزية.

والواقع أن مصدر الاختلاف بين اللغات التي يتحدث بها أعضاء الجماعات اليهودية والأزياء التي يرتدونها والفنون التي يعجبون بها أو ينتجونها هو دائماً اختلاف التشكيلات الحضارية التي انتمي إليها أعضاء الجماعات اليهودية في الماضي أو التي ينتمون إليها في الوقت الحاضر، ولذا يشير يهود فرنسا الأصليون إلى المهاجرين المغاربة بوصفهم «كوشر كسكس»، أي أن يهودية يهود المغرب مرتبطة ولصيقة بهويتهم المغربية، فطعامهم لا تقرره العقيدة اليهودية وحدها ولذا فهو ليس «كوشير» وحسب، وإنما يقرره أيضاً انتماؤهم الإثني ولذا فهو أيضاً «كسكس»، والخصوصية اليهودية هنا ليست سمة عامة، وإنما هي سمة مرتبطة بانتمائهم المغربي، ولذلك يرى البعض أن هؤلاء لو فقدوا خصوصيتهم المغربية لفقدوا هويتهم اليهودية أيضاً.

وقد يقال إن ثمة رابطة دينية قوية بين أعضاء الجماعات اليهودية وإن الخصوصية اليهودية تكمن في هذه العقيدة الفذة، ولكننا لو دققنا النظر لوجدنا أن العقيدة اليهودية لا تختلف كثيراً عن الإثنية اليهودية، فالعقيدة اليهودية ذاتها تأخذ شكل تركيب جيولوجي غير متجانس تتراكم داخله أنساق دينية مختلفة بعضها توحيدي

وبعضها الآخر حلولي. وقد اكتسبت الرؤية اليهودية في الصين مضموناً صينياً صريحاً وانغمس اليهود تحت تأثير الكونفوشيوسية في عبادة الأسلاف، وكانوا يطلقون على الإله اسم «تاين» أي السماء أو «تاو» أي الطريق، وكانوا يعبدونه في معبد يهودي يقف بجواره معبد آخر خصص لعبادة الأسلاف، وكان بعضهم يأكل لحم الخنزير مثل الصينيين لم يكونوا يضحون به لأسلافهم بل كانوا يقدمون لهم لحم الضأن وحسب، والأسلاف هنا بالمناسبة هم إبراهيم ويعقوب وإسحق. وفي الهند تأثرت اليهودية بنظام الطوائف المغلقة وبالعديد من الشعائر الخاصة بالنجاسة تحت تأثير الهندوكية، أما في إثيوبيا فقد تأثرت اليهودية هناك بكل من الإسلام والمسيحية، فيهود الفلاشاه يخلعون نعالهم ويصلون في مسجد ولكنهم يتلون صلواتهم بالجعيزية لغة الكنيسة القبطية، كما أن يهوديتهم دخلتها عناصر وثنية عديدة. وفي المحيط الإسلامي قام موسي بن ميمون بتطوير عناصر التوحيد في اليهودية وأكدها، بل وحاول ابنه من بعده إضفاء الطابع الإسلامي على اليهودية كما تأثرت اليهودية، في المحيط السلافي الفلاحي بالمسيحيين الأرثوذكس وبحركات المتصوفة التي ظهرت بينهم وكانت هذه العناصر من بين الأسباب المهمة التي أدت إلى ظهور الحسيدية. وفي ألمانيا والولايات المتحدة فيما بعد تأثرت اليهودية بالمحيط البروتستانتي وظهرت اليهودية الإصلاحية في بلد لوثر، أما في البلاد الكاثوليكية خصوصاً في أمريكا اللاتينية فقد تأثرت اليهودية بالعقيدة الكاثوليكية في كثير من جوانبها، ولذلك لا توجد يهودية إصلاحية في أمريكا اللاتينية، وقد حدا هذا ببعض الدارسين إلى الحديث عن يهودية كاثوليكية ويهودية بروتستانتية ويهودية إسلامية، ويمكن أن نضيف «يهودية كونفوشيوسية» وأخرى «هندوكية» وثالثة «أفريقية»، فهذه كلها يهوديات تستمد خصوصياتها من محيطها الديني.

وقد طالب عصر العقل أعضاء الجماعة اليهودية وغيرهم بالتخلص من خصوصيتهم ليصبحوا بشراً بالمعنى العام، للكلمة وكان ينظر إلى اليهود الذين يؤثرون الإبقاء على خصوصيتهم الدينية أو الإثنية على أنهم دولة داخل دولة، وقد شن الفكر العقلاني هجوماً شرساً على جميع الأقليات العرقية واللغوية والدينية في المجتمع الغربي وضمن ذلك الجماعة اليهودية ودعاهم إلى التخلي عن انعزاليتهم وإلى إصلاح وتحديث هويتهم، أي تطبيعها وتخليصها من أية خصوصية تكون قد علقت بها.

وقد استجاب اليهود إلى هذه الدعوة وبسرعة غير عادية لأسباب عدة، من بينها عدم وجود خصوصية يهودية عالمية كما أسلفنا وعدم وجود سلطة مركزية يهودية تحدد

الخصوصية اليهودية وتحدد معاييرها. ويلاحظ أن أعضاء الجماعات اليهودية بسبب غياب هذه السلطة كانوا قد تشربوا قدراً كبيراً من الثقافة المحيطة بهم عن وعي أو عن غير وعي، ولذا لم يكن من الصعب إنجاز عملية التخلص من أية علامات على الخصوصية، كما ظهرت بين اليهود حركات إصلاح ديني وتنوير أسهمت في تخليص اليهود من أية خصوصية دينية أو غير دينية. ومع هذا يجب ملاحظة أن أشكال العلمنة ومعدلاتها ذاتها كانت تختلف من بلد إلى آخر حسب الخصوصية الدينية والحضارية لهذا البلد أو ذاك.

وأكبر دليل على الاختفاء السريع للخصوصية هو ما حدث للكتلة البشرية الشرق أوروبية الضخمة من يهود اليديشية والتي كانت تشكل ٨٠٪ من يهود العالم، فقد اختفت اليديشية أهم مظاهر هذه الخصوصية بسرعة غير عادية ولم يعد هناك سوى بضعة جيوب وأفراد يتحدثونها. وتعد تجربة المهاجرين اليهود مع الولايات المتحدة من أهم التجارب في التخلص من الخصوصية، فقد كان أعضاء الجماعة اليهودية هم أسرع أقلية تمت أمركتها رغم كثرة الحديث عن انعزالهم وتطلعاتهم القومية، وذلك لأن المجتمع الأمريكي هو المجتمع العلماني النموذجي. وفي الوقت الحاضر تدل الصورة العامة للخصوصيات اليهودية في العالم على تآكلها وعلى تزايد معدلات اندماج اليهود في مجتمعاتهم.

وبطبيعة الحال لا يمكن الحديث في الوقت الحاضر عن أية خصوصية إسرائيلية، ولكن حتى إن ظهرت مثل هذه الخصوصية فإنها لن تكون خصوصية يهودية عالمية وإنما خصوصية التجمع البشري الاستيطاني في الشرق الأوسط، ذلك المجتمع الذي يتحدث سكانه اللغة العبرية مع أنهم جاءوا من تشكيلات حضارية شتي وأحضروا معهم خصوصياتهم الحضارية المختلفة، والنزاع القائم بين الأرثوذكس وغير الأرثوذكس وبين الدينيين واللادينيين وبين السفارد والإشكناز هو أكبر دليل على عدم وجود الخصوصية اليهودية العالمية أو العامة.

٢- الانعزالية اليهودية:

«الانعزالية اليهودية» عبارة تفترض أن اليهود يعيشون في حالة عزلة عن الشعوب التي يعيشون بين ظهرانيها. وتفسر هذه الانعزالية في الأدبيات الصهيونية على أساس أنها فرضت فرضاً على اليهود وأنهم غير مسئولين عنها، كما تفسر أيضاً بأن اليهود لا يمكنهم

الاندماج في مجتمعات الأغيار بسبب هويتهم أو شخصيتهم أو طبيعتهم أو تاريخهم أو جوهرهم اليهودي. ولا يختلف تفسير أعداء اليهود لهذه الظاهرة عن تفسير الصهاينة، فاليهود بحسب تصورهم يعزلون أنفسهم عن الأغيار لأن هذه هي طبيعتهم وشخصيتهم وهويتهم، وتنعكس هذه السمة في سلوكهم وتاريخهم. يتفق الصهاينة والمعادون لليهود إذن على أن الانعزالية سمة أساسية وأنها لا علاقة لها بالحركيات الاجتماعية التي يوجد فيها اليهود وإنما يسببها شيء ما داخلهم.

ولا يمكن بطبيعة الحال إنكار أهمية بعض جوانب النسق الديني اليهودي، مثل عقيدة الشعب المختار وكذلك كثرة الشعائر الدينية، في تشجيع اليهود على العزلة، وقد وصل هذا الاتجاه في النسق الديني اليهودي إلى ذروته في القبالاه اللوريانية الدينية، حيث تطرح فكرة أن اليهود خلقوا من طينة مغايرة للطينة التي خلق منها البشر. ولكن علاقة الأفكار الدينية وأية أفكار بسلوك الإنسان ليست علاقة سببية بسيطة، فالأفكار لا تحدد سلوك الإنسان أبداً ولكنها تخلق لديه استعداداً كامناً أو قابلية ليسلك سلوكاً معيناً ويبتعد عن أنماط معينة من السلوك، كما أن من الصعب بمكان تحديد ما إذا كانت فكرة مثل فكرة الشعب المختار هي التي أدت إلى عزلة اليهود أم أن الفكرة هي نتيجة هذه العزلة أو أن العلاقة هي علاقة تأثير وتأثر وما مدى التأثير وما عمق التأثر.

وعلى أية حال لا يكمن الخلل الأساسي في النموذج التفسيري الصهيوني والمعادي لليهود في سببيته البسيطة وحسب وإنما في مستواه التعميمي المرتفع وفي تجريديته الزائدة، إذ إن كلا الفريقين يتحدث عن اليهود ككل وبشكل عام ويفسر الظاهرة داخل هذا الإطار. ولو أننا تحركنا في إطار الجماعات اليهودية لأمكننا اكتشاف التنوع وعدم التجانس وأن أعضاء الجماعات اليهودية انعزلوا عن بعض المجتمعات واندمجوا في البعض الآخر، وأنهم انصهروا في بعض المجتمعات وطردوا من البعض الآخر، وأن هذه الظواهر يمكن تفسيرها من خلال مركب من الأسباب الحضارية والاقتصادية الخارجية التي تختص بمجتمع الأغلبية والأسباب الداخلية التي تختص بأعضاء الجماعة. ومن أهم هذه الأسباب في تصورنا اضطلاع أعضاء الجماعات اليهودية بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة في كثير من المجتمعات خصوصاً المجتمع الأوروبي ابتداء من العصور الوسطى، والجماعة الوظيفية الوسيطة لا يمكنها أن تقوم بدورها إلا في حالة عزلة، إذ إنها تضطلع بوظائف مشينة أو بوظائف تتطلب الحياد والموضوعية مثل البغاء أو التجارة.

ومن أشهر حالات عزلة اليهود وجودهم داخل الجيتوات القسرية في أوروبا ابتداء من

أواخر عصر النهضة، ولكن العزلة وصلت قمتها في أوكرانيا حيث كان اليهود يشكلون جماعة وسيطة تمثل طبقة النبلاء شلاختا الحاكمة في بولندا، وكانت عزلة اليهود على عدة مستويات:

١ ـ طبقية: جماعة تجارية مالية تمثل النخبة الحاكمة في وسط زراعي فلاحي وتساندها القوة العسكرية البولندية.

٢ ـ لغوية: جماعة تتحدث اليديشية في وسط يتحدث الأوكرانية.

٣ ـ ثقافية: جماعة ترتدي أزياء وتأكل طعاما يختلفان عن أزياء وطعام الفلاحين.

٤ ـ دينية: جماعة يهودية تمثل النبلاء الكاثوليك في وسط أرثوذكسي.

وحينما تصبح العزلة على كل هذه المستويات فإنها عادة ما تكون متطرفة، إذ إن العزلة على مستوى ما تدعم العزلة على مستوى آخر. ولكن ورغم هذه العزلة فمن من المعروف أن الجماعة اليهودية تأثرت بوسطها الفلاحي السلافي، وظهر هذا التأثر في انتشار الحسيدية التي نبعت من الفلكلور الديني المسيحي السلافي، أي أنه لا يمكن أن توجد عزلة مطلقة إلا في كتابات العنصريين الاختزاليين من الصهاينة والمعادين لليهود.

٣ ـ الاندماج:

«الاندماج» هو تبني أعضاء الأقليات عادات الشعوب التي يعيشون في كنفها وكذلك تراثها الحضاري من مأكل وملبس وطرق تفكير ولغة بحيث لا يختلفون في كثير من الوجوه عن بقية أعضاء المجتمع. والاندماج عكس الانعزال، وهو مختلف عن الانصهار (أي الذوبان الكامل في المجتمع المضيف أو مجتمع الأغلبية واختفاء أي شكل من أشكال الخصوصية). وأعضاء الجماعات اليهودية باندماجهم في محيطهم الحضاري وانصهارهم أحياناً أو بانعزالهم عنه أحياناً أخرى لا يختلفون عن بقية أعضاء الأقليات والجماعات الإثنية أو عن بقية البشر.

ولا يوجد قانون واحد يحكم ظاهرة اندماج أعضاء الجماعات اليهودية وانصهارهم أو انعزالهم، وبالتالي لا يمكن القول بأن اليهود يميلون بطبيعتهم إلى الانعزال عمن حولهم، كما لا يمكن الأخذ بعكس ذلك، كأن نقول إن اليهود يميلون بطبيعتهم إلى الاندماج فيمن

حولهم. وهكذا ففي غياب حركيات تاريخية اجتماعية يهودية مستقلة لابد من العودة إلى أطر مرجعية مختلفة، ومن ثم فإن من الضروري دراسة كل حالة على حدة بالإشارة إلى مرجعيتها التاريخية والثقافية غير اليهودية.

٤ ـ الولاء اليهودي المزدوج:

الولاء اليهودي المزدوج مصطلح يستخدمه المعادون لليهود والصهاينة الذين ينطلقون من الإيمان بأن اليهود لا يدينون بالولاء إلا لوطنهم القومي ومصالحهم اليهودية، لأنهم لا جذور لهم في مجتمعاتهم ولا ينتمون إليها انتماء حقيقيا فاليهود شعب عضوي مرتبط بأرضه، لذلك فهم دائما موزعو الولاء يمارسون إحساساً عميقاً بازدواج الولاء.

وقد أكد الزعماء والمفكرون النازيون أثناء محاكمات نورمبرج الواحد تلو الآخر أنهم تعرفوا إلى اليهود واليهودية والمسألة اليهودية من خلال الكتابات الصهيونية التي تتحدث عن عدم انتماء اليهود إلى أوطانهم الواقعية وعدم ولائهم لها، وتنطلق التشريعات النازية من هذا الفهم ومن تصور أن اليهود لا ينتمون إلى الوطن القومي الألماني إذ إن لكل شعب عضوي وطنه. وفي الوقت الحاضر يسوق أعداء اليهود دليلا على قولتهم هذه بالإشارة إلى قرائن عدة مثل كمية الأموال التي ترسل إلى إسرائيل من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، وتحديد هذه الجماعات اليهودية لمواقفها السياسية بطريقة تتفق ومصالح إسرائيل، ووقوف كثير من المفكرين اليهود الليبراليين والثوريين ضد حرب فرنسا في الجزائر وحرب الولايات المتحدة في فيتنام في الوقت الذي يؤيدون فيه إسرائيل في حروبها العدوانية ضد العرب.

ولا يمكن الحديث عن ولاء يهودي محدد ومطلق فولاء أعضاء الجماعات اليهودية يتحدد بحسب مركب تاريخي طبقي إنساني أخلاقي، كما لا يمكن تحديد كيفية تصرف أعضاء الجماعات اليهودية مسبقا وكأنهم كائنات بسيطة تعيش بمعزل عن التاريخ الإنساني. وتدل تواريخ أعضاء الجماعات اليهودية على أن ازدواج الولاء ليس سمة أساسية أو لصيقة بهم وعلى أنهم في كثير من الأحيان أخلصوا لأوطانهم التي يعيشون في كنفها وانتموا إليها انتماء كاملاً واندمجوا فيها وتمثلوا قيمها واستبطنوها تماماً ومنذ أيام التهجير البابلي، حيث ظهرت أول جماعة يهودية خارج فلسطين، طورت الشريعة اليهودية مفهوم (شريعة الدولة هي الشريعة) الأمر الذي يحدد ولاء أعضاء الجماعة بشكل

صارم باعتبارهم جماعة بشرية لا تدين بالولاء إلا لقوانين الدولة التي يعيشون في كنفها. وقد التزم معظم أعضاء الجماعات اليهودية بهذا المفهوم عبر التاريخ الإنساني شأنهم في هذا شأن كثير من البشر من أعضاء الأقليات والأغلبية، وعلى كل حال لم يكن هناك احتمال لازدواج الولاء لعدم وجود حكومة أو دولة يهودية يدين لها اليهودي بالولاء. وبتحول أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعة وظيفية وسيطة داخل التشكيل الحضاري الغربي منذ العصور الوسطي وحتى الثورة الفرنسية توجه ولاء اليهودي إلى جماعته أساساً ثم إلى الطبقة الحاكمة التي تحمي هذه الجماعة وتضمن بقاءها، وهذه سمة أساسية تسم مثل هذه الجماعات وليست مقصورة على الجماعات الوظيفية اليهودية، فنجد أن الصينيين في الفلبين والعرب في بعض البلاد الأفريقية وإندونيسيا يندرجون تحت هذا النمط. وعلى كلٍّ، لم تكن مفاهيم الوطن والولاء القومي له واضحة أو متبلورة حتى نهايات القرن الثامن عشر وظهور الفكر القومي.

وقد طرحت قضية الولاء في عصر التنوير في أوربا حينما وصف اليهود بأنهم «دولة داخل دولة» بسبب خصوصيتهم وانعزاليتهم الحقيقية أو الوهمية، وقد طلب إلى أعضاء الجماعات اليهودية وكذلك إلى الأقليات الإثنية والدينية كافة أن يدينوا بالولاء للدولة القومية وحدها وأن يرفضوا أية ولاءات أخرى. وبالفعل كان اليهود من أكثر العناصر ترحيباً بهذه الدعوة فاندمجوا في مجتمعاتهم بنسبة عالية كلما سنحت لهم الفرصة، ولم يعرقل هذه العملية سوي تعثر التحديث سواء في روسيا أو في ألمانيا وهي المجتمعات التي طرحت تصورا عضويا لفكرة الولاء.

وقد كانت حادثة بولارد ترجمة عملية لنظرة الصهاينة لأعضاء الجماعات اليهودية، فقد قامت المخابرات الإسرائيلية بتجنيده باعتبار أنه مزدوج الولاء، ولكن أعضاء الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة رفضوا هذا التعريف وأكدوا أن ولاءهم للولايات المتحدة أولاً وأخيراً واحتجوا على سلوك إسرائيل. ولكن حادثة بولارد ليست سوي جزء من نمط عام، إذ قامت الحركة الصهيوينة من قبل بتجنيد بعض يهود البلاد العربية للتجسس ضمن قسم خاص أسس لهم في الوكالة اليهودية قبل عام ١٩٤٨، كما أن حادثة لافون تبين أن المخابرات الإسرائيلية قامت بتجنيد بعض يهود مصر للتجسس لصالح الدولة الصهيونية.

ولا شك في أن هذا الوضع يخلق كثيراً من المشكلات لليهود في العالم، وقد تنبه سير إدوين مونتاجو العضو اليهودي الوحيد في الوزارة البريطانية التي أصدرت وعد بلفور إلى

هذا البعد، حيث احتج على إصدار هذا الوعد لأن الاتهام بازدواج الولاء بحسب رأيه اكتسب لأول مرة أساساً موضوعيا.* وتحاول الصهيونية التوطينية التغلب على هذا الوضع الذي يسبب الحرج لأعضاء الجماعات اليهودية بأن تعود إلى الصيغة الصهيونية الإثنية التي ترى أن اليهود ينتمون سياسيا إلى الوطن الذي يعيشون فيه، مع أنهم من ناحية القيم الدينية والثقافية والروحية ينتمون إلى مركزهم الروحي أو الإثني في إسرائيل. ويحاول الصهاينة في الولايات المتحدة أن يذيبوا ازدواج الولاء داخل النمط الأمريكي العام بحيث تصبح علاقة الأمريكي اليهودي بإسرائيل مثل علاقة الأمريكي الإيطالي بإيطاليا، وبالتالي يصبح لليهودي وطنان قوميان: الأول هو مسقط الرأس الذي هاجر منه، والثاني هو البلد الذي هاجر إليه.

الفصل الثامن
شعب يهودي أم جماعات يهودية؟

يحاول الصهاينة أن يفرضوا مفهوم الوحدة اليهودية على واقع أعضاء الجماعات اليهودية وتواريخهم وانتماءاتهم الشتى، وهذا ما يفعله أيضاً المعادون لليهود واليهودية، وفي هذا الفصل سنبين كيف أن مصطلحاً بسيطاً مثل «اليهود» مصطلح خلافي يخبئ تحيزات مختلفة، وكيف أن الرؤية الصهيونية للتاريخ تحاول أن تفرض مفهوم «الوحدة» على تواريخ الجماعات اليهودية. وقد نجح الصهاينة في ترسيخ مفهوم «الوحدة اليهودية» في وجدان معظم الباحثين بحيث أصبحوا يتصورون أن مصطلح «يهودي» (بشكل عام ومطلق) مصطلح محدد المعنى وبرغم أن كلمة يهودي هي من أكثر الدوال إشكالية رغم بساطتها. فكلمة «يهودي» يمكن أن تستخدم للإشارة إلى العبرانيين القدامى باعتبارهم جماعة عرقية أو إثنية (قوم) أو باعتبارهم جماعة دينية (شعب مختار) كما تستخدم الكلمة للإشارة إلى اليهود الحاخاميين والقرائين والسامريين ويهود الصين وإثيوبيا.

ويشار إلى اليهود باعتبارهم شعباً مقدساً في التراثين الدينيين المسيحي واليهودي. وبعد ظهور العلمانية أصبحوا شعباً عضوياً يشار إليهم بوصفهم «الشعب اليهودي»، أو بالمعنى اللاديني مجرد «اليهود» (بالإنجليزية: جوري Jewry) ويشار إلى السفارد والإشكناز والصابرا ويهود الولايات المتحدة على أنهم يهود، وتزداد الأمور اختلاطا حينما يستخدم الدال يهودي للإشارة إلى يهود العالم وإلى صهاينة العالم والمستوطنين الصهاينة في إسرائيل. ولعل المصدر الأساسي لهذا الخلط هو التراث الإنجيلي الذي يتحدث دائما عن اليهود ككل باعتبارهم الشعب، وهي طريقة للرؤية ورثها العالم الغربي ككل، ولذا نجد أن المحايدين العلميين والمعادين لليهود والصهاينة المتحيزين كلهم يتحدثون عن اليهود ككل.

وغني عن القول إن استخدام الدال يهودي بهذه الطريقة يجعله عديم الفائدة، إذ يشير إلى حقل دلالي متضارب ومدلولات مختلفة. ولنحاول في بقية هذا الفصل أن نحدد الحقل الدلالي لبعض المصطلحات السائدة وأن نقترح مصطلحات جديدة لتحل محل مصطلح «يهودي».

وتوجد عدة مصطلحات تُستخدم للإشارة إلى اليهود سنحاول تعريف حقلها الدلالي:

١ ـ اليهود بوصفهم كلاً متماسكاً:

«اليهود بوصفهم كلاً متماسكاً» هي ترجمتنا للكلمة الإنجليزية «جوري Jewry»، والتي كانت تستخدم أصلاً للإشارة إلى الجيتو أو الشارع أو الحي الذي يسكنه اليهود، وهي تشير إلى اليهود من حيث هم كل متماسك لا من حيث هم جماعات شتى لكل منها انتماؤها العرقي أو الإثني أو الحضاري وتضم في صفوفها أعضاء يهوداً لكلٍّ طموحاته وتصوراته الخاصة به. والكلمة تفترض أن هناك علاقة عضوية بين أعضاء الجماعات اليهودية في العالم، وأنهم يخضعون للحركيات التاريخية نفسها التي تجب الانتماءات المختلفة والتناقضات الكامنة والظاهرة، وتوجد كلمات مماثلة في اللغات الأوروبية الأخرى مثل جويفيري Juiverie الفرنسية وجويديتشا Guidecca الإيطالية.

ويحبذ الصهاينة استخدام هذا المصطلح لأنه يعبر عن رؤيتهم ونموذجهم التفسيري، وهذا المصطلح لا يختلف كثيراً في تضميناته عن مصطلحات مثل «الشعب اليهودي» أو «الشعب العضوي» فهي جميعاً تشير إلى كل عضوي متماسك.

٢ ـ الشعب اليهودي:

«الشعب اليهودي» عبارة تفترض أن اليهود شعب واحد بالمعنى القومي أو العرقي للكلمة، كما تفترض أن لديهم قوميتهم اليهودية المستقلة وهو أمر يتنافى مع الواقع التاريخي كما بينا في تحليلنا المصطلحي.

٣ ـ الشعب:

«الشعب» كلمة تتواتر في الأدبيات الدينية اليهودية والمسيحية وفي الدراسات الدنيوية أيضاً. ويختلف معنى الكلمة في السياق الديني عنه في السياق الدنيوي والتاريخي، فهي

في السياق الديني تعني «جماعة دينية» ترتبط بميثاق بينها وبين الإله وتنتفي عنها صفة الشعب بعدم تنفيذها العهد، وهذا الشعب قد يرى نفسه شعباً مختاراً أو شعباً مقدساً أو أمة الروح أو الأمة المقدسة أو الشعب الأزلي أو المفضل على العالمين، ومن أسمائه «بنو يسرائيل» و«شعب يسرائيل». وترى الكنيسة المسيحية أن المسيحين هم الشعب الحقيقي، وأن اليهود قد تحولوا إلى مجرد «شعب شاهد».

أما في السياق الدنيوي فالأمر أكثر تركيباً، حيث يعني «الشعب» مجموعة القبائل العبرانية التي تسللت إلى كنعان ثم اتحدت في المملكة العبرانية المتحدة ثم انفكت إلى مملكتين المملكة الشمالية والمملكة الجنوبية، وقد اعتبره اليونانيون والرومان «إثنوس»، أي قوماً يترأسهم رئيس القوم (إثنآرخ) ثم تحولوا إلى جماعات يهودية مختلفة منتشرة. وفي العصر الحديث عاد الحديث بين الصهاينة عن «الشعب اليهودي» أو «الشعب العضوي (فولك)».

٤. الشعبان:

مصطلح صهيوني جديد يشير إلى كل من الشعب الفلسطيني والشعب الإسرائيلي أو اليهودي. وهذا المصطلح يتضمن شكلاً من أشكال الاعتراف بوجود شعب فلسطيني وبالتالي حقوق فلسطينية في أرض فلسطين (إرتس يسرائيل في المصطلح الصهيوني)، ولكنه يؤكد أيضاً وجود شعب يهودي حقوق في فلسطين المحتلة قبل عام ١٩٤٨، كما يتضمن المصطلح شكلاً من أشكال التكافؤ بين الفلسطينيين والمستوطنين الصهاينة وشكلاً من أشكال المساواة في الحقوق، وكأن الغزاة الصهاينة لا يختلفون عن السكان الأصليين، فمصطلح «الشعبين» يضفي شرعية على عملية الغزو الصهيوني.

٥. الجماعات اليهودية:

لكل ما تقدم نرى ضرورة استخدام مصطلح «الجماعات اليهودية» بدلاً من مصطلح «اليهود». ونحن نذهب إلى أن العبرانيين (والعبرانيين اليهود)، أي اليهود القدامى، كانوا يشكلون وحدة ثقافية وإثنية تتسم بقدر من التماسك والتجانس والوحدة، ولكن مع انتشار اليهود في أرجاء العالم في مجتمعات مختلفة لكلٍّ تقاليدها الحضارية والدينية وتواريخها تفاعل اليهود مع هذه التقاليد والتواريخ وخضعوا لمؤثراتها شأنهم شأن كل الأقليات والبشر، وقد بدأت عملية الانتشار مع التهجير البابلي، ولكن وتيرتها

تصاعدت مع ظهور الحضارة الهيلينية والرومانية، واكتملت عملية الانتشار والتفرق مع هدم الهيكل في عام ٧٠م على يد تيتوس وكذلك سقوط العبادة القربانية المركزية وأية سلطة دينية مركزية يهودية، وقد تحول اليهود نتيجة هذه العملية إلى جماعات مختلفة متفرقة غير متجانسة. ونحن نفضل استخدام مصطلح جماعات يهودية على مصطلح يهود، لأن المصطلح الأخير يؤكد التماسك والتجانس والوحدة حيث لا تماسك ولا تجانس ولا وحدة.

وإذا حاول الباحث أن يدرس أعضاء الجماعات اليهودية في القرنين العاشر والحادي عشر الميلاديين كيهود وحسب فإنه سيحاول دون شك رصد عناصر الوحدة بين هؤلاء اليهود. ومع أن هناك عناصر مشتركة قد تجمع بين هذه الجماعات فإنها ليست في أهمية العناصر غير المشتركة من الناحية التفسيرية والتصنيفية، ولعل الاستعراض التاريخي الجغرافي للجماعات اليهودية يوضح هذه النقطة. فقد كانت الجماعات اليهودية في كل أنحاء العالم توجد في القرنين العاشر والحادي عشر داخل عدة تشكيلات حضارية سياسية مستقلة وسمت كل جماعة بميسمها، فأصبح أعضاء الجماعات اليهودية في أوروبا أقنان بلاط وتجاراً ومرابين داخل النظام الإقطاعي بل وبدءوا يواجهون مشكلة ظهور طبقات تجارية ومالية محلية، أما يهود العالم الإسلامي فلم يتسموا بتميز وظيفي حاد بل وشاركوا في الثورة التجارية التي ظهرت آنذاك وكانوا من الناحية الثقافية جزءاً لا يتجزأ من محيطهم الحضاري كما هو واضح في العصر الذهبي في الأندلس. ومن ناحية أخرى كانت أعداد من يهود فارس (وربما الهند) قد بدأت تستقر في الصين لأسباب تتصل بالحضارة الصينية (وهو تزايد الحاجة إلى المنسوجات الحريرية)، وكانت دولة يهود الخزر قد تبعثرت بسبب صعود القوة السلافية الروسية وتنصرها، ولكنهم كانوا يشاركون في تأسيس المجر، وكان يهود الفلاشاه قد أصبحوا جزءاً من التشكيل الحضاري الأفريقي في إثيوبيا وكونوا قبيلتهم بل ومملكتهم وانخرطوا في الحروب القبلية المختلفة. ولا يمكن لإطار واحد أن يشمل كل هذه الظواهر، ولفهم سلوك هذه الجماعات وحركتها ومصيرها لابد من العودة إلى التشكيلات الحضارية التاريخية التي كانوا يوجدون فيها لا إلى جوهر يهودي يتجاوز الزمان والمكان ويشكل وحدتها الجوهرية، أو إلى تاريخ يهودي يتطور حسب قوانينه الداخلية ويتطور اليهود في إطاره منعزلين عن تواريخ الجماعات التي يعيشون بين ظهرانيها.

وقد ازداد عدم التجانس بين الجماعات اليهودية بعد القرن الحادي عشر على المستويين

الديني والاجتماعي، حيث تعمق التوحيد في النسق الديني اليهودي في العالم الإسلامي بينما تعمق العنصر الحلولي الكموني في اليهودية الغربية وظهرت عناصر الثنوية والشرك مع هيمنة التراث القبالي. وفي حين كان يهود العالم الإسلامي يزدادون اندماجاً وتحضراً كان يهود العالم الغربي يزدادون انعزالاً وتخلفاً، ولكن مع الصعود الاقتصادي للعالم الغربي بعد الثورة التجارية والصناعية والرأسمالية تحول يهود الغرب تحولاً عميقاً ولعبوا دوراً في هذه العملية، التي لم تترك أي أثر في يهود الدولة العثمانية أو يهود كوشين في الهند على سبيل المثال.

وفي العصر الحديث نجد أن اليهود الأرثوذكس يكفرون الإصلاحيين والمحافظين والتجديديين، ويوجد الآن فريق من اليهود المسيحيين الذين يؤمنون بالمسيح باعتباره الماشيح دون الاعتراف بألوهيته، كما أن غالبية يهود العالم إما ملحدون أو لاأدريون أو غير مكترثين بالدين، ويهود الفلاشاه لا يعرفون التلمود ويتعبدون بالجعزية، مع أن التلمود يشكل العمود الفقري لليهودية الحاخامية (أي اليهودية الأرثوذكسية).

وكل جماعة يهودية لها مشاكلها الخاصة النابعة من وجودها داخل بناء تاريخي مستقل فيهود الفلاشاه يواجهون مشكلة المجاعات التي تجتاح أفريقيا في الآونة الأخيرة كما بدءوا يواجهون مشكلة التحديث في إسرائيل، أما يهود اليمن فيواجهون مشكلة عدم توافر المعلمين الدينيين والكتب الدينية بسبب انقطاع صلتهم بمراكز الدراسات الحاخامية في الغرب، كما يواجهون مشكلة أن اليمن بلد عربي في حالة صراع سياسي حاد مع دولة تسمي نفسها «الدولة اليهودية»، وهم يعانون أيضاً من التدخل الدائم من المنظمة الصهيونية التي تحاول «إنقاذهم» شاءوا أم أبوا. واليهود القراءون في إسرائيل يواجهون مشكلة وجودهم في مجتمع تسيطر عليه المؤسسة الحاخامية التي لا يعترفون بها وكذلك مشكلة تزايد معدلات العلمنة، أما القراءون في الاتحاد السوفيتي فيواجهون مشاكل مختلفة، ومشاكل كلا الفريقين تختلف عن تلك التي يواجهها اليهود القراءون في مصر أو في الولايات المتحدة، واليهود السامريون في نابلس يواجهون مشاكل فريدة باعتبارهم أصغر أقلية دينية في العالم لا تزال محتفظة بعبادتها القربانية المرتبطة بجبل جرزيم ومشاكل يهود جورجيا تختلف عن مشاكل يهود الكرمشاكي أو يهود أوكرانيا أو يهود بيروبيجان ويواجه يهود الولايات المتحدة مشاكل من بينها الخوف من الاندماج (الهولوكوست الصامت) نتيجة تقبل المجتمع لهم ونجاحهم فيه.

إن مشاكل الجماعات اليهودية متنوعة ونابعة من وجودها في مجتمعات مختلفة ذات مستويات مختلفة من التقدم والتخلف، ولكن استخدام اصطلاح يهود على إطلاقه لن يساعد كثيراً على التحليل والتفسير ومن هنا، نرى أن كلا من العقيدة اليهودية والهوية اليهودية هما في واقع الأمر عقائد وهويات تأخذ شكل تركيب تراكمي جيولوجي يحوي داخله طبقات غير متجانسة تعيش بعضها فوق بعض، وإذا ما أطلقنا على هذا اسم يهود ويهودية لكان في الأمر تعسف ولي لعنق الواقع لا يساعدان كثيراً على فهم الظاهرة ولذا فنحن نشير إلى العقائد وإلى الجماعات اليهودية بحيث تؤكد كلمة جماعات على استقلال كل جماعة وعلى خضوعها لحركيات تاريخية وحضارية مختلفة.

عبري ويهودي وصهيوني وإسرائيلي

ثمة عدم تجانس واضح بين أعضاء الجماعات اليهودية، ومع هذا يحاول الصهاينة أن يفرضوا رؤيتهم الاختزالية. وفي المقابل يجب ألا نسقط في هذه الاختزالية الصهيونية العنصرية وأن نطور هيكلاً مصطلحياً يبرز عدم التجانس، وستكون لمثل هذا الهيكل مقدرة تفسيرية عالية. وفيما يلي محاولة لتعريف بعض المصطلحات المتداولة في الخطاب الصهيوني بطريقة تبرز عدم التجانس.

١ ـ عبري:

عبري هي أقدم التسميات التي تطلق على أعضاء الجماعات اليهودية، ويقال أيضاً «عبراني» وجمعها «عبرانيون». وهناك تسمية أخرى هي «بنو يسرائيل» أو «جماعة يسرائيل» أو «يسرائيلي»، ثم يأتي بعد ذلك لفظ «يهودي» للتعبير عن المسمى نفسه.

والكلمة ذات معان ومدلولات عديدة، فيري بعض الكتاب أن الكلمة ترادف كلمة «عبيرو» التي ترد في المدونات المصرية و«خابيرو» التي ترد في المدونات الأكادية، ولكن البعض الآخر يشكك في هذا الاشتقاق باعتبار أن كلمة «عبري» صفة تدل على النسب أو الانتماء لوجود ياء النسب في آخرها في حين أن كلمة «خابيرو» أو «حبيرو» لا تعني غير المزاملة والمرافقة.

ومن الآراء المطروحة أيضا أن كلمة عبري مشتقة من «العبور» من عبارة «عبر النهر»: «فهرب هو وكل ما كان له وقام وعبر النهر وجعل وجهه نحو جبل جلعاد»

(تكوين٣١/ ٢١) . ويرى البعض أنه حين يقول الساميون «عبر النهر» دون ذكر اسم هذا النهر فإنهم يعنون نهر الفرات، والإشارة هنا إلى عبور يعقوب الفرات هارباً من أصهاره، ويري بعض الباحثين أن عبور يعقوب النهر هو أساس اسم العبرانيين حيث ينتسبون إلى من قام بهذا العبور أي يعقوب الذي سمي «يسرائيل».

وربما كان الاسم إشارة إلى جماعة قبلية إثنية كبيرة، ويظهر هذا الاستعمال في العلاقة بين المصطلح «عبري» واسم «عابر» حفيد سام (تكوين ١٠/ ٢٤-٢٥، ١١/ ١٥-١٦) الذي تنتسب إليه مجموعة كبيرة من الأنساب. ولكن أول شخص يشار إليه بأنه عبري هو إبراهيم (تكوين ١٤، ١٣) في سياق لا يدل على أن الإشارة إشارة إثنية وإنما إشارة تدل على الوضع الاجتماعي باعتباره غريبا أو أجنبياً ليست له أية حقوق، وتشير كلمة «عبري» في التوراة إلى العبرانيين أيضاً باعتبارهم غرباء.

وثمة رأي يذهب إلى أن العبرانيين كانوا غرباء في مصر مدة طويلة، وبالتالي ارتبط الاسم بهم وتحول من صفة لوضع اجتماعي إلى وصف لجماعة إثنية، ولذا توجد إشارات إلى يوسف على أنه غلام عبراني (تكوين ٤١/ ١٢)، كما توجد إشارة إلى النساء العبرانيات (خروج ١/ ١٩). ورغم أن الإشارة ذات طابع إثني واضح فإنها لم تفقد بعدها الاجتماعي تماماً. وفي سفر التكوين نجد إشارة إلى يوسف كعبد عبراني (٣٩/ ١٨) وهي إشارة ذات دلالة تخلط العنصرين الإثني والطبقي.

وترد كلمة «عبري» أحياناً مرادفة لكلمة «يهودي» على نحو ما جاء في سفر إرميا (٣٤/ ٩): «أن يطلق كل واحد عبده وكل واحد أمته، العبراني والعبرانية، حرَّين حتى لا يستعبدهما، أي أخويه اليهوديين أحد». كما كانت الكلمة مرادفة لكلمة «يسرائيلي» (خروج ٩/ ١-٤): «هكذا يقول الرب إله العبرانيين. . . ويميز الرب بين مواشي يسرائيل ومواشي المصريين». وفي صمويل الأول (٤/ ٩)، يقول أحد الفلستيين: «تشددوا وكونوا رجالاً لئلا تستعبدوا للعبرانيين»، وهو يتحدث عن جماعة يسرائيل.

ويفضل بعض الصهاينة العلمانيين أن استخدام كلمة عبري أو عبراني على استخدام كلمة «يسرائيلي» أو «يهودي»، باعتبار أن الكلمة تشير إلى العبرانيين قبل اعتناقهم اليهودية أي أن مصطلح «عبري» يؤكد الجانب العِرْقي على حساب الجانب الديني فيما يسمى «القومية اليهودية».

٢ـ يسرائيل:

يسرائيل كلمة عبرية قديمة غامضة المعنى يمكن تقسيمها إلى «يسرا»، أي الذي يحترب أو يصارع، و«إيل»، وهو الأصل السامي لكلمة «إله». والكلمة تعني حرفياً «الذي يصارع الإله» أو «جندي الإله إيل». وفي كل التفسيرات معنيان أساسيان هما معنى الصراع والحرب ومعنى القداسة.

ومما يجدر ذكره أن كلمة «يسرائيل وردت في الكتابات المصرية في عهد مرنبتاح في عام ١٢٣٠ ق. م بوصفها اسماً لإحدى المدن أو ربما لبطن من بطون القبائل في جنوبي كنعان، ولعل هذا يدل على أن الكلمة كنعانية الأصل وأنها كانت ذات ارتباطات مقدسة بين سكان المنطقة آنئذ، وهناك نظرية تذهب إلى أنها كانت اسم بطن من بطون القبائل العبرانية.

وقد اكتسب يعقوب هذا الاسم بعد أن صارع الإله في حادثة غامضة لا يفهم مكنونها أو دلالتها «فبقي يعقوب وحده وصارعه إنسان حتى طلوع الفجر ولما رأى أنه لا يقدر عليه ضرب حق فخذه فانخلع حق فخذ يعقوب في مصارعته معه وقال أطلقني لأنه قد طلع الفجر فقال لا أطلقك إن لم تباركني فقال ما اسمك فقال يعقوب. فقال لا يُدعَى اسمك فيما بعد يعقوب بل يسرائيل لأنك جاهدت مع الإله والناس وقدرت وسأل يعقوب وقال أخبرني باسمك فقال لماذا تسأل عن اسمي وباركه هناك» (تكوين ٣٢/ ٢٥-٢٩). والقصة متأثرة بعناصر الملحمة الأكادية، حيث يكتسب البطل بصراعه المادي مع الإله صفات تجعله فوق البشر أو نصف إله وتكسبه بانتصاره على الإله حق نصرة الإله له دائماً في علاقاته مع الآخرين، وهذا الصراع مع الإله يشبه وقائع مماثلة في الأساطير اليونانية.

وكلمة «يسرائيل» تشير أيضاً إلى نسل يعقوب، ثم أصبحت تشير إلى المملكة الشمالية يسرائيل قبل التهجير الآشوري، ثم استخدمت الكلمة للإشارة إلى سكان المملكة الجنوبية، يهودا بعد سقوط مملكة يسرائيل إلى أن حلت كلمة «يهودي» محلها.

وللكلمة في دلالتها الاصطلاحية معنيان أساسيان: فهي تعني اليهود بوصفهم شعباً مقدساً وتعني فلسطين بوصفها أرضا مقدسة، وهي ترد مضافة إلى كلمات أخرى مثل «عام يسرائيل» أي «شعب إسرائيل» و«بنو يسرائيل» أي «بنو إسرائيل» و«بيت يسرائيل» أي «بيت إسرائيل» و«كنيست يسرائيل» أي «مجمع إسرائيل» أو «جماعة يسرائيل». وقد

بعثت كلمة «يسرائيلي» مرة أخرى في عصر الانعتاق في القرن التاسع عشر الميلادي، كما بعثت كلمة «عبراني» لأن كلمة «يهودي» كانت تحمل إيحاءات سلبية.

وفي العصر الحديث تستخدم عبارة «مدينة إسرائيل» العبرية للإشارة إلى الدولة الصهيونية وكلمة «إسرائيليين» للإشارة إلى أعضاء التجمع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين. ولكننا إذا أردنا التفرقة فمن المستحسن أن نطلق كلمة إسرائيليين على سكان التجمع الاستيطاني الصهيوني في فلسطين وحدهم، وأن نسمي اليهود القدامى من حيث هم تجمع بشري له خصائص إثنية متميزة «عبرانيين» ومفردها عبراني وأن نسميهم «جماعة يسرائيل» وأحياناً «اليسرائيليين» لنصفهم من حيث هم جماعة دينية، على أن تظل كلمة يهودي مصطلحا يشير إلى كل من يعتنق اليهودية، وهي العقيدة التي اكتسبت ملامحها الرئيسية في القرن الأول قبل الميلاد، أما مصطلح «عبري» فيستخدم للإشارة إلى الناحيتين اللغوية والأدبية وحسب.

٣. بنو إسرائيل:

بنو إسرائيل عبارة ترد في القرآن الكريم (وفي كثير من الكتب الفقهية الإسلامية) للإشارة إلى اليهود، كما توجد كلمات أخرى مثل «أهل الكتاب» و«الكتابيون» و«أهل الذمة» و«الذميون» لتشير إلى كل من اليهود والمسيحيين. وقد عرف النطاق الدلالي لكلمة «بني إسرائيل» إسلامياً بشكل واضح ومحدد، فهي تشير إلى جماعة محددة الأوصاف يؤمن أصحابها بالإله والتوراة ومن ثم فإن هذا المصطلح لا ينطبق على غالبية يهود العالم في الوقت الحالي.

٤. يهودي:

كلمة «يهودي» كانت تشير إلى الشخص الذي يعتنق اليهودية، وقد ظهرت بعد الكلمتين الأخريين «عبراني» و«يسرائيلي» أو عضو «جماعة يسرائيل». و«يهودي» كلمة عبرية مشتقة من يهودا، وهو اسم أحد أبناء يعقوب والذي سميت به إحدى قبائل العبرانيين الاثنتى عشرة.

والاسم مشتق من الأصل السامي القديم «ودي» التي تفيد الاعتراف والإقرار والجزاء مثل كلمة دية عند العرب، واكتسبت هذه المادة معنى الإقرار والاعتراف بالجميل. وقد

استوحت ليئة زوجة يعقوب اسم ابنها الرابع من هذا المعنى «هذه المرة أحمد الرب لذلك دعت اسمه يهودا (تكوين ٢٩/ ٣٥). فكلمة «يهوه» تعني الرب و«دي» تعني الشكر ومنهما «يهودي».

وكانت الكلمة ذات دلالة جغرافية تاريخية في بادئ الأمر، إذ كانت تشير إلى سكان المملكة الجنوبية (يهودا) وحسب، ولكن دلالتها اتسعت لتشمل اليهود كافة خصوصاً بعد انصهار سكان المملكة الشمالية (يسرائيل) بعد التهجير الآشوري، واختفائهم من مسرح التاريخ واستمرار مملكة يهودا قرنين من الزمان.

وهكذا أصبحت كلمة «يهودي» علماً على كل من يعتنق اليهودية في أي زمان ومكان بغض النظر عن انتمائه العرْقي أو الجغرافي. ومن هنا، فإن فيلون السكندري يهودي وموسى بن ميمون العربي يهودي، ولكن المسألة ليست بهذه البساطة، فكلمة «يهودي» متسعة الدلالة تختلف دلالتها باختلاف الزمان والمكان.

ومع أن الشرع اليهودي قد عرف اليهودي بأنه من وُلد لأم يهودية أو تهود، فإن الشرع الإسلامي لم يقبل في جميع مراحله التاريخية بهذا التعريف العرْقي، فكان يعرف اليهودي تعريفاً دينيا وحسب، أي أنه عرفه بأنه من يعتنق اليهودية سواء كان من الحاخاميين أو القرائين أو السامريين. وثمة اختلاف جوهري بين التعريفين، فأحدهما عقائدي محض والآخر ديني عرقي وبالتالي تنشأ مشكلة من هو اليهودي وهل اليهودي (أي من وُلد لأم يهودية بغض النظر عن عقيدته) هو الذي يعتقد أنه كذلك من منظور يهودي أم أنه اليهودي الذي نسميه نحن كذلك انطلاقاً من التعريف الإسلامي (أي من يؤمن باليهودية)؟ وبطبيعة الحال فإن المسلم غير ملزم بالتعريف اليهودي أو العلماني لليهودي، فهو ملزم بالتعريف الإسلامي وحسب؟

أما في العالم الغربي فقد مرت الكلمة بعدة تطورات دلالية، ففي العالم الهيليني والدولة الرومانية كانت كلمة يهودي تشير إلى الفرد في الإثنوس أي القوم اليهودي، وكانت مسألة العقيدة ثانوية وفي العصور الوسطي في الغرب حتى القرن الحادي عشر الميلادي أصبحت كلمة يهودي تعني الانتماء إلى الجماعة اليهودية، كما كانت مرادفة لكلمة تاجر، وبعد القرن الحادي عشر الميلادي أصبحت كلمة «يهودي» مرادفة لكلمة «مرابي». ولم تتخلص اللغات الأوروبية تماماً من تلك التضمينات التي كانت تحمِّل كلمة يهودي معني قدحياً مثل «بخيل» أو «غير شريف» أو «عبد للمال» وغير ذلك من المعاني

التي ارتبطت بأعضاء الجماعات اليهودية نظراً لاضطلاعهم بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة التي هي محط كراهية أعضاء المجتمع المضيف. وهذا ما كان يعنيه ماركس حينما تحدث عن انتشار العلاقات الإنتاجية الرأسمالية في المجتمع بوصفه تهويد المجتمع. ويساوي الفكر الاشتراكي الغربي، خصوصاً كتابات فورييه، بين اليهودي والمرابي وفي اللغة الإنجليزية ارتبطت الكلمة باسم يهوذا Judas الإسقريوطي الذي باع المسيح بحفنة قطع من الفضة.

ولذا، أسقط بعض اليهود في القرن التاسع عشر الميلادي مصطلح «يهودي» واستخدموا مصطلحات مثل «عبراني» و«إسرائيلي» و«موسوي» حتى أصبحت كلها مترادفة، ولكن حدث تراجع عن ذلك بعد الحرب العالمية الثانية وأصبح مصطلح يهودي أكثر شيوعاً. وكثير من المعاجم الأوروبية لا تورد الآن المعاني القدحية لكلمة «يهودي»، بل وتوصي بعدم استخدامها. ويلاحظ أن كلمة «يهودي» بدأت منذ القرن التاسع عشر الميلادي تحمل إيحاءات بالقداسة مع بعث أسطورة اليهودي التائه وإعطائها مضمونا إيجابياً.

ومع ظهور حركة التنوير وضعف اليهودية الحاخامية، ترك كثير من اليهود عقيدتهم الدينية واستمروا في تسمية أنفسهم «يهوداً»، وهذا ما يطلق عليه اسم «اليهودي غير اليهودي»، وبين هؤلاء نجد اليهودي الملحد واليهودي العلماني و«اليهودي الإثني» ممن نطلق عليهم نحن اسم «اليهود الجدد». وغني عن القول أنه حينما كان مصطلح «يهودي» يستخدم للإشارة إلى هؤلاء فإن محيطه الدلالي كان يختلف تماماً عن محيطه الدلالي حتى أوائل القرن التاسع عشر الميلادي، حيث كان الانتماء اليهودي يعني الإيمان بالعقيدة اليهودية، أما هؤلاء فإنهم لا يتبعون تعاليم دينهم بل ويرفضها بعضهم تماماً ويسمي نفسه يهودياً استناداً إلى ما يتصور أنه موروثه الثقافي. ويوجد الآن تعريفان لليهودي أحدهما ديني يعتمد الشريعة ويأخذ به نحو ٦١٪ من يهود العالم والآخر علماني ويأخذ به نحو ١٨٪ والباقون مترددون متضاربون في الرأي، فإن شعر أحدهم في قرارة نفسه بأنه يهودي فإنه يمكن اعتباره يهودياً.

وقد حاول جان بول سارتر تعريف «اليهودي» فأخذ بهذا التعريف الذاتي وقال إن اليهودي يكون يهودياً أصيلاً حينما يصبح واعياً بحالته كيهودي ويشعر بالتضامن مع سائر اليهود، ولكن سارتر نفسه كان قد عرف اليهودي من قبل بأنه من يراه الأغيار كذلك. وفي كلتا الحالتين لا يوجد معيار موضوعي للتعريف وقد انتهى به الأمر إلى القول بأن

اليهودي هو رجل يبحث عن هويته، وهذا ليس بتعريف أيضا وإنما إشارة إلى حالة عقلية. وقد علق أحد المثقفين الفرنسيين على الوضع قائلاً: «إنني مثل جميع اليهود الفرنسيين، فأنا يهودي من الناحية الخيالية ولكني فرنسي من الناحية الفعلية».

ويمكن القول بأن كلمة «يهودي» في الوقت الحالي لها معنيان:

١ - يهودي بالمعنى الديني الإثني.

٢ - يهودي بالمعنى الإثني المحض.

فالكلمة إذن تشير إلى الكتل اليهودية الثلاث الأساسية، وهي الإشكناز والسفارد ويهود العالم الإسلامي، وإلى الجماعات اليهودية الأخرى التي انفصلت عن الكتل الثلاث الكبرى مثل الفلاشاه ويهود الهند. وهي تشير أيضاً إلى اليهود من شتي الفرق التي نشأت في العالم الغربي، أي الإصلاحيين والمحافظين والأرثوذكس والتجديديين حتى لو كفر أعضاء هذه الفرق بعضهم بعضاً. ويستخدم المصطلح للإشارة إلى المستوطنين الصهاينة مع أن مسألة من هو اليهودي لا تزال دون إجابة داخل الدولة الصهيونية، أي أنها كلمة ذات مجال دلالي مختلط وغير محدد.

وغني عن البيان أن مصطلح صهيوني لا علاقة له بمصطلح «يهودي»، فليس كل اليهود صهاينة وليس كل الصهاينة يهوداً، وهناك صهاينة مسلمون وصهاينة مسيحيون وصهاينة بوذيون وصهاينة لا دين لهم ولا ملة.

٥ - صهيوني:

«الصهيوني» هو من يؤمن بالعقيدة الصهيونية (إما في شكلها الاستيطاني أو في صورتها التوطينية). ولذا فإن هناك اختلافاً عميقاً بين الصهيوني واليهودي، وبينهما من جهة وبين الإسرائيلي من جهة أخرى، فليس كل يهودي صهيوني وليس كل صهيوني يهودي.

٦ - إسرائيلي:

«الإسرائيلي» هو مواطن الدولة الصهيونية، وهو يختلف عن «اليسرائيلي» أو عضو «جماعة يسرائيل»، وهم العبرانيون كجماعة دينية. وليس كل الإسرائيليين صهاينة تماماً،

كما أن كل الصهاينة ليسوا بالضرورة إسرائيليين، ولا يوجد أي ترادف بين إسرائيلي ويهودي بل إن هناك إسرائيليين كثيرين يرفضون العقيدة اليهودية.

هوية أم هويات يهودية؟

في محاولة فرض الواحدية على واقع الجماعات اليهودية يفترض الصهاينة وجود هوية يهودية واحدة، ولكن لو قمنا بتفكيك هذا المصطلح فسنكتشف التحيزات الصهيونية الكامنة التي تتنافى مع الواقع التاريخي.

١ ـ الشخصية أو الهوية اليهودية:

مصطلح «الشخصية» في اللغة العربية مأخوذ من لفظ «شخص» ويعني مجموعة الصفات التي تميز هذا الشخص. أما كلمة «هوية» فهي اسم منقول من المصدر الصناعي «هوية» المأخوذ من كلمة «هو»، وتعني مجموعة الصفات الجوهرية والثابتة في الأشياء والأحياء.

ويشكل استخدام مصطلحات مثل «شخصية يهودية» و«هوية يهودية» تبنياً غير واعٍ للنماذج التفسيرية الاختزالية الصهيونية والمعادية لليهود التي تفترض وجود طبيعة يهودية ثابتة وعبقرية يهودية وجريمة يهودية ووجود سمات أساسية للشخصية اليهودية. فهي من منظور المعادين لليهود شخصية متآمرة عدوانية استغلالية ومنحلة وهي كذلك شخصية تجارية بطبعها، أما الصهاينة فينسبون إلى هذه الشخصية اليهودية المستقلة سمات إيجابية، فاليهودي يتسم بالإبداع والمقدرة على الانسلاخ من مجتمع الأغيار، وهو يدافع بشراسة عن نفسه ضد العنف لكنه لا يرتكب العنف أبداً ضد الآخرين وهكذا. ومن السمات الأخرى التي تنسب إلى الشخصية اليهودية حبها للنكتة ومقدرتها النقدية أو حسها النقدي ويؤسس الصهاينة نظريتهم في القومية اليهودية والشعب اليهودي انطلاقاً من تأكيد وجود هذه الشخصية اليهودية.

وإذا اختبرنا النموذج الكامن وراء مقولات مثل «الشخصية» أو «الهوية اليهودية الثابتة» الواحدة فسنكتشف مدى قصوره. فأعضاء الجماعات اليهودية ليسوا تجاراً بطبعهم، إذ عمل العبرانيون بالزراعة في فلسطين، كما كان منهم الجنود المرتزقة في الإمبراطوريتين اليونانية والرومانية، ومعظمهم الآن من المهنيين في الغرب. وهم ليسوا

متآمرين بطبعهم بل وسقط منهم ضحايا للتآمر، لكن هذا لا يمنع وجود متآمرين وتجار بينهم، وهم ليسوا منحلين في كل زمان ومكان إذ كانت هناك أزمنة وأمكنة استمسك فيها أعضاء الجماعات اليهودية بأهداب الفضيلة ولم تعرف بينهم ظواهر مثل ظاهرة الأطفال غير الشرعيين.

وهناك خلل يتمثل في الحديث عن اليهود بشكل مجرد، فمن يود أن ينسب العبقرية إلى الهوية أو الشخصية اليهودية سيجد قرائن على ذلك في مكان وزمان معينين، ومن يود أن ينسب إليهم التآمرية سيجد أيضا قرائن على ذلك في مكان وزمان آخرين، ثم يتم تعميم الجزء على الكل. وهذا ما يقوم به الصهاينة عن وعي أو عن غير وعي حينما يتحدثون عن الشخصية اليهودية أو عن الهوية اليهودية.

٢ـ الهويات اليهودية بوصفها تركيباً جيولوجياً تراكمياً:

يمكننا القول إن الهويات اليهودية تشكل أيضاً تركيباً جيولوجياً تراكمياً، ولكنه لم يكن ملحوظاً بسبب انفصال أعضاء الجماعات اليهودية ووجودهم في أماكن متفرقة من العالم. فيهود اليديشية نتاج مجتمعاتهم وكذا يهود اليمن ويهود فرنسا وهكذا، ومع ذلك كان يشار إليهم جميعاً باسم «الشعب اليهودي» مع افتراض وجود وحدة ما دون أن يختبر أحد مدى صدق هذه المقولة، ولكنها حين وضعت موضع الاختبار ظهرت الخاصية الجيولوجية التراكمية وتفجرت قضية من هو اليهودي تعبيراً عن اكتشاف أن ما يسمى «الهوية اليهودية» ليس كلا يتسم بقدر من التجانس وإنما هي في واقع الأمر تركيب جيولوجي تراكمي مكون من عدة عناصر مستقلة متعايشة جنباً إلى جنب دون أن تمتزج أو حتى تتفاعل. وقد أظهرت كل من أمريكا اللاتينية ومجتمعات وجبال القوقاز هذه الخاصية الجيولوجية التراكمية في الهويات اليهودية بشكل واضح.

ومن ثم، فلابد من نموذج تفسيري أقل عمومية يمكنه أن يصف المتغيرات التاريخية والثقافية والدينية التي دخلت على هذه الهوية وحولتها إلى هويات مختلفة، ولذلك نتحدث بصيغة الجمع فنشير إلى «الهويات اليهودية» (كما نتحدث عن «أعضاء الجماعات اليهودية»)، فهو مصطلح يعبر عن نموذج أكثر تركيبية ومن ثم أكثر تفسيرية لواقع أعضاء الجماعات اليهودية يؤكد استقلالهم النسبي عن محيطهم دون أن ينسبهم إلى تاريخ يهودي عالمي أو جوهر ثابت بل ينسبهم إلى مجتمعاتهم وحسب، ومن هنا محاولتنا فهم هذه الهويات لا من خلال العودة إلى ما يسمى «التاريخ اليهودي» أو العودة إلى كتب اليهود

المقدسة أو شبه المقدسة أو إلى بروتوكولات حكماء صهيون، وإنما بالعودة إلى التشكيلات الحضارية والتاريخية المختلفة التي ينتمي إليها أعضاء الجماعات اليهودية والتي تفاعلوا معها وأثروا فيها وتأثروا بها، وإن كانت درجة تأثرهم تفوق كثيرا درجة تأثيرهم كما هو الحال عادة مع أعضاء الأقليات، فهناك هوية بابلية يهودية وأخرى فارسية يهودية وثالثة أمريكية يهودية ورابعة عربية يهودية.

ولكن نموذجنا التفسيري لا يهمل البعد اليهودي في بناء هذه الهويات، فالدين اليهودي (بخاصيته الجيولوجية التراكمية) عنصر أساسي فيها، كما أن الرؤية الدينية بعد حيوي ومهم، وكل ما نفعله أننا لا نجرده وإنما نراه في تفاعله مع الأبعاد الحضارية الأخرى كما أننا لا نرى أن له مركزية تفسيرية، ولذا فنحن لا نتحدث عن «هوية يهودية» عامة مطلقة ولا نتحدث عن غياب أية هوية يهودية وإنما نتحدث عن هويات يهودية متعينة متنوعة.

والفكر الصهيوني يصدر عن نموذج اختزالي ينكر واقع الجماعات اليهودية الحضاري الفسيفسائي الجيولوجي التراكمي ويطرح فكرة الهوية اليهودية العالمية الواحدة، وتتم عملية تسمية الواقع وتصنيفه من هذا المنظور، ومن ثم فإن هناك مصطلحات مثل «يهود الدياسبورا» و«يهود المنفى» و«الشعب اليهودي» وهي جميعاً تفترض وحدة اليهود وتجانسهم. ولكن حين يصل أصحاب هذه الهويات إلى إسرائيل يتضح للجميع أنهم ليسوا مجرد يهود، إذ يصبحون مرة أخرى مصريين ومغاربة وروساً وتتحدد مكانتهم الاجتماعية بحسب ذلك، ولذا ينكر كثير من المغاربة هويتهم العربية ويصرون على أنهم فرنسيون وليسوا يهودا وحسب! وكذلك فإن يهود العالم العربي الذين تم تهجيرهم باعتبارهم يهوداً بشكل عام يصبحون مرة أخرى يهوداً شرقيين يقبعون في آخر درجات السلم الاجتماعي الإسرائيلي، كما يصبح يهود روسيا إشكنازاً أو غربيين ويعطون المنح والقروض وأفخر المنازل ثم يشغلون قمة السلم الاجتماعي، ومن هنا تظهر الهويات اليهودية المختلفة وهو ما يؤدي إلى طرح قضية «الهوية اليهودية» على بساط البحث.

٣- عقيدة أم عقائد يهودية؟

للنسق الديني اليهودي سمات جوهرية مقصورة عليه تفصله عن العقائد التوحيدية الأخرى وتثير قضايا إشكالية عميقة ويمكن إيجاز بعض هذه السمات فيما يلي:

١ ـ تتميز اليهودية كنسق ديني بعدم تجانسها، نظراً لظهورها في مرحلة متقدمة نسبياً من التاريخ ونظراً لاستيعابها كثيراً من العناصر الدينية والحضارية من سائر الحضارات التي وجدت فيها. فقد استوعبت الكثير من العناصر من الحضارات المصرية والآشورية، ثم تأثرت تأثراً عميقاً بالإسلام والمسيحية، وبخاصة بعد سقوط الهيكل واختفاء أي مركز ديني أو زمني لليهودية (أو اليهود) وقد تأثر مؤلفو التلمود وكتب القبالاه بالعقائد الشعبية والخرافية، وكل هذا جعل اليهودية تشبه التركيب الجيولوجي الذي تشكل من خلال تراكم عدة طبقات الواحدة فوق الأخرى.

٢ ـ نظراً لعدم التجانس ولاحتواء اليهودية على عناصر شتى نجد أن من الصعب تعريف هوية اليهودي، فمن الممكن حسب الشريعة اليهودية أن يكون المرء ملحداً ويهودياً معاً في الوقت نفسه، لأن الشريعة ترى أن اليهودي هو من وُلد لأم يهودية، وهذا أمر لا يوجد في المسيحية أو الإسلام حيث تنتفي صفة الانتماء للدِّين إذا أنكر الإنسان وجود الإله حتى ولو ولد لأبوين مسيحيين أو مسلمين.

٣ ـ توجد تقاليد شفوية في كثير من العقائد والديانات، ولكن اليهودية تتسم بأن تقاليدها الشفوية أصبحت أكثر من مجرد تقاليد، فقد أصبحت «شريعة شفوية» تعادل «الشريعة المكتوبة» في المنزلة بل وتتفوق عليها وتجبها، والتلمود هو كتاب الشريعة الشفوية وأصبح أكثر أهمية من التوراة (الشريعة المكتوبة)، ولذا، فاليهودية الحاخامية تسمى «اليهودية التلمودية». وتحوي الشريعة الشفوية هذه كثيراً من العناصر المتناقضة مع ما جاء في الشريعة المكتوبة.

٤ ـ رغم أن العقيدة اليهودية تتضمن نزعة توحيدية قوية فإن معدلات الحلولية (أي حلول الخالق في مخلوقاته وتوحده معها) أخذت تتصاعد داخلها، حتى أصبحت الطبقة الحلولية (داخل التركيب الجيولوجي التراكمي اليهودي) أهم الطبقات طراً، وانتهى الأمر بأن هيمنت الحلولية على العقيدة اليهودية فأصبحت عقيدة توحيدية اسماً حلولية فعلاً.

٥ ـ مع تصاعد معدلات العلمنة في الغرب ظهرت مذاهب يهودية جديدة، مثل اليهودية الإصلاحية والمحافظة والتجديدية، لا يربطها رابط باليهودية الأرثوذكسية. فمعظم المذاهب الجديدة لا تنفذ كثيرا من الأوامر والنواهي التي ينص عليها الشرع اليهودي، كما أنها لا تحرم ممارسات عديدة يحرمها الشرع اليهودي مثل الشذوذ الجنسي. وقد

اتسعت الهوة بين المذاهب اليهودية الجديدة واليهودية الأرثوذكسية حتى أن بعض الحاخامات يذهب إلى أنه توجد يهوديتان لا يهودية واحدة.

٦ - استولت الصهيونية على العقيدة اليهودية تماماً بحيث خلقت في ذهن الكثيرين ترادفا شبه كامل بين الصهيونية واليهودية، رغم أن آباء الصهيونية الأوائل كانوا من الملاحدة، وقد نجحت الصهيونية في تطوير خطاب حلولي مراوغ سمح بتجنيد اليهود الأرثوذكس.

الفصل التاسع
تاريخ يهودي أم تواريخ جماعات يهودية؟

تنبع رؤية الصهاينة للتاريخ من عنصرين أساسيين أحدهما عقائدي والآخر تاريخي، أولهما الحلولية اليهودية بكل ما تحوي من مزج بين العناصر المطلقة والنسبية وبكل ما تخلعه على الشعب اليهودي من مطلقية، وثانيهما التجربة التاريخية ليهود شرقي أوروبا كجماعة وظيفية. فقد ساهمت هذه التجربة في إعطاء ما يشبه الأساس الواقعي أو التاريخي للرؤية الصهيونية للتاريخ اليهودي أي باعتباره كياناً مستقلاً، وهذا كله أوهم المفكرين الصهاينة بأن لليهود تاريخهم اليهودي المستقل عن التاريخ العام الذي يحيط بهم. وقد أفرز هذا العديد من المصطلحات التي تخبئ التحيز الصهيوني المحوري.

إشكالية التاريخ اليهودي

١ـ التاريخ اليهودي:

مصطلح «التاريخ اليهودي» يتواتر في الكتابات الصهيونية والغربية وفي الكتابات العربية المتأثرة بها، وهو مصطلح يفترض وجود تاريخ يهودي مستقل عن تواريخ الشعوب والأمم كافة، كما يفترض أن هذا التاريخ له مراحله التاريخية وفتراته المستقلة ومعدل تطوره الخاص بل وقوانينه الخاصة، وهو تاريخ يضم اليهود وحدهم يتفاعلون داخله مع عدة عناصر مقصورة عليهم من أهمها دينهم وبعض الأشكال الاجتماعية الفريدة. ومفهوم التاريخ اليهودي مفهوم محوري تتفرع منه وتستند إليه مفاهيم الاستقلال اليهودي الأخرى ومعظم النماذج التي تستخدم لرصد وتفسير سلوك وواقع أعضاء الجماعات اليهودية.

ويضرب المصطلح بجذوره في التشكيل الحضاري الغربي، سواء في جانبه الديني أو في جانبه الاقتصادي. لقد جاء في العهد القديم أن الخالق «اختار الشعب».

وورثت المسيحية العهد القديم وجعلت منه أحد كتبها المقدسة، ثم ورثت الحضارة الغربية هذه الرؤية وأصبح الإنسان الغربي يعتبر اليهود ورثة العبرانيين القدامى. وقد تمت علمنة هذا المفهوم في العصر الحديث، فتحول اليهود من شعب يهودي مقدس له تاريخ يهودي مقدس إلى الشعب اليهودي المستقل صاحب التاريخ اليهودي المستقل.

ومما دعم إحساس الإنسان الغربي بوجود تاريخ يهودي مستقل اضطلاع اليهود بدور الجماعة الوظيفية (المالية أو الاستيطانية) في المجتمعات الغربية، ومثل هذه الجماعات يتم عزلها عن بقية المجتمع حتى تبدو وكأنها خاضعة لآليات وحركيات تاريخية مستقلة، مع أنها في واقع الأمر جزء لا يتجزأ من المجتمع وخاضعة للآليات والحركيات التاريخية نفسها التي يخضع لها هذا المجتمع، تصعد بصعوده وتهبط بهبوطه رغم استقلالها النسبي. وقد ظل دور الجماعة الوظيفية حكراً تقريباً على الجماعات اليهودية في العالم الغربي، وذلك على عكس الحضارات الشرقية حيث اضطلعت جماعات إثنية ودينية مختلفة من بينها اليهود بدور الجماعة الوظيفية.

وغني عن الذكر أن مفهوم التاريخ اليهودي مفهوم محوري في الفكر الغربي وفي إدراك الإنسان الغربي لليهود لكن المقدرة التفسيرية لهذا المفهوم ضعيفة تماماً، فهو مفهوم اختزالي بسيط إلى أقصى حد والإيمان بنموذج التاريخ اليهودي المستقل له نتائجه السلبية لا من الناحية المعرفية وحسب وإنما من الناحية الإنسانية والأخلاقية كذلك.

أما من الناحية المعرفية، فإن رصد واقع الجماعات اليهودية وتفسيره من خلال نموذج التاريخ اليهودي يبسط هذا الواقع ويختزله، كما يضخم جوانب ثانوية منه ويتجاهل عناصر أساسية فيه. ونموذج التاريخ اليهودي بما يفترضه من وحدة وتجانس يجعل المؤرخ يهمل كل عناصر عدم الوحدة وعدم التجانس التي تشكل الجانب الأكبر في مكونات واقع أعضاء الجماعات اليهودية، وهي عناصر نتصور أنها أهم من عناصر الوحدة والتجانس ولها قيمة تفسيرية ورصدية أعلى.

وإذا افترضنا جدلاً وجود تاريخ يهودي، فما أحداث هذا التاريخ؟ وهل تأتي الثورة الصناعية مثلاً ضمن أحداث هذا التاريخ أم أنها حدث ينتمي إلى التاريخ الغربي؟ والواقع

أننا نجد أن الثورة الصناعية حدث ضخم في التاريخ الغربي ترك أعمق الأثر في يهود العالم الغربي وأحدث انقلابا في طرق حياتهم ورؤيتهم للكون في القرن التاسع عشر، أي بعد وقوعه بفترة وجيزة، لكننا نجد أيضاً أن هذا الانقلاب لم يحدث لهم باعتبارهم يهوداً وإنما باعتبارهم أقلية توجد داخل التشكيل الحضاري الغربي. ومن هنا فقد حدث هذا الانقلاب في طرق الحياة والرؤية للعالم أيضاً لأعضاء الأغلبية ولأعضاء الأقليات الأخرى الموجودة داخل المجتمعات الغربية، وفي الوقت نفسه لم يتأثر يهود العالم العربي بالثورة الصناعية بالدرجة نفسها لأن التشكيل الحضاري العربي كان بمنأى عن هذه الثورة الصناعية في بداية الأمر، لكن هذا التشكيل بدأ بعد حوالي قرن من الزمان يتأثر بالثورة الصناعية وبالتالي، حيث بدأ أثرها يمتد إلى معظم المجتمعات العربية بأغلبياتها وأقلياتها، أما يهود إثيوبيا مثلا فلم يتأثروا بهذه الثورة إلا بشكل سطحي، لأن التشكيلة الاجتماعية الاقتصادية التي كانوا يعيشون في إطارها ظلت بمنأى عن تلك التحولات الكبرى التي ترتبت على أحداث الثورة، بل بقيت هذه التشكيلة ذات طابع قبلي حتى وقتنا الحاضر. وبعبارة أخرى فإن الآثار المترتبة للثورة الصناعية في أعضاء الجماعات اليهودية هي مسألة تتعلق بأثر الثورة الصناعية في كل جماعة يهودية على حدة، وترتبط أشد الارتباط بآثار هذه الثورة في المجتمعات التي تعيش في كنفها هذه الجماعات اليهودية.

وعلى هذا، فإن الإطار المرجعي للدراسة لا يمكن أن يكون التاريخ اليهودي، ولو جعل الباحث هذا التاريخ اليهودي مرجعيته لعجز حتما عن تفسير كثير من عناصر التفاوت وعدم التجانس في هذا التاريخ ولاضطر إلى لي عنق الحقائق ليفسر سبب تأثر يهود لندن بالثورة الصناعية فور حدوثها وعدم تأثر بعض يهود إثيوبيا بها حتى الآن! أو اضطر إلى تفسير أحداث هذا التاريخ اليهودي الوهمي من خلال عناصر ثانوية أو وهمية، مثل رغبات اليهود وتطلعاتهم وتماسكهم ومدى اضطهاد الآخرين لهم أو عطفهم عليهم.

وإذا ما تركنا الجانب المعرفي، سواء من ناحية الرصد أو من ناحية التفسير، وانتقلنا إلى الجانب الأخلاقي والإنساني فسنكتشف أن نموذج التاريخ اليهودي المستقل يفترض وجود جوهر يهودي كامن يشكل ما يشبه النمط الفكري الجاهز لكل الأشكال التاريخية التي عاش في إطارها أعضاء الجماعات، حيث يتجاوز هذا الجوهر كل التحولات ويصبغها بصبغته ويتحدى جميع القوانين التاريخية المعروفة ويتخذ اسم «الماضي اليهودي» أو «الاستمرار اليهودي» أو «روح اليهودية» أو «الشعب اليهودي الأزلي» أو «المستقبل

اليهودي». ومهمة المؤرخ، في هذا الإطار، هي البحث عن الجوهر اليهودي والروح اليهودية وكل ما يعبر عنهما متجاهلاً كل التفاصيل الأخرى، مما يجعل التاريخ اليهودي أمراً لا علاقة له بالواقع الإنساني الدنيوي: تاريخ يشبه البناء المصمت المنغلق على نفسه ويعبر عن نمط أو أنماط محددة متكررة لا تتعدي حدود تجلي الجوهر اليهودي المطلق. وهذا النمط يأخذ الشكل التالي: منفى ثم عودة؛ المنفى هو الحدث الذي يقع لليهود، والعودة هي الفعل الذي يأتون به، وهذا التاريخ يبدأ عادة بالعبودية في مصر ثم يتم التغلغل في كنعان والاستيلاء عليها وتأسيس المملكة العبرانية، ثم يتكرر النمط بالتهجير الآشوري والبابلي تليه العودة من بابل حسب مرسوم قورش الذي يؤسس الهيكل ثم تأسيس الدولة الحشمونية، ثم يتكرر النمط مرة ثالثة بهدم الهيكل على يد تيتوس وشتات اليهود وعجزهم بسبب عدم المشاركة في السلطة وغياب السيادة، وتصل حالة المنفى إلى قمتها في الإبادة النازية (الحدث الأكبر)، ثم تبدأ العودة من خلال تأسيس الحركة الصهيونية ثم تأسيس الدولة الصهيونية (الفعل الأكبر)، ويلي ذلك تجميع المنفيين من كل البلاد. وهذا النمط يفترض دائماً نهاية (مشيحانية) للتاريخ تتوقف عندها الدورات ويختفي الجدل ويظهر الفردوس الأرضي.

ومثل هذا التصور للتاريخ بأنماطه الهندسية المتكررة الرتيبة ونهايته القاطعة لا يتنافى فقط مع الروح العلمية وإنما يتنافى أيضاً مع الروح الإنسانية، فهو يسقط عن اليهودي صفة الإنسانية بإنكار تفاعله مع البيئة التي حوله يتأثر بها ويؤثر فيها، شأنه في هذا شأن كل أعضاء الجماعات الإثنية والدينية الأخرى. فالقوات الآشورية والبابلية لم تكتسح الدويلتين العبرانيتين وحسب بل اكتسحت معظم الدويلات الآرامية وغيرها، كما أن أزمة النظام القيصري لم تتسبب في مذابح لليهود وحسب بل كانت لها آثار سلبية عميقة في قطاعات كثيرة من البورجوازية الروسية وفي جماهير الشعوب الإسلامية وغيرها. ومن ثم فإن نموذج التاريخ اليهودي يسقط إنسانية اليهودي ويخلع عليه هالة أسطورية لا تاريخية، إذ تضعه خارج التاريخ الإنساني الفعلي.

لكل ما تقدم استبعدنا تماماً مصطلحات مثل التاريخ اليهودي والماضي اليهودي والقدر اليهودي والمصير اليهودي، وكذلك سائر المصطلحات التي تفترض وحدة التاريخ اليهودي بشكل مباشر مثل «الاستمرار اليهودي»، كما استبعدنا كل المصطلحات التي تفترض هذه الوحدة بشكل غير مباشر مثل «العبقرية اليهودية» و«الجوهر اليهودي»، واستبدلنا بكل هذا مصطلحات تفترض التنوع وعدم التجانس مثل الجماعات اليهودية،

وهو مصطلح يفترض أن الجماعات اليهودية خاضعة للآليات التاريخية التي يخضع لها أعضاء المجتمعات التي يعيش في كنفها اليهود. وقد فصلنا تماماً بين التاريخ المقدس الذي ورد في العهد القديم والأحداث التاريخية التي وقعت للعبرانيين وللجماعات اليهودية من بعدهم، وفصلنا بين تاريخ اليهودية وتواريخ الجماعات اليهودية، ومن ثم فإننا لا نستخدم مصطلحات مثل «مرحلة الهيكل الأول» أو «هدم الهيكل» أو «الكومنولث الأول» أو «العصر التلمودي» إلا في سياق الحديث عن التطورات الدينية، إذ إن كل هذه العبارات تشير إلى أحداث ذات دلالة دينية بالنسبة إلى الجماعات اليهودية ولكنها لا تصلح لتفسير المسار العام للتاريخ الدنيوي والإنساني في كليته. ونحن بهذا نؤكد انتماء أعضاء الجماعات اليهودية إلى بني تاريخية متعددة حيث يتسنى للدارس فهم سلوك أعضاء الجماعات فهماً مركباً أي باعتبارهم أشخاصاً حقيقيين وبشراً يتفاعلون مع العناصر التاريخية المتشابكة المختلفة التي تحدد سلوكهم.

ونحن نرى أن نموذج التاريخ اليهودي هو النموذج الأساسي الكامن في موقف الحضارة الغربية تجاه اليهود، أي الجماعات اليهودية. فالنزعة الصهيونية في الحضارة الغربية تمنح اليهود مركزية وقداسة نابعة من افتراض وجود تاريخ يهودي مستقل يختلط في الأذهان بالتاريخ المقدس، كما أن معاداة اليهود هي الأخرى تعبير عن أن اليهودي شخص له سماته الفريدة والمحددة وطبيعته الخاصة النابعة من انتمائه لتاريخ يهودي مستقل، ونقطة الانطلاق بالنسبة إلى كلٍّ من الصهيونية والنازية في موقفهما من اليهود هي افتراض وجود شعب يهودي له شخصية مستقلة وتاريخ مستقل، وفي تصور كلٍّ من بلفور وهتلر فإن المسألة اليهودية ناجمة عن وجود هذا الكيان اليهودي العضوي المستقل داخل الحضارة الغربية يدمرها وتدمره ولذا لابد من التخلص منه إما عن طريق إرساله إلى فلسطين أو عن طريق إلقائه في أفران الغاز، فاليهودي حسب هذه الرؤية يجب أن يخرج من الحضارة الغربية.

٢- انتفاضة شميلنكي:

يعود ضعف المقدرة التفسيرية لمصطلح «التاريخ اليهودي» إلى تحيزه الصهيوني الكامن، ويتضح هذا أكثر ما يتضح في موقف المؤرخين الصهاينة من «انتفاضة شميلنكي»، وهي انتفاضة شعبية في أوكرانيا ضد الاقطاع الاستيطاني البولندي وقوات الاحتلال التي كانت تحميه وكل المؤسسات التي تتبعه (الكنيسة الكاثوليكية والوكلاء

اليهود). والانتفاضة من أهم الحوادث التاريخية التي أثرت في الجماعات اليهودية في شرق أوروبا، ولا تقل في أهميتها عن وعد بلفور أو الإبادة النازية لليهود. وانتفاضة شميلنكي، شأنها شأن وعد بلفور أو الإبادة النازية، لا يمكن فهمها إلا بالعودة إلى تاريخ العلاقة بين بولندا وأوكرانيا، وهو أمر لا علاقة له بما يُسمَّى «التاريخ اليهودي».

وقائد الانتفاضة هو بوجدان شميلنكي (١٥٩٣-١٦٥٧) «أتمان» (أي قائد) القوزاق أو زعيمهم (الذي أصبح فيما بعد، قائداً لأوكرانيا بعد حصولها على الاستقلال، وداعية لتوحيدها مع روسيا).

وتعود أسباب الانتفاضة إلى عدة أسباب، من بينها تَزايُد الاستغلال الإقطاعي الواقع على الفلاحين الذين كانوا في واقع الأمر أقناناً تقترب حالتهم من العبودية الكاملة، وخصوصاً أن النبلاء البولنديين لم تكن تربطهم علاقة إقطاعية حقيقية بهذه الأرض، فالإقطاع البولندي في أوكرانيا كان إقطاعاً استيطانياً (وقد ضُمَّت أوكرانيا إلى بولندا في منتصف القرن السادس عشر)، وانصرف جل هم النبلاء البولنديين إلى تعميرها حتى تدر عائداً عليهم ويستولوا على ريعها. وكان اليهودي يقرض النبيل البولندي بضمان ضيعته وريعها، ثم يتولى هو عملية إدارتها فيما يعرف باسم «نظام الأرندا»، الأمر الذي جعل كثيراً من اليهود يتحولون إلى ممثلين للنبلاء الإقطاعيين الغائبين في وارسو، فيقومون بتحصيل الضرائب الباهظة من الفلاحين ومنها ضريبة يدفعها الفلاحون الأرثوذكس لفتح باب الكنيسة لأداء الصلاة أو غيرها من العبادات. كما كانوا يقومون ببيع السلع التي كان يحتكرها النبلاء، مثل الملح والخمور، بأسعار مرتفعة جداً. وكان اليهود منتشرين بين الفلاحين القوزاق والأوكرانيين في مدن صغيرة (شتتلات)، لا يحملون السلاح بل تقف إلى جوارهم فرق بولندية مسلحة لحمايتهم.

ومن الأسباب الأخرى التي أدَّت إلى توتر الأوضاع وترديها فترة جفاف دامت عشرة أعوام، ازداد فيها الفلاحون فقراً وسخطاً. كما أن محاولات الكنيسة الكاثوليكية الدائبة، لفرض نفوذها على شرق أوروبا، زادت سخط الجماهير الأرثوذكسية. وقد بدأت تظهر عناصر تشد من أزر العناصر الشعبية الرافضة في أوكرانيا، من بينها ظهور القوة الروسية الأرثوذكسية في هذه الآونة، والحرب المستمرة بين ملك بولندا والنبلاء والتي أضعفت الطرفين، كما كانت جيوش السويد تُهدِّد بولندا من الشمال. وتذكر الموسوعة اليهودية العالمية أن غرور اليهود وصلفهم كان عنصراً مساعداً على زيادة السخط والتوتر، وإن كان

من الأفضل الحديث عن طبيعة وضع اليهود كجماعة وظيفية وسيطة بين مطرقة النبلاء وسندان الأقنان، ذلك أن صلف أداة الاستغلال وحده ليس كافياً لإضرام نيران ثورة شعبية مستمرة.

ومما زاد من حدة الصراع وأوضح معالمه، ذلك التعارض الاجتماعي والديني والعرْقي الكامل بين وضع الجماهير القوزاقية والأوكرانية من جهة، ووضع النبلاء البولنديين ووكلائهم من جهة أخرى. فقد كانت هذه الجماهير أساساً جماهير فلاحية تتحدث الأوكرانية وتنتمي إلى الكنيسة الأرثوذكسية. وكان المستغل الحقيقي النبيل الإقطاعي البولندي الذي يتحدث البولندية ويتبع الكنيسة الرومانية الكاثوليكية، ولم يكن الوكيل اليهودي سوى أداته في الاستغلال وسوط عذابه، ولكنه كان مع هذا المستغل المباشر المنعزل تماماً عن الجماهير، فهو يتحدث اليديشية ويدين باليهودية. وكانت العناصر التي جرفتها الانتفاضة، هي القوة العسكرية البولندية والقساوسة الكاثوليك والوكلاء اليهود من ناحية، ومن ناحية أخرى الأقنان القوزاق والأوكرانيون والتتر وكل العناصر الأخرى التي انضمت لهم.

وقد نجحت انتفاضة شميلنكي بسرعة خاطفة فوافقت بولندا عام ١٦٤٩ على أن تتمتع عدة مقاطعات من أوكرانيا بالحكم الذاتي. ومع هذا، استمر الصراع العسكري بين بولندا والدولة الجديدة واستعان شميلنكي بالروس، فتقدمت القوات الروسية والقوزاقية، وتم ضم أوكرانيا وسمولنسك إلى روسيا عام ١٦٦٧.

وقد كانت انتفاضة شميلنكي في جوهرها شكلاً من أشكال الثورة الشعبية لا تختلف عن مثيلاتها من ثورات الفلاحين ضد الإقطاعيين ووكلائهم، وهي عادةً ثورات تأخذ في البداية شكل غضب شعبي عارم ورغبة شديدة في الانتقام، هو في جوهره رد فعل لا عقل له لعملية القمع القاسية اللاعقلانية التي كانت تُمارَس ضد الفلاحين. وعادةً ما ينضم الفلاحون إلى جيوش الثورة الشعبية التي لا تلتزم بقوانين الحرب المختلفة (الخاصة بالأسرى وغيرها) لجهلهم بها، بل إن الثورة الشعبية بأسرها في مراحلها الأولية تفتقر إلى البرنامج السياسي والرؤية. ولم تكن انتفاضة شميلنكي استثناءً من هذه القاعدة، إذ اندلعت الثورة وعبّر الفلاحون عن غضبهم بذبح كل من وجدوه في طريقهم ممثلاً لمؤسسة القمع: نبلاء بولنديين وقساوسة كاثوليك ووكلاء يهود. ولعل عملية الانتقام كانت أكثر سهولة ويسراً في حالة انتفاضة شميلنكي، لأن العنصر المستغل (البولندي الكاثوليكي واليهودي اليديشي) كان عنصراً استيطانياً غريباً

من السهل التعرف عليه يعيش في الشتتلات. ومما يجدر ذكره أن انتفاضة شميلنكي لم تكن انتفاضة عنصرية موجهة ضد اليهود باعتبارهم يهوداً، وإنما باعتبارهم ممثلين للإقطاع البولندي الاستيطاني، أي أنه لم تكن لهم أية أهمية في حد ذاتهم، إذ كانوا مجرد أداة في يد أحد أطراف الصراع. ولذا فحينما كانت القوات البولندية تنتصر على المنتفضين كان هذا يعني عادةً عودة أعضاء الجماعات اليهودية إلى الشتتلات وكان يُنَص على هذا في الاتفاقيات المبرمة. وحينما كانت كفة المنتفضين ترجح كان أحد مطالبهم أن تُخلَى المدن الأوكرانية من القوات البولندية والوكلاء اليهود. وحينما كتب شميلنكي رسالة إلى كرومويل، على أمل عقد تحالف بين القوتين الأرثوذكسية والبروتستانتية، لم يذكر اليهود بخير أو شر.

وجاء في المصادر اليهودية المعاصرة، أن نحو ثلث يهود أوكرانيا أُبيدو آنذاك، ولكن المؤرخين يميلون الآن إلى القول بأن هذه الأرقام مُبالَغ فيها، كما يميلون إلى الاعتقاد أن أعداداً كبيرة من اليهود فرَّت ثم عادت بعد أن هدأت الأحوال قليلاً، وربما يفسر هذا استمرار تزايد أعداد اليهود بعد الانتفاضة. ولكن أعضاء الجماعة اليهودية (أكبر جماعة يهودية في أوروبا) الذين عادوا كانوا يشكلون جماعة مذعورة لا تحس بالطمأنينة الزائفة التي كانت تشعر بها قبل اندلاع الثورة، إذ تم تقويض روحها المعنوية، وفقدت الثقة في نفسها وفي وضعها، الأمر الذي جعل منها تربة خصبة للحركات الشبتانية والمشيحانية (ابتداءً من شبتاي تسفي وانتهاءً بالحسيدية)، وجعلها مادة خاماً مهيأة لأن تُنقَل إلى أي مكان حتى يمكنها الاستمرار في الاضطلاع بدورها كجماعة وسيطة (وهو الحل الذي طرحته الصهيونية ثم نفذته).

وإذا نظرنا إلى انتفاضة شميلنكي من منظور التاريخ الإنساني العام فلابد أن تُصنَّف باعتبارها ثورة شعبية ضد شكل من أشكال الظلم لم تشهد له الإنسانية مثيلاً، فقائدها بطل شعبي نجح في تحرير شعبه، ولا شك في أن هذه الانتفاضة ارتكبت الكثير من أفعال القسوة التي لا يمكن إلا أن يدينها الإنسان من الناحية الأخلاقية، مع علمنا تمام العلم بأن هذا هو جزء من نمط الثورات الشعبية السائد، إلا أن عدالة الانتفاضة وأخلاقيتها وبطولة قائدها هي أمور لا يتطرق إليها الشك. وهكذا يحتفل بها شعب أوكرانيا، ولهذا السبب يقيم التماثيل الضخمة لقائدها ومحرر البلاد.

ولكن الدراسات الصهيونية تنظر إلى هذه الحادثة في إطار التاريخ اليهودي الذي يضع اليهود في مقابل الأغيار، فنجد أن صورة اليهود في مثل هذه الدراسات صورة اختزالية

كوميدية، إذ تُصوِّر اليهود باعتبارهم أقلية صغيرة يعيش أعضاؤها آمنين في مدنهم الصغيرة يتحدثون اليديشية، لا علاقة لهم بعالم الأغيار، وفجأة يهب هذا العالم ويذبح آلاف اليهود (وتبدو الواقعة بأسرها وكأنها شيء فجائي ليس له سبب واضح لأننا لا ندرك دور اليهود الوظيفي أو علاقتهم بالأغيار البولنديين). ومن ثم فإن انتفاضة شميلنكي تصبح «مذبحة شميلنكي» ويُقارَن شميلنكي بهتلر، وحينما تُصوِّت إحدى دول شرق أوروبا ضد إسرائيل في هيئة الأمم فهذا جزء من «ميراث شميلنكي». وكل هذا مثل جيد على نظرة الصهاينة لواقع التاريخ من الداخل، أي من منظور يهودي وحسب، دون وضع الواقعة التاريخية في سياقها التاريخي والإنساني العريض.

٣- الماضي والمستقبل اليهوديان:

«الماضي اليهودي» تعبير يفترض أن لأعضاء الجماعات اليهودية ماضياً واحداً مستقلاً أي تاريخاً واحداً مستقلاً، فإن لم يكن لهم حاضر موحد فهذا نتيجة لحادثة هدم الهيكل وشتاتهم. والمشروع الصهيوني محاولة لأن يكون لليهود مستقبل موحد، ولكن الدراسة المتأنية تبين أن أعضاء الجماعات اليهودية ليس لهم ماض واحد، فماضيهم في بولندا، أي تجربتهم التاريخية وموروثهم الحضاري والديني في بولندا، يختلف عن ماضي يهود الفلاشاه، وتجربة هذين الفريقين تختلف عن تجربة الجماعة اليهودية في الولايات المتحدة. وليس لأعضاء الجماعات حاضر واحد، فلكل جماعة يهودية مشكلاتها ونصيبها المختلف من الأفراح والأتراح. وتدل المؤشرات كافة على أن هذه الجماعات لن يكون لها مستقبل واحد، فيهود الولايات المتحدة (أكبر تجمع يهودي في العالم) يعتبرون أمريكا وطنهم القومي، وبرغم تعاطف أعداد كبيرة منهم مع إسرائيل والصهيونية فإنهم لا ينوون الهجرة إليها شأنهم في هذا شأن يهود أستراليا ونيوزلندا، أما يهود أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا على سبيل المثال فهم يواجهون مشاكل في بلادهم قد تضطرهم إلى الهجرة ولكنهم لا يهاجرون إلى إسرائيل، هذا بينما لا يمانع يهود الفلاشاه (المشكوك في يهوديتهم) في الهجرة إلى إسرائيل، إذ يراودهم حلم الحراك الاجتماعي، ويدل كل هذا على أن لكل جماعة يهودية مستقبلاً مستقلاً.

ومع هذا، تصر الكتابات الصهيونية على تأكيد وجود ماض ومستقبل ومصير يهودي واحد منفصل عن ماضي ومستقبل ومصير المجتمعات التي يعيش فيها أعضاء الجماعات اليهودية، ولدعم هذا الرأي تؤكد الكتابات الصهيونية أهمية النظر إلى الهجمات التي

تحدث ضد اليهود كالإبادة النازية ليهود أوروبا باعتبارها جزءاً من ماضٍ مشترك ونمط متكرر لا يمكن الخروج منه إلا بالحركة المشتركة في المستقبل.

٤ ـ المصير اليهودي (وحدة وتشابك):

«المصير (أو القدر) اليهودي» عبارة تعني أن أعضاء الشعب اليهودي لهم مصير واحد فريد ومشترك، وأنهم خاضعون لمسار واحد ولهم تطلعات مشتركة ويلقون نهاية واحدة. وفكرة المصير اليهودي مرتبطة بفكرة الشعب المختار، فهذا الشعب اختاره الإله وحل فيه ليكون محط عنايته واهتمامه وأحياناً اضطهاده، وهو بالتالي شعب ذو مصير خاص مقرر مسبقاً يبدأ تاريخه بالخروج من مصر وينتهي بعودة الماشيح، وبين البداية والنهاية يلاقي اليهود مصيرهم الموعود من اضطهاد وطرد وتهجير وهجرة، فهم أداة خلاص العالم. وقد عمقت القبالاه اللوريانية هذا المفهوم وربطت بين مصير الإله ومصير الشعب.

وقد تمت علمنة هذا المفهوم الديني ليكون مصير اليهود التاريخي المشترك مفهوماً دنيوياً وهو مصير مستقل عن تواريخ الشعوب، ولذا يفسر ما يحدث لليهود بمعزل عن الظروف الحضارية والاجتماعية التي أدت إلى هذا الحدث والتي لا تقع بالضرورة داخل حدود التاريخ اليهودي. فحادثة مثل الخروج من مصر ينظر إليها خارج حركيات التطور في الشرق الأدنى القديم، ولا ينظر إليها في علاقتها باكتشاف الحديد الذي أدي إلى تدهور الدولة المصرية وكذلك طرد الهكسوس من مصر وتركهم مواليهم من العبرانيين وراءهم ثم ظهور شعوب البحر، ويصبح تهجير اليهود إلى بابل وكأنه عقاب من الإله لليهود على ما اقترفوه من آثام وجزء من مصيرهم، وتسقط من الصورة حركيات ظهور الإمبراطوريتين الآشورية والبابلية وصراعهما مع الدولة المصرية، كما تسقط من الصورة الأقوام الأخرى التي تم سبيها بحيث تظهر حادثة السبي وكأنها حدث فريد مقصور على اليهود لا يمكن فهمه إلا في إطار المصير اليهودي المستقل.

ومن أهم الوقائع التي تفسر بهذه الطريقة واقعة الإبادة النازية ليهود أوروبا، إذ تصر الأدبيات اليهودية على عدم ذكر الملايين الأخرى التي أبيدت تحت نفس الظروف، كما لا تتحدث أبدا عن سبب عداوة النازيين الشرسة لليهود وكأن ذلك أمر غير مرتبط بأزمة المجتمع الصناعي الغربي في الثلاثينيات والرؤية المعرفية الإمبريالية.

وتحاول هذه الأدبيات، انطلاقاً من النموذج نفسه، أن تؤكد بعض السمات الأساسية التي تتسم بها بعض الجماعات اليهودية باعتبارها جزءاً من المصير اليهودي وتعبيراً عنه. فاليهودي مكتوب عليه الانعزال وعدم الاندماج شاء أم أبي، وهو دائماً يعزل نفسه عن الآخرين بسبب تركيبية شخصيته اليهودية. وهي مقولة وجدت طريقها إلى الأدبيات العربية التي تتناول الموضوع اليهودي، ولكن الدارس المدقق يعرف أنها مقولة لا أساس لها من الصحة. فلو لم يندمج اليهود ولم ينصهروا في مجتمعاتهم لبلغ عددهم الآن مئات الملايين، إذ كان عددهم مع بداية العصر المسيحي في بعض التقديرات يزيد على سبعة ملايين، ولا يمكن فهم تنوع اليهود الإثني والعرقي والحضاري إلا في إطار اندماجهم، فالفلاشاه يختلفون عن يهود الهند الذين يختلفون بدورهم عن يهود الولايات المتحدة، ومع هذا تصر الأدبيات الصهيونية على أن مصير اليهودي وقدره هو العزلة وعدم الاندماج، وبالتالي تصبح الدولة الصهيونية نتيجة حتمية ومفهومة وأمراً طبيعياً، فهي الإطار الذي يمكن لهذا المنعزل الأزلي أن يعبر عن شخصيته اليهودية من خلاله.

ويظهر قصور المقدرة التفسيرية لنموذج المصير اليهودي إذا ما درسنا السلوك الفعلي لأعضاء الجماعات اليهودية خارج إطار هذه المقولات الأسطورية فيهود الولايات المتحدة قد ربطوا مصيرهم كلية بمصير بلدهم، برغم كل ادعاءاتهم الصهيونية، حيث شارك اليهود الأمريكيون في الحرب العالمية الثانية بأعداد كبيرة وجُرح وقُتل منهم الكثيرون دفاعاً عن وطنهم الأمريكي. ويهود الولايات المتحدة لا يهاجرون إلى الدولة الصهيونية، علماً بأن عدد من يزور منهم هذه الدولة للسياحة لا يزيد على ١٠٪. وابتداءً من العقود الأخيرة من القرن التاسع عشر أخذ المصير اليهودي (أو مصير الأغلبية العظمى من يهود العالم) يرتبط بالمصير الأمريكي، حيث اتجه ملايين المهاجرين إلى الولايات المتحدة وتجاهلوا أرض الميعاد تماماً، عدا أعداد قليلة للغاية، ولا يزال هذا البلد الذهبي (جولدن مدينا) الغريم الأكبر للدولة الصهيونية، حيث يهاجر مواطنوها بأعداد متزايدة إلى أرض الميعاد الأمريكية التي تحقق للجميع قسطاً أكبر من الأمن، وكذلك يفعل يهود أمريكا اللاتينية وجنوب أفريقيا، كما أن المهاجرين من روسيا وأوكرانيا يتجهون أساساً إلى الولايات المتحدة متى سنحت لهم الفرصة. فإذا أضفنا إلى هذا الاتفاق الإستراتيجي بين الدولة الصهيونية والولايات المتحدة والاعتماد شبه الكامل لهذه الدولة على الدعم الأمريكي، بحيث أصبح مصيرها في يد راعيها الأكبر، فمن

الممكن القول بكثير من الاطمئنان إن المصير اليهودي إن كان ثمة مصير مستقل هو نفسه المصير الأمريكي، فالمصير اليهودي خاضع تماماً للإرادة الأمريكية، وهو على كلٍّ أمر متوقع بعد أن قامت المنظمة الصهيونية العالمية بتوقيع عقد صامت مع الحضارة الغربية يتحول بمقتضاه أعضاء الجماعات اليهودية إلى جماعة وظيفية استيطانية في فلسطين أو إلى جماعات توطينية خارجها تدافع عن المصالح الغربية، نظير أن تضمن هذه الحضارة أمن وبقاء الدولة الصهيونية.

وقد أصبحت مقولة «المصير اليهودي» مقولة أساسية في الخطاب السياسي الإسرائيلي، وتتبدى في عبارة مثل «إين بريرا» أي «لا خيار»، وهي العبارة التي يصف بها المستوطنون الصهاينة حالة الحرب الدائمة التي يعيشونها. وقد تعمق هذا المفهوم في أدبيات جوش إيمونيم، إذ يصبح المصير اليهودي جوهر حياة المستوطنين، فهو تعبير عن عبء الميثاق بين الإله والشعب، وهو عبء لا يحمله كل الشعب اليهودي وإنما يحمله المستوطنون وحدهم فيذهبون إلى الضفة الغربية ويضربون خيامهم بجوار البركان، وهو أمر مكتوب عليهم فقد جاء في العهد القديم «هو ذا شعب وحده وبين الشعوب لا يسكن» ولذا فالحرب الدائمة مع العرب جزء من المصير المحتوم.

ولقد حولت المحكمة العليا فكرة المصير اليهودي إلى معيار ارتضته أساساً لتعريف الهوية اليهودية، ومن هنا رفض طلب الأخ دانيال أن يعترف به يهودياً رغم أنه ولد لأم يهودية وذلك لأنه تبنى ديناً آخر ولم يربط مصيره بمصير الشعب اليهودي، ومع هذا صرح إسحق شامير، رئيس الوزراء الإسرائيلي الأسبق، بأن الدولة الصهيونية لا يمكنها أن تدافع عن كل يهود العالم لأنها مشغولة بالدفاع عن نفسها، أي أنه رفض ارتباط مصير الشعب اليهودي بالدولة اليهودية.

ويلاحظ أن الجماعات الوظيفية عادةً ما يكون لديها إحساس متضخم بخصوصية مصيرها، فالساموراي في شعر الهايكو يتحدثون دائماً عن مصيرهم الموعود، كما تتحدث العاهرات عن نصيبهن المكتوب على الجبين، وهذه جميعا محاولات إنسانية لعقلنة وضع غير عقلاني وغير إنساني لا تمكن عقلنته إلا بهذه الطريقة. ولعل اضطلاع أعضاء الجماعات اليهودية بدور الجماعات الوظيفية في الحضارة الغربية واضطلاع الدولة الصهيونية بدور الدولة الوظيفية هما السبب الكامن وراء تضخم الحديث الصهيوني عن المصير اليهودي الفريد والمشترك.

ونحن نفرق بين وحدة المصير اليهودي وتشابك المصائر، إذ إن أحوال إحدى الجماعات اليهودية تؤثر أحيانا على جماعة يهودية أخرى، وذلك رغم وجودهما في مسارين تاريخيين مختلفين وبرغم انتمائهما إلى حركيات تاريخية مختلفة. وعلى سبيل المثال فإن حركيات التحديث المتعثر في شرق أوروبا قذفت بملايين اليهود الفائضين إلى غربها فاشتبك مصيرهم بمصير يهود هذه البلاد دون أن يتحد المصيران بالضرورة، وبذل يهود غرب أوروبا أقصى جهدهم للتخلص من الوافدين الجدد، وظهرت في هذا الإطار الصهيونية الخارجية التوطينية التي يطلق عليها مصطلح «صهيونية الدياسبورا»، وهي صهيونية لا تطلب من المؤمن بها الاستيطان وإنما تطلب منه المساهمة في توطين الفائض البشري اليهودي الذي يهدد مكانته بالخطر. وقد أثر المشروع الاستيطاني الصهيوني، وهو مشروع إشكنازي غربي بالدرجة الأولى، في الجماعات اليهودية في العالم العربي، حيث اشتبك مصيرهم مع مصير المستوطنين الإشكناز، الأمر الذي اضطرهم إلى الخروج من بلادهم العربية وإلى استيطان أعداد منهم فلسطين، ومع هذا ظل الوضع الاقتصادي المتدني والهوية الحضارية المستقلة سمةً لهم داخل المستوطن الصهيوني، وهو ما يعني أن مصيرهم ليس متوحدا بعد مع مصير الإشكناز، وإن كان الوضع قد بدأ في التغير في الآونة الأخيرة وقد يصبحون جزءاً من المستوطن الصهيوني لهم نفس مصيره، ومع هذا فثمة عناصر تتفاعل داخل المستوطن الصهيوني وتوسع الهوة بين الإشكناز ويهود العالم الإسلامي وتفرض على كلٍّ مصيراً مختلفاً.

٥ـ الاستمرار اليهودي:

«الاستمرار اليهودي» نموذج تفسيري يفترض أن الجماعات اليهودية تكوِّن في العصر الحديث كلاً متجانساً على مستوى العالم، وأن ثمة استمرارية تاريخية وثقافية (بل وأحياناً عرْقية) تسم ما يسمى «التاريخ اليهودي». ويُعدُّ هذا النموذج عنصراً محورياً في الفكر الصهيوني، وانطلاقا منه يذهب الصهاينة إلى أن اليهود المحدثين هم ورثة العبرانيين القدامى، وأن حكومة إسرائيل الحالية في فلسطين المحتلة ما هي إلا الكومنولث اليهودي الثالث، ويرى بعض الصهاينة أن الصهيونية هي تعبير عن هذه الاستمرارية (فأصولها تمتد بعيداً إلى أيام الأنبياء الأوائل)، وأن الدعوة إلى العودة شيء متصل منذ بداية التاريخ اليهودي إلى الآن من الأنبياء إلى هرتزل.

وفكرة الاستمرار هذه فكرة حلولية ذات أصول إنجيلية إذ ينظر الوجدان الغربي إلى أعضاء الجماعات اليهودية من خلال الكتب المقدسة، فيرى العبرانيين القدامى يدخلون كنعان ثم يرى حكم القضاة فالملوك فالسبي البابلي فعودة عزرا ونحميا وبعد ذلك ثورة الحشمونيين ثم هدم الهيكل على يد تيتوس وهو ما أدى إلى نفي اليهود، وهذا ما يعني أنهم في حالة انتظار قابعون داخل تاريخهم المقدس الذي حل فيه الإله، وتستأنف الحلقة بعودة اليهود مرة أخرى إلى فلسطين. وبالتالي فإن الاستيطان الصهيوني تعبير عن نمط متكرر ومستمر ومتوقع، كما أن دخول المستوطنين الصهاينة إلى فلسطين وقيامهم بذبح الفلسطينيين ليس إلا استمراراً وتكراراً لدخول العبرانيين إلى أرض كنعان وإبادتهم لأهلها.

ويعبر نموذج الاستمرار عن نفسه فيما يمكن تسميته القياس التاريخي الزائف، الذي يفترض أن الظواهر المحيطة بيهود اليوم تشبه في كثير من الوجوه الظواهر التي واجهها اليهود في ماضيهم السحيق. فنجد مثلا أن حاييم وايزمان يطالب العرب في خطابه أمام المؤتمر الصهيوني العشرين (١٩٣٧) بالتفاوض مع اليهود مذكراً إياهم بأنه في الفترات العظيمة من التاريخ العربي تعاون الشعبان معا في بغداد وقرطبة على حفظ كنوز الثقافة العربية، فالعرب في نظره ما زالوا كما كانوا واليهود أيضا لم يتغيروا، أما الظروف التاريخية المتغيرة فهي أمر ثانوي يحسن التغاضي عنه كلية. ومن أطرف الأمثلة على هذا الإيمان باستمرار يسرائيل وعلى القياس التاريخي الزائف ما صرح به أستاذ للتاريخ بالجامعة العبرية من أن جنود إسرائيل رأوا البحر الأحمر لأول مرة في يونيه عام ١٩٦٧ بعد غياب دام بضعة آلاف من السنين، أي بعد عبورهم إياه مع موسي حينما كان يطاردهم فرعون مصر! وقد كان من الشائع في الولايات المتحدة بعد حرب ١٩٦٧ مباشرة أن يحاول بعض الحاخامات تفسير أسفار العهد القديم مبينين أن معارك يونيه ليست إلا تكراراً لمعارك حدثت من قبل. وحاول بن جوريون تبرير عسكرة المجتمع الإسرائيلي باللجوء إلى أسطورة الاستمرار قائلاً إن جنود موسى ويوشع وداود لم يكفوا عن القتال وكذلك جنود صهيون [أي دولة إسرائيل] لن يتوقفوا عن القتال، ويقوم بعض المعلقين العسكريين الإسرائيليين بعقد المقارنات بين فرسان داود وسليمان ودبابات الجيش الإسرائيلي كما يقيمون الندوات لبحث أوجه الشبه والخلاف بين أساليب جدعون وتكتيكات ديان، بل إن الصراع العربي الإسرائيلي بأسره ينظر إليه على أنه استمرار لصراع العبرانيين مع الفراعنة والآشوريين والبابليين والفينيقيين. ويتبدى نموذج الاستمرار اليهودي في فكرة النقاء

العرقي والحضاري لليهود لأن فكرة الاندماج والاختلاط بالآخرين تنسف فكرة الاستمرار من جذورها.

وتذهب الرؤية الصهيونية في تفسيرها لهذا الاستمرار اليهودي إلى أن الوجود اليهودي عبر التاريخ اتبع نمطاً واحداً وعبر عن جوهر يهودي واحد، فهو أقرب إلى التكرار منه إلى الاستمرار، ويأخذ شكلاً هندسياً متسقاً يشبه إلى حدٍّ كبير الأساطير البدائية التي تصل إلى درجة عالية من الاتساق العضوي مع نفسها. وعلى أية حال فإن هذا الاتساق يجعل الصهيونية نظاماً مغلقاً مكتفياً بذاته لا علاقة له بالواقع المتعين الحي، وهي في هذا تشبه كثيراً من الأساطير الشمولية مثل الأسطورة النازية. ويجد الصهاينة نفس القدر من الاستمرارية في ظاهرة معاداة اليهود إذ يرون أنها دائمة ما دام اليهود في المنفى.

وكما هو الحال مع «البقاء اليهودي» وغيره من المفاهيم الصهيونية، نجد أن مفهوم الاستمرار اليهودي يعطي اليهودي حقوقاً مطلقة مستمرة لا تنقطع ويسقط الحقوق القائمة للآخرين. فباسم هذا الاستمرار يدَّعي الصهاينة لأنفسهم شرعية احتلال فلسطين وطرد أهلها، لأن الدولة اليهودية حسب رؤيتهم هي وريثة الدويلات اليهودية التي قامت منذ آلاف السنين.

٦ ـ الحقوق التاريخية:

يتحدث الصهاينة عن حقوقهم التاريخية في فلسطين وعلى ضفتي نهر الأردن لأنه كانت توجد دولة يهودية في هذه المنطقة في وقت ما، ولأن اليهود مرتبطون عاطفياً بهذه المنطقة. والرد على مثل هذا المصطلح أن الحقوق السياسية لا تستند إلى الحقوق التاريخية، إذا كان هذا التاريخ قديم موغل في القدم. فالوجود التاريخي لليهود في فلسطين هو جزء من تاريخ متحفي ميت، طويت صفحته مع وصول الآشوريين ثم البابليين ثم اليونانيين فالرومان فالبيزنطيين (الروم)، وأخيراً الفتح الإسلامي.

والتاريخ الإسلامي هو وحده التاريخ الحي الممتد من الماضي إلى الحاضر، فهو تاريخ الجماعة البشرية التي تقطن في فلسطين في الوقت الحاضر، أما التاريخ اليهودي أو اليوناني فهي تواريخ ليس لها امتداد في الوقت الحاضر، ومن ثم تحولت إلى تواريخ متحفية، يدرسها المؤرخون بعناية بالغة. وعلى أية حال قام كثير من المؤرخين

الإسرائيليين الجدد بإثبات أن كثيراً من الأساطير التوراتية التي تستند إليها نظرية الحقوق التاريخية، ليس لها أي سند في الواقع، فدولة داود وسليمان على سبيل المثال لا يُعرف لها اسم، مما يدعو إلى الشك في وجودها أساساً، ولعلها كانت اتحاداً بين بعض القبائل ليس إلا.

أما بخصوص الارتباط العاطفي، فإنه لا يعطي صاحبه أية حقوق، وعلى أية حال أثبتت الأيام أنه ارتباط ليس حقيقياً بدليل أن غالبية يهود العالم ترفض «العودة» إلى أرض الميعاد.

٧ـ التنازل التاريخي:

يستخدم الصهاينة هذا المصطلح ليقدموا صورة للدولة الصهيونية على أنها دولة مسالمة تبغي تحقيق السلام. ومرجعية هذا المصطلح هي فكرة الحقوق اليهودية التاريخية والمطلقة فهو يعني تنازلاً انطلاقاً من نقطة البدء الصهيونية، ومن ثم فهو ليس تنازلاً من وجهة نظرنا، وإنما تحايل ومراوغة.

٨ـ عرض سخي:

حينما ترد هذه العبارة فهي تعني أن الصهاينة قدموا تنازلات من منظور الحد الأقصى الصهيوني، كأن يقرروا إعطاء قطعة أرض رمزية في القدس أو إزالة المستوطنات غير القانونية (كما يسمونها)، وهي مستوطنات لا يقطن فيها سوى عدة أفراد. والعروض السخية الصهيونية لا تقترب عادةً من الحد الأدنى الفلسطيني، لا تقترب أحياناً من الحد الأدنى الصهيوني، لأنها تعني إسقاط حق العودة للفلسطينيين وإضفاء شرعية نهائية على المستوطنات مما يؤدي إلى تقطيع أوصال الضفة الغربية وتكريس السيادة الصهيونية على القدس وإنهاء الصراع التاريخي بين العرب والغزاة، وإغلاق الملف الفلسطيني.

إنكار التاريخ العربي

يتضمن المفهوم الصهيوني للتاريخ إنكار تاريخ العرب، فإذا كان تاريخ فلسطين هو تاريخ الوجود اليهودي فيها، يصبح الوجود العربي المستمر عبر آلاف السنين حتى الوقت

الحاضر وجوداً هامشياً. وانطلاقاً من هذا المفهوم أعاد الصهاينة تسمية فلسطين وسموها «إسرائيل». وطبقوا نفس المعيار على مجموعة من المدن والأماكن الفلسطينية. ولتفكيك هذه المحاولة الفلسطينية، لابد من استدعاء تاريخ هذه الأماكن العربية.

١ ـ القدس (أورشليم):

«القدس» تقابلها في العبرية كلمة «يروشالايم»، وقد وردت الكلمة بهذه الصيغة في العهد القديم أكثر من ستمائة وثمانين مرة. وهي كلمة مشتقة (منذ القرن التاسع عشر قبل الميلاد) من الكلمة الكنعانية اليبوسية «يورشاليم» (من مقطع «يارا» بمعنى «يؤسس» أو من «أور» بمعني «موضع» أو «مدينة»؛ ومقطع «شولمانو» أو «شالم» أو «شلم» وهو الإله السامي للسلام). وفي الكتابات المصرية المعروفة باسم «نصوص اللعنة»، والتي يرجع تاريخها إلى القرنين التاسع عشر والثامن عشر قبل الميلاد، وردت الكلمة بشكل «روشاليموم». وقد ورد في مراسلات تل العمارنة (القرن الرابع عشر قبل الميلاد) ست رسائل من عبدي خيبا، ملك «أوروسالم». ويتكرر الاسم بشكل «أوروسليمو» في الكتابات الآشورية التي تعود إلى القرن الثامن قبل الميلاد. أما في كتابات القرن الرابع اليونانية، فقد سُمِّيت «هيروسوليما»، ومن الواضح أن الاسم اللاتيني «جروسالم» جاء من الاسم الكنعاني للمدينة. وذكر ياقوت المدينة باسم «أورشلين» و«أوريسلم» و«أورسلم»، ويُشار إليها أيضاً بأنها «يبوس» نسبة إلى سكانها من اليبوسيين، وهم من بطون العرب الأوائل الذين نزحوا من الجزيرة العربية نحو عام ٢٠٥٠ ق.م واحتلوا التلال المشرفة على المدينة القديمة. وورد اسم «يبوس» في الكتابات المصرية الهيروغليفية باسم «يابثي» و«بابتي»، وهو تحريف للاسم الكنعاني.

وقد بنى اليبوسيون قلعة حصينة على الرابية الجنوبية الشرقية من يبوس سُمِّيت «حصن يبوس»، ثم أُطلق عليها فيما بعد اسم «حصن صهيون». ويُعرَف الجبل الذي أُقيم عليه الحصن باسم «الأكمة» أو «هضبة أوفل»، وأحياناً باسم «جبل صهيون». وقد أنشأ السلوقيون، في موضع حصن يبوس، قلعة منيعة عُرفت باسم «قلعة عكرا» أو «إكرا». وتُسمَّى القدس أحياناً «صهيون».

وإلى جانب لفظ «يروشالايم»، تُطلق التوراة على المدينة، لفظ «شاليم» و«مدينة الإله» و«مدينة العدل» و«مدينة السلام» و«مدينة الحق»، وكذلك «المدينة المقدَّسة» و«مدينة الشعب المقدَّس» و«آرئيل» (أي «أسد الإله»). ويذكر المؤرخ اليوناني هيرودوت، في

القرن الخامس قبل الميلاد، مدينة كبيرة في سوريا (بلاد الشام) سماها «قديتس». (والاسم على الأرجح تحريف للنطق الآرامي «قديشتا» أي «القدس». وعندما استولى داود على المدينة حوالي سنة ١٠٠٠ ق.م، لم يجد اسماً خاصاً يُطلَق عليها فسماها «مدينة داود» ولكنها عادت بعد ذلك إلى اسمها القديم.

وفي العهد الروماني، دمَّر الإمبراطور إيليوس هادريانوس المدينة (عام ١٣٥) وغيَّر اسمها إلى «إيليا كابيتولينا»؛ و«إيليا» هو اسم الإمبراطور بعد تعريفه، و«كابيتولينا» نسبة إلى «الكابيتول» معبد جوبتر كبير آلهة الرومان. وأعاد إليها الإمبراطور قسطنطين، الذي اعتنق المسيحية في القرن الرابع الميلادي، اسمها القديم «أورشليم». ويبدو أن اسم «إيليا» ظل مُتداولاً بدليل وروده في العهد العُمَري أو عهد الأمان الذي منحه الخليفة عمر بن الخطاب إلى سكان المدينة عام ٦٣٨. وفي العصور التالية، سُمِّيت المدينة «بيت المقدس» و«القدس الشريف»، وقد سماها أحد علماء المسلمين في القرن الخامس الهجري بالاسمين: «بيت المقدس» و«إيليا».

ونحن نستعمل كلمة «أورشليم» للإشارة إلى المدينة بمعناها الروحي ومعناها الديني عند اليهود كجماعة دينية، كما هو الحال في عبارة «نلتقي العام القادم في أورشليم»، فالإشارة هنا إلى فكرة دينية، وليس إلى المدينة العربية. وفي غير هذين السياقين، نستخدم كلمة «القدس» للإشارة إلى المدينة التي كانت عاصمة فلسطين والتي استولى عليها الصهاينة واتخذوها عاصمة لدولتهم الصهيونية.

٢ـ الخليل (حبرون):

كلمة «الخليل» هي المقابل العربي للكلمة العبرية «حبرون»، ومعناها «صاحب» أو «عصبة» أو «رباط» أو «اتحاد».، والخليل مدينة في فلسطين، وكان الكنعانيون يسمونها «قرية أربع» (باليونانية «تيترابوليس» أي «مدينة رباعية»). وتقع مدينة الخليل على بعد تسعة عشر ميلاً من القدس وثلاثة عشر ميلاً ونصف الميل من بيت لحم، على ارتفاع ثلاثة آلاف وأربعين قدماً من سطح البحر، وحولها عيون ماء كثيرة. والخليل إحدى المدن الأربع المقدَّسة لدى اليهود التي يجب ألا تنقطع فيها الصلاة، إلى جانب القدس وصفد وطبرية.

وقد شهدت الخليل ثورة ديموجرافية حقيقية بعد احتلال فلسطين عام ١٩٤٨ لوفود

عدد كبير من اللاجئين إليها، فزاد عدد سكانها ٥٤٪ خلال ٢٧ عاماً. وقد اختارت إسرائيل بعد ضم الضفة الغربية عام ١٩٦٧ موقعاً متميِّزاً على تلة لتقيم مستوطنة صهيونية تُسمَّى «قريات أربع» وقامت بمحاولات لتهويد الحرم الإبراهيمي.

وقد شهدت المدينة واحدة من أكبر المذابح الصهيونية حينما قام المستوطن الصهيوني باروخ جولدشتاين بإطلاق النار على المصلين وهم ساجدون داخل الحرم الإبراهيمي فاستُشهد منهم أكثر من ثلاثين. وقد تبيَّن أن الإرهابي الصهيوني (الذي قُتل أثناء الحادث) من مستوطنة قريات أربع، وأنه ضابط طبيب في الجيش الإسرائيلي وأنه استخدم رشاشه الرسمي في الجريمة. وقد أقام له المستوطنون مقبرة خاصة أصبحت مزاراً لهم.

الفصل العاشر
مصطلحات معاداة اليهود واليهودية

تناولنا عبر هذه الدراسة المصطلحات الصهيونية، وبينا التحيزات الكامنة فيها، وقد أكدنا على أن التحيز الأساسي هو فكرة الوحدة اليهودية والتي تتفرع عنها مفاهيم تفترض هذه الوحدة مثل: الجوهر اليهودي - الخصوصية اليهودية - التاريخ اليهودي... إلخ. كما بينا أن فكرة الوحدة اليهودية هي المفهوم الكامن وراء مصطلحات معاداة اليهود واليهودية، وفي هذا الفصل سنتناول بعض مصطلحات معاداة اليهود، وسنبين المضمون الصهيوني الكامن فيها من خلال عملية تفكيك وإعادة تركيب لها، مما يعني أن استخدام مثل هذه المصطلحات العنصرية لا يشكل فشلا أخلاقيا وحسب وإنما فشلاً معرفياً لأن مقدرتها التفسيرية ضعيفة للغاية.

مصطلحات صهيونية/عنصرية تصف بعض الظواهر اليهودية

١ـ معاداة اليهود:

«معاداة اليهود» ترجمة للمفهوم الكامن وراء العبارة الإنجليزية «أنتي سيميتزم». والمعنى الحرفي أو المعجمي للعبارة هو «ضد السامية»، وتُترجَم أحياناً إلى «اللاسامية». وكان الصحفي الألماني اليهودي الأصل ولهلم مار (١٨١٨-١٩٠٤) أول من استخدم هذا المُصطلَح عام ١٨٧٩ في كتابه انتصار اليهودية على الألمانية - من منظور غير ديني. وقد صدر الكتاب بعد المضاربات التي أعقبت الحرب الفرنسية البروسية (١٨٧٠-١٨٧١) والتي أدَّت إلى دمار كثير من المموِّلين الألمان الذين ألقوا باللوم على اليهود. ولو أُخذت العبارة بالمعنى الحرفي، فإنها تعني العداء للساميين أو لأعضاء الجنس السامي الذي يشكل العرب أغلبيته العظمى، بينما يُشكك بعض الباحثين في انتماء اليهود إليه. ولكن المُصطلَح، في اللغات الأوروبية، يقرن بين الساميين واليهود ويوحد بينهم، وهذا يعود

إلى جهل الباحثين الأوروبيين في القرن التاسع عشر بالحضارات الشرقية، وعدم تكامل معرفتهم بالتشكيل الحضاري السامي أو بتنوع الانتماءات العرْقية والإثنية واللغوية لأعضاء الجماعات اليهودية.

وهذا المُصطلَح يضرب بجذوره في الفكر العنصري الغربي الذي كان يرمي إلى التمييز الحاد بين الحضارات والأعراق، فميِّز في بداية الأمر بين الآريين والساميين على أساس لغوي، وهو تمييز أشاعه إرنست رينان (١٨٢٣-١٨٩٢)، ثم انتقل من الحديث عن اللغات السامية إلى الحديث عن الروح السامية والعبقرية السامية مقابل الروح الآرية والعبقرية الآرية التي هي أيضاً الروح الهيلينية أو النابعة منها. ثم سادت الفكرة العضوية الخاصة بالفولك أو الشعب العضوي، ومفادها أن لكل أمة عبقريتها الخاصة بها ولكل فرد في هذه الأمة سمات أزلية يحملها عن طريق الوراثة، وانتهى الأمر إلى الحديث عن تفوُّق الآريين على اليهود (الساميين)، هذا العنصر الآسيوي المغروس في وسط أوروبا، كما دار الحديث عن خطر الروح السامية على المجتمعات الآرية. وشاع المُصطلَح منذ ذلك الوقت، وقام الدارسون العرب باستيراده وترجمته كما فعلوا مع كمٍ هائل من المُصطلَحات الأخرى.

وبدلاً من ترجمة المُصطلَح، فقد فضلنا هنا توليد مُصطلَح جديد هو «معاداة اليهود» لأنه أكثر دقة ودلالة، كما أنه أكثر حياداً ولا يحمل أية تضمينات عنصرية ولا أية أطروحات خاطئة، كما هو الحال مع مُصطلَح «أنتي سيميتزم».

لكن بعض الكُتَّاب الغربيين يميلون إلى التمييز بين «معاداة اليهودية» و«معاداة السامية» حيث إن معاداة اليهودية، حسب تصورُّهم، هي عداء ديني للعقيدة اليهودية وحدها، وبالتالي كان بإمكان اليهودي أن يتخلص من عداء المجتمع له باعتناق المسيحية. أما معاداة السامية، فهي عداء لليهود بوصفهم عرْقاً، وبالتالي فهي عداء علماني لاديني ظهر بعد إعتاق اليهود وتزايد معدلات اندماجهم. وهذا النوع من العداء يستند إلى نظريات ذات ديباجات ومسوغات علمية عن الأعراق عامة، وعما يُقال له «العرْق اليهودي»، وعن السمات السلبية الافتراضية (الاقتصادية والثقافية) الثابتة والحتمية لليهود اللصيقة بعرْقهم! وتصحب مثل هذه الدراسات إحصاءات عن دور اليهود في التجارة والربا مثلاً، وفي تجارة الرقيق عامة والرقيق الأبيض على وجه الخصوص، ومعدلات هجرتهم، ثم يتم استخلاص نتائج عرْقية منها. وبالتالي، إذا كانت معاداة اليهودية تعبيراً عن التعصب الديني، فإن معاداةَ السامية حسب هذه الرؤية هي نتيجة موقف دنيوي بارد يستند إلى

حسابات المكسب والخسارة وإلى الرصد «العلمي» لبعض السمات اللصيقة بما يُسمَّى «الشخصية اليهودية» . ويرى المنادون بهذا الرأي أن معاداة السامية بدأت في القرن التاسع عشر (أساساً)، وإن كان بعضهم يرى أن عداء الدولة الإسبانية ليهود المارانو (وهم اليهود الذين تنصَّروا) هو عداء ذو دافع دنيوي، إذ إن هؤلاء المارانو، بحسب إحدى النظريات، كانوا مسيحيين بالفعل. ولكن مقياس النقاء العرْقي (نقاء الدم) الذي حُكم به عليهم لم يكن مقياساً دينياً وإنما كان مقياساً عرْقياً، وكان الدافع وراء اضطهادهم هو رغبة الأرستقراطية الحاكمة، أو بعض قطاعاتها على الأقل، في التخلص من طبقة بورجوازية جديدة صاعدة كانت تتهددها. ومن هنا، مُنع المارانو من الاستيطان في المستعمرات البرتغالية والإسبانية لتقليل فرص الحراك أمامهم. وهكذا، كانت هذه الحركة تعبِّر عن اتجاه دنيوي، ولكنها تستخدم الخطاب الديني لتبرير غاياتها.

ومن هذا المنظور الطبقي العرْقي، يصبح اليهودي المندمج أكثر اليهود خطورةً، فهو يهودي (أي بورجوازي) يدَّعي أنه مسيحي ليحقق مزيداً من الحراك والصعود الاجتماعي. ولذا، لابد من وقفه والحرب ضده برغم تبنيه العقيدة المسيحية.

وهذا الموقف يناقض الموقف القديم لمعاداة اليهود، حيث كانت الكنيسة ترحب بمن تنصَّر. فالنبلاء البولنديون المسيحيون، على سبيل المثال، كانوا يتزوجون من أعضاء الأسر اليهودية المتنصرة حتى القرن الثامن عشر. وقبل ذلك، كان الوضع نفسه سائداً في مملكتي قشطالة وأراجون في القرن الخامس عشر. ومن المعروف أن الكنيسة وقفت ضد أي تعريف عرْقي لليهودي يخضعه للحتميات البيولوجية شبه العلمية، وبالتالي فتحت أمامه أبواب الخَلاص. ولتبسيط الأمور، دون تسطيحها، سنستخدم عبارة «معاداة اليهود» ثم نضيف إليها عبارات تحدد مجالها الدلالي مثل «على أساس عرْقي» أو «على أساس ديني» . . . إلخ، إن استدعى السياق ذلك.

وقد اختلط المجال الدلالي للمُصطلَح تماماً في اللغات الأوروبية بعد ظهور الصهيونية. وبعد سيطرة الخطاب الصهيوني على النشاط الإعلامي الغربي، لم تَعُد هناك تفرقة بين ظاهرة معاداة اليهود في الدولة الرومانية وظاهرة معاداة اليهود في العصور الوسطى المسيحية. ولم يَعُد هناك تمييز بين معاداة اليهود على أساس عرْقي معاداة اليهود على أساس ديني. وأصبحت معاداة الصهيونية، بل والدولة الصهيونية هي الأخرى، تُصنَّف باعتبارها من ضروب معاداة اليهود. وحينما كانت دول الكتلة الشرقية تصوت ضد إسرائيل في هيئة الأمم المتحدة، كان هذا يُعدُّ أيضاً تعبيراً عن تقاليد معاداة اليهودية

الراسخة فيها. وبالمثل اعتُبر قيام فرنسا ببيع طائرات الميراج لليبيا تعبيراً عن الظاهرة نفسها. بل ويذهب أنصار هذا الرأي إلى أن نضال الشعب الفلسطيني ضد الاستيطان الصهيوني تعبير عن الظاهرة معاداة اليهود. وهكذا اتسع المجال الدلالي للمُصطلَح واضطرب ليضم عدة ظواهر لا يربطها رابط، حتى أصبح بلا معنى، وأصبح أداة للإرهاب والقمع الفكريين.

٢ـ طرد اليهود:

يشير مصطلح » طرد اليهود» في الكتابات الصهيونية إلى مجموعة من الوقائع التاريخية التي حدثت في مجتمعات وتشكيلات حضارية مختلفة تحت ظروف مختلفة لا يربطها أي رابط. والواقع أن الحديث عن «طرد اليهود» كما لو كان ظاهرة تاريخية واحدة هو تعبير عن الإيمان بوجود تاريخ يهودي واحد يعبر عن هوية يهودية واحدة (منبوذة من الأغيار)، وأن اليهود شعب عضوي منبوذ.

وغني عن القول أن وقائع طرد الجماعات اليهودية في أمكنة وأزمنة مختلفة هي وقائع لا يربطها رابط، فالتهجير الآشوري والبابلي شملا أقواماً عديدة أخرى لضمان أمن منطقة عبر النهر أي منطقة الشام. وقد شهد عام ١٣٩ ق.م أول عملية طرد لأعضاء إحدى الجماعات اليهودية وكانت من مدينة روما وكان طردا بالمعني الحرفي للكلمة، حيث إنها لم تكن تهجيرا كالتهجير البابلي مثلاً وليست فراراً كما حدث مع ثورة شميلنكي في بولندا. ويبدو أن سبب عملية الطرد من روما هذه هو الخوف من تحول المواطنين الرومان إلى العقيدة اليهودية، ويبدو بالفعل أن كثيراً من الرومان المتعلمين كانوا يعجبون باليهودية نظرا لطبيعتها التوحيدية بالقياس إلى التعددية والشرك اللذين يسمان العبادة الوثنية في روما. ورغم أن روما اتسمت بالتسامح فإن التهوُّد بأعداد كبيرة كان يهدد سلطة الدولة، ذلك أن شرعية الدولة تستند إلى العبادة الوثنية، كما أن كثيراً من الوظائف الإدارية كان مرتبطاً بهذه العبادة، وبالتالي كان التهوُّد يعني ضعف الولاء وأزمة الشرعية كما كان يهدد ثبات موارد الهياكل المقدسة من هبات وقرابين. ويبدو أن رجال المال الرومان كانوا أيضاً وراء طرد اليهود، حيث كانوا يمارسون الربا بالتحايل على القانون ويودون التخلص من المرابين اليهود الذين يشكلون منافساً قوياً لهم.

أما طرد اليهود من القدس فلم يكن جزءاً من سياسة روما الداخلية، وإنما جاء في إطار سياستها الإمبراطورية وكمحاولة لتهدئة المنطقة، وكان طرد اليهود من المدينة المنورة في

عهد الرسول صلى الله عليه وسلم يعود إلى أسباب خاصة بحركيات الدين الجديد ومحاولة الدولة الجديدة تأمين مركزها وقلبها بضمان عدم وجود أقليات لا تدين لها بالولاء. وحينما قام الزعيم الأوكراني بوجدان شميلنكي بالهجوم على الجماعات اليهودية فإنه كان يفعل ذلك في إطار حركة تحرر وطني وثورة فلاحية ضد المحتلين البولنديين الذين تصادف وجود اليهود كوكلاء لهم، أي أن طرد اليهود لم يكن باعتبارهم يهوداً، وإنما باعتبارهم وكلاء للمستعمر المستغل. ولذا لم يذكر شميلنكي اليهود من قريب أو بعيد حين كتب إلى كرومويل في محاولة لتوحيد القوي الأرثوذكسية والبروتستانتية ضد الكاثوليكية.

ومن الظواهر التي تفسر على أنها طرد لليهود نتيجة العداء الكامن تجاههم خروج اليهود من بلاد تأخذ بالنمط الاشتراكي في التنمية، ولعل أكثر الأمثلة بروزاً في هذا المجال هو كوبا. فبعد استيلاء كاسترو على الحكم خرجت أعداد هائلة من اليهود حتى أوشكت الجماعة اليهودية على الاختفاء الكامل. وقد خرجوا لا لأن النظام الاشتراكي قام باضطهادهم، فمن المعروف أن نظام كاسترو بذل جهوداً غير عادية للدفاع عن حقوق المواطنين اليهود في كوبا ولتيسير السبل لهم للتعبير عن هويتهم الدينية. ولكن ما حدث هو أن النظام الاشتراكي في كوبا قام بتأميم بعض قطاعات الاقتصاد التي تركز فيه عدد كبير من الرأسماليين من أعضاء الجماعات اليهودية. وهذا ليس طرداً لليهود وإنما هو خروج مجموعة من الرأسماليين لم يعد لها دور تلعبه في إطار الاقتصاد الاشتراكي.

كما يلاحظ أن دول العالم الثالث التي تخرج عن المسار الغربي تمارس نوعاً من التضامن فيما بينها، وبالتالي فهي تأخذ موقفا متعاطفا من الدول العربية ومن منظمة التحرير الفلسطينية ومن كفاح الشعب الفلسطيني ضد الاستعمار الغربي والصهيوني. وقد نجحت المنظمة من جانبها في أن تقيم علاقات مع الحركات الثورية في الأرجنتين ونيكاراجوا واليابان، وهو ما يخلق خطاباً سياسياً يولد إحساساً بعدم الأمن لدى أعضاء الجماعات اليهودية فتهاجر أعداد منهم.

وإذا قبلنا المقولة السابقة فمن الممكن إعادة تفسير خروج اليهود من بعض البلاد العربية مثل مصر وسوريا والجزائر لا باعتباره طردا وإنما باعتباره اتجاهاً ينتمي إلى الظاهرة نفسها، أي ظهور حكومات قومية محلية تستولي على الحكم وتعادي الاستعمار. والواقع أن

ظهور مثل هذه الحكومات يجيء عادة تعبيراً عن ظهور قوي محلية تشارك بشكل أكثر نشاطاً في الاقتصاد الوطني، وهو ما نجم عنه تأميم وتعريب بعض القطاعات التي كان يتركز فيها أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة اليهود واليونانيين والإيطاليين. كما أن كثيراً من الدول العربية دخلت في صراع ضد الاستعمار الغربي وضد الدولة الصهيونية حليفته الأساسية في المنطقة، الأمر الذي خلق توتراً شديداً بين الأغلبية وأعضاء الجماعة اليهودية الذين تدعي الدولة الصهيونية تمثيلهم، وفي بعض الأحيان كان أعضاء الجماعة اليهودية يتعاونون مع الدولة الصهيونية، كما حدث في حادثة لافون، كما أن الأغلبية العظمى من يهود العالم العربي جاءوا إما من العالم الغربي أساساً مع الموجة الاستعمارية أو حصلوا على جوازات غربية للاستفادة من قوانين الامتيازات ليلعبوا دور الجماعة الوسيطة بين الاستعمار والسكان المحليين. ومع تراجع الاستعمار كان لابد لهذه الجماعات مثل اليونانيين والإيطاليين أن يخرجوا معه، كما أن الدولة الصهيونية بالقياس إلى كثير من دول العالم تتمتع باقتصاد متقدم توجد فيه فرص كثيرة للنشاطات الاقتصادية المرتبطة بالاقتصاد الحر، وبالتالي فهي تمثل نقطة جذب بالنسبة إلى يهود العالم العربي، تماماً كما تمثل الولايات المتحدة نقطة جذب بالنسبة إلى اليهود الروس ولذا فهم لا يهاجرون إلى إسرائيل التي لا يمكنها أن تحقق لهم حراكاً اجتماعياً مماثلاً.

أما يهود العراق فإن الأوضاع السابقة نفسها تنطبق عليهم، إلى جانب قيام العملاء الصهاينة بارتكاب أعمال تخريبية لإجبارهم على الهجرة، وقد نجحت المنظمة الصهيونية بسعيها الحثيث في تهجير يهود اليمن ولا يمكن أن نعتبر كل هذه الحالات عمليات طرد! والواقع أن حالات هجرة اليهود من البلاد العربية بوجه عام هي جزء من حركية مركبة، وينبغي النظر إلى كل منها في سياقها التاريخي والثقافي وعلى ضوء الظروف السياسية والاقتصادية والاجتماعية المحيطة بها بدلاً من وصفها ببساطة وآلية بأنها عمليات طرد.

ومما يجدر ذكره أن أعضاء الجماعات اليهودية أنفسهم اشتركوا أحياناً في عملية طرد اليهود وكان ضمن حقوق الجيتوات في العصور الوسطي ما يسمَّى «تحريم الاستيطان» (بالعبرية: حيريم هايشوف)، أي تحريم استيطان أي يهودي غريب على الجيتو فيه ومن ثم كانت هذه الجيتوات تطرد اليهود الغرباء منها كما كانت هناك حالات في القرن الثامن عشر طالب فيها اليهود بطرد جماعات يهودية أخري فقد قدم يعقوب رودريجيز في عام ١٧٦٠ التماساً إلى لويس الخامس عشر لطرد اليهود الألمان الإشكناز وأيده في ذلك

الطلب المفكر والممول اليهودي السفاردي إسحق دي بنتو ووافقت الحكومة الفرنسية على الطلب ونفذ الاقتراح في العام التالي.

إن أردنا أن نجد نمطاً متكرراً في ظاهرة طرد اليهود فإننا لن نجده على صعيد العالم وإنما داخل التشكيل الحضاري الغربي وبخاصة في العصر الوسيط وسنجد أن السبب وراء طرد اليهود لم يكن كرههم وإنما كونهم جماعة وظيفية وسيطة تشكل عنصراً استيطانياً غريباً يوطن أي يستورد ويصدر ولا يضرب بجذوره في أي مكان تماماً مثل الجنود المرتزقة والجماعة الوظيفية الوسيطة تلعب دورها ثم يستغني عنها المجتمع فينبذها فتنتقل إلى مجتمع آخر وهكذا وعادةً ما تستغني المجتمعات عن الجماعة الوظيفية الوسيطة حينما تظهر هياكل مركزية للإدارة.

ويلاحظ أن اليهود كانوا في كثير من الأحيان يطردون أو يفرون لبضعة أشهر ثم يعودون إلى مواقعهم مرة أخرى ولابد من الإشارة إلى أن اليهود لم يكونوا الجماعة الوحيدة التي يتم طردها فقد كان يتم طرد مختلف أعضاء الجماعات الوظيفية الوسيطة الأخرى مثل اللومبارد والكوهارسين وهم مسيحيون وأحياناً كان يتم طرد إحدى الجماعات لتحل محلها جماعة أخرى تقدم شروطاً ائتمانية أفضل فهذه الجماعات لم يكن ينظر إلى أعضائها باعتبارهم بشراً وإنما كان ينظر إليهم كأدوات إنتاج يمكن أن تحل الواحدة محل الأخرى.

٣. تهمة الدم:

«تهمة الدم» هي اتهام اليهود بأنهم يقتلون صبياً مسيحياً في عيد الفصح سخرية واستهزاء من صلب المسيح ونظراً لأن عيدي الفصح المسيحي واليهودي قريبان فقد تطورت التهمة وأصبح الاعتقاد أن اليهود يستعملون دماء ضحيتهم في شعائرهم الدينية وفي أعيادهم وبخاصة في عيد الفصح اليهودي حيث أشيع أن خبز الفطير غير المخمر (ماتزوت) الذي يؤكل فيه يعجن بهذه الدماء، وقد تطورت الإشاعة فكان يقال إن اليهود يصفون دم ضحاياهم لأسباب طبية، أو لاستخدامه في علاج الجروح الناجمة عن عملية الختان، بل ولاستخدامه كمنشط جنسي.

وقد وجهت أول تهمة دم لأعضاء الجماعات اليهودية في إنجلترا في القرن الثاني عشر في وقت كانوا يمارسون فيه نشاطهم التجاري والمالي والربوي، وهو ما كان يعني أن هناك

أفراداً كثيرين اقترضوا أموالاً من المرابي اليهودي ولم ينجحوا في تسديدها وأن ملكية بعض أراضيهم أو ربما منازلهم قد آلت إليه. ففي عام ١١٤٤، اتهم أعضاء الجماعة اليهودية في نورويتش بأنهم ذبحوا طفلاً يدعى ويليام عمره أربعة أعوام ونصف في الجمعة الحزينة (وقد نصب قديساً فيما بعد). كما ذكر أحد اليهود المتنصرين أن من المعتاد أن تقوم إحدى الجماعات اليهودية في إحدى مدن أوروبا بذبح طفل مسيحي في يوم عيد الفصح المسيحي (إيستر) الذي يتزامن مع عيد الفصح اليهودي (بيساح)، ثم وجهت تهم دم أخرى في مناطق مختلفة من إنجلترا بين عامي ١١٦٨ و١١٩٢. أما في فرنسا فقد وجهت التهمة إلى الجماعة اليهودية في بلوا عام ١١٧١، كما وجهت خمس عشرة مرة في القرن الثالث عشر، ومن بينها حالة هيو من بلدة لنكولن عام ١٢٥٥ والتي يذكرها تشوسر في حكايات كانتربري، وقد استمر توجيه التهمة حتى منتصف القرن العشرين، ومن أشهرها حادثة دمشق عام ١٨٤٠ وقضية بيليس عام ١٩١١، وتعد حادثة دمشق التي حدثت في العالم الإسلامي استثناء، إذ إن الظاهرة تكاد تكون مقصورة على العالم المسيحي في العصر الوسيط.

ويشير الصهاينة إلى تهمة الدم باعتبارها أكبر دليل على أن عالم الأغيار يرفض اليهود ويفتك بهم، وبالتالي لابد أن يكون لهم وطن قومي، ولكننا لو وضعنا هذه الوقائع في سياقها التاريخي فسوف تكتسب دلالة جديدة وسيمكننا فهمها بشكل أعمق.

لقد ظهرت تهمة الدم بعد تحول اليهود في العالم الغربي إلى جماعة وظيفية وسيطة تشتغل بالتجارة والربا، وكانوا يشبهون آنذاك بالإسفنجة التي تمتص نقود الطبقات كافة والطبقات الشعبية على وجه الخصوص، ثم يقوم الإمبراطور أو الأمير أو الحاكم باعتصارهم لحسابه بعد ذلك، وهو الأمر الذي لم تكن تدركه هذه الطبقات الشعبية بطبيعة الحال ومن هنا كانت الإشارة إلى اليهود كجماعة وظيفية وسيطة، لا كيهود، على أنهم مصاصو دماء، ولم يكن من الصعب على الوجدان الشعبي أن يسقط في الحرفية ويحول المجاز إلى حقيقة واقعة.

وكان توجيه تهمة الدم يعني في واقع الأمر شنق بعض اليهود من بينهم عدد كبير من المرابين، حيث كان الربا من أهم الوظائف التي اضطلع بها اليهود في التشكيل الحضاري الغربي، وكان هذا يعني في كثير من الأحيان إسقاط الديون، أي أن توجيه تهمة الدم يشبه من بعض الوجوه التخطيط لسرقة بنك من البنوك على يد عصابة شعبية، وكان شنق اليهود بمثابة النجاح في هذه العملية وهي عملية تشبه أيضا عمليات روبين هود الذي كان

يسرق من الأثرياء ليعطي الفقراء، وهو ما جعل جرائمه تحظى بشعبية كبيرة بل وكانت الجماهير تحيطه بحمايتها.

وكانت الخزانة الملكية ذاتها تستفيد أحياناً من تهمة الدم حيث ترث ديون المرابي الذي يشنق أو يطرد، كما كانت النخبة الحاكمة تنتهز مثل هذه الفرصة لتعرض على اليهود تجديد المواثيق الممنوحة لهم والتي تتضمن حمايتهم وتكفل لهم المزايا نظير مبالغ جديدة يدفعونها.

ويبدو أن تهمة الدم صورة نمطية تتكرر في الوجدان الشعبي حينما يدرك «الآخر»، وهي عادة اتهام يستخدمه فريق ضد أعدائه ليسقط عنهم إنسانيتهم. فقد اتهم الغجر بأنهم يخطفون الأطفال ويمصون دمهم، كما وجه اليهود التهمة نفسها إلى المسيحيين الأوائل حسبما جاء في كتابات أوريجين، وجاء في أحد كتب المدراش أن فرعون مصر حاول أن يحصل على الشفاء من البرص بذبح مائة وخمسين طفلا يهوديا كل صباح وكل ظهر ليستحم في دمهم، كما أن بعض كتب الهاجاداه محلاة بصور لتهمة الدم الموجهة إلى فرعون مصر. وقد وجهت التهمة كذلك إلى الغنوصيين من قبل المسيحيين وإلى إحدى الفرق الدينية الإيطالية عام ١٤٦٦ من قبل الجماهير، واتهم المبشرون المسيحيون في الصين عام ١٨٧٠ بأنهم يسرقون الأطفال الصينيين ليصنعوا من دمهم دواءً سحرياً، واتهم الأجانب في مدغشقر عام ١٨٩١ بابتلاع قلوب بعض السكان المحليين. أما الرهبان الدومينكان فقد اتهمهم خصومهم من الرهبان الفرنسيسكان باستخدام دم وحواجب طفل يهودي في بعض شعائرهم السرية. ومعنى هذا كله أن تهمة الدم لم تكن مقصورة على اليهود، وإذا كان مرابون آخرون مثل اللومبارد والكوهارسين وهم مسيحيون لم توجه إليهم (بحسب علمنا) تهمة الدم فقد وجهت إليهم تهم أخرى لا تقل عنها سوءا، كما أنهم كانوا عرضة للطرد والمصادرة والشنق.

ولم يكن اليهود يقفون في مجابهة مع كل الأغيار كما يدَّعي الصهاينة، فقد كانت النخبة الحاكمة (الكنيسة والإمبراطور والملوك) تدافع عن أعضاء الجماعة ضد هذه التهم التي يوجهها إليهم عامة الشعب، فبين البابا إنوسنت الرابع في مرسوم صدر عام ١٢٤٥ أن التهمة باطلة وحرم على المسيحيين توجيهها إلى اليهود، كما فعل بابوات آخرون الشيء نفسه. وفي عام ١٧٥٨، أصدر الكاردينال لورنز جانجانلي (البابا كليمنت الرابع عشر فيما بعد) مذكرة يدين فيها تهمة الدم، وأصدر التحريم نفسه الإمبراطور الألماني فريدريك الثاني (١١٩٤- ١٢٥٠)، وإمبراطور النمسا رودولف من أسرة الهابسبرج

عام ١٢٧٥ ، وحاول الكثير من المسيحيين والعلماء تفنيد التهمة وإقناع الناس ببطلانها، ولكنهم فشلوا في مسعاهم واستمرت تهمة الدم مرتبطة ارتباطا وثيقا بصورة اليهودي حتى عهد قريب.

أما في حادثة دمشق فقد كانت تهمة الدم مرتبطة بالصراع بين الاستعماريين الإنجليزي والفرنسي اللذين كانا يتنافسان على مد نفوذهما عن طريق حماية أعضاء الأقليات الدينية، فكان الفرنسيون يحمون الكاثوليك والمارونيين الذين وجهوا تهمة الدم، بينما كان الإنجليز يحمون اليهود نظراً لعدم وجود مسيحيين بروتستانت بأعداد كبيرة في العالم العربي، خصوصاً وأن روسيا وهي بلدهم الأصلي لم تكن مهتمة بهم كثيراً بسبب وجود المسيحيين الأرثوذكس، كما أن روسيا لم يكن لها أطماع في الشرق الأوسط إذ كان مشروعها الاستعماري موجها إلى مناطق أخرى. وقد أصدر السلطان العثماني فرمانا جرم فيه تهمة الدم.

٤ـ المؤامرة اليهودية الكبرى أو العالمية:

يميل العقل الإنساني، إن لم يجد نموذجاً تفسيرياً ملائماً لواقعة ما، إلى ردها إلى يد أو أياد خفية تنسب إليها التغييرات والأحداث كافة. فالأحداث - حسب هذا المنظور- ليست نتيجة تفاعل بين مركب من الظروف والمصالح والتطلعات والعناصر المعروفة والمجهولة من جهة وإرادة إنسانية من جهة أخرى، وإنما هي نتاج عقل واحد وضع مخططاً جباراً وصاغ الواقع حسب هواه، وهو ما يعني أن بقية البشر إن هم إلا أدوات. ومن أهم تجليات هذا النموذج الاختزالي ما يقال له «المؤامرة اليهودية الكبرى» أو «المؤامرة اليهودية العالمية» والتي تفترض أن أعضاء الجماعات اليهودية يكونون كلاً واحداً متكاملاً متجانساً، وأن لهم طبيعة واحدة، وأن اليهودي شخص فريد لا يخضع للحركيات الاجتماعية التي يوجد فيها ولا ينتمي إلى الأمة التي يعيش بين ظهرانيها، وهو يقف دائما مقابل الأغيار (غير اليهود) إذ إن ثمة خاصية ما في اليهود وخصوصية كامنة فيهم تجعل من العسير على كل المجتمعات الإنسانية دمجهم أو استيعابهم.

ويتسم اليهود (حسب نموذج المؤامرة الكبرى) بالشر والمكر والرغبة في التدمير (فهذه أمور وجدت في عقولهم بالفطرة وهي بعد أساسي وثابت في طبيعتهم)؛ وسلوكهم هو تعبير عن مخطط جبار وضعه العقل اليهودي الذي يخطط ويدبر منذ بداية التاريخ والذي وضع تفاصيل المؤامرة الكبرى العالمية لتخريب الأخلاق وإفساد

النفوس حتى تزداد كل الشعوب ضعفاً ووهناً بينما يزداد اليهود قوة، وذلك بهدف السيطرة على العالم (وربما لإنشاء حكومة عالمية يكون مركزها أورشليم القدس). والتاريخ اليهودي بأسره إن هو إلا تعبير عن هذا النموذج وعن هذه المؤامرة الأزلية المستمرة، واليهود من ثم هم المسئولون في كل الأزمنة والأمكنة عن كل الشرور والمنكرات، فهم على سبيل المثال الذين أراقوا دم المسيح (حسب الرواية المسيحية)، وهم الذين وضعوا السم للرسول عليه الصلاة والسلام، وهم وراء مؤامرة عبد الله بن سبأ ثم أتباعه من بعده للقضاء على الإسلام، وهم الذين قاموا بدس الإسرائيليات دسا على الدين الحنيف، بل وينسب إليهم ذبح الأطفال واستخدام دمهم في صنع خبز الفطير الذي يأكلونه في عيد الفصح.

وفي العصر الحديث يرى التآمريون أن اليهود وراء أشكال الانحلال المعروفة والعلنية (وغير المعروفة والخفية) في العالم الغربي والعربي بل وفي كل أرجاء العالم، فهم وراء المحافل الماسونية التي أسسوها أداة لمؤامراتهم، وهم وراء البهائية التي تسعى لإفساد الإسلام وكل العقائد، وهم الذين أدوا إلى ظهور الرأسمالية بكل بشاعتها والبلشفية بكل إرهابها والإباحية بكل تدميرها، وهم يسيطرون على رأس المال العالمي والحركة الشيوعية ويتحكمون في الصحافة ووسائل الإعلام، وهم الذين ضغطوا على الإمبراطورية الإنجليزية وجعلوها تصدر وعد بلفور، وهم الذين أسقطوا الدولة العثمانية من خلال يهود الدونمه، وهم الذين يحركون الآن اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة الأمريكية ويوجهون الإعلام الأمريكي ويجندون الصوت اليهودي وذلك حتى يسخروا الولايات المتحدة ويرغموها بما لديهم من نفوذ وسطوة وهيمنة على تحقيق مآربهم وتنفيذ مصالحهم، وهم على اتصال بعالم الجريمة للمساعدة في إفساد العالم. والصهيونية، وفق هذا المنظور، ليست ظاهرة مرتبطة بحركيات التاريخ والفكر الغربي وليست مرتبطة بظهور الإمبريالية الغربية وهيمنتها على العالم وإنما هي مجرد تعبير عن هذا الشر الأزلي الكامن في النفس اليهودية، الذي يتبدى في الغزو الصهيوني لفلسطين وضرب المفاعل الذري العراقي وغزو لبنان وقمع الانتفاضة والهجرة اليهودية السوفيتية إلى فلسطين والسوق الشرق أوسطية... إلخ. ومن أهم إفرازات هذا التصور الاختزالي الوثيقة المسماة بروتوكولات حكماء صهيون.

وقد ساعد على نشر التصورات التآمرية عن اليهود شعائرهم الدينية المركبة التي لا يستطيع كثير من الناس فهمها، كما ساهمت النزعة الحلولية الانعزالية في الدين اليهودي

والتصورات اليهودية الخاصة بالشعب المختار والمركزية الكونية والتاريخية التي يضفيها اليهود على أنفسهم في تعميق شكوك غير اليهود فيهم، ومما لا شك فيه أن وجود اليهود بوصفهم جماعات وظيفية متفرقة داخل عديد من المجتمعات الغربية تنتظمها شبكة من العلاقات التجارية الوثيقة التي تحقق من خلالها قدراً كبيراً من النجاح التجاري والمالي قد عمق الرؤية التآمرية لليهود، وقد بلغت هذه الشبكة قمة تماسكها وقوتها في القرن السابع عشر حين كانت تنتظم يهود الأرندا في شرق أوروبا ويهود البلاط في وسطها وغربها ويهود السفارد في البحر الأبيض والدولة العثمانية وشبه جزيرة أيبيريا والعالم الجديد، وخلق هذا الوجود الإحساس بالتنسيق فيما بينهم. ومع ضعف المجتمعات الغربية وبنائها القيمي بسبب انتشار قيم النفعية والعلمانية، ومع تركز اليهود في كثير من الحركات العلمانية والفوضوية، تعمق الإحساس بأن ثمة مؤامرة يهودية تهدف إلى السيطرة على العالم كما تهدف إلى إفساده.

وفي العصر الحديث، قام العالم الغربي، الذي يدَّعي العلمانية وفصل الدين عن الدولة، بالمساعدة في تأسيس الدولة المسماة اليهودية ودعمها. وتقوم الولايات المتحدة بالتغاضي عن سلوك إسرائيل الاستعماري الاستيطاني وعن توسعها المستمر وعن غزوها للبلاد المجاورة لها وعن قمعها المتوحش لثورة الشعب الفلسطيني، وتدخل معها في اتفاقات تعاون إستراتيجي وتزودها بالسلاح، وتسمح لها باستخدام الأسلحة النووية وتستخدم حق الفيتو إن حاول مجلس الأمن أن يفرض على إسرائيل تنفيذ قرارات هيئة الأمم المتحدة في الوقت الذي تغزو فيه الدول العربية بحجة أنها تمتلك أسلحة دمار شامل وأنها ترفض تنفيذ قرارات هيئة الأمم. وازدواجية المعايير هذه تجعل البعض في العالم العربي يتصورون أن «اليهود» يهيمنون على القرار الأمريكي وأن هذا جزء من محاولة السيطرة على العالم، متناسين أن الاستراتيجية الإمبريالية الأمريكية لا علاقة لها بإسرائيل أو باليهود، وإنما هي نتيجة قرارات اتخذها صناع السلاح وأصحاب الاحتكارات في الولايات المتحدة.

إلا أن الباحث المدقق سيكتشف أن الرؤية الاختزالية التآمرية لليهود لا تختلف في أساسياتها مطلقا عن الرؤية الاختزالية الصهيونية لليهود، فكلا الفريقين يري اليهود من خلال رؤية واحدية اختزالية ساذجة تقوم بتبسيط دوافعهم ووجودهم في التاريخ، إذ إنها تسقط عنهم زمنيتهم وتركيبيتهم وإنسانيتهم. فبدلاً من رؤية أعضاء الجماعات اليهودية كجزء من تواريخ بلادهم وحضاراتهم، فإنها تنظر إليهم باعتبارهم كياناً واحداً متماسكاً

فريداً يتحرك داخل تاريخه اليهودي الخاص بمعزل عن المجتمعات التي يعيشون فيها. وبسبب هذا الاتفاق بين الفريقين نجد أن كلاً من التآمريين والصهاينة يتحدثون عن «الشعب اليهودي عبر التاريخ» وعن «الشخصية اليهودية في كل العصور» وعن «العبقرية أو الجريمة اليهودية» في كل زمان ومكان وهكذا.

والخلاف بين التآمريين والصهاينة لا يوجد في التشخيص أو في الوصف أو في المنطلقات أو المسلمات ولا حتى في الحل وإنما في آليات الحل وحسب، أي أن الاختلاف بينهم اختلاف إجرائي بسيط وليس كليا وشاملاً. فكلا الفريقين يطرح حلاً بسيطاً لمشكلة الكيان اليهودي المتماسك الفريد الذي يرفض الاندماج ألا وهو ضرورة خروج اليهود من أوطانهم، ولكن بينما يرى التآمريون وأعداء اليهود أنه لا مناص من استخدام العنف، في هذه العملية (من طرد وإبادة)، فإن الصهاينة يرون أن الحركة الصهيونية يمكنها أن تشرف على عملية الخروج هذه بطريقة منهجية منظمة بحيث لا يوجد أي مبرر للعنف ومع هذا لا يستبعد الصهاينة استخدام العنف كآلية لإخراج اليهود من أوطانهم كما حدث عام ١٩٥١، حينما ألقى عملاء إسرائيل القنابل على أماكن تجمع أعضاء الجماعة اليهودية في العراق لدفعهم للهجرة منها إلى الدولة الصهيونية الناشئة، وكما يحدث الآن حينما تضغط الحركة الصهيونية على الولايات المتحدة لتغلق أبوابها أمام اليهود السوفييت بحيث يضطرون إلى الهجرة إلى إسرائيل.

وفكرة المؤامرة أكذوبة تلائم معظم الأطراف المشتركة في الصراع الإسرائيلي، فإسرائيل تستفيد كثيراً من هذا الفكر التآمري لأنه يضفي عليها من القوة ما ليس لها ومن الرهبة ما لا تستحق، وهو في نهاية الأمر يجعلها تكسب معارك لم تدخلها قط. كما أن الحكومات الأمريكية المختلفة تفسر للزعماء العرب عجزها عن مساعدة الحق العربي بتعاظم النفوذ الصهيوني وهيمنة اليهود على القرار الأمريكي، أما الحكومات العربية فتفسر تخاذلها وهزيمتها أمام العدو الصهيوني على أساس الأسطورة المريحة نفسها وبالتالي يجد كل من أطراف الصراع تفسيراً يبدو معقولاً ومقبولاً لوضعه أمام نفسه وأمام جماهيره.

ويجب الإشارة إلى أن إنكار وجود مؤامرة لا يعني إنكار وجود مخطط، فالمخطط هو خطة أو إستراتيجية تعبر عن مصالح دولة ما أو مجموعة من الدول (كما يتصورها أصحابها)، وهي تتبدى من خلال أنماط متكررة لها مسار يعبر عن منطق داخلي يمكن فهمه والتصدي له بمخطط مضاد، فأصحاب المخطط المعادي لنا بشر ونحن بشر والحرب

بيننا سجال إلى أن ينصر الله من ينصره. أما المؤامرة فهي خطة سرية وضعها في الظلام بضعة أفراد دوافعهم خسيسة شريرة يحاولون قدر طاقتهم الحفاظ عليها طي الكتمان ويقومون على تنفيذها، ولأن المؤامرة ليست جزءاً من نمط فإنها لا تتبع مساراً مفهوماً وليس لها قوانينها الداخلية الخاصة والخارجية العامة.

ويتصور أصحاب نموذج المؤامرة أن المؤامرة التي تحاك ضدهم موجودة في وثيقة بعينها مثل التلمود أو بروتوكولات حكماء صهيون تتضمن كل أو معظم البنود، وبدلاً من فهم الواقع وتحليله وتفكيكه وإعادة بنائه تصبح مهمتنا هي ضرورة البحث عن مثل هذه الوثائق ودراستها بعناية. ونموذج المؤامرة يشبه من بعض الوجوه النموذج المعلوماتي، فهذا النموذج الأخير يعطي القارئ معلومة بجوار معلومة دون أن ينتظمها إطار، تماماً مثل نموذج المؤامرة الذي ينظر إلى الواقع فيحوله إلى شظايا متناثرة فيحذف منه الجوانب التي تتحداه ويؤكد الجوانب التي تروق له ويفرض عليها المعنى الذي يريده. ونموذج المؤامرة قد يدعو لعدم الاستسلام، ولكن مقولاته تنطوي على دعوة لعدم الجهاد فالعدو مسيطر على العالم يحركه حسبما يروق له ويخدم مصالحه فأنى لنا أن نتصدى له ونهزمه.

وأخيراً يجب الإشارة إلى أن أصحاب المخطط يمكنهم استخدام المؤامرات لتنفيذ المخطط، ولكن تظل المؤامرات هي الآلية والمخطط هو النمط الأساسي الكامن.

العداء العربي لليهود واليهودية

تحاول الأدبيات الصهيونية في الآونة الأخيرة أن تبين أن ظاهرة العداء لليهود واليهودية ظاهرة متأصلة في المجتمعات العربية وفي التراث الإسلامي وفي الحضارة الإسلامية، وهذه المحاولة جزء من المسعى الصهيوني المستمر لتشويه صورة العرب والمسلمين، إلا أنها تعبر أيضاً عن رغبة الصهاينة الدفينة في تناسي تاريخ الجماعات اليهودية في الغرب وتراث العداء لليهود واليهودية الثري الطويل الممتد الذي انتهى بطردهم وإعادة توطينهم في فلسطين في إطار المشروع الصهيوني.

وقضية عداء العرب لليهود واليهودية (عداء العرب للسامية) مسألة مركبة متعددة الأبعاد تختلف عن معاداة اليهود واليهودية في الغرب. فمن الناحية التاريخية، تحولت أعداد من أعضاء الجماعات اليهودية في العالم الإسلامي إلى جماعات وظيفية، ولكنهم

لم يكونوا الأقلية الوحيدة التي تضطلع بهذا الدور، فالعالم الإسلامي على عكس الغرب المسيحي يضم جماعات دينية وإثنية كثيرة، كما أن النشاط التجاري والنشاطات المالية والوسيطة على وجه العموم لم تكن مقصورة على أعضاء الجماعات اليهودية دون غيرهم.

ورغم ذكر اليهود (وبني إسرائيل) في القرآن عشرات المرات وتحت مسميات مختلفة في سياقات معظمها سلبي رؤية الخلاص الإسلامية لم تعط اليهود أية مركزية خاصة، ولذا لم يكن اليهود يمثلون إشكالية خاصة بالنسبة للفقه الإسلامي. وقد ظهرت بعض الأعمال الأدبية والفكرية داخل التشكيل الحضاري العربي والإسلامي تحاول اختزال أعضاء الجماعات اليهودية من خلال صور إدراكية نمطية سلبية، إلا أن اليهود لم يحتلوا أي مركزية خاصة في الوجدان الأدبي والثقافي العربي والإسلامي. وقد استقر وضع أعضاء الجماعات اليهودية داخل الحضارة العربية والإسلامية في إطار مفهوم أهل الذمة الذي حدد حقوقهم وواجباتهم ومن ثم لم يعرفوا المذابح أو عمليات الطرد المتكررة التي تسم علاقتهم بالحضارة الغربية في بعض الفترات لا يعني هذا أن تجربة يهود العالم الإسلامي مع المجتمعات الإسلامية التي ينتمون إليها كانت خالية من التدافع أو الصراع والظلم الذي يتنافى مع تعاليم الإسلام ومفهوم أهل الذمة، أو أنها كانت عصراً ذهبياً ممتداً، فهذا ليس من طبائع البشر ولا من طبيعة المجتمعات البشرية، وكل ما نود تأكيده أن أعضاء الجماعات اليهودية تمتعوا بقدر معقول من الاستقرار والطمأنينة الأمر الذي أدى إلى اندماجهم في مجتمعاتهم.

لكن الوضع تغير بشكل حاد في العصر الحديث، وأصبح هناك انشغال عربي وإسلامي كبير بالشأن اليهودي (وإن كان يلاحظ أن الأعمال الأدبية العربية بما في ذلك الفلسطينية لا تكترث بأعضاء الجماعات اليهودية)، وبدأت تظهر أدبيات كثيرة كتبها عرب ومسلمون تدور في إطار مفاهيم ومقولات عنصرية (معظمها مستورد من العالم الغربي).
ومن بين هذه المقولات أن اليهود مسئولون عن كل أشرار العالم كما هو مدون في بروتوكولات حكماء صهيون (الذي يقرأه الكثيرون)، وفي التلمود (الذي لم يقرأه أحد). وبدأ الحديث عن المؤامرة التي يحيكها اليهود ضد المسلمين والعرب، وارتبط اليهود بالشيطان وبالصور الإدراكية النمطية الاختزالية السلبية في عقل كثير من العرب والمسلمين، وبدأت تظهر في الصحف والمجلات وعلى أغلفة الكتب صورة اليهودي ذي الأنف المعقوف الذي تقطر أظافره دماً والذي يمتص دماء الآخرين وأموالهم، بل وبدأت

تظهر تهمة الدم في أرجاء متفرقة، وهو أمر لم يكن معروفا في العالم الإسلامي من قبل، وترجمت البروتوكولات التي يعتقد البعض أنها من كتب اليهود المقدسة، كما نشرت مقتطفات متفرقة من التلمود، بل بدأ بعض المسلمين يرون أن اليهودية صفة بيولوجية تورث، أي أن اليهودي - حسب هذه الرؤية - هو من ولد لأم يهودية، وهو تعريف قد يتفق مع العقيدة اليهودية ولكنه لا يتفق البتة مع العقيدة الإسلامية التي لا تنظر للدين باعتباره أمرا يورث وإنما هو رؤية يؤمن بها من شاء.

ومن المفارقات التي تستحق التسجيل أنه كلما ازداد الرعب من إسرائيل و «اليهود» كلما ازدادت صورة اليهودي سوءاً وازداد انتشار النموذج التفسيري التآمري الذي ينسب لليهود قوى عجائبية وهو نموذج يصور اليهود باعتبارهم قوة أخطبوطية لا تقهر، فهم يمسكون بكل الخيوط ويحركون كل القوى (الرأسمالية والاشتراكية) لتنفيذ مخططهم اليهودي الجهنمي المستقل، وما اللوبي الصهيوني سوى تعبير جزئي عن مخطط صهيوني أشمل.

وهذه النظرة العنصرية الاختزالية تشكل فشلاً أخلاقياً، فهي لا تحاول أن تميز بين الخبيث والطيب وتضع اليهود كل اليهود في سلة واحدة، بمن في ذلك على سبيل المثال أعضاء جماعة الناطوري كارتا الذين يقضون معظم أيامهم في الحرب ضد الصهيونية بمثابرة وإخلاص ودأب نفتقدها في كثير من العرب هذه الأيام! والرؤية العنصرية حتمية ترى أن من ولد يهودياً لابد أن يسلك حسب نمط معين وكأن الإله لم يمنحه فطرة سليمة ومقدرة على تمييز الخير من الشر.

والنظرة العنصرية الاختزالية تشكل كذلك فشلاً معرفياً، لأن الخريطة الإدراكية التي تفرزها مثل هذه الرؤية تتسم بأنها عامة رمادية كالحة سطحية واحدية لا تساعد كثيراً في فهم الواقع، فهي على سبيل المثال لن تساعدنا كثيراً في معرفة توجهات أعضاء الجماعات اليهودية المختلفة بكل نتوئها وتموجاتها بينما نحن في حاجة لأن نعرف من منهم يساند الصهيونية ومن يعارضها، ومن منهم يجاهر بمناصرتها علنا ويبذل قصارى جهده في التملص منها، ومن منهم ناصرها في الماضي وتنكر لها في الحاضر، ومن منهم تنكر لها في الماضي وبدأ يناصرها في الحاضر ومن منهم توجد لديه إمكانية كامنة لقبولها أو رفضها أو التملص منها، ومن منهم تجب محاربته ومن منهم يمكن تجنيده ومن منهم يمكن تحييده، فالرؤية التآمرية العرقية ترى أن كل يهودي صهيوني وكل صهيوني يهودي، وهي بهذا

تتبنى الرؤية الصهيونية لليهود التي تضع اليهود، كل اليهود، في سلة واحدة هي سلة الشعب اليهودي.

وللرؤية العنصرية في نهاية الأمر مردود سلبي من الناحية النفسية، فهي تنسب لليهود قوة هائلة الأمر الذي يولد الرعب في نفوس العرب (ولنتخيل صانع القرار العربي الذي يعتقد أن اليهود قادرين على كل شيء وأنهم ممسكون بكل الخيوط!).

ومن المفارقات التي تستحق التسجيل أن هذه الرؤية العنصرية تترجم نفسها إلى كره أعمى يطالب بملاحقة اليهود والانتقام منهم وطردهم من أوطانهم والتضييق عليهم، وما ينساه حملة مثل هؤلاء الرؤية أن المواطن اليهودي الذي يتم التضييق عليه وطرده من وطنه يضطر للهجرة إلى فلسطين ليصبح مستوطناً صهيونياً يحمل السلاح ضدنا، فكأن العداء العربي لليهود له مردود صهيوني، ومن المعروف أن الحركة الصهيونية قامت بالتضييق على يهود العراق وخلقت وضعاً صهيونياً بنيوياً اضطرهم للاستيطان في فلسطين

ويحاول بعض المتحدثين العرب رد تهمة العنصرية باللجوء لاعتذاريات أقل ما توصف به أنها مضحكة وجميعها له طابع قانوني، وكأننا نقدم مرافعة قانونية شكلية ليس لها سند في الواقع المتعين، فهناك مثلاً من يقول كيف يمكن أن نكون معادين للسامية ونحن أنفسنا ساميون؟ وهي حجة واهية مردود، عليها فالإجابة عن هذا السؤال البلاغي الأحمق هي بالإيجاب، نعم يمكن أن يكون الإنسان سامياً ومعادياً للسامية وهناك شواهد كثيرة على ذلك، فيمكن أن يكون الإنسان عربياً ومعاديا للعرب، وظاهرة العداء اليهودي لليهود واليهودية ظاهرة معروفة للدارسين.

وهناك حجة أخرى لا تقل تهافتاً عنها وهي أننا لا يمكننا أن نكون «معادين للسامية» لأن اليهود ليسوا ساميين، فهم من نسل قبائل الخزر التي تهودت، والخزر عنصر تركي غير سامي والرد على هذا أن عبارة «العداء للسامية» تعني في واقع الأمر «العداء لليهود واليهودية»، فسواء كان اليهود ساميين أم لا تظل القضية مطروحة.

وهناك بطبيعة الحال من يشيرون إلى عصر اليهود الذهبي في الحضارة الإسلامية خصوصا في الأندلس، ويستنتجون من هذا أننا بالتالي لسنا معادين لليهود واليهودية باعتبار أنه إذا كان الماضي كذلك فلابد أن يكون الحاضر كذلك. وهذه مغالطة فلا يوجد استمرار عضوي بين الحاضر والماضي، ويمكن أن يكون إنسان عنصرياً في مرحلة من

حياته ويتخلى عن عنصريته في مرحلة لاحقة والعكس بالعكس، ويسري هذا على تواريخ الشعوب.

ومما يجدر ذكره أن مراكز البحوث العلمية في العالم العربي والمجلات العلمية المسئولة لا تسقط إلا فيما ندر وبدون وعي في هذا الخطاب العنصري، فمعظم هذه المراكز تتناول الشأن اليهودي للظاهرة الصهيونية بطريقة علمية تحاول تفسيرها وفهمها ولا تختبئ بطريقة جنينية اختزالية طفولية وراء منطق المؤامرة.

ورغم رفضنا المبدئي للخطاب الاختزالي الواحدي العنصري ورغم إدراكنا لسلبياته من الناحية الأخلاقية والمعرفية والنفسية فمن الضروري أن نفهم سر ذيوعه وانتشاره وهيمنته على بعض الكُتَّاب الشعبيين (في الصحف والمجلات) وبعض أعضاء النخب العربية السياسية والثقافية، ويمكن رصد أسباب انتشار هذا الخطاب فيما يلي:

١ ـ ظهر «اليهودي» في العصر الحديث على شاشة الوعي العربي والإسلامي داخل التشكيل الإمبريالي الغربي وجاء إلى بلادنا ممثلاً له حاملاً لواءه وعميلاً له، وقد قامت هذه الإمبريالية بغرسه غرساً وسطنا داخل إطار الدولة الوظيفية ليقوم على خدمة مصالحها بعد أن اقتطعت جزءاً من الوطن العربي الإسلامي يقع في وسطه تماماً ومن ثم يقسمه قسمين، وهي منطقة لها دلالة دينية خاصة إذ تضم القدس والمسجد الأقصى.

٢ ـ قامت الإمبريالية الغربية بتحويل يهود البلاد العربية إلى عنصر وظيفي استيطاني يدين لها بالولاء، وشهدت الجماهير العربية أعضاء الجماعات اليهودية وهم ينسلخون تدريجياً من التشكيل الحضاري العربي والإسلامي. فعلي سبيل المثال أصبح كل يهود الجزائر مواطنين فرنسيين واستفاد يهود مصر من الامتيازات الأجنبية وحصلت نسبة كبيرة منهم على الجنسيات الأجنبية، وقد دعم هذا من صورة اليهودي كأجنبي وغريب ومغتصب ومتآمر وعميل وشخص لا انتماء له يبحث عن مصلحته اليهودية.

٣ ـ من الملاحظ أن أعضاء الجماعات اليهودية في العالم العربي يوجدون بشكل واضح في الحركات الشيوعية العربية، شأنهم في هذا شأن أعضاء الأقليات في كثير من المجتمعات، كما لوحظ أن عدداً كبيراً من الرأسماليين ممن راكموا ثروات ضخمة هم أيضاً من أعضاء الجماعات اليهودية، ولعل وجود أعضاء الجماعات اليهودية في كل

من الحركات الشيوعية والطبقة الرأسمالية قد دعم صورة اليهودي اللامنتمي أو المنتمي لمصالحه اليهودية ودعم فكرة المؤامرة اليهودية .

٤ ـ من الأمور التي رسخت فكرة المؤامرة والهيمنة اليهودية على العالم في الوجدان العربي الدعم السياسي والاقتصادي والعسكري الغربي للتجمع الصهيوني بغير تحفظ أو شروط أو حدود أو قيود ، ويفترض وكثير من العرب أن العالم الغربي عالم عقلاني تتخذ فيه القرارات بشكل رشيد يخدم مصالح الدولة ، وأنه عالم ديموقراطي تنتشر فيه مثل العدل والمساواة وحقوق الإنسان ، ولذا حين يقوم الغرب العلماني العقلاني الديموقراطي بتأييد ودعم مشروع غير عقلاني غير ديموقراطي يستند إلى ديباجات دينية وعلمانية موغلة في الشوفينية ويتسم بضيق الأفق وينكر على الفلسطينيين أبسط حقوقهم ، فإن هذا أمر غير مفهوم ولا يمكن تفسيره بطريقة عقلانية وبالإضافة إلى ذلك ، فإن اهتمام الغرب المحموم بالإبادة النازية لليهود (التي مضى عليها ما يزيد عن خمسين عاماً) والإصرار على الاستمرار في تعويض الضحايا وتقديم الاعتذار لهم والتعبير عن الندم عما بدر من الألمان وغيرهم قد يكون أمراً محموداً في حد ذاته (فهو في نهاية الأمر تعويض لفئة من ضحايا الحضارة الغربية) ، إلا أن هذه الظاهرة المحمودة في حد ذاتها تثير الشك حين يلاحظ المواطن العربي والمسلم أن سلسلة كاملة من المذابح قد ارتكبت منذ الخمسينيات حتى منتصف التسعينيات (الجزائر – فيتنام – البوسنة – الشيشان) ومعظمها في العالم الإسلامي ، وتم التزام الصمت تجاهها ولم يتحدث أحد عن تعويض أو اعتذار أو توبة أو ندم! هذا في الوقت الذي تستمر الآلة الإعلامية الغربية في التركيز على الهولوكوست دون غيرها . كما أن الزعم الغربي بأن فلسطين في الشرق العربي قدمت لليهود تعويضاً لهم عما حدث لهم في ألمانيا في العالم الغربي هو أمر يصعب فهمه .

وكل هذه الظواهر تثير التساؤلات في نفوس الناس ولأنه لا يوجد لديهم وقت للبحث والاستقصاء ، تظهر الإجابات الاختزالية السهلة . وصيغة المؤامرة اليهودية صيغة تملك مقدرة هائلة على سد الهوة التي تفصل عقلانية الرؤية الغربية عن لاعقلانية الممارسة الغربية ، وما لم يخطر ببال هؤلاء أن عقلانية الغرب ودفاعه عن حقوق الإنسان ليسا مطلقين ، وأنهما لا ينصرفان لحقوق الإنسان العربي أو المسلم على سبيل المثال ، وأن العقلانية تدور في إطار المصالح الإستراتيجية الغربية التي تم تحديدها

بطريقة ليست بالضرورة عقلانية وإنما من خلال مقولات مسبقة متمركزة حول الغرب معظمها عنصري.

٥ ـ قامت الدولة الصهيونية باعتبارها تعبيراً عن مشروع استيطاني إحلالي، وكان عليها أن تلجأ إلى أقصى صور العنف للتخلص من السكان الأصليين بما في ذلك الإبادة والطرد والعزل، وقد سمت هذه الدولة نفسها الدولة اليهودية فربطت بين اليهودي والعنف والإرهاب.

والأسوأ من هذا أن هذه الدولة ادعت أنها تتحدث باسم كل يهود العالم أينما كانوا، ومن ثم فهي تتحدث باسم يهود البلاد العربية بل وتطالب بالتعويضات باسمهم، فكأن الدولة الصهيونية تنكر أن أعضاء الجماعات اليهودية مواطنين في بلادهم وتدعم الصورة الإدراكية العرقية أن اليهودي لا انتماء له وأنه يدافع عن مصالحه اليهودية وحسب.

هذه هي بعض الأسباب التي أدت إلى هيمنة الرؤية التآمرية على إدراكنا لليهود في العالم العربي، وإلى ذيوع البروتوكولات وغير ذلك من كتابات عنصرية تهدف إلى تفسير الواقع بشكل سريع سهل وإلى تفريغ شحنة الغضب عند كثير من العرب. ولكن تفريغ الشحنة هنا بهذه الطريقة له جوانبه السلبية العديدة، والمطلوب هو أن نفهم أسباب الغضب ونحاول استثماره في إطار مشروع نضالي إنساني يهدف إلى تصفية الجيب الاستيطاني الصهيوني ولا يسقط في العنصرية العمياء.

الفصل الحادي عشر
فك الاحتكار الصهيوني للمصطلح

من الضروري ألا ندع الصهاينة يحتكرون لأنفسهم توليد المصطلحات وتسمية الأشياء ومن ثم التحكم في المقولات الكامنة وراء الخطاب التحليلي. ولذا علينا أن نكشف هذا الاحتكار الصهيوني للمصطلح من خلال عملية تفكيك وإعادة تركيب ومن خلال توليد مصطلحات جديدة، حتى يمكن أن نسمي الأشياء بأسمائها، وأن نعرف تلك الجوانب في الظاهرة الصهيونية التي يحرص الصهاينة على إخفائها.

الصهيونية والنازية

من أهم تبديات الاحتكار الصهيوني للمصطلح المصطلحات الصهيونية المستخدمة لوصف الظاهرة النازية. فعلى سبيل المثال يحاول الصهاينة أن يجعلوا من الإبادة النازية جريمة ألمانية وحسب، ضد اليهود وحسب، وهم بذلك ينزعون الإبادة من سياقها الحضاري الغربي العام، لأن إبادة الآخر هي إحدى أهم آليات الاستعمار الغربي في العصر الحديث، كما حدث في أمريكا الشمالية والكونغو والجزائر، حيث أبيد الملايين من السكان الأصليين. ولهذا، فعند الحديث عن الإبادة ينبغي أن نؤكد بعدها الحضاري الغربي وأنها ليست استثناء للقاعدة الغربية الاستعمارية الحديثة.

ويحاول الصهاينة إخفاء العلاقة الوثيقة بين الصهيونية والنازية، ولهذا لابد للخطاب التحليلي العربي أن يبرز هذه العلاقة، فهي تقوض من الشرعية الصهيونية. وإذا كانت الدعاية الصهيونية تحاول أن تبين أن الغرب يساند الدولة الصهيونية في احتلالها فلسطين وطرد أهلها بسبب ما حدث في ألمانيا النازية، لأنها جريمة ارتكبتها إحدى المجتمعات الغربية ضد أقلية دينية/ إثنية تعيش بين ظهرانيها، فمن الضروري أن يشير الخطاب العربي

إلى أن الدعم الغربي للصهيونية يسبق الجريمة النازية. وفيما يلي بعض المصطلحات الصهيونية الأساسية لوصف ظاهرة الإبادة النازية.

١ ـ الإبادة النازية ليهود أوروبا:

يستخدم مصطلح «الإبادة» في العصر الحديث ليدل على محاولة القضاء على أقلية أو طائفة أو شعب قضاءً كاملاً ويطلق مصطلح «إبادة اليهود» (بالإنجليزية: إكسترمينيشن أوف ذا جوز extermination of the Jews) في الخطاب السياسي الغربي على محاولة النازيين التخلص أساساً من أعضاء الجماعات اليهودية في ألمانيا وفي البلاد الأوروبية (التي وقعت في دائرة نفوذ الألمان) عن طريق تصفيتهم جسدياً (من خلال أفران الغاز). وتستخدم أيضا كلمة «جينوسايد genocide» وهي من مقطعين «جينو» من الكلمة اللاتينية «جيناس genus» بمعنى «نوع» و«كايديس caedes» بمعنى «مذبحة».

وتستخدم أيضاً عبارة «الحل النهائي» للإشارة إلى «المخطط الذي وضعه النازيون لحل المسألة اليهودية بشكل جذري ونهائي ومنهجي وشامل عن طريق إبادة اليهود أي تصفيتهم جسدياً».

ويشار إلى الإبادة في معظم الأحيان بكلمة «هولوكوست»، وهي كلمة يونانية تعني «حرق القربان بالكامل» (وتترجم إلى العبرية بكلمة «شواه»، وتترجم إلى العربية أحياناً بكلمة «المحرقة»). وكانت كلمة «هولوكوست» في الأصل مصطلحاً دينياً يهودياً يشير إلى القربان الذي يضحي به للرب، فلا يشوي فقط بل يحرق حرقاً كاملاً غير منقوص على المذبح ولا يترك أي جزء منه لمن قدم القربان أو للكهنة الذين كانوا يتعيشون على القرابين المقدمة للرب ولذلك كان الهولوكوست يعد من أكثر الطقوس قداسة، وكان يقدم تكفيراً عن جريمة الكبرياء، ومن ناحية أخرى كان الهولوكوست هو القربان الوحيد الذي يمكن للأغيار أن يقدموه.

ومن العسير معرفة سر اختيار هذا المصطلح، ولكن يمكننا أن نقول إن المقصود عموماً هو تشبيه الشعب اليهودي بالقربان المحروق أو المشوي، وأنه حرق لأنه أكثر الشعوب قداسة، كما أن النازيين باعتبارهم من الأغيار يحق لهم القيام بهذا الطقس، أو ربما وقع الاختيار على هذا المصطلح ليعني أن يهود غرب أوروبا أحرقوا كقربان الهولوكوست في عملية الإبادة النازية ولم يبق منهم شيء، فهي إبادة كاملة بالمعنى

الحرفي. ولكن حينما تستخدم الجماعات المسيحية الأصولية الحرفية في الولايات المتحدة كلمة «هولوكوست» فهي تركز على جريمة الكبرياء، إذ ترى أن الإبادة عقاب عادل حاق باليهود بسبب صلفهم وغرورهم وكبريائهم، بإنكار أن المسيح عيسى بن مريم هو المسيح المخلص.

ويشار إلى الإبادة أحياناً بأنها «حُربان» وهي كلمة عبرية تستخدم للإشارة إلى «هدم الهيكل»، فكأن الشعب اليهودي هنا هو الهيكل أو البيت الذي يحل فيه الإله والإبادة هي تهديم بيت الإله، وهذه الكلمة تدخل حادثة الإبادة ضمن التاريخ اليهودي المقدس.

وفي الوقت الراهن تستخدم كلمة «هولوكوست» في اللغات الأوروبية للإشارة إلى أية كارثة عظمى، فيشير الصهاينة على سبيل المثال إلى «الزواج المختلط» بين اليهود بأنه «الهولوكوست الصامت» (بالإنجليزية: سايلانت هولوكوست silent Holocaust)، وحينما يصعد العرب من مقاومتهم للمستوطنين الصهاينة فإنهم - حسب المصطلح الصهيوني - يهددونهم بالهولوكوست، واستخدمت إحدى الصحف هذا المصطلح للإشارة إلى إحدى صفقات أسلحة الميراج بين ليبيا وفرنسا، كما استخدم أحد المتحدثين الصهاينة كلمة «هولوكوستي» وهي اسم صفة مشتق من هولوكوست فأشار إلى أحد الأفلام بأنه ليس «هولوكوستي Holocausty» بما فيه الكفاية. وهذا الاستخدام المستمر والممجوج للمصطلح يؤدي إلى نتائج كوميدية أحياناً، إذ تساءل أحد دعاة حماية البيئة في نبرة جادة قائلاً» كيف يمكن أن نستنكر الهولوكوست ضد اليهود ونحن نذبح ستة مليون دجاجة يومياً؟ أي أنه ساوى بين الطبيعي والإنساني وبين الدجاجة واليهودي وأطلق استنكاره هذا.

ويتم في الوقت الحاضر الاتجار بالهولوكوست وتوظيفها بشكل ممجوج لخدمة الأهداف الصهيونية والتجارية. وقد ظهرت مجموعة من المصطلحات المشتقة من كلمة هولوكوست والتي تعبر عن الاستياء العميق من عملية التوظيف هذه، فنحت أحد الكتاب كلمة «هولوكيتش Holokitsch» لوصف الكتب والأفلام عن موضوع الهولوكوست والتي تنتج وتنشر بهدف تحقيق الربح، حيث إنها تحاول إثارة العواطف واستغلالها على أسوأ وجه، وكلمة «كيتش» في اللغة الألمانية تعني الأعمال الفنية الشعبية الرديئة، كما ظهرت عبارة «هولوكوست بيزنس Holocaust business» أي «مشروع الهولوكوست التجاري»، بمعنى توظيف الهولوكوست تجارياً لتحقيق الأرباح العالية، ومن العبارات

الأخرى المتواترة عبارة «هولوكوست مانيا Holocaust mania» أي «الانشغال الجنوني أو المرضي بالإبادة».

وما يميز تجربة الإبادة النازية عن التجارب السابقة أنها تمت بشكل واعٍ ومخطط منظم شامل ومنهجي ومحايد عن طريق استخدام أحدث الوسائل التكنولوجية وأساليب الإدارة الحديثة (أي أنها تجربة حديثة تماماً منفصلة عن القيمة). وهذه السمات مرتبطة بتزايد معدلات الترشيد والعلمنة الشاملة وتحييد الواقع كله (الإنسان والطبيعة) وتحويله إلى مادة استعمالية ليست لها قداسة خاصة، وذلك حتى يمكن التحكم (الإمبريالي) فيه وإخضاعه للتجريب بلا تمييز بين الإنسان والحيوان أو بين الألماني واليهودي، وهو ما نسميه في مصطلحنا «الحوسلة» أي تحويل كل شيء وضمن ذلك الإنسان إلى وسيلة، ومن ثم فهناك فارق ضخم بين الإبادة (الحديثة) وبين المذابح في المجتمعات التقليدية، إذ كانت المذابح تتم عادة بشكل تلقائي غير منظم وغير منهجي وغير مخطط.

ونحن نفضل استخدام مصطلح «الإبادة النازية ليهود أوروبا»، وهو - في تصورنا - مصطلح أكثر تفسيرية وحياداً من المصطلحات المستخدمة في اللغات الأوروبية والعبرية. فكلمتا «هولوكوست» و«شواه» تحملان إيحاءات دينية، ومصطلح «الحل النهائي» يحدد مجاله الدلالي بشكل قاطع لا يتفق مع مضمونه الحقيقي. أما مصطلحنا فقد حدد الظاهرة النازية من حيث هي ظاهرة أوروبية داخل سياق التاريخ الألماني والأوروبي، ومن حيث هي ظاهرة لم تحدث في سياق التاريخ العالمي، كما أنها تضمر الإشارة للإبادة النازية للأقليات والشعوب الأخرى.

وكلمة «إبادة» كما نستخدمها لا تعني بالضرورة التصفية الجسدية، وإنما تعني «إبادة اليهود من خلال التهجير والتجويع وأعمال السخرة وأخيراً التصفية الجسدية المتعمدة» كما أننا لا نهمل ما نسميه «اختفاء اليهود» من خلال عوامل طبيعية مختلفة تقع خارج نطاق الإبادة النازية بالمعنى العام أو الخاص.

ويحاول الصهاينة دائماً أن يؤكدوا فرادة الهولوكوست، ولذا يحتجون بشدة إن تحدث أحد عن مذبحة تمت ضد ملايين الأغيار واستخدم مصطلح الهولوكوست ولكن من المعروف أن النظام النازي أباد ملايين آخرين من غجر وبولنديين وروس، وعدد الذين فقدوا أرواحهم من الروس يزيد عن ٢٠ مليون. وقد بلغ احتكار الصهيونية للخطاب التحليلي للإبادة النازية ليهودأوروبا أنه لو شكك أحد في حدوثها أو في أرقام الضحايا من

اليهود فإنه يرتكب جريمة إنكار الإبادة، وهي جريمة يعاقب عليها القانون في كثير من الدول الغربية.

٢ـ ستة مليون يهودي:

يرد في وسائل الإعلام الغربية رقم «ستة مليون» باعتباره عدد ضحايا الإبادة النازية لليهود وقد استقر الرقم تماماً حتى أصبح من البدهيات أو الأيقونات البلاغية، رغم أن ثمة رفضاً مبدئياً للرقم في الأوساط العلمية اليهودية وغير اليهودية، فعلى سبيل المثال قام راؤول هيلبرج في كتابه تدمير يهود أوروبا (١٩٨٥) بتخفيض العدد من ستة إلى خمسة مليون (بعد دراسة إحصائية مستفيضة للموضوع). وذكر سيسيل روث في موسوعته اليهودية أن الهولوكوست نفذ بطريقة يصعب معها التحقق من دقة الأرقام، وأن العدد يتراوح بين أربعة ملايين ونصف المليون وستة ملايين يهودي، ويميل المؤرخ الأمريكي اليهودي (صهيوني النزعة) هوارد ساخار، إلى الأخذ برقم أربعة ملايين ونصف مليون، وهناك من الأدلة الإحصائية ما يرجح الأخذ برأي ساخار فالكتاب السنوي ورلد ألماناك لعام ١٩٣٩ يقدر يهود العالم آنذاك بنحو ١٥,٦ مليون وفي عام ١٩٥٠، قدر عددهم بنحو ١٦,٦ مليوناً، في حين قدرته صحيفة نيويورك تايمز عام ١٩٤٨ بما بين ١٥,٧ و١٨,٦ مليون، وهناك تقديرات تذهب إلى أن عددهم أقل من ذلك وقد يصل إلى ما بين ١٣ و١٤ مليوناً، وفي جميع الحالات لا يمكن أن يزيد عدد من اختفوا على أربعة ملايين، ومؤخراً ذكر المؤرخ الإسرائيلي يهودا باور، مدير قسم دراسات الهولوكوست في معهد دراسات اليهود في العصر الحديث التابع للجامعة العبرية، أن الرقم ستة مليون لا أساس له من الصحة وأن الرقم الحقيقي أقل من ذلك. وبينت بحوث المؤرخ الفرنسي جورج ويلير G. Wellers أن العدد الإجمالي لمن أبيدوا في أوشفيتس من اليهود وغير اليهود ليس أربعة ملايين وإنما هو ١,٦ مليون وحسب، وأن هؤلاء لم يقضوا حتفهم من خلال أفران الغاز فقط وإنما أيضاً بسبب الجوع والمرض والموت أثناء التعذيب والانتحار. ومما يجدر ذكره أن من يتبنون رقم ستة مليون وغيره من الأرقام لا يشيرون من قريب أو بعيد إلى ظاهرة اختفاء اليهود من خلال عوامل طبيعية مثل الزواج المختلط وسوء التغذية والغازات والأوبئة التي تتزايد بسبب ظروف الحرب.

وبغض النظر عن الرقم مليون أو الأربعة أو الستة ملايين فإن ثمة خللاً أساسياً في المنطق الصهيوني يمكن تلخيص بعض جوانبه فيما يلي:

(أ) التركيز على اليهود بالذات دون الجماعات الأخرى، فمع أن اليهود عانوا مثلهم في ذلك مثل غيرهم من ضحايا النازية فإن سياسة هتلر في الإبادة كانت موجهة أيضا نحو الغجر والكاثوليك والمعارضين السياسيين والمرضى والمتخلفين عقلياً والسلاف عامة والبولنديين والروس على وجه الخصوص، وقد بلغ عدد ضحايا الحرب ما بين خمسة وثلاثين مليوناً وخمسين مليون، وخسر الاتحاد السوفيتي في الحرب العالمية الثانية ما بين سبعة عشرة وعشرين مليوناً بين مدنيين وعسكريين، وخسر البولنديون نحو خمسة ملايين بعضهم من اليهود، وخسر الصينيون ما يزيد على عشرة ملايين ماتوا جوعاً أو قتلاً على يد الاحتلال الياباني.

(ب) التركيز على المدنيين دون العسكريين، فمن بين العشرين مليون سوفيتي الذين قتلوا في الحرب كان هناك أربعة ملايين ونصف مليون مدني والباقون من العسكريين، ناهيك عن عدة ملايين من الألمان أرسلهم هتلر للموت في ساحة القتال، كما كان هناك كثيرون من جنود الحلفاء ضمن من قتلوا في الحرب، ويجب ألا ننسى الجنود من الأفارقة والآسيويين الذين جندوا رغم أنفهم ليشتركوا في حروب لا ناقة لهم فيها ولا جمل حيث كانوا يوضعون في الصفوف الأمامية باعتبارهم مادة بشرية رخيصة.

(جـ) التركيز على الماضي دون الحاضر وعلى ملايين اليهود الذين هلكوا قبل نحو نصف قرن دون اهتمام مماثل بالملايين التي أبيدت بعد ذلك. فقد فقدت كمبوتشيا منذ انتهاء الحرب العالمية الثانية نحو مليوني شخص، وفقدت الجزائر نحو مليون شخص، وفقدت أفغانستان منذ الغزو السوفيتي عام ١٩٧٨ نحو مليون قتيل فضلاً عن مليوني مهاجر داخل البلد وخمسة ملايين مهاجر إلى خارجها حتى صاروا يمثلون نصف مجموع اللاجئين في العالم.

(د) وهناك بطبيعة الحال مشكلة ملايين الفلسطينيين الذين طردوا من ديارهم والذين يخضعون لظروف إرهابية شبه دائمة.

لكن التشكيك في مدى دقة الرقم (الستة ملايين) لا يعني بحال من الأحوال التشكيك في الجريمة النازية ذاتها، فالجريمة النازية هي إحدى جرائم الحضارة الغربية الحديثة العديدة التي لا يمكن التهوين من شأنها، وما نهدف أساساً إليه من خلال مناقشة هذه الإشكالية هو تصحيح الرقم ووضع الظاهرة في سياق إنساني عام ومنظور تاريخي شامل بحيث نحدد

هويتها باعتبارها جريمة غربية محددة ضد قطاعات بشرية عديدة، بدلاً من أن تكون جريمة ألمانية ضيقة أو جريمة عالمية غير محددة ضد اليهود كلهم وضد اليهود دون سواهم، ونحن بهذا ننقذ واقعة الإبادة من سخافات الإعلام الغربي والصهيوني ولعبة الأرقام الطفولية التي تخبئ الأبعاد التاريخية والأخلاقية والإنسانية العامة للواقعة.

ويروج المدافعون عن الرؤية الصهيونية للإبادة النازية لرقم ستة مليون، كجزء من عملية الأيقنة وتحويل الإبادة إلى لغز من الألغاز وسر من الأسرار المقدسة، وقد أهمل هؤلاء تماماً بعض العناصر التي أدت إلى اختفاء اليهود من خلال عناصر طبيعية مختلفة.

(أ) أسباب تؤدي إلى العزوف عن الإنجاب وإلى تناقص الخصوبة ومعدلات التكاثر:

* أدت الهجرة اليهودية الكبرى في نهاية القرن التاسع عشر إلى انتقال أعداد كبيرة من اليهود إلى الولايات المتحدة الأمريكية، ويقال إن هجرة اليهود قضت تقريباً على اليهود في المرحلة العمرية من عشرين إلى أربعين عاماً، وهي مرحلة الخصوبة التي تجعل بإمكان الجماعة أن تعيد إنتاج نفسها.

* كان أعضاء الجماعات اليهودية في الغرب يضطلعون بدور الجماعة الوظيفية الوسيطة، أي بأعمال التجارة والمال، وكانوا لهذا مركزين إما في المدن أو المناطق شبه الحضرية، ومع منتصف القرن التاسع عشر تصاعد هذا الاتجاه وتزايد تركزهم في المدن بحيث أصبحت أغلبيتهم الساحقة تسكن في المدن عشية الحرب العالمية الثانية. فقد كان ثلث يهود روسيا يوجدون في خمس مدن وبقيتهم تعيش في مدن صغيرة، وكان أربعة وثمانون في المائة من يهود الولايات المتحدة يعيشون في ثماني عشرة مدينة كبيرة ونصفهم في نيويورك، كما كان معظم يهود النمسا في فيينا ومعظم يهود فرنسا في باريس وهكذا، ومن المعروف أن سكان المدن من أقل القطاعات البشرية خصوبة.

* كان قطاع كبير من الجماعات اليهودية في العالم الغربي، حتى عشية الحرب العالمية الثانية، جماعات بشرية مهاجرة، ومن المعروف أن أعضاء مثل هذه الجماعات يعزفون عن الإنجاب لعدم استقرارهم.

* هناك عناصر أخري أدت إلى عزوف اليهود عن الإنجاب، من بينها تحسن مستواهم المعيشي، والقلق الذي كان يعيشه أعضاء الجماعات اليهودية في الفترة بين الحربين وإبان الحرب العالمية الثانية، وكذلك تزايد معدلات العلمنة وبالتالي زيادة التوجه نحو اللذة وتحقيق الذات، الأمر الذي يقوض من الرغبة في إنجاب الأطفال.

ويلاحظ بالفعل تناقص أعداد اليهود وضمنهم يهود اليديشية، فبعد أن كانوا يتمتعون بأعلى نسبة خصوبة وتكاثر بين شعوب الإمبراطورية القيصرية الروسية في منتصف القرن التاسع عشر انخفضت النسبة إلى أقل النسب على الإطلاق في عام ١٩٢٦، فبعد أن كانت ٣٥,٩ في الألف، انخفضت إلى ٢٤,٨ في الألف. وفي بولندا، انخفضت النسبة من ٢٨,٦ في الألف عام ١٩٠٠ إلى ١٢,٣ في الألف عام ١٩٢٥ في وارسو، وإلى ١١,٦ في الألف في لودز عام ١٩٢٥، أما يهود المجر فقد انخفضت النسبة بينهم من ٣٣,٩١ في الألف في بداية القرن الحالي إلى ١٠,٥ في الألف، أي أنها انخفضت نحو ٢٣,٤ في الألف. وكانت نسبة المواليد في بروسيا (ألمانيا) ٥,٢ في الألف عام ١٩٣٥ و٢ في الألف في لندن عام ١٩٣٢، وقد حدا هذا الوضع بالكتاب اليهود إلى التحذير من أن يهود أوروبا قد يختفون تماماً لأن معدلات المواليد لا تعوض الوفيات. وعلى مستوى العالم كانت النسبة ٣٥,٥ في الألف في الفترة ١٨٢٢- ١٨٤٠ انخفضت إلى ١٩,٧ في الألف في الفترة ١٨٩٨- ١٩٠٢، ثم إلى ٩,١ في الألف عام ١٩٢٩، كما أنها انخفضت إلى ما دون ذلك لمدة عشرين عاماً (١٩٣٩- ١٩٤٩). وكان معدل نسبة المواليد في الفترة ١٩٠٦- ١٩١٠هو ٣٢ في الألف، ونسبة الوفيات ١٥ في الألف، والزيادة الطبيعية هي ١٧ في الألف، ثم انخفضت إلى نحو النصف في نحو خمسة وعشرين عاماً. وفي الفترة ١٩٢٦- ١٩٣٠ كانت نسبة المواليد هي ٢١ في الألف والوفيات ١٢ في الألف، والزيادة الطبيعية ٩ في الألف (انخفضت إلى ٨ في الألف عام ١٩٣٢). ولا توجد إحصاءات عن الفترة ١٩٣٥- ١٩٤٩، لأنها كانت فترة الحرب كما أنها أصبحت موضوعا يحجم كثير من الباحثين عن الخوض فيه.

(ب) عوامل تؤدي إلى الاختفاء:

* ابتداءً من منتصف القرن التاسع عشر كان يتم تجنيد أعضاء الجماعات اليهودية، وهو أمر جديد كل الجدة إذ كانوا يتمتعون بالإعفاء من الخدمة العسكرية قبل ذلك، كما سقط منهم ضحايا بأعداد كبيرة في الحرب العالمية الأولى والحرب العالمية الثانية. لكن هذا العنصر لا يؤدي إلى إنقاص عدد اليهود مباشرة عن طريق سقوطهم قتلي وحسب، وإنما بشكل غير مباشر أيضاً عن طريق زيادة معدل العزوف عن الإنجاب، كما أن العناصر القادرة على القتال هي عادة من الذكور في سن الخصوبة.

* تزايد نسبة الزواج المختلط بدرجة عالية كانت تصل إلى أكثر من ٥٠٪ في بعض العواصم الأوروبية.

* تنصُّر أعداد كبيرة من اليهود، وهو شكل من الأشكال الحادة للاندماج. وقد تزايد المعدل عشية الحرب العالمية الثانية لأسباب عملية منها الهرب من بطش النازي، كما حصل كثير من اليهود على شهادات تعميد من الكنيسة الكاثوليكية حتى يتيسر لهم دخول أمريكا اللاتينية، وآثرت أعداد كبيرة منهم عدم الإفصاح عن هويتهم اليهودية حتى بعد زوال الخطر.

* ينطبق الشيء نفسه على مئات الألوف من الذين هاجروا إلى روسيا السوفيتية هرباً من النازي، فكثير منهم لم يفصح عن انتمائه اليهودي، خصوصاً وأن الاتحاد السوفيتي سابقاً كان يترك لكل شخص أن يحدد انتماءه، فلو كان الشخص يهودياً وعرف نفسه بأنه روسي أو أوكراني فإن الأمر متروك له، ومع تآكل الهوية اليهودية لم يعد هناك دافع قوي لدى كثير من اليهود للإفصاح عن هويتهم.

وقد أشار عالم الاجتماع اليهودي لوريا أنجلمان عشية الحرب العالمية الثانية إلى ما سماه العملية ذات الأبعاد الثلاثة، تناقص المواليد وتزايد الوفيات وتزايد معدلات الاندماج، باعتبارها العملية التي ستؤدي إلى الاختفاء الكامل لليهود

(جـ) ظروف الحرب العالمية الثانية:

لابد أن نضيف إلى كل ذلك ظروف الحرب العالمية الثانية التي صعدت من كل العناصر السابقة وزادتها حدة، ولابد أن نأخذ في الاعتبار انتشار الأوبئة وسوء التغذية في نفس الفترة، كما ينبغي الإشارة إلى بعض طرق الإبادة البطيئة غير أفران الغاز مثل أعمال السخرة وعزل اليهود في الجيتو بمناطق مستقلة مزدحمة يعملون ويعيشون فيها تحت حد الكفاف، وهو ما كان يعني المزيد من الجوع والمرض. ويقال إن نحو ثُلث سكان جيتو وارسو قضوا نحبهم بهذه الطريقة، وإنه كان من المتوقع لهم جميعا أن يبادوا تماماً خلال عدة أعوام، وهذا العنصر هو ولا شك عملية إبادة إذ لا يهم أن يموت الضحية بأفران الغاز أو عن طريق التجويع، ولكننا نذكر هذا العنصر أيضا حتى تكتمل الصورة لدينا، كما هلك الآلاف بسبب حالة الحرب ابتداءً من عدم توفر الرعاية الصحية وانتهاء بالغارات على المدن مرورا بأحكام الإعدام التي كان النازيون يصدرونها على اليهود وغيرهم.

وإذا أخذنا في الاعتبار كل هذه العناصر، يصبح من الصعب أن نعزو اختفاء الستة

مليون يهودي (أو حتى الأربعة مليون حسب بعض الإحصاءات) إلى أفران الغاز وحدها أو عمليات الإبادة كتصفية جسدية متعمدة وحسب.

٣- العرب والمسلمون والإبادة النازية ليهود أوروبا:

لعل من الضروري أن نتناول إشكالية تخصنا وحدنا كعرب وكمسلمين ومسيحيين وهي موقفنا من الإبادة النازية لليهود. أما موقفنا من الإبادة النازية كمسلمين وكمسيحيين فهو واضح تماما لا لبس فيه فالقيم الأخلاقية الدينية الإسلامية والمسيحية واليهودية لا تسمح بقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وقد جاء في الذكر الحكيم: ﴿مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا﴾ (المائدة - ٣٢).

ويحاول الغرب إقحام الجريمة النازية داخل التاريخ العربي، حتى يبرر غرس الدولة الصهيونية الاستيطانية في وسط الوطن العربي تعويضاً لليهود عما لحق بهم من أذى داخل التشكيل الحضاري الغربي وداخل حدود أوروبا الجغرافية، وتحاول الدعاية الصهيونية بممالأة الغرب أن تنجز ذلك من خلال آليتين أساسيتين:

(أ) تحاول الدعاية الصهيونية جاهدة أن تصور المقاومة العربية للغزو الصهيوني لفلسطين وكأنها دعم مباشر أو غير مباشر للإبادة النازية، لأنها حالت في بعض الأحيان دون دخول المهاجرين اليهود لفلسطين، ومثل هذه الحجة لا أساس لها من الصحة، فالمقاومة العربية لم تكن ضد مهاجرين يبحثون عن المأوى وإنما كانت ضد مستوطنين جاءوا لاغتصاب الأرض وطرد أصحابها تحت رعاية العالم الغربي وبدعم من حكومة الانتداب البريطانية ومن النازيين أنفسهم وفي الوقت الذي كانت الدول الغربية توصد أبوابها دون المهاجرين اليهود. ومهما فعل الصهاينة يؤيدهم في هذا العالم الغربي دون تحفظ يظل حق المقاومة حقاً إنسانياً مشروعاً بل وواجباً على كل إنسان يحترم إنسانيته ويظل رفض الإنسان للظلم تعبيراً عن نبله وعظمته بل وإنسانيته.

كما تحاول الدعاية الغربية في الوقت الحاضر أن تبين أن تأييد الغرب للدولة الصهيونية هو محاولة من جانبه لتعويض اليهود عما حاق بهم من ظلم على يد النازيين. والرد على هذه الحجة بسيط، فقرار إنشاء الدولة الصهيونية بدعم من العالم الغربي قد اتخذ بشكل غير رسمي في أواخر القرن التاسع عشر، وأخذ شكلاً رسمياً محدداً مع صدور وعد

بلفور عام ١٩١٧، أي قبل وقوع حادثة الإبادة بعشرات السنين. كما أن الغرب إن أراد حقاً أن يعوض «اليهود» عما حاق بهم من أذى، كان عليه أن يعطيهم قطعة من أجود أراضي ألمانيا نفسها، التي ارتكبت هذه الجريمة الشنعاء، بدلاً من أن يجعلهم يدفعوا التعويضات المالية ليوطنوا اليهود في فلسطين، وكأنه يمكن إزالة آثار أوشفيتس عن طريق دير ياسين وجنين.

(ب) تحاول الدعاية الصهيونية أن تبين أن بعض الساسة العرب أظهروا تعاطفاً مع النظام النازي وهذه أكذوبة أخرى، فمعظم الحكومات العربية وقفت مع الحلفاء العالم العربي على أية حال كان يقع في دائرة الاستعمار الغربي، كما أن النظرية النازية العرقية كانت تضع العرب والمسلمين في مصاف اليهود، ولذا فأي تحالف مزعوم كان تحالفاً مؤقتاً لا يختلف عن حلف ستالين/ هتلر وهؤلاء الساسة (وبعض القطاعات الشعبية) ممن أظهروا التعاطف مع النازيين فعلوا ذلك لا كرها في اليهود أو حباً في النازيين وإنما تعبيراً عن عدائهم للاستعمار الإنجليزي والاستيطان الصهيوني، وهو على أية حال تعاطف يعبر عن سذاجة وعن عدم مقدرة على القراءة الجيدة للأحداث وعن عدم إلمام بطبيعة الغزوة النازية ومدى تجذرها في المشروع الحضاري والإمبريالي الغربي ومدى رفضها العنصري للمسلمين والعرب، ولم يترجم هذا التعاطف العام نفسه إلى اشتراك فعلى في الجريمة النازية التي تحتفظ بخصوصيتها كظاهرة حضارية غربية.

ولكن كل هذه المحاولات الدعائية الإعلامية الغربية الصهيونية لا تغير شيئاً من الحقائق التاريخية أو الجغرافية أو الأخلاقية الدينية والإنسانية، فالإبادة النازية لا تشكل جزءاً من التاريخ العربي أو تواريخ المسلمين، ولم يلوث العرب والمسلمون أيديهم بدماء ضحايا النازية من يهود أو سلاف أو غجر وهذه المحاولات تبين في نهاية الأمر اتساق الغرب مع نفسه الذي يكفر عن جريمة إبادية ارتكبها في ألمانيا بأخرى لا تقل عنها بشاعة في وطننا العربي.

ومن المعروف أنه حينما حدث احتكاك مباشر بين المسلمين والعرب من جهة والإبادة النازية من جهة أخرى فإن موقف المسلمين والعرب كان يتسم بالإنسانية. فعلى سبيل المثال قامت الأقلية المسلمة في بلغاريا بدور كبير في حماية أعضاء الجماعات اليهودية من الإبادة، كما أن الملك الحسن الخامس عاهل المغرب رفض تسليم رعاياه اليهود إلى حكومة فيشي الفرنسية الممالئة للنازي.

وقد لاحظت تكرار كلمة «مسلم» في مقال عن التدرج الاجتماعي في معسكر أوشفيتس، وقال مرجع آخر إن الضحايا الذين كانوا يقادون لأفران الغاز كانوا يسمونهم تسمية «غربية». وقد تبين بعد قراءة عدة مراجع وموسوعات أنهم كانوا يسمون في واقع الأمر «ميزلمان Muselmann» أي «مسلم» بالألمانية، وقد ورد ما يلي في مدخل مستقل في الموسوعة اليهودية Enyclopedia Judaica) جزء ١٢ ص ٥٣٧-٥٣٨) عنوانه «مسلم»:

«ميزلمان» أي مسلم بالألمانية، هي إحدى المفردات الدارجة في معسكرات (الاعتقال) والتي كانت تستخدم للإشارة للمساجين الذين كانوا على حافة الموت، أي الذين بدأت تظهر عليهم الأعراض النهائية للجوع والمرض وعدم الاكتراث العقلي والوهن الجسدي. وكان هذا المصطلح يستخدم أساساً في أوشفيتس ولكنه كان يستخدم في المعسكرات الأخرى.

هذه هي المعلومة، فكأن العقل الغربي حينما كان يدمر ضحاياه كان يري فيهم الآخر، والآخر منذ حروب الفرنجة هو المسلم، ومن المعروف في تاريخ العصور الوسطي أن العقل الغربي كان يربط بين المسلمين واليهود، وهناك لوحات لتعذيب المسيح تصور الرسول صلى الله عليه وسلم وهو يقوم بضرب المسيح بالسياط.

إن التجربة النازية هي الوريث الحقيقي لهذا الإدراك الغربي، والنازيون هم حملة عبء هذه الرؤية وهم ممثلو الحضارة الغربية في مجابهتها مع أقرب الحضارات الشرقية أي الحضارة الإسلامية، وهم لم ينسوا قط هذا العبء حتى وهم يبيدون بعضاً من سكان أوروبا، وكل ما في الأمر أن نطاق الحقل الدلالي لكلمة «مسلم» تم توسيعه لتشير «للآخر» على وجه العموم سواء كان من الغجر أم السلاف أم اليهود (وهذا لا يختلف كثيراً عن توسيع نطاق الحقل الدلالي لكلمة «عربي» في الخطاب الصهيوني لتصبح «الأغيار»). وقد حاول كاتب مدخل «مسلم» في الموسوعة اليهودية أن يفسر أصل استخدام الكلمة، فهو يدّعي أن الضحايا سموا «مسلمين» استناداً إلى طريقة مشيهم وحركتهم لأنهم كانوا يجلسون القرفصاء وقد ثنيت أرجلهم بطريقة «شرقية»، ويرتسم على وجوههم جمود يشبه الأقنعة. والكاتب في محاولة التفسير هذه لم يتخل قط عن عنصريته الغربية أو الصور النمطية الإدراكية، وكل ما في الأمر أنه حاول أن يحل كلمة «شرقيين» العامة محل كلمة «مسلمين» المحددة.

توليد مصطلحات جديدة

من أهم آليات فك الحصار الصهيوني للمصطلح توليد مصطلحات جديدة. وتوليد المصطلح جهد معرفي ونضالي في ذات الوقت، فمن يسمي الأشياء يمكنه التصدي لها. وعبر هذه الدراسة استخدمنا مصطلحات جديدة من سكنا من أهمها: الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة - الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة المهودة - الوعود البلفورية - اليهودي الخالص - العربي الغائب - الجماعات اليهودية - انتشار اليهود - المسألة الأوروبية - إجماع المستوطنين - الصهيونية الإثنية (العلمانية والدينية) - الصهيونية الاقتصادية والمالية - الهويات اليهودية - تواريخ الجماعات اليهودية.

وتوليد المصطلح ليس أمرا جديداً، فكما أسلفنا قام الفلاحون الفلسطينيون بتسمية المستوطنين الصهاينة «المسكوب»، أي الآتين من موسكو، ولم يقعوا في فخ تسمية هؤلاء الغرباء المستوطنين أو الرواد كما وقعنا نحن حين ترجمنا المصطلح الصهيوني دون أن نصل إلى المفهوم المتحيز الكامن كما فعل الفلاحون الفلسطينيون.

ولا يمكن إنكار أن العقل العربي استمر في عملية المقاومة من خلال توليد المصطلح، ولنضرب مثلاً على ذلك:

١- فلسطين المحتلة:

«فلسطين المحتلة» مصطلح يتواتر في الخطاب السياسي العربي يؤكد أن وضع فلسطين لم يتقرر بعد وأنها لم تصبح بعد إسرائيل بشكل نهائي، وأن الأمور لم يتم تسويتها وتطبيعها وأن فلسطين في نهاية الأمر ليست أرضاً بلا شعب كما كان الزعم، لكل هذا فنحن نرى أن مصطلح «فلسطين المحتلة» مصطلح منفتح يترك الباب مفتوحاً أمام الجهاد والاجتهاد ولا يقبل الأمر الواقع والوضع القائم المبني على الظلم باعتباره نهائياً، وبعد عام ١٩٤٨ تشير كثير من الأدبيات العربية إلى «فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨» مقابل «فلسطين المحتلة بعد عام ١٩٤٨».

وكثير من الصهاينة يدركون هذا البعد في الخطاب العربي وقد صرح، مناحم بيجين وغيره أنه لو كانت «إسرائيل» هي «فلسطين» لفقدت الصهيونية صفتها باعتبارها حركة تحرر وطني للشعب اليهودي وأصبحت عملية استعمار واغتصاب. وعلى كلٍّ فقد قررت الدولة الصهيونية ألا تغلق باب الاجتهاد تماماً، ولذا فهي لم تحدد حدودها حتى الآن وهي

مستمرة بكل إصرار في إقامة المستوطنات للصهاينة والمعازل للفلسطينيين، أي أنها بمعنى من المعاني رفضت تطبيع ذاتها مما يعني أن الحلبة لا تزال مفتوحة لكل أشكال الحوار الأخرى بما في ذلك الحوار المسلح، ومن ثم فإسقاط مثل هذا المصطلح هو سقوط في عملية التطبيع المعرفي والمصطلحي.

٢ـ التجمع الصهيوني:

«التجمع الصهيوني» مصطلح يستخدم في الخطاب التحليلي العربي للإشارة إلى الدولة الصهيونية التي تشير إلى نفسها أحياناً بأنها «الدولة اليهودية». والمصطلح يحاول أن يؤكد حقيقة أن إسرائيل لا تشكل مجتمعاً عادياً متماسكاً متجانساً يتسم بقدر معقول من الوحدة، وإنما هو مجرد تجمع من مجموعات بشرية تتصارع فيما بينها إلا في مواجهة عدو خارجي فهي أقرب إلى التركيب الجيولوجي التراكمي، والإشارة إلى الدولة الصهيونية باعتبارها تجمعاً لا يشكل سبا لها أو تقليلاً من شأنها وإنما هو محاولة جادة للتعرف على السمات الأساسية لهذا الكيان الغريب الذي له صفاته الخاصة وأحياناً الفريدة.

٣ـ الكيان الصهيوني:

«الكيان الصهيوني» مصطلح يستخدم في الخطاب السياسي العربي للإشارة إلى الدولة الصهيونية، وهو مصطلح له مقدرة تفسيرية عالية لأنه منفتح، فهو لا يقبل القول بأن ما أسس على أرض فلسطين هو مجتمع يهودي متجانس تحكمه دولة عادية، وإنما هو كيان كائن لم تتحدد صفاته بعد، أي أن المصطلح هنا يؤكد الشذوذ البنيوي لهذا الكيان الذي غرس في فلسطين المحتلة غرساً وفرض عليها فرضاً، ولأنه كيان مشتول لا جذور له فإنه يمكن أن ينفض كما ينفض الغبار (ومن هنا كان مصطلح «الانتفاضة»).

واستخدام كلمة «كيان» شأنها شأن عبارة «فلسطين المحتلة» و«تجمُّع» لا تتضمن أي شكل من أشكال السب أو القدح، وإنما هو محاولة جادة للابتعاد عن القوالب اللفظية الجاهزة التي تسقط في العموميات وتتجاهل المنحنى الخاص للظاهرة وتقوم بالتطبيع المعرفي للظاهرة الصهيونية. واستخدام هذه المصطلحات لا يعني أن «الكيان الصهيوني» أقل قوة أو بطشاً أو تواجداً من الناحية العسكرية من «الدولة الصهيونية» فجماعات المغول التي اكتسحت العالم الإسلامي وأسقطت الخلافة وهددت العالم المسيحي لم تكن تشكل

دولة ولا حتى قبائل رعوية في بقعة محددة، بل كانت فيما يبدو فائضاً سكانياً ضخماً قذفت به سهوب منغوليا الشاسعة عبر موجات متكررة فاكتسحت الصين والهند ثم العالم الإسلامي، وكان هذا الفائض يتسم ببراعة عسكرية فائقة ومقدرة على إدارة الحرب النفسية، وكان يحمل رغبة صادقة في تحطيم الحضارة الإنسانية باعتبارها تعبيراً عن شكل من أشكال الانحلال.

والكيان الصهيوني هو أيضا شيء فريد: فائض بشري أرسلته أوروبا إلى فلسطين بعد أن قامت بتسليحه ودعمه وتغطيته عسكرياً وسياسياً واقتصادياً وأوروبا، وتشكيل حضاري أحرز تقدماً تكنولوجيا ضخما تملك ناصيته المستوطنون الصهاينة كما تملكوا ناصية أساليب الإدارة المتقدمة التي طوروها، ولكن كل هذا لا يجعلهم مجتمعاً أو دولة عادية ومن هنا استخدام مصطلح مثل «تجمع» أو «كيان».

٤ ـ المشروع الصهيوني:

«المشروع الصهيوني» عبارة تتردد في الخطاب السياسي العربي، ويقصد منها أحياناً المخطط الصهيوني لاحتلال فلسطين وطرد أهلها أو الهيمنة عليهم (ويقصد منها أحياناً أخرى المؤامرة اليهودية التي لا تنتهي).

ويمكن القول بأن المشروع الصهيوني هو النموذج المثالي الصهيوني (ما ينبغي أن يكون). وتتبدى من خلال هذا المشروع كل سمات الشذوذ البنيوي التي اتضحت فيما بعد من خلال الأداء الصهيوني، فالمشروع يتحقق في الزمان والمكان، الأمر الذي يعني أن التناقض بين ما ينبغي أن يكون وما يتحقق بالفعل يأخذ في الظهور. ومع هذا يردد كثير من العرب أن المشروع الصهيوني خطة محكمة آخذة في التحقق بحذافيرها، وأن هرتزل على سبيل المثال تنبأ بأن الدولة الصهيونية ستقام بعد خمسين عاما وأن نبوءته قد تحققت بالفعل، وما يغفل عنه الكثيرون أن عدد النبؤات الصهيونية الذي لم يتحقق يفوق كثيراً عدد ما تحقق. فقد تنبأ هرتزل عام ١٩٠٤ أن ألمانيا هي التي ستأخذ الدولة الصهيونية تحت جناحيها، أي قبل أن تأخذ الدولة النازية أعضاء الجماعات اليهودية في أوروبا تحت جناحيها (على طريقتها الجهنمية الخاصة) بثلاثين عاماً، وقد تنبأ بن جوريون بأنه بعد إنشاء الدولة بسنتين أو ثلاثة ستستسلم كل الدول العربية وستوقع معاهدات سلام مع الدولة الصهيونية، وأن الفلسطينيين العرب سيتركون أراضيهم بحثاً عن الثروة في بقية العالم العربي.

ولكن الأهم من هذا كله هو التناقضات العميقة التي ظهرت والتي زادت من الشذوذ البنيوي للكيان الصهيوني، فقد خطط الصهاينة على سبيل المثال لتأسيس دولة يهودية خالصة كان من المفروض أن يهرع لها كل يهود العالم أو غالبيتهم، وكان المفروض أن تكون هذه الدولة دولة مستقلة تعتمد على نفسها وتشفي اليهود من طفيليتهم، وغني عن القول أن شيئا من هذا لم يحدث وأن أعضاء الجماعات اليهودية لا يزالوا في أوطانهم الأصلية الحقيقية، فهم ليسوا شعباً بلا أرض يتساءلون عن يهودية الدولة اليهودية، والأسوأ من هذا أن العرب لا يزالون يقاومون هذا الكيان الصهيوني ومشروعه فيفتحونه ويكشفون شذوذه البنيوي ويؤكدون أن فلسطين ليست أرضاً بلا شعب.

٥- فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨:

من المصطلحات العربية الجديدة لوصف الظاهرة الإسرائيلية مصطلح «فلسطين المحتلة عام ١٩٤٨»، وهو يعني أن كل أرض فلسطين أرض محتلة، وهذا المصطلح يضع الدولة الصهيونية في سياقها وأن إسرائيل هي في واقع الأمر فلسطين المحتلة

٦- الانتفاضة:

كلمة «انتفاضة» تتلألأ كالنجم الساطع في سمائنا، وكالشمس الحارقة في سماء الصهاينة. وحينما ظهر مصطلح «انتفاضة» لأول مرة مع انتفاضة ١٩٨٧، حاول بعض الكُتّاب إسقاطها وإحلال الكلمة «ثورة» محلها، ولكن كلمة «انتفاضة» مناسبة تماماً لوصف ما حدث في فلسطين عام ١٩٨٧، وما يحدث فيها في الوقت الحاضر. والكلمة مشتقة من فعل «نفض» مثل «نفض الثوب» بمعني «حرّكه ليزول عنه الغبار أو نحوه». ولعل هذا وصف دقيق للاستعمار الاستيطاني الصهيوني الذي لم يضرب جذورا في تربتنا الجغرافية والتاريخية، فهو مثل الغبار الذي علق بالثوب الفلسطيني ولم يمس الجوهر ويقولون أيضاً نفض المكان أي نظر جميع ما فيه حتى يعرفه، وهذا تاكتيك لدى شباب الانتفاضة، ويقولون أيضاً «نفض الطريق» أي «طهّره من اللصوص»، ويقال «النفضة» وهي «جماعة يبعثون في الأرض متجسسين لينظروا هل فيها عدو أو خوف»، وهذا أيضاً تاكتيك آخر للمنتفضين. وتحمل الكلمة أيضاً معاني الخصوبة فيقال «نفض الكرم» أي «تفتحت عناقيده»، ويقال وهذا هو الأهم «نفضت المرأة» أي «كثر أولادها» و«المرأة النفوض» هي المرأة كثيرة الأولاد، أي المرأة التي لا تكف عن الإنجاب

تماماً مثل الأنثى الفلسطينية. وانظر كذلك إلى تعبيرات مثل «نفض عنه الكسل» و«نفض عنه الهم» وكذلك «انتفض واقفاً»، وهي كلها اصطلاحات تعني أن ما يحدث الآن كان هناك دائماً.

إن «الانتفاضة» (بما تحمل من معاني الخصب والاستمرار والتجذر) ليست «ثورة» (بكل ما تحمل من معاني الاحتراق والبدايات الجديدة). إن الثورة انقطاع أما الانتفاضة فعودة لما سبق واسترجاع للهوية التي سلبت حتى تصبح «إسرائيل» مرة أخرى «فلسطين» كما كانت دائماً عبر التاريخ وكما ستكون بإذن الله في المستقبل. ولا يمكننا أن ننسب لشباب الانتفاضة - الذين اختاروا المصطلح - معرفة بكل هذا وإدراكاً واعياً له، ولكن لا يمكن أيضا أن ننكر إحساسهم الحضاري السليم بلحظتهم التاريخية أو ارتباطهم المباشر بتراثهم أو إعراضهم النفسي والمعرفي عن النموذج الغربي، فقد آثروا أن يحملوا علم الانتفاضة بكل مدلولات الكلمة العميقة الدالة والتي لا نظير لها في اللغات الأوروبية (ومن هنا يكتبون في الصحف الغربية كلمة «انتفاضة» بحروف لاتينية intifada مما ينم عن إدراكهم لخصوصيتها). إن المناضلين الفلسطينيين في اختيارهم لكلمة «انتفاضة» وضعوا أيديهم على واحدة من أهم خصائص تحركهم التاريخي المبارك، وهو أنه تحرك يتم داخل إطار الهوية التي تمتد من الماضي عبر الحاضر إلى المستقبل بإذن الله.

٧. الصهيونيتان:

الصهيونية الاستيطانية والصهيونية التوطينية (تناولنا هذين المصطلحين في الفصل السادس من هذه الدراسة).

٨. صهيونية المرتزقة:

تناولنا هذا المصطلح في الفصل الأخير من هذه الدراسة.

وإذا كان الخطاب التحليلي العربي قد وفق في توليد مصطلحات تظهر حقيقة الحركة الصهيونية الاستيطانية فإنه لم يوفق في المصطلحات التالية:

١ - التحدي الحضاري الإسرائيلي:

«التحدي الحضاري الإسرائيلي» عبارة دخلت الخطاب السياسي العربي ومفادها أن

التجمع الصهيوني يمثل كياناً حضارياً مستقلاً متفوقاً على الكيان الحضاري العربي، وأن هزيمة العرب العسكرية هي نتيجة تخلفهم الحضاري، وأن العرب لو حذوا حذو الصهاينة لحققوا الانتصار عليهم.

والتحدي الحضاري هو عملية تغطي كل جوانب الحياة، حيث يطرح الآخر رؤية للحياة وأسلوبا لتنظيمها يحققان نجاحاً على جميع المستويات ويحققان كل إمكانيات الإنسان كإنسان. فالتحدي الحضاري ليس مجرد إنجاز تكنولوجي أو تفوق عسكري، وإلا اضطررنا للقول بتفوق التتار على العرب لأنهم عبروا نهر دجلة على كوبري من المخطوطات العربية، ولقلنا بتفوق البرابرة على الرومان لأنهم نجحوا في غزو روما وتحطيم منجزاتها الحضارية. ومن ثم، فمن الصعب قبول مثل هذا المعيار، لأنه معيار أحادي يتجاهل الوجود الإنساني المركب، ولأن التفوق العسكري في نهاية الأمر ليس هو التفوق الحضاري. وقد تحول هذا العنصر الوحيد إلى المعيار الأوحد بتأثير الحضارة الغربية ذات الرؤية الداروينية الصريحة التي منحته مركزية لا يستحقها.

وإذا نظرنا إلى التجمع الاستيطاني الصهيوني الذي يمثل التحدي الحضاري - حسب رؤية البعض - لوجدنا بالفعل مجتمعاً حقق تفوقاً عسكرياً لا يمكن إنكاره، ولكنه تفوق لم يحرزه بإمكانياته الذاتية وإنما بسبب الدعم العسكري الغربي، بل إن التجمع الصهيوني ككل لا يعتمد على موارده الطبيعية أو الإنسانية وإنما يعتمد على الدعم المستمر من الولايات المتحدة والدول الغربية ويهود الغرب.

وهذا التجمُّع الصهيوني هو مجتمع ذو توجه عسكري واضح تهيمن عليه المؤسسة العسكرية التي ليس لها أي وجود ملحوظ لا بسبب غيابها وإنما بسبب حضورها الكامل العضوي في كل مؤسسات التجمع الصهيوني.

وهذا التجمُّع الاستيطاني الإحلالي، شأنه شأن كل الجيوب الاستيطانية الإحلالية، مبني على الحد الأقصى من العنف الموجه ضد الآخرين وضد الذات، فهو مبني على أكذوبة (أرض بلا شعب لشعب بلا أرض)، وهي أكذوبة لم يعد يصدقها حتى الصهاينة أنفسهم، وهو يحاول أن يكتسب شرعية وجوده إما من خلال قصص ومفاهيم توراتية (لا يؤمن بها معظم المستوطنين الصهاينة ذوي التوجه العلماني الشامل)، أو مفاهيم جيتوية حلولية عضوية لا تختلف كثيراً عن الأساطير النازية العرقية، ولكنه يكتسب شرعية وجوده في واقع الأمر بالطريقة الغربية المألوفة أي بقوة السلاح.

وهذا التجمُّع لا توجد فيه حضارة متجانسة، فكل مستوطن أحضر معه من وطنه الأصلي خطاباً حضارياً مختلفاً، وادعت الدولة الصهيونية أنها ستمزج الجميع في بوتقة يهودية عبرانية جديدة ليخرج منها مواطن جديد، وما حدث هو أن الخطاب الحضاري الجديد المزعوم لم يتشكل وظهر بدلا منه واقع حضاري غير متجانس، وأصبح الخطاب الحضاري المهيمن هو خطاب الراعي الإمبريالي أي الخطاب الأمريكي.

باختصار شديد التجمُّع الصهيوني ليس مجتمعاً، وإنما هو «تجمع» غُرس في المنطقة ليقوم بدور عسكري لصالح الحضارة الغربية، ومن ثم فهو يشكل تحدياً عسكرياً وحسب لا تحدياً حضارياً، بل إنه تحدٍّ عسكري جعلنا ننحرف عن الاستجابة للتحدي الحضاري الأصلي الذي طرحته علينا الحضارة الغربية الحديثة وهو كيف نؤسِّس مجتمعاً حديثاً في إطار منظوماتنا القيمية والحضارية.

ولعلنا لا ندَّعي حين نقول إن التحدي الحضاري للأمة التي أنتجت ابن خلدون والمتنبي والغزالي وابن رشد ينبغي أن يأتي من شعب أو حضارة أنتجت أرسطو وماركس وألا يهبط إلى مستوى بناء حضاري متخلف تسيطر عليه الأفكار الجيتوية ويتزعمه أمثال شارون ومن قبله بن جوريون الذي يتصور أنه يحدد سياسة بلاده الخارجية وتحركات جيوشه حسب رؤى العهد القديم وأقوال التلمود وأساطير الأولين بشرط أن يكونوا من اليهود.

٢ ـ انهيار إسرائيل من الداخل:

ظهر في الخطاب السياسي العربي مصطلح «انهيار إسرائيل من الداخل»، وهو يعني أن إسرائيل ستنهار من الداخل من تلقاء نفسها بسبب أزمتها وتناقضاتها الداخلية الحادة. وبالفعل تشير بعض الإحصاءات ذات الدلالة الاجتماعية الخاصة بالتجمع الصهيوني إلى أن معدلات التآكل الداخلي آخذة في التصاعد، فما بين تعاطي المخدرات وانتشار الشذوذ الجنسي وتآكل الحياة العامة والصراع بين السفارد والإشكناز والدينيين والعلمانيين دخل التجمع الصهيوني في مرحلة أزمة عميقة، ولكن هل يعني هذا أن المجتمع الإسرائيلي سينهار من الداخل كما يمني البعض نفسه الإجابة عن هذا ستكون بالنفي القاطع للأسباب التالية:

(أ) مقومات حياة التجمُّع الصهيوني لا تنبع من داخله وإنما من خارجه، فهو مدعوم مالياً

وعسكريا وسياسيا من الولايات المتحدة والعالم الغربي والجماعات اليهودية فيه، ولذا فهو لا يمكن أن ينهار من الداخل!

(ب) تساهم المساعدات الخارجية السخية والتي لا يعرف أي مجتمع إنساني مثيلاً لها في حل كثير من التناقضات وفي تمويل كثير من قطاعات التجمع الصهيوني مما يخفف من حدة الصراع بينها.

(جـ) يتسم المجتمع الإسرائيلي بالشفافية، وبالتالي فحينما تتضح ظواهر سلبية فإنه يقوم بدراستها والتصدي لها أو التكيف معها.

(د) توجد مؤسسات ديمقراطية وعلمية يمكن لكل قطاعات السكان في التجمُّع الصهيوني أن يقدموا الحلول من خلالها.

(هـ) ثبت أن كثيراً من المجتمعات يمكنها أن تعيش في حالة أزمة عشرات بل مئات السنين ما دامت لا تتعرض لتحد من أحد من الخارج، وأعتقد أن الحاسوب (الكمبيوتر) يساهم في هذه العملية، إذ يمكن للإنسان المتفسخ بشرياً أن يستمر في العمل من خلاله وأن يطلق الصواريخ التي تصيب أهدافها بدقة بالغة حتى لو كان شاذاً جنسياً أو تعاطي الخمور والمخدرات في الليلة السابقة.

(و) تثبت التجربة التاريخية أن المجتمعات العنصرية (المجتمع النازي والفاشي) لا يمكن أن تنهار إلا من خلال الضغط الخارجي. فالنظام العنصري الشمولي، بما يملك من آليات الدولة الحديثة، يمكنه الهيمنة على الرأي العام وعلى المقاومة إلى ما لا نهاية.

إن القضاء على الجيب الاستيطاني لا يمكن أن يتم إلا من خلال الجهاد اليومي المستمر ضده، وما نذكره من عوامل تآكل في التجمُّع الصهيوني هي عوامل يمكن توظيفها لصالحنا كما أنها تبين لنا حدود عدونا وأنه ليس قوة ضخمة لا تقهر، لكنها في حد ذاتها لا يمكنها أن تودي به أو أن تؤدي إلى انهياره.

٣- إسرائيل المزعومة:

استخدم هذا المصطلح في الخطاب التحليلي العربي منذ عام ١٩٤٨ حتى عام ١٩٦٧ تقريباً. وقد صاحبته محاولة إنكار وجود إسرائيل على الخرائط فكانت بعض الحكومات

تقوم بشطبها حتى في الكتب الأجنبية. والمصطلح ينكر وجود إسرائيل وهو أمر يصعب قبوله، فالدولة الصهيونية موجودة والاعتراف بوجودها لا يعني بالضرورة تقبلها، فالأمراض «موجودة» وليست مزعومة، والاستعمار «موجود» وليس مزعوماً، والجريمة «موجودة» وليست مزعومة، وعدم تسمية هذه الظواهر أو وصفها بأنها مزعومة لا يؤدي إلى اختفائها وإنما يؤدي إلى إخفائها عن الأنظار، وكان من الممكن أن يأخذ المصطلح الشكل التالي الدولة الصهيونية (أي فلسطين المحتلة) – إسرائيل (أي فلسطين المحتلة)، وبذلك نعترف بوجود هذا الكيان ونؤكد في الوقت ذاته أن وجوده ليس أمراً نهائياً وإنما يمكن تغيير الأوضاع من خلال الاجتهاد والجهاد فندرس العدو ونتصدى له مسلحين بالمعرفة اللازمة لإدارة المعركة.

مصطلحات الحوار والسلام

حاول الصهاينة من البداية أن يصوروا مشروعهم الصهيوني بأنه مشروع إنساني لإنقاذ اليهود ولتطوير العالم العربي، ولذا كانوا يتحدثون في الماضي عن الإخوة مع العرب والنهوض بهم ويتحدثون الآن عن السلام وضرورة الحوار وأن ما يبغونه هو الأمن وحسب وتطبيع العلاقات مع العرب إلى آخر هذه الترهات. وكما أسلفت لا يمكن أن نترك هذه المصطلحات يتلاعب بها الصهاينة كما يشاءون ويخدعون بها العالم وأنفسهم، خاصةً وأن هذه المفردات من أهم مفردات الخطاب السياسي في معظم أنحاء العالم ولابد من تفكيكها وإعادة تركيبها لنفضح المضمون الصهيوني ولنبين وجهة النظر العربية باعتبارها وجهة نظر إنسانية تبغي العدل. وفيما يلي بعض هذه المصطلحات.

١ـ التطبيع:

يمكن القول إننا من دعاة التطبيع، على أن يكون التطبيع مع كيان طبيعي لا يتسم بالشذوذ البنيوي الذي تتسم به الدولة الصهيونية (انظر الفصل الثاني «تطبيع المصطلح»)، فرفضنا للتطبيع ليس نتيجة حب للحرب وإنما هو نتيجة الشذوذ البنيوي الذي تتسم به الدولة الصهيونية التي أسست على الأرض الفلسطينية في الوطن العربي تدعو يهود العالم للهجرة إليها وترفض في الوقت ذاته السماح لأصحاب الأرض

الأصليين بالعودة إليها، وهي دولة ترى نفسها على أنها امتداد للغرب في الشرق العربي ولا يمكنها الاندماج فيه.

٢ـ الاعتدال والتطرف:

«الاعتدال» من «عدل» أي «سوى بين الشيئين». و«الاعتدال السياسي» هو أن يأخذ المرء موقفاً ينزع نحو المهادنة وتقديم التنازلات في سبيل تحقيق قدر من العدل والسلام. و«التطرف» على خلاف «الاعتدال» هو «تجاوز حد الاعتدال»، وهو على زنة «تفعل» من «طرف»، و«الطرف» هو «حافة الشيء». و«التطرف» في المصطلح السياسي هو أن يتمسك المرء بموقفه وبالحد الأقصى لا يحيد عنه ولا يقبل تقديم أية تنازلات ولا يتهاون بغض النظر عن الأوضاع والملابسات المحيطة بالموقف. ومصطلحا الاعتدال والتطرف شائعان في الخطاب السياسي، فيوصف إنسان بأنه «متطرف» وآخر بأنه «معتدل» حسب ما يتخذانه من مواقف. ولكن ما يغيب عن الكثيرين أن التطرف والاعتدال يقاسان بالنسبة إلى مرجعية ما كامنة، فما هو متطرف من وجهة نظر ما قد يكون اعتدالاً من وجهة نظر أخرى وكل شيء يعتمد على المرجعية، وما يفوت من يستخدمون مثل هذه المصطلحات أن أسباب الصراع (في المجال السياسي والاقتصادي) ليس لها علاقة كبيرة بما يسمى «العقد النفسية والتاريخية»، وإنما هي في العادة أسباب بنيوية لصيقة بالعلاقات التي توجد في الواقع، وما دامت البنية الشاذة الصراع، أي أن القضية ليس لها علاقة كبيرة في كثير من الأحوال مع الحالة النفسية أو مع مدى استعداد أحد أطراف الصراع لإظهار الاعتدال والتسامح، ولذا فنحن نذهب إلى أن مصطلحي «الاعتدال» و«التطرف» ليس لهما مقدرة تفسيرية عالية في مجال السياسة والاقتصاد.

والأمر لا يختلف كثيراً في الصراع العربي/ الصهيوني، فسبب الصراع هو الشذوذ البنيوي للكيان الصهيوني الاستيطاني الإحلالي الذي تأسس على الظلم وتم تحقيقه من خلال الإرهاب والقمع، وما دامت البنية الصهيونية الشاذة مستمرة فلابد أن يستمر الصراع العربي الصهيوني، ومع هذا تم استخدام المصطلحين بطريقة فيها قدر كبير من السيولة وعدم التحدد، وهذا يعود إلى أن المرجعية الصهيونية والحد الأقصى الصهيوني والمسلمات النهائية (تأسيس الدولة اليهودية الخالصة، الخالية من العرب) أخفيت تماماً عن الأنظار، وأن شعارات مثل «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» و«إرتس يسرائيل التي تمتد من النيل إلى الفرات» أو «على ضفتي الأردن» و«تجميع المنفيين في إرتس يسرائيل»

و«نفي (أي تصفية) الدياسبورا» قد أخفيت عن طريق استخدام الخطاب الصهيوني المراوغ، وهو الآلية الصهيونية لإخفاء المرجعية، ولهذا نجد أن ما يوصف بالتطرف يوماً يوصف بالاعتدال يوماً آخر وهكذا، إلى أن اقترب «الاعتدال الصهيوني» من المسلمات الصهيونية النهائية والحد الأقصى الصهيوني. فبعد إعلان وعد بلفور عام ١٩١٧ كان الصهاينة الذين يطالبون بإنشاء دولة صهيونية يعدون «متطرفين»، لأن الحد الأقصى المعلن آنذاك هو وطن قومي وحسب، ولكن هؤلاء المتطرفين أصبحوا معتدلين في الأربعينيات حينما أصبح الشعار الرسمي للحركة الصهيونية هو إنشاء دولة صهيونية وقبول قرار التقسيم والعيش مع العرب في سلام! ومن ثم كان الحديث عن كامل أرض إسرائيل وطرد العرب هو عين التطرف الصهيوني، ولكن بعد أن قضمت إسرائيل أرضاً تتجاوز حدود الأرض المعطاة لها بمقتضى قرار التقسيم وبعد أن تم طرد العرب أصبح الاعتدال الصهيوني هو تجاوز قرار التقسيم والقبول بالأمر الواقع والتمسك بحدود ١٩٤٨ وبقاء الفلسطينيين خارج ديارهم، وبعد حرب ١٩٦٧ كان التطرف الصهيوني هو التمسك بكل أو بعض الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧ وبإقامة المستوطنات فيها، وبالتدريج تغير مثل هذا الموقف الأخير وأصبح الاعتدال هو قبول الأمر الواقع وتجميد المستوطنات مع الاستمرار في تسمينها (أي توسيعها).

وينطبق الموقف نفسه على العرب بطبيعة الحال، فالمعتدل من وجهة النظر الصهيونية هو الذي يقبل الموقف الصهيوني المعتدل ويتغير بتغيره، فالعربي الذي كان يقبل استيطان الصهاينة دون إنشاء دولة كان يعد (منذ عام ١٩١٧ وحتى الأربعينيات) معتدلاً ولكنه أصبح متطرفا بعد ذلك التاريخ، ومن كان يقبل إنشاء الدولة اليهودية وقرار التقسيم عام ١٩٤٨ كان يعد عربياً معتدلاً ولكن بعد إنشاء الدولة أصبح مثل هذا الشخص متطرفاً وظل الأمر كذلك حتى عام ١٩٦٧، حيث أصبح الاعتدال العربي هو الرضوخ لحدود إسرائيل بعد عام ١٩٦٧ وأصبح تطبيق قرار ٢٤٢ أو حتى إنقاص المستوطنات في الضفة الغربية هو عين التطرف العربي. ومما يجدر ملاحظته أن الحفاظ على أمن إسرائيل هو دائماً الحجة التي تساق لتحديد مفهومي الاعتدال والتطرف، وأن مواصفات هذا الأمن تحدده الدولة الصهيونية دائماً. ويلاحظ في جميع الأحوال غياب مفهوم العدل والتآكل التدريجي لمفهوم المقاومة إلى أن أصبح أي شكل من أشكال «المقاومة» شكلاً من أشكال التطرف والإرهاب.

بعد تفكيكك مفهوم «الاعتدال والتطرف»، يجب أن نصر على أننا معتدلون وأن

مرجعيتنا هي قرارات هيئة الأمم المتحدة، بما في ذلك تأكيد حق العودة للاجئين الفلسطينيين، وأن المتطرف هو من يرفض هذه القرارات ويصر على أن يتصرف على هواه وحسب مصلحته دون أكتراث بالشرعية الدولية الإنسانية. ولذا حينما يتحدث الصهاينة عن المتطرفين الفلسطينيين فإنهم يشوهون الواقع، فهؤلاء «المتطرفون» هم في واقع الأمر مقاومون يدافعون عن حقوقهم الشرعية ويتحركون في إطار الشرعية الدولية، على عكس الصهاينة الذين يتصرفون في إطار أهوائهم ومصالحهم دون أي اعتبار لأي معايير دولية أو إنسانية، فالصهاينة هم المتطرفون وهم الإرهابيون.

٣ـ الحوار والحوار النقدي والحوار المسلح:

الحوار مصطلح يعني حرفياً حديثاً يجري بين شخصين. وكلمة «حوار» تفترض شكلاً من أشكال الندية والمساواة ويلجأ الصهاينة إلى الدعوة إلى الحوار والتفاوض وجهاً لوجه و«الابتعاد عن عقد التاريخ وحساسيات الهوية». ومثل هذه الدعوة للحوار دون تحديد المنطلقات والأطر والمرجعيات هي في واقع الأمر دعوة لمحو الذاكرة والتخلي عن القيم والتعري الكامل، وفي غياب الندية فإن ما يحسم الحوار هو السلاح، أي أنها دعوة للتطبيع من الجانب العربي دون أن يقوم الجانب الصهيوني بإزالة استيطانيته الإحلالية التي تسبب شذوذه البنيوي.

ولكي يكون الحوار مثمراً لابد أن يبدأ من التاريخ والقيم ومن الواقع، فالبشر ليسوا مثل الفئران عقولهم صفحة بيضاء، فنحن كلنا نحمل عبء الذاكرة والتاريخ والأخلاق وهذا ما يجعلنا بشراً، ونحن جميعاً نعيش في الواقع وندركه من خلال تجربتنا المتعينة ولذا فمن الضروري في أي حوار مع الآخر الصهيوني أن نبدأ بتعريف المشكلة لا أن ننساها أو نتناساها، ولابد أن نتذكر أن هناك كياناً استيطانياً إحلالياً وكتلة بشرية غازية، وأن هناك «مسألة فلسطينية» متمثلة في شعب فقد أرضه ولم يفقد ذاكرته لا تزال قائمة، ولذا فهو متمسك بها يناضل من أجلها، أي أن الحوار لابد أن يبدأ بالاعتراف بشذوذ إسرائيل البنيوي وشرعية المقاومة وبالوجود الفلسطيني.

ولابد أن يبدأ الحوار من تقرير الإطار القيمي وأن العدل هو الذي يجب أن يسود وأن العنصرية شيء بغيض، ومن ثم لابد أن يتوجه الحوار لقضية الظلم الذي حاق بالفلسطينيين والتمييز العنصري الذي يلاحقهم في فلسطين المحتلة قبل وبعد عام ١٩٦٧، ويجب أن ندرك أن الحوار أنواع، فهناك الحوار بين طرفين يتفقان في المنطلقات والأطر

المرجعية والمبادئ، والهدف من الحوار في هذه الحالة هو تحويل هذا التفاهم العام إلى إجراءات محددة، وهذا هو أسهل أنواع الحوار ويمكن أن يتم بشكل سلمي.

لكن إن كان الطرفان غير متفقين في المنطلقات ولا الأطر ولا المبادئ فيمكن في هذه الحالة إجراء ما يسمى «حواراً نقدياً»، وهو حوار يمكن أن يتم على مائدة المفاوضات وعبر وسائل الإعلام حيث يحاول كل طرف أن يبين للطرف الآخر وجهة نظره وعدالتها ويبين عنصرية الآخر ولاعقلانيته.

أما إن كان هناك طرفان غير متفقين في المنطلقات والآراء والأطر المرجعية وكان أحد الطرفين يرفض أي مطلقات أخلاقية ومرجعية ويجعل من نفسه مرجعية ذاته مكتفيا بذاته، فإن قيام أي حوار يعد أمراً مستحيلاً، وتسوء الأمور إن كان الطرف الذي نصب من نفسه المرجعية النهائية المطلقة مسلح برؤية نيتشوية داروينية تنطلق من المبدأ القائل بأن البقاء للأصلح بمعنى الأقوى وأن ما يحسم الأمور هو القوة العسكرية وسياسات الأمر الواقع التي تستند إلى الغزو العسكري وأن ما لا يؤخذ بالقوة يؤخذ بمزيد من القوة.

ومع هذا، يمكن أن ينشأ نوع من الحوار نسميه «الحوار المسلح»، وهو حين يقوم الطرف الذي وقع عليه الظلم بالمقاومة، فمن خلال مقاومته وإلحاق الأذى بالآخر الظالم قد يبدأ هذا الآخر في إدراك أن رؤيته للواقع ليست بالضرورة مطلقة ولا نهائية فتنفتح كوة من الرشد الإنساني في سحب الظلم الكثيفة، ويبدأ الآخر الظالم في إدراك الظلم الذي وقع على ضحيته ومن ثم قد يعدل موقفه، وهذا يتطلب رصداً ذكياً ومستمراً من جانب الضحية المقاوم حتى يدرك أن اللحظة قد حانت للدخول في التفاوض مع الآخر الظالم، ولكن هذا لا يعني التوقف عن المقاومة لأنه لو جرى الحوار دون المقاومة المسلحة فإن هذا الآخر، حبيس حواسه الخمسة ورؤيته الداروينية، قد يرى الرغبة في التفاوض باعتبارها مؤشراً على استعداد الضحية للاستسلام للذبح مرة أخرى. وقد أدرك الفيتناميون هذا الوضع فدخلوا في حوار مسلح مع الأمريكيين انتهى بالطرفين إلى مائدة المفاوضات، ولكن لم يتوقف الفيتناميون عن القتال إلا بعد انتهاء المفاوضات، وجلاء القوات الأمريكية عن ديارهم.

وقد كان هناك حوار مسلح حقيقي بين المستوطنين الصهاينة والفلسطينيين أثناء الانتفاضة توقف مع اتفاقية أوسلو واستؤنف مرة أخرى مع انتفاضة الأقصى. ومن أهم ثمرات الحوار المسلح أن شارون نفسه استخدم كلمة «احتلال» لوصف الوجود العسكري

الإسرائيلي في الضفة الغربية والقطاع. أما في جنوب لبنان فقد ظل الحوار المسلح قائماً إلى أن شعر القادة العسكريون الإسرائيليون أنه لا جدوى من الاستمرار في هذا النوع من القتال فاقتنعوا بوجهة النظر العربية وانسحبوا على أعقابهم خاسرين.

ونحن إذن من دعاة الحوار، ولكنه حوار يستمد مرجعيته مرة أخرى من قرارات هيئة الأمم والأعراف الدولية والإنسانية. والجدير بالذكر أن الإنسان الذي تسقط خريطته الإدراكية يتحول في البداية إلى وحش كاسر يحاول أن يحتفظ بخريطته ويفرضها فرضا على الواقع، وهذه هي المرحلة الشارونية، ولكن حينما يدرك المستوطنون أن البطش لم يحقق لهم الأمن أو الطمأنينة فإنهم سيبدأون في البحث عن حلول.

٤ ـ السلام الشامل الدائم:

يدَّعي الصهاينة أنهم من دعاة السلام، ولكن كلمة «السلام» كلمة مطاطة للغاية يختلف مضمونها باختلاف السياق الذي ترد فيه، فقد تحدث الرومان عن الباكس رومانا Pax Romana، الذي كان يعني فرض الهيمنة الرومانية على العالم. وفي القرن التاسع عشر، وبعد أن حطمت قوى الاستعمار الغربي تجربة محمد علي التحديثية، وقعت معاهدة معه كانت تسمي «معاهدة تهدئة [فرض السلام] على الشام Treaty for the Pacification of the Levant». وقد استخدم الأمريكيون نفس مصطلح Pacification للإشارة إلى محاولة غزو فيتنام، وهم الآن يتحدثون عن الباكس أمريكانا Pax Americana، أي فرض مفهوم السلام الأمريكي على العالم، ويمكن الحديث أيضاً عن «السلام الإسرائيلي»، وهو محاولة تهدئة المنطقة وفرض المفهوم الإسرائيلي للسلام عليها. وتبدأ معزوفة السلام الإسرائيلية بالمناداة بالبعد عن عقد التاريخ وأن تتناسى كل دول المنطقة خلافاتها لمواجهة الخطر الأكبر (الاتحاد السوفيتي - الإسلام . . . إلخ)، وأن نقطة البداية لابد أن تكون الأمر الواقع، أي أن إسرائيل تطبق إحدى آليات الخطاب الصهيوني المراوغ وهو فصل النتائج عن الأسباب وعن سياقها التاريخي. والمفهوم الإسرائيلي للسلام يفترض أن إسرائيل ليست التهديد الأكبر، مع أن الأمر الواقع الذي يطلب منا أن نبدأ منه يقول عكس ذلك، فهو أمر واقع مؤسس على العنف ويؤدي إلى الظلم والقمع، وهو ليس ابن اللحظة وإنما هو نتيجة ظلم تاريخي ممتد من الماضي إلى الحاضر، وهذا الظلم والقمع هو مصدر الصراع والحروب

والاشتباك، فالمسألة ليست عقدا آنية أو تاريخية وإنما بنية الظلم التي تشكلت في الواقع ولا يمكن تأسيس سلام حقيقي إلا إذا تم فكها.

وبعد تناسي عقد التاريخ يطالب الصهاينة بوقف المقاومة واستسلام الفدائيين مقابل تسليم بعض المدن والقرى لا تنسحب منها القوات الإسرائيلية الغازية وإنما يعاد نشرها، وهذا ما يسمونه الأرض في مقابل السلام. والقوات الإسرائيلية لا تنسحب لأن أرض فلسطين هي أرض الشعب اليهودي والقوات الوطنية لا تنسحب من أرض الوطن وإنما يعاد نشرها وحسب، فالعدو يصر على المرجعية النهائية لمصطلحاته. ولذا رغم اتخاذ هذه الخطوة الرمزية الإعلامية فإن الاستيطان سيستمر على قدم وساق والقدس ستظل عاصمة إسرائيل الأبدية.

إن كل هذه التصورات للسلام تنبع من إدراك أن أرض فلسطين هي إرتس يسرائيل، وأن الإسرائيليين لهم حقوق مطلقة فيها أما الحقوق الفلسطينية فهي مسألة ثانوية، فالأرض في الأصل أرض بلا شعب. وتتبدى هذه الخاصية بشكل واضح ومتبلور في المفهوم الإسرائيلي للحكم الذاتي.

وتصور إسرائيل لمستقبل المنطقة لا يختلف كثيراً عن ذلك، فالمركز هو إسرائيل وهي التي تمسك بكل الخيوط أما بقية المنطقة فهي مساحات وأسواق، وإسقاط عقد التاريخ هنا يعني إسقاط الهوية التاريخية والثقافية بحيث يتحول العرب إلى كائنات اقتصادية تحركها الدوافع الاقتصادية التي ليس لها هوية أو خصوصية، وهنا تظهر سنغافورة كصورة أساسية للمنطقة وكمثل أعلى: بلد ليس له هوية واضحة ولا تاريخ واضح، نشاطه الأساسي هو نشاط اقتصادي محض، وحينما يتحول العالم العربي إلى سنغافورات مفتتة متصارعة تكون الإستراتيجية الاستعمارية والصهيونية للسلام قد تحققت دون مواجهة ومن خلال «التفاوض» المستمر.

إن السلام الذي تنادي به إسرائيل ليس سلاماً شاملاً دائماً وإنما هو سلام مؤقت لأنه مبني على الظلم، فهو لا يحاول تحقيق العدل من خلال إعادة صياغة بنية العلاقات وإنما هو مجرد ترجمة لموازين القوى القائمة في أرض المعركة، ولذا فإن أحد الطرفين يقبله إذعاناً وليس اقتناعاً ويظل يتحين الفرص لإعادة تعديل موازين القوى لصالحه، كما حدث في ألمانيا بعد الحرب العالمية الأولي بتوقيع معاهدة فرساي. وهذا السلام الأخير هو سلام مبني على الحرب، ولذا فهو في واقع الأمر حالة من اللاحرب واللاسلم قد يختلف عن

وقف إطلاق النار الذي عادة ما يستند إلى اتفاقية مؤقتة تتيح للأطراف المتحاربة فرصة لالتقاط الأنفاس ولإنجاز أمور إنسانية، أساسية مثل قضاء عيد أو السماح بمرور معدات طبية أو مرور بعض الأطفال، ولكنها لا تختلف كثيراً عن الهدنة التي تستند إلى اتفاقية لا ترقى إلى مستوى حالة السلام، فهي فترة يرى فيها الطرفان (أو أحدهما) أن بالإمكان الإبقاء على حالة الحرب إلى أن تسنح فرصة لتحقيق انتصار عسكري، والسلام الشامل الدائم في الشرق الأوسط لابد أن يتسم بنفس السمات، ولذا فلابد وأن يتوجه لكل من المسألة الإسرائيلية والمسألة الفلسطينية ويجد حلولا لهما.

ونحن نذهب إلى أن مثل هذه الحلول غير ممكنة داخل الإطار الصهيوني الاستيطاني/ الإحلالي، فهو إطار يولد الصراع بطبيعته لأنه ينكر حقوق الفلسطينيين الذين طردوا من بلادهم ويؤكد حق يهود العالم في الأرض الفلسطينية، والحل الوحيد الممكن يقع خارج هذا الإطار حين يقوم أعضاء التجمع الاستيطاني الصهيوني بنزع الصبغة الصهيونية الاستيطانية/ الإحلالية عن الدولة الصهيونية.

وحل المسألة الإسرائيلية يمكن أن يأخذ شكلين متناقضين. ففي حالة ممالك الفرنجة (الممالك الصليبية في المصطلح الغربي) في فلسطين وحولها تم تصفية هذه الممالك بالقوة العسكرية ورحل أهلها إلى بلادهم بعد أن مكثوا حوالي قرنين من الزمان. ولكن هناك أيضاً الحل السلمي، ففي الجزائر بعد ثورة المليون شهيد ظهرت حكومة قومية من سكان البلد الأصليين وأعطت المستوطنين الفرنسيين حق البقاء والمواطنة والإسهام في بناء الوطن الجديد، ولكنهم آثروا العودة إلى بلدهم الأصلي أي فرنسا، وهناك كذلك الحل الذي تطرحه جنوب أفريقيا إذ تم تصفية الجيب الاستيطاني العنصري دون تصفية جسدية للعناصر البيضاء ذات الأصول الغربية التي كانت تهيمن على النظام القديم وتحافظ على بنية الاستغلال العنصرية وتستفيد منها، ثم عرض على أعضاء هذه الكتلة البشرية البيضاء أن يندمجوا في النظام العادل الجديد المبني على المساواة بين الأجناس وأن يتعاونوا معه حتى يمكن الاستفادة منهم ومن خبراتهم، وهذا ما فعله معظمهم، وليس هناك ما يمنع من تطبيق نموذج جنوب أفريقيا في الانتقال السلمي من حالة الحرب والظلم إلى حالة السلم والعدل في فلسطين المحتلة، فهو حل لا يستبعد أحداً ويعطي كل ذي حق حقه، وقرارات هيئة الأمم المتحدة المختلفة (الخاصة بحق الفلسطينيين في العودة إلى وطنهم ورفض ضم الأراضي بالقوة) تصلح كإطار دولي قانوني أخلاقي لحل المشكلة، وهو إطار تقبل به الجماعة الدولية والمعايير الأخلاقية الإنسانية.

إن تحقيق السلام في فلسطين ليس مسألة مستحيلة، ولكنه لا يمكن أن يتم داخل الإطار العنصري الصهيوني. وإذا كانت الجماعة الدولية تريد حقاً السلام فعليها أن تطلب من الدولة الصهيونية اتخاذ خطوات محددة مثل قبول قرارات هيئة الأمم المتحدة بما في ذلك حق العودة للفلسطينيين ومثل إلغاء قانون العودة الصهيوني وكل المؤسسات الصهيونية الأخرى مثل الصندوق القومي اليهودي، والانسحاب من الضفة الغربية وغزة، وبعد ذلك يمكن لأطراف الصراع أن تجتمع لمناقشة المشاكل الإجرائية الناجمة عن الوضع الجديد. ولكن المفاوضات هنا لن تكون بخصوص المنطلقات والحقوق غير القابلة للتنازل، وإنما ستكون بخصوص الإجراءات وحسب.

٥- نزع الصبغة الصهيونية عن الدولة الصهيونية:

هذا المصطلح ليس جزءاً من الخطاب الصهيوني، فالصهاينة يتهمون العرب دائما بأنهم يخططون لارتكاب هولوكوست (محرقة) ضد الإسرائيليين وتحطيم دولة إسرائيل، مع أن ما يطلبه العرب هو إقامة العدل وتنفيذ قرارات الأمم المتحدة، وهو أمر لا يمكن إنجازه إلا من خلال «نزع الصبغة الصهيونية عن الدولة الصهيونية» (بالإنجليزية: دي زايونيناز dezi-onize) وينطلق هذا المصطلح من إدراك أن الصراع القائم في الشرق الأوسط الآن ليس نتاج كره عميق وأزلي بين العرب واليهود أو بين اليهود والأغيار، وأنه ليس نتيجة العقد التاريخية والنفسية (كما يدَّعي الصهاينة)، وإنما هو وضع بنيوي يولد الصراع ونشأ عن تطور تاريخي وسياسي وبشري محدد ومادام هذا الوضع قائماً فسيظل الصراع قائماً، وأنه لا سبيل لإنهاء الصراع إلا من خلال فك بنية الصراع ذاتها.

ولا يمكن توقع أي سلام في إطار بنية القمع والظلم والعدوان هذه، أي في إطار الدولة الوظيفية الصهيونية الاستيطانية، بينما يمكن أن نتحرك نحو قدر معقول من السلام من خلال نزع الصبغة الصهيونية الاستيطانية عنها، ونزع الصبغة سيؤدي بلا شك إلى فك الجيب الاستيطاني الصهيوني. ومثل هذا الأمر ليس مخيفاً أو فريداً، فجميع الجيوب الاستيطانية الأخرى بلا استثناء قد تم فكها وانتهت الظاهرة الاستيطانية البغيضة إما برحيل المستوطنين الغزاة الوافدين أو استيعابهم (هم وأبنائهم) في السكان من أصحاب الأرض الأصليين، ونزع الصبغة الصهيونية الذي نقترحه لا يعني إبادة الإسرائيليين أو هدم دولتهم أو القضاء على هويتهم الإسرائيلية أو اليهودية (كما يحلو

للبعض أن يصور الأمر)، وإنما يعني خلق الإطار القانوني والسياسي والأخلاقي الذي يزيل أسباب التوتر والصدام.

ولعل جوهر نزع الصبغة الصهيونية هو فصل المسألة الإسرائيلية عن المسألة اليهودية بحيث يرى الإسرائيليون أنفسهم باعتبارهم جزءا لا يتجزأ من المنطقة (وليس كما يقول أبا إيبان في المنطقة ولكن ليسوا منها).

٦ـ حق العودة الفلسطيني:

عودة الفلسطينيين هي جزء لا يتجزأ من عملية نزع الصيغة الصهيونية عن الدولة الصهيونية الاستيطانية، وحق العودة هو حق أساسي من حقوق الإنسان وفي الميثاق العالمي لتلك الحقوق مادة تنص على حق كل مواطن في العيش في بلاده أو تركها أو العودة إليها، وهو مرتبط بحق الملكية والانتفاع بها والعيش في الأرض المملوكة، وحق الملكية لا يزول بالاحتلال، وهو مرتبط أيضاً بحق تقرير المصير الذي اعترفت به الأمم المتحدة كمبدأ منذ عام ١٩٤٦.

لقد اعتبر السماح بعودة اللاجئين أحد الشروط التي وضعت لقبول إسرائيل عضواً بالأمم المتحدة عام ١٩٤٨، وثمة قرار صريح وشهير أصدرته الجمعية العامة تحت رقم ١٩٤ لسنة ١٩٤٨، قررت فيه أن اللاجئين الراغبين في العودة إلى أوطانهم والعيش بسلام مع جيرانهم يجب أن يسمح لهم بذلك في أول فرصة عملية ممكنة، وأنه يجب التعويض عن ممتلكات الذين لا يرغبون في العودة ودفع تعويض عن الخسائر والأضرار التي أصابت الممتلكات لإصلاحها وإرجاعها من قبل الحكومات والسلطات المسئولة بناءً على القانون الدولي والعدالة.

إن مقولة نسيان الماضي والتطلع إلى المستقبل تزدري العقل الإنساني وتهينه لأننا لا نعرف إنساناً يمكن أن ينسي وطنه لمجرد أن هناك من يدعوه إلى شطبه من ذاكرته، ويبلغ ذلك الإزدراء ذروته خصوصاً إذا صدرت الدعوة من الطرف الإسرائيلي الذي يستمد كل شرعيته من الماضي ويعتبر قادته أن التوراة كتاب لتسجيل المدن ورسم الخرائط على حد تعبير إسحق رابين.

أما حكاية أن الفلسطينيين لم يعودوا راغبين في العودة فهي مسألة لا ينبغي أن يفترضها أو يفرضها أحد على أحد وإنما يقررها كل فلسطيني بنفسه، ثم إنها أكذوبة أخرى تعمد

إلى التزييف والتضليل، وساكنو المخيمات منذ الأربعينيات شاهد عملي على ذلك. فالذين طردوا وشردوا في عام ١٩٤٨ كانوا آنذاك ٨٠٥ آلاف شخص، أما عددهم الآن تجاوز أربعة ملايين و٦٠٠ ألف شخص، كل من امتلك منهم شيئاً في فلسطين لا يزال يحتفظ بأوراقه الثبوتية حتى هذه اللحظة، ومنهم من لا يزال يحتفظ بمفاتيح داره وخزائن ثيابه ويعتبرها مقدسات محرزة في مكان أمين بحسبانها حبلاً سرياً يصلهم بالوطن المنهوب.

وعادةً ما يقول الصهاينة إن عودة الفلسطينيين تعني أن الدولة الصهيونية ستفقد طابعها اليهودي، وهم محقون في ذلك تماماً. ولكن الرد على ذلك أن الدولة التي تُبنى هويتها على التمييز العنصري لا تستحق البقاء، فالدولة اليهودية هي دولة حصرية استبعادية تسقط الحق المتعين للإنسان الفلسطيني للعودة إلى أرضه ومنزله اللذين تركهما منذ عدة سنوات تحت الضغط والتهديد وبالقوة، تسقط هذا الحق وتتحدث عن الحق المجرد لليهودي للعودة بعد أن ترك فلسطين منذ آلاف السنين. وهي تسقط حق العودة بالنسبة للفلسطينيين الذين يقرعون بوابات وطنهم يودون العودة إليه، وتؤكده بالنسبة ليهود العالم الذين يرفضون العودة، حتى أنه تم السماح لمئات الأسر من اليهود السوفييت المشكوك في يهوديتهم ويهود الفلاشاه الذين لا تربطهم رابطة دينية باليهودية الحاخامية بالاستيطان في فلسطين المحتلة. بل إن بعض الحاخامات اليهود، سعوا إلى زيادة عدد المستوطنين في الضفة الغربية، قاموا بتهويد بعض الهنود الحمر في بيرو، وبالتالي أصبح لهم حق العودة إلى أرض أجدادهم ثم قاموا بتوطينهم هناك.

الفصل الثاني عشر
آلة المصطلحات الصهيونية لا تكف عن الدوران

يدرك الصهاينة تماماً أهمية المصطلح وعن أهمية تسمية الأشياء وإشاعة مصطلحاتهم وتسمياتهم من خلال الإعلام الغربي الذي يساند المشروع الصهيوني ويشاركه تحيزاته. ولذا نجد أن آلة المصطلحات الصهيونية لا تكف عن الدوران وعن إنتاج عدد كبير من المصطلحات، لتغطية كل ما يستجد من متغيرات ومواقف. كما أن أزمة الأيديولوجية الصهيونية واحتدام أزمة التجمع الصهيوني أدت إلى تصعيد عملية توليد المصطلحات. ولذا لابد من أن نخضع مثل هذه المصطلحات لعملية تفكيك وإعادة تركيب حتى نعري المفاهيم الكامنة خلفها.

الإرهاب والمصطلحات المتفرعة عنه

١ـ الإرهاب:

استخدم الصهاينة وأصدقاؤهم في الولايات المتحدة مصطلح «الإرهاب» الذي يصور المقاومة باعتبارها مجرد إرهاب مجنون نتيجة شر متأصل في النفس العربية وكره مفطور فيها ليس له أساس قانوني أو أخلاقي، وهذا الشر والكره موجهان ضد اليهود الذين يودون أن يعيشوا في أمان وسلام. بل يتمادى الصهاينة بالقول إن الإرهاب العربي ضد المستوطنين الصهاينة إنما هو استمرار لظاهرة معاداة اليهود واليهودية («معاداة السامية» في المصطلح الغربي)، وامتداد لكره الأغيار لليهود عبر التاريخ.

ومصطلح «الإرهاب» هو إفراز للتصور الصهيوني والأمريكي الذي يرى أن الوجود الصهيوني في فلسطين ليس احتلالاً وإنما هو وجود شرعي لابد للعرب من قبوله إن كانوا عقلانيين، أما إن قاوموه فهم يقومون بعمل إرهابي غير عقلاني غير مشروع. وبطبيعة

الحال لا يقول الصهاينة أو الأمريكيون إن شرعية الوجود الإسرائيلي في فلسطين نابعة من القوة العسكرية وحسب.

وللرد على هذه الترهات لابد من التأكيد على أن الفعل الفلسطيني هو فعل مقاومة، فالظاهرة الصهيونية ليست ظاهرة يهودية وإنما ظاهرة استعمارية إحلالية، ومقاومة العرب لها لا تختلف عن مقاومة الشعوب المقهورة للمستوطنين الغزاة. وتتسم الرؤية الصهيونية الاستيطانية والرؤى الاستيطانية على وجه العموم بأنها تحاول أن تنكر تاريخ الأرض التي احتلها المستوطنون، ففلسطين - حسب تصورهم - هي أرض بلا شعب.

ولكن هذه الرؤية العنصرية أحياناً ما تتساقط في لحظات صدق نادرة تتجاوز الاعتذاريات الصهيونية البلهاء، وفي مثل هذه اللحظات يدرك الصهاينة أن الأرض مأهولة وأنهم اغتصبوها من أهلها وأنهم سيشتبكون معهم. ففي خطاب له في يوليه ١٩٣٦ أمام اللجنة السياسية لحزب الماباي، عرف موشيه شاريت الثورة العربية بأنها ثورة الجماهير التي تمليها المصالح القومية الحقة، ثم أضاف «أن الفلسطينيين يشعرون أنهم جزء من الأمة العربية التي تضم العراق والحجاز واليمن، ففلسطين بالنسبة لهم هي وحدة مستقلة لها وجه عربي وهذا الوجه آخذ في التغير. فحيفا من وجهة نظرهم كانت بلدة عربية وها هي ذي قد أضحت يهودية». ورد الفعل الفلسطيني - كما أكد شاريت - لا يمكن أن يكون سوى المقاومة. وفي ٢٨ سبتمبر من العام نفسه كان شاريت قاطعاً في تشخيصه للحركة العربية على أنها ثورة ومقاومة قومية وأن القيادة الجديدة تختلف عن القيادات القديمة. كما لاحظ وجود عناصر جديدة في حركة المقاومة: اشتراك المسيحيين العرب بل والنساء المسيحيات في حركة المقاومة، كما لاحظ تعاطف المثقفين العرب مع هذه الحركة، وبين أن من أهم دوافع الثورة الرغبة في إنقاذ الطابع العربي الفلسطيني وليس مجرد معارضة اليهود.

وقد توصل بن جوريون لنفس النتائج وبطريقة أكثر تبلوراً عام ١٩٣٨ حين قال: «نحن هنا لا نجابه إرهاباً وإنما نجابه حرباً، وهي حرب قومية أعلنها العرب علينا وما الإرهاب سوى إحدى وسائل الحرب لما يعتبرونه اغتصاباً لوطنهم من قبَل اليهود - ولهذا يحاربون. ووراء الإرهابيين توجد حركة قد تكون بدائية ولكنها ليست خالية من المثالية والتضحية بالذات. يجب ألا نبني الآمال على أن العصابات الإرهابية سينال منها التعب، لأنه إذا ما نال من أحدهم التعب سيحل آخرون محله، فالشعب

الذي يحارب ضد اغتصاب أرضه لن ينال منه التعب سريعاً . . . وحينما نقول إن العرب هم البادئون بالعدوان وندافع عن أنفسنا، فإننا نذكر نصف الحقيقة وحسب. ومن الناحية السياسية نحن البادئون بالعدوان وهم المدافعون عن أنفسهم، إن الأرض أرضهم لأنهم قاطنون فيها بينما نحن نريد أن نأتي ونستوطن فيها ونأخذها منهم حسب تصورهم».

٢ـ الحكم الذاتي:

يحاول الصهاينة ألا يفقدوا المعركة الإعلامية وبالتالي فإنهم يتحدثون عن «الحكم الذاتي»، ولكنهم يضفون على المصطلح مضموناً صهيونياً محدداً ينبع من رؤيتهم للعرب. وثمة اختلاف بين الصهاينة بخصوص مفهوم «الحكم الذاتي»، فهناك «المعتدلون» من أعضاء حركة السلام وما يسمى اليسار الصهيوني الذين يطالبون بالانسحاب من الضفة الغربية وفك المستوطنات، وهناك «المتطرفون» من أعضاء ما يسمَّى «اليمين الإسرائيلي» الذين يطالبون بالاحتفاظ بكل الأرض التي ضمتها إسرائيل عام ١٩٦٧، وهناك من يقفون في الوسط الذين يطالبون بالانسحاب من بعض الأراضي الفلسطينية وفك بعض المستوطنات الصغيرة والاحتفاظ بالمستوطنات الكبيرة.

لكن رغم كل هذه الاختلافات يجب ملاحظة عناصر الوحدة بينهم، والتي تتبدى فيما يلي:

١ ـ يلاحظ أن جميع الصيغ الصهيونية المتطرف منها والمعتدل، اليميني منها واليساري، لا تتوجه البتة لقضية الفلسطينيين الذين طردوا عام ١٩٤٨ ووطنوا في سوريا ولبنان والأردن ومصر وأنحاء أخرى متفرقة من أنحاء العالم العربي. ولا تذكر هذه الصيغ قضية الفلسطينيين الذين يطالبون بحقوقهم في حيفا ويافا وعكا وكل بقعة في أرض فلسطين المحتلة والذين صدرت قرارات من الأمم المتحدة لتأكيد حقهم في العودة إلى ديارهم أو في التعويض لمن لا يريد منهم العودة.

٢ ـ لا يتحدث الصهاينة البتة عن الأراضي خلف الخط الأخضر، أي فلسطين التي احتُلت عام ١٩٤٨، التي خصصها قرار التقسيم للفلسطينيين مثل الجليل وغيرها من المناطق. وهكذا حوَّل الخطاب الصهيوني الخط الأخضر إلى مطلق صهيوني جديد لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وعلينا قبوله والخضوع له.

٣ ـ يلاحظ أن كل الحلول مبنية على فكرة القسر والخضوع وأن أحد الأطراف سيضطر الطرف الآخر للتسليم بوجهة نظره، فالصهاينة يرون أن رؤيتهم للتاريخ هي الرؤية الوحيدة السليمة التي لا يمكن التراجع عنها على مستوي العقيدة حتى لو تم التراجع عنها على مستوى الإجراءات البرجماتية. وقد لخص ذلك الموقف أهارون ياريف بقوله إن الصهيونية، حركة التحرر الوطني للشعب اليهودي، اصطدمت بالحركة القومية العربية عامة والحركة القومية الفلسطينية خاصة. ولكنه يضيف على الفور إن أقواله هذه لا تنطوي على تنازل أو استعداد للتنازل عما يعتبره حق اليهود التاريخي في إرتس يسرائيل وفي علاقتهم التاريخية بها.

وهذا الموقف المبدئي السائد في صفوف جميع الصهاينة يخلق استعداداً كامناً دائماً لدى كل الصهاينة، مهما كان موقعهم على خريطة المتصل الإدراكي السياسي، لأن ينزلقوا دائما نحو تغييب العرب وإنكار حقهم في إنشاء دولة حقيقية خاصة بهم إن سنحت الظروف، كما أنه يضفي صفة الشرعية على موقف دعاة إسرائيل الكبرى. فالأصل في الموقف الصهيوني هو ابتلاع كل الأرض وتغييب كل العرب، والاستثناء هو المرونة والاستعداد للتفاوض بشأن الأرض خارج الخط الأخضر وبشأن الفلسطينيين خارجه.

في هذا الإطار ظهر مفهوم الحكم الذاتي الذي يرى أن الحقوق اليهودية في فلسطين مطلقة أما الحقوق الفلسطينية فليست أصيلة، فالأرض ملك للشعب اليهودي وتصادف وجود شعب فيها، ولذا فإن أية حقوق تمنح للفلسطينيين هي من قبيل التسامح الصهيوني أو التكيف البرجماتي مع أمر واقع. وتعبيراً عن هذا الموقف الصهيوني المبدئي تقرر فصل الشعب الفلسطيني العرضي الزائل عن الأرض الصهيونية، فالحكم الذاتي هو تعامل مع ناس وليس مع أرض، وهو منح بعض السكان الذين تصادف وجودهم فيها بعض الحقوق دون أن يكون لهم على هذه الأرض ظل من السيادة. من ثم فالسلطة الفلسطينية يجب ألا يكون لها سلطة على المجال الجوي أو موارد المياه في الأراضي وليس من حقها تشكيل جيش فلسطيني، والفلسطينيون يجب أن يعيشوا في مدن وقرى أشبه بالمعازل في المناطق كثيفة السكان، على أن تظل إسرائيل هي وحدها المسئولة عن الأمن في كل المناطق وتحديد المعابر والشواطئ والطرق الرئيسية. فالحكم الذاتي يمنح الفلسطينيين درجة من الاستقلالية في إدارة بعض أوجه حياتهم، ولكن هذه الاستقلالية لا تمتد بأية حال إلى الأرض، إذ تبقى السلطة النهائية والمطلقة في أيدي الصهاينة.

ومع هذا لابد أن ندرك أن ثمة فروقاً قد لا تكون جوهرية ولكنها كبيرة بين رؤية حزب العمل والرؤية الليكودية للحكم الذاتي تنبع من تصورهم لوضع إسرائيل الدولي والمحلي ومقدرتها على قمع الفلسطينيين وتحقيق الأمن لنفسها. وهذه الفروق تعبر عن نفسها في البرامج السياسية لكلا الحزبين. ولكن من الملاحظ أيضاً أننا حينما ننتقل من عالم النظرية والبرامج إلى عالم الممارسة فإن نقاط الاتفاق والإجماع تؤكد نفسها على حساب نقاط الاختلاف.

٣ـ أعمال شغب وأعمال عنف:

بعد اندلاع انتفاضة ١٩٨٧، رفض المتحدثون الصهاينة في بداية الأمر استخدام كلمة «انتفاضة» وبدلاً من ذلك كانوا يتحدثون عن «أعمال شغب» و«أعمال عنف». والهدف من كل هذه المصطلحات هو إنكار أن ما يقوم به الفلسطينيون هو تعبير عن مقاومة شعب احتُلت أرضه، وأن الإسرائيليين هم قوة احتلال.

٤، ٥ـ وقف العنف وضبط النفس:

من المصطلحات الجديدة في الخطاب الصهيوني والأمريكي مصطلحاً «وقف العنف» و«ضبط النفس»، وهما عادةً ما يوجهان إلى كل من الفلسطينيين والمستوطنين الصهاينة، وكأن ما يجري على أرض فلسطين حرب بين جيشين متكافئين أو شبه متكافئين يحاربان بخصوص قطعة أرض متنازع عليها ولكل فريق حقوق متساوية فيها، وكأنه لا توجد قرارات أصدرتها الأمم المتحدة منذ عام ١٩٤٩ تعطي أحد الفريقين حقوقاً في أرضه. إن هذه المصطلحات تساوي بين من يحمل السلاح ويدافع عن أرضه وكرامته وإنسانيته من جهة، ومن جهة أخرى من يغتصب الأرض وينكل بأصحابها ويستخدم آخر ما توصلت إليه التكنولوجيا العسكرية.

و«وقف العنف» و«ضبط النفس» هما جزء من خط طويل من المصطلحات المتحيزة ضدنا، فنحن نرى أن وجود القوات الإسرائيلية في الضفة الغربية هو احتلال للأراضي الفلسطينية وتؤيدنا في ذلك قرارات الأمم المتحدة، ولكن إسرائيل والولايات المتحدة يستخدمون بدلاً من ذلك عبارة «أرض متنازع عليها disputed territory». وقد تحدثوا بعض الوقت عن «الأرض مقابل السلام»، وقد تطور هذا ليصبح «الأرض مقابل الأمن» و«الأمن مقابل الأمن» إلى أن تدهور الأمر تماماً وأصبحت المسألة «الأرض مقابل

الكلام». وكل هذه الشعارات تهدف إلى فرض المفاهيم الصهيونية الأمريكية في السلام، والتي تعني في واقع الأمر نسيان المرجعيات القانونية والدولية والأخلاقية والإنسانية العامة، والاستسلام للأمر الواقع الظالم، وقبول تقسيم دولة فلسطين إلى كانتونات، وبقاء المستوطنات، والرضوخ للمطالب الإسرائيلية في القدس الشرقية، وأخيراً التنازل عن الحق الفلسطيني التاريخي في عودة اللاجئين الفلسطينيين.

٦ـ عملية السلام:

مصطلح يفترض أن المفاوضات التي تجري بين الفلسطينيين والمستوطنين الصهاينة هي عملية تتم خارج كل الأطر والمرجعيات وأنها مجرد إجراءات، وأن الإجراءات في حد ذاتها ستولِّد حلولاً! ولكن الإجراءات إن لم تتم داخل إطار واضح من المفاهيم المشتركة، وانطلاقاً من مرجعيات واضحة تم قبولها من الطرفين، فإنها ستظل إجراءات وحسب لا نهاية لها. وهذا ما يحدث بالفعل على أرض الواقع، وقد صرح شامير حين قبل دخول مباحثات مدريد أنه يمكن للمفاوضات أن تستمر عشر سنين.

٧ـ غرس الكره:

يحاول الخطاب الغربي والصهيوني أن يصور الصراع العربي الصهيوني على أنه مسألة نفسية، وأن سببه الحقيقي هو كره العرب لليهود، أي أن مصدر الصراع مسألة ذاتية ليس لها أساس في الواقع، وأن ما تفعله قيادات المقاومة الفلسطينية هو غرس الكره في نفوس الجماهير، وكأن وطن الفلسطينيين لم يُسلب، وكأن إسرائيل لم تقم بالتوسع على حساب الدول العربية ولم تُغرس غرساً في وسط المنطقة العربية من خلال السلاح الغربي ولم تقسم الوطن العربي إلى قسمين. فإن كان هناك «كره»، فإنه ليس حالة نفسية وإنما له أساس موضوعي. وما تفعله قيادات المقاومة هو إذكاء روح المقاومة في الجماهير وليس غرس الكره في نفوسها.

٨ـ لماذا يكرهنا العرب:

هذه العبارة هي مجرد تنويع على العبارة السابقة «غرس الكره»، وقد ترددت كثيراً في الخطاب الأمريكي بعد أحداث ١١ سبتمبر ٢٠٠١.

٩- الحاجز النفسي:

تنويع آخر على العبارتين السابقتين، فهذه العبارة تعني أن الصراع العربي الإسرائيلي مسألة نفسية، وأن العرب واليهود لا يحتاجون للصراع فهم في حاجة إلى محلل نفسي يشرح لهم الحاجز النفسي الذي يفصل بين الفريقين، وهذا الحاجز يمكن إزالته إن صفت النفوس وخلصت النوايا ونسي الفريقان الماضي وبدءوا صفحة جديدة، وبالتالي يمكن حل الصراع العربي الإسرائيلي بشكل سلمي، وكأن مخيمات اللاجئين والمذابح الصهيونية كلها مشاكل نفسية لا أكثر ولا أقل!

١٠- الانتحاريون:

«المنتحر» إنسان سقط في اليأس والقنوط، ووصل إلى مرحلة لا يمكنه معها أن يفعل شيئاً بخصوص الظروف المحيطة به ولا يجد مخرجاً إلا بأن يفجر نفسه، فالانتحار تعبير عن العدمية، وعن الكفر بكل القيم وكل الإمكانات. وهذا ينطبق تماماً على الجنود الإسرائيليين الذين انتحروا في جنوب لبنان بعد أن تصاعدت عمليات حزب الله ضدهم، ولم تجد النخبة العسكرية وسيلة للرد المناسب على هذه العمليات، وانتهى الأمر بالانسحاب. فما بين فترة التصعيد والانسحاب أدرك الجنود الإسرائيليون أنه لا مخرج من وضعهم وأن موتهم لا معنى له، ففجروا أنفسهم بدلاً من أن يفجرهم استشهاديو حزب الله.

وقد أصبح العالم الغربي، مع تصاعد معدلات العلمنة والتوجه نحو اللذة، غير قادر على إدراك نبل الاستشهاد، فيراه تعبيراً عن رغبة في إنهاء الذات نتيجة لعُقد نفسية، بل ووصفته إحدى الصحف الأمريكية بأنه «عبادة الموت Cult of death». ولكن الاستشهاد هو عكس ذلك تماماً، فالشهيد إنسان ممتلئ بالإيمان بالله وبالأمل وبالمقدرة على التصدي للعدو وإنهاء الظلم وتغيير الواقع، وهو يموت ليتحول شاهداً على أن الإنسان لا يمكن أن يقبل الظلم. فالاستشهاد هو تعبير عن امتلاء إنساني وعن أنبل الدوافع الإنسانية، أي استعداد الإنسان للتضحية بنفسه من أجل القيم التي يؤمن بها. وفي حالة الاستشهادي الفلسطيني فهو يضحي بنفسه من أجل تحرير الوطن وإقامة العدل في الأرض، خاصةً في مواجهة عدو شرس مزود بأحدث الأسلحة الأمريكية الفتاكة. وقال أحد الصحفيين الأمريكيين إن كل فريق يستخدم نظام التوصيل delivery system المتاح له، وإذا كانت إسرائيل تملك طائرات الأباتشي والـ F16، فإن الفلسطيني لا يملك إلا جسده. ولا شك

في أن هؤلاء الاستشهاديين لن يفجروا أنفسهم إن حصل الشعب الفلسطيني على حقوقه كاملة ، فالاستشهاد ليس هواية ، وإنما فريضة .

١١ - المتشددون:

هذا المصطلح مثل مصطلح «الإرهابيون» ينطلق من افتراض أن إسرائيل في حالة دفاع مشروع عن النفس وأن الفلسطينيين لا يحق لهم أن يحاربوا ضد الجيب الاستيطاني الصهيوني . والمتشددون انطلاقاً من هذا التصور هم العرب الذين يتمسكون بحقوقهم التي أقرتها المواثيق الدولية والأعراف الإنسانية والأخلاقية ويقاومون من اغتصبها .

الأرض والاستيطان

١ - إرتس يسرائيل:

مصطلح يستخدمه الصهاينة للإشارة إلى فلسطين المحتلة ويصرون على استخدامه ، وهو ترجمة دينية/ إثنية لتصور أن فلسطين مجرد أرض بلا شعب . وقد أكد مناحم بيجين في خطاب لأعضاء أحد الكيبوتسات أنهم لو اعتبروا إرتس يسرائيل فلسطين لأصبحوا بذلك غزاة ولصوص ، ولذا عليهم أن يصروا على أنها إرتس يسرائيل وليست فلسطين . وتغيير اسم البلد الذي يغزوه الإنسان الأبيض نمط متكرر ، فزيمبابوي أصبحت روديسيا ، وفلسطين التي احتلت بعد عام ١٩٦٧ ، أي الضفة الغربية ، أصبحت يهودا والسامرة .

٢ - يهودا والسامرة:

يحاول الصهاينة دائماً محو فلسطين من على الخرائط ومن الذاكرة ، ولذا فهم يشيرون لها بالمصطلح التوراتي «إرتس يسرائيل» . و«يهودا والسامرة» هي تعبير عن نفس الاتجاه ، فبدلاً من الإشارة إلى الضفة الغربية التي تستدعي للذاكرة الوجود العربي يستخدم الصهاينة كلمة «يهودا» للإشارة إلى جنوب الضفة و«السامرة» (أو شومرون) للإشارة إلى شمالها .

٣ - الأرض والمنطقة:

يشير الصهاينة إلى فلسطين المحتلة باعتبارها الأرض وهي صيغة معلمنة لإرتس يسرائيل ، ومصطلح «الأرض» يبدو كما لو كان مصطلحاً محايداً ولكنه في الواقع

مصطلح إبادي بمعنى أنه ينكر الوجود الفلسطيني، فهو مصطلح أكبر دهاء من مصطلح «أرض بلا شعب» وهو تعبير عن «أرض بلا شعب» وفكرة «العربي الغائب».

٤ـ التوسعية الصهيونية:

حينما يستخدم هذا المصطلح يجب أن نسأل: هل التوسعية الصهيونية أمر عرضي يمكن أن يوقف بضغط من الولايات المتحدة، أم أنه سمة جوهرية بنيوية؟ ونحن نذهب إلى أنه سمة بنيوية للأسباب التالية:

(أ) نبتت الصهيونية في تربة إمبريالية غربية ترى أن العالم إن هو إلا مادة يغزوها الإنسان ويوظفها لصالحه. وعملية الغزو هذه عملية تستمر إلى ما لا نهاية، ذلك أن عقيدة التقدم وأن أهم مؤشر على التقدم هو الاستهلاك علّمت الإنسان الغربي أن التقدم لا نهائي وأن المادة التي سيقوم بغزوها ثم استهلاكها هي الأخرى لا متناهية.

(ب) طرحت الصهيونية نفسها على أنها ستقيم دولة الشعب اليهودي بأسره، وهو ما يعني أن عملية نَقْل السكان التي تنطوي عليها الصيغة الصهيونية الأساسية الشاملة يمكن أن تستمر إلى أن يتم نقل كل يهود العالم، كما يعني الشره المستمر للأراضي.

(جـ) أحد عناصر الثالوث الحلولي الصهيوني هو الأرض، بل إن بعض الاتجاهات الصهيونية تعطيه أولوية على كل العناصر الأخرى، ولكن حدود هذه الأرض غير معروفة المعالم على الإطلاق ولم يتم الاتفاق بشأنها.

(د) الأرض هي المصدر الأساسي لتدفُّق فائض القيمة على الكيان الاستيطاني (وبخاصة قبل عام ١٩٤٨)، وهي القاعدة التي سيؤسَّس عليها الجيب الاستيطاني، وكلما اتسعت هذه القاعدة ازداد تدفُّق فائض القيمة وازداد الجيب الصهيوني قوة.

٥ـ من النيل إلى الفرات:

هذه عبارة خلافية، مضمونها مختلط مثل كثير من المصطلحات الصهيونية! وقد وردت العبارة في التوراة لتحديد حدود إرتس يسرائيل. ولكن هناك عدة خرائط توراتية لإرتس يسرائيل. وقد ذاعت عبارة «من النيل إلى الفرات» بسبب توسعية المشروع الصهيوني. ويقال إن هذه العبارة مكتوبة على الكنيست، وإن كانت الحكومة الإسرائيلية

تنفي ذلك. ولكن هذا لا يهم البتة، فقد حدد هرتزل منطقة الدولة اليهودية على أنها تمتد من نهر مصر إلى الفرات. وقد ردد الحاخام فيشمان (عضو الوكالة اليهودية) هذا الشعار في ٩ يوليه ١٩٤٧، أثناء شهادته أمام لجنة التحقيق الخاصة التابعة للأمم المتحدة، فقال: الأرض الموعودة تمتد من نهر النيل حتى الفرات، وتشمل أجزاء من سوريا ولبنان. وهذا يوضح أن شعار «من النيل إلى الفرات» ليس مجرد فرية عربية وليس نتاج العقلية التآمرية، وإنما هو جزء من التصور الصهيوني.

وينبغي على الدارس ألا يأخذ صيغة «من الفرات إلى النيل» هذه بجدية تامة، فهي لا تعدو أن تكون أحد الأحلام الصهيونية، ومع ذلك، فعليه ألا يهمل أوهام العدو عن نفسه كلياً، فهي تعطينا مؤشرات عن نيته وعن تصوره لحدود حركته. وعلى كلٍّ، فإن ما يهمنا في السياق الحالي ليس الحدود الجغرافية أو التاريخية الوهمية للدولة الصهيونية وإنما الذهنية الصهيونية التوسعية نفسها. وقد يكون من الأفضل أن نأخذ بعين الاعتبار الكلمات التي سجلها هرتزل في يومياته حين قال: «كلما زاد عدد المهاجرين اتسعت رقعة الأرض، أي أنه لم يُعرِّف حدود الأرض»، بشكل قاطع، وإنما آثر أن يحتفظ بحدود مطاطية تتغير بتغير القوة الذاتية الصهيونية، التي عرَّفها هو بتزايد عدد المهاجرين. ورؤية هرتزل هي الرؤية التي تبناها الصهاينة بعد ذلك.

ولا يختلف ذلك عن رؤية رعنان فايتس رئيس قسم الاستيطان في الوكالة اليهودية، إذ يقول: «إن مخططي الاستيطان الصهيوني عملوا على أساس أن حدود المستقبل للدولة اليهودية يجب أن تعيَّن من خلال أنظمة من المستوطنات السكانية، تبدأ كنقاط استيطانية وتأخذ بالتوسع لأكبر مساحة من الأرض وجمع أكبر عدد من يهود العالم وتركيزهم في (إسرائيل) من خلال عملية انقلاب ديموجرافي يحل من خلالها اليهود محل المواطنين العرب». وهكذا يرتبط الاستيطان بالتوسع بالإحلال، ويرتبط كل هذا بالديباجات اليهودية. وهذه الرؤية هي التي تم تطبيقها في نهاية الأمر في فلسطين المحتلة قبل وبعد عام ١٩٤٨ وقبل وبعد عام ١٩٦٧، حيث تأخذ التوسعية الصهيونية في ظروف الكثافة السكانية العربية شكل الزحف من قبل المستوطنات المختلفة التي يتم تشييدها ويتم تسمينها وتوسيعها لتطويق العرب داخل معازل.

وقد قال ديفيد بن جوريون في المقدمة التي كتبها لتتصدر الكتاب السنوي لحكومة إسرائيل عام ١٩٥٢ إن «دولة إسرائيل قد قامت فوق جزء من أرض إسرائيل» وهو ما يؤكد

كون التوسع الصهيوني في طليعة الأهداف التي تجاهر بها إسرائيل، حيث كانت حدود «الوضع الراهن»، بعد التوقيع على اتفاقيات الهدنة، تبقى في نظر بن جوريون أشبه بالحدود الانتقالية أو المؤقتة، ما دامت حدود الدولة لم تأت مطابقة لحدود الأمة المنشودة. فالخريطة التي رسمتها الصهيونية لمملكتها الموعودة ما زالت أوسع بكثير من المساحات التي تم احتلالها والاستيلاء عليها بقوة السلاح. وينتقد بن جوريون افتراض وجود حدود تاريخية وطبيعية ثابتة للدولة، فالحدود تتغيّر وفق تغيُّر الظروف والمراحل الزمنية المختلفة، ولذا لابد من إعادة النظر في مصطلح «حدود طبيعية»، فهو يرى أن الظروف الطبيعية قد تجبر الدولة على إعادة النظر مرة أخرى في تعيين حدودها الطبيعية واستبدال حدود جديدة بها كلما دعت الضرورة. ومما يجدر ذكره أن الصهيونية عرفت تيارات مختلفة، ولكن قيادة المشروع الصهيوني تدور في إطار نوع من الإجماع الصهيوني الذي لا يختلف بشأن مبدأ التوسع نفسه وإنما بشأن وسيلته وشكله.

ويبدو أن القيادة الصهيونية، منطلقة من تصورات سياسية شبيهة، آثرت عدم إعلان دستور للدولة الصهيونية حتى يُترك المجال مفتوحاً أمام التوسع اللانهائي، ذلك لأن الدستور (الرسمي) يتطلب رسماً دقيقاً للحدود.

ويُقدِّم عضو الكنيست السابق الصحفي أوري أفنيري تفسيراً ذكياً لمفهوم التوسعية الصهيونية فيقول: إن قيام الدولة العبرانية في الماضي والدولة الصهيونية في الحاضر، لم يكن يستند إلى قوتهما الذاتية وإنما إلى ضعف الشعوب القاطنة في فلسطين (الكنعانيين في الماضي والعرب في الحاضر). ثم يذكر أفنيري أن ما يدفع الصهاينة ويقرر حركتهم ليس الدافع العقائدي (الآخذ في الضمور)، وشعارات مثل «من النيل إلى الفرات»، وإنما موازين القوى وحسب. ومن ثم، فإن العقيدة الصهيونية ليست سوى مسوِّغ يتلو «خلق الحقائق الجديدة». وبناء على ذلك يتنبأ بأن التوسع الصهيوني لن يتوقف ما دام هناك فراغ بسبب الغياب العربي، ويتنبأ بأن هذا التوسع سيستمر حتى يتخطى حدود إسرائيل الكبرى نفسها إذا سنحت الفرصة، أي أن القوة الذاتية الصهيونية (لا الأوهام العقائدية) هي التي تحدِّد مدى التوسعية الصهيونية.

وأفنيري محق تماماً فيما يقول، فبعد أن ضمت إسرائيل مناطق واسعة من الأراضي العربية عام ١٩٦٧، أصر بن جوريون على ضرورة أن تحتفظ إسرائيل بالأراضي التي ضمتها، ولكن بعد هزيمة ١٩٧٣ قال إن حدود إسرائيل تمتد حتى «نهير مصر» the brook

of Egypt، وأضاف أن هذا النهير يوجد في العريش، فالشراهة الصهيونية تتسع وتضيق حسب القوة الذاتية العسكرية الصهيونية!

وثمة خللٌ أساسي في التوسعية الصهيونية، فالقاعدة السكانية لا يمكن أن تتسع بنفس القدر الذي تتسع بها قاعدتها الجغرافية إن صح التعبير، ولذا فإن ضم الأراضي يعني أيضاً ضم عناصر عربية غير يهودية آخذة في التكاثر وفشلاً في خلق الكثافة السكانية اليهودية التي يتم التوسع باسمها، وهو ما يخلق «مشكلة سكانية» للكيان الصهيوني ويُشكِّل خطراً على الطابع اليهودي للدولة الصهيونية، أي أن الاستعمار الصهيوني يفقد إحلاليته ويتحول إلى استعمار مبني على التفرقة العرْقية (الأبارتهايد). ومعنى ذلك أنه ظهر تناقض عميق بين طابع الدولة الصهيونية الإحلالي وبين طابعها التوسعي.

٦ـ تحرير القدس وتوحيدها:

يستخدم الصهاينة هذا المصطلح انطلاقاً من مفهوم أن فلسطين هي إرتس يسرائيل وأرض الميعاد والوطن القومي اليهودي، ومن ثم يكون احتلال القدس هو «تحرير» لها، ويكون ضم القدس الشرقية هو «توحيدها».

٧ـ إعلان استقلال إسرائيل:

هذا المصطلح شأنه شأن المصطلح السابق ينطلق من التحيز الصهيوني القائل أن فلسطين هي إرتس يسرائيل، ومن ثم يكون العرب غزاة ومحتلين لهذه الأرض. وحينما يحضر اليهود من كل أنحاء العالم فإنهم يقومون «بتحريرها»، من هؤلاء الغزاة، ومن ثم يكون احتلالها هو إعلان استقلالها. وانطلاقاً من هذا المفهوم يمكن الادعاء أن الصهيونية هي حركة تحرير الشعب اليهودي.

٨ـ خلق الحقائق الجديدة - خلق حقائق على الأرض:

«خلق حقائق جديدة» – « خلق حقائق على الأرض» من العبارات المتواترة في الخطاب الصهيوني. وقد وردت العبارة في أقوال وايزمان وجابوتنسكي قبل عام ١٩٤٨ وموشيه ديان بعد حرب عام ١٩٦٧ . والعبارة تجسد مفهوماً أساسياً كامناً في الفكر الصهيوني والفكر الإمبريالي عامة، فهو فكر لا يؤمن بأية قيم أخلاقية ولا يحتكم إلى أية منظومات معرفية، وهو فكر دارويني صلب وبرجماتي مرن في ذات الوقت، فبرجماتيته هي مجرد

آلية، أي تحقيق الأهداف النهائية بالتدريج وليس دفعة واحدة، والهدف النهائي هو الاستيلاء على كامل أرض فلسطين عن طريق استخدام القوة.

وتتبدى خاصية المراوغة في الخطاب الصهيوني في عبارة «خلق حقائق جديدة». فالصهيونية عقيدة تؤدي أطروحتها الأساسية (أن فلسطين هي إرتس يسرائيل، وطن اليهود القومي) إلى طرد العرب والاستيلاء على أراضيهم وتأسيس دولة يهودية خالصة. ولكن لأسباب عملية عديدة لم يتمكن الصهاينة من الإعلان عن أهدافهم وأعلنوا أنهم ليست لديهم أية أطماع توسعية، بل وأنهم يرحبون بوجود العرب داخل الدولة الصهيونية، وكأن هذا أمر ممكن بالفعل. إلا إنهم كانوا يعلمون أنه حين تتغير موازين القوة وحين تحين اللحظة فبإمكانهم التحرك لتحقيق الأهداف الكامنة (طرد العرب - الاستيلاء على أراضيهم) فيغيرون الوضع القائم ويخلقون حقائق جديدة لدعم الوضع القائم الجديد المبني على العنف، ويتم تعديل الأهداف الصهيونية المعلنة بما يتفق مع الوضع الجديد.

وهذا ما فعله الصهاينة بالضفة الغربية بعد عام ١٩٦٧، فقبل ذلك التاريخ لم يكن هناك من يتحدث أحد عن ضم الضفة الغربية إلا المتطرفون والمجانين، إذ كان الهدف المعلن هو العيش في سلام مع العرب داخل حدود ١٩٤٨، ولكن بعد أن تم ضم الضفة الغربية قام الصهاينة بتكثيف الاستيطان لخلق حقائق جديدة حتى يواجهوا العالم الخارجي بأمر واقع جديد، وحينئذ يتم إعادة تعريف السلام، فيصبح الانسحاب من بعض أجزاء الضفة الغربية وحسب هو الحد الأقصى الممكن.

٩ـ توغل:

حينما يصدر بيان عسكري إسرائيلي يتحدث عن توغل القوات الإسرائيلية في مناطق السلطة الفلسطينية، وهو ما يعني في واقع الأمر إعادة احتلال هذه المناطق والهجوم على الممتلكات والبشر واغتيال بعض القيادات الفلسطينية.

١٠ـ صدام:

تقول الصحف الإسرائيلية إنه حدث صدام بين بعض الفلسطينيين (عادةً الإرهابيين) والقوات الإسرائيلية. وهو مصطلح يصور المسألة كما لو كان صداماً بين طرفين متعادلين

في القوة وليس صداماً بين شعب صاحب حق يقاوم من جهة، وقوة احتلال مغتصبة من جهة أخرى.

١١ـ دائرة العنف:

هذا المصطلح يحاول مرة أخرى أن يبين أن الصراع العربي الإسرائيلي صراع لا يمكن حسمه، فهي «دائرة» ما أن تنتهي حتى تبدأ مرة أخرى، وهي تدور لأسباب غير مفهومة، فليس هناك سبب أو نتيجة، ولأنها دائرة تدور بقوة الدفع الذاتي فلا يمكن أن تتوقف إلا بتدخل قوة خارجية. والصراع كما نراه نحن ليس دائرة عنف وإنما هو ظاهرة مفهومة لها سبب، وهو قيام الصهاينة باغتصاب الأرض الفلسطينية، والنتيجة هي أن أصحاب الأرض نظموا أنفسهم وقاوموا المحتل. وهي ليست دائرة تدور إلى ما لا نهاية، فمن معرفتنا بالتاريخ، عادةً ما تنتهي هذه المواجهة بانتصار المستضعفين، كما حدث في الجزائر وجنوب أفريقيا.

١٢ـ النمو الطبيعي:

يتحدث الصهاينة عن النمو الطبيعي للمستوطنات، بمعنى أن المستوطنات تنمو شأنها شأن أي كائن طبيعي، وعوامل نموها من داخلها وليس من خارجها. وهذه أكذوبة كبرى، فالمستوطنات بطبيعتها كيانات غير طبيعية غُرست في الضفة الغربية وغيرها من المناطق وتم استجلاب سكان لها إما من فلسطين المحتلة قبل عام ١٩٦٧ أو من خارج فلسطين. وحينما يتزايد عدد المستوطنين فهو نمو غير طبيعي، لأنه يتم بتمويل من الخارج ويتكاثر العدد نتيجة استيراد وغرس المزيد من المستوطنين. وهذا المصطلح محاولة أخرى لتطبيع المصطلح الصهيوني.

١٣ـ مستوطنات غير قانونية:

أي المستوطنات التي شُيدت بدون تصريح من الحكومة الصهيونية، رغم أنها شيدت تحت سمع وبصر القوات المسلحة الإسرائيلية وأحياناً بمساعدتها. وهذه العبارة قد تسقط الشرعية عن بعض المستوطنات الهامشية غير المهمة، ولكنها في الوقت نفسه تسبغ الشرعية على بقية المستوطنات. أما من منظور عربي، فإن كل المستوطنات بلا استثناء غير قانونية، بما في ذلك المستوطن الصهيوني نفسه.

١٤ـ الأحياء اليهودية:

مصطلح مراوغ يُستخدم للإشارة إلى المستوطنات في الضفة الغربية لإسباغ نوع من الشرعية عليها، وكأنها كانت قائمة منذ بداية التاريخ، وكأن الصراع بين المستوطنين والمقاومة الفلسطينية هو صراع بين «جيران». وهذا المصطلح، شأنه شأن كثير من المصطلحات مثل «وقف العنف» و«دائرة العنف» و«المدنيون الإسرائيليون»، يخلق نوعاً من الندية بين طرفي الصراع.

١٥ـ المدنيون الإسرائيليون:

مصطلح مراوغ للإشارة للمستوطنين الصهاينة، فالمدنيون الإسرائيليون يقطنون في الأحياء اليهودية! تماماً كما يقطن المدنيون العرب في الأحياء العربية. وتفترض هذه المصطلحات ضرورة اقتسام الضفة الغربية بين طرفي الصراع، حسبما تحدد موازين القوى. كما يحاول مصطلح «المدنيين» أن يسدل سحابة كثيفة على حقيقة المستوطنين الصهاينة باعتبارهم كتلة بشرية استوطنت في الضفة الغربية بالقوة العسكرية ورغم أن هذه الكتلة تضم أطفالاً ونساء وعجائز، فهي في النهاية قوة احتلال سكاني ذي طبيعة عسكرية. كل هذا يخفيه مصطلح «المدنيين الإسرائيليين»، فحين يهاجمهم أفراد المقاومة الفلسطينية فإنهم يتهمون بالهجوم على المدنيين الأبرياء!

١٦ـ إعادة نشر القوات:

يحرص الصهاينة على استخدام هذه العبارة بدلاً من كلمة «انسحاب»، فكلمة «انسحاب» تعني «جلاء القوات الغازية عن أرض محتلة» وتعني شكلاً من أشكال القسر والتقهقر والتراجع، الأمر الذي يرفضه الصهاينة. فالضفة الغربية هي جزء من إرتس يسرائيل، ولا يمكن للقوات الإسرائيلية صاحبة الحق التاريخي والمطلق فيها أن تنسحب منها، ولذا فهو إعادة انتشار وحسب. ويلاحظ أن معظم المصطلحات الصهيونية الخاصة بالسلطة الفلسطينية تحاول تأكيد أن هذه السلطة سلطة على الشعب الفلسطيني وليس على أرض فلسطين، إرتس يسرائيل في المصطلح الصهيوني.

١٧ـ أرض متنازع عليها:

يرفض الصهاينة والأمريكيون استخدام عبارة «أرض محتلة» ويستخدمون بدلاً منها عبارة «أرض متنازع عليها»، وهو مصطلح يفترض الندية بين طرفي الصراع العربي

الإسرائيلي، وأن المسألة لابد أن تخضع للتفاوض بحيث يمكن تقسيم الأرض بين الطرفين بالعدل والقسطاس، تحت رعاية الوسيط المحايد، الولايات المتحدة الأمريكية.

الأمن الإسرائيلي

١ ـ الأمن الإسرائيلي:

حينما يرد هذا المصطلح في الخطاب الصهيوني فهو يعني أمن إسرائيل كما يتصوره الصهاينة، وهو أمن يمتد من البحر إلى النهر، أو من النيل إلى الفرات، وفي إحدى الصياغات الشارونية من باكستان إلى المغرب. وفكرة الأمن الإسرائيلي تنطلق من فكرة الحقوق اليهودية المطلقة في فلسطين التي احتُلت قبل وبعد عام ١٩٦٧، وبالتالي فالمقاومة الفلسطينية مسألة غير شرعية، فهي شكل من أشكال الإرهاب ومن يدعم المقاومة فهو يهدد الأمن الإسرائيلي، ولابد من ضرب قوته العسكرية من خلال ضربة استباقية أو إجهاضية، ومن خلال «إجراءات أمنية» هي في واقع الأمر إجراءات قمعية. وحينما يرد مصطلح «أمن» في الخطاب الأمريكي فهو يعني دائماً الأمن حسب المفهوم الصهيوني. وحزب الله الذي دافع عن التراب اللبناني يهدد أمن إسرائيل من منظور أمريكي صهيوني ومن ثم فهو حزب إرهابي.

٢ ـ الحدود التاريخية والمقدسة:

تتسم الصهيونية بأنها أيديولوجية تخلط بين التاريخ المقدس الذي ورد في العهد القديم والتاريخ الزمني الذي تحققه على أرض فلسطين. ولذا فهي تلغي تواريخ الجماعات اليهودية في العالم وتاريخ الفلسطينيين في فلسطين حتى تحقق الترانسفير المطلوب: نقل اليهود من المنفى إلى فلسطين، ونقل الفلسطينيين من فلسطين إلى المنفى. ولكن الترانسفير لا يتم في الزمان وحسب، وإنما يتم في المكان (الجغرافيا)، وإذا كانت الصهيونية قد ألغت الحدود التاريخية فهي قد ألغت الحدود الجغرافية أيضاً، ولذا فإسرائيل دولة «بلا حدود»، تحاول إلغاء فحدودها تقف عند آخر موقع عسكري تحتله القوات المسلحة الصهيونية بانتظار أن تتقدم إلى موقع جديد، حتى تصل في نهاية الأمر إلى الاستيلاء على أرض الوعد والميعاد والمعاد، وهي أرض ليس لها حدود واضحة، حيث وردت في العهد القديم عدة خرائط مختلفة لهذه الأرض. وثمة ترادف إذن بين الحدود التاريخية والحدود

المقدسة، ولذا تنظر الدولة الصهيونية إلى الأراضي العربية التي تطمع في السيطرة عليها باعتبارها «الأجزاء المحتلة من الوطن القومي اليهودي» أو «الأقسام المتممة لأرض إسرائيل التاريخية» أو «جزء من الأرض المقدسة»، وبعد أن يتم الاستيلاء على قطعة من الأرض العربية وتوطيد أقدام الاحتلال عادةً يتم الحديث عن هذه الأراضي باعتبارها من «المناطق المحررة».

٣ـ الحدود الآمنة:

مصطلح «الحدود الآمنة» مصطلح يخبئ كثيراً من المفاهيم الخلافية. فالحدود الآمنة هي الحدود التاريخية، وهي بالتالي الحقوق المقدسة. ومفهوم «الحدود الآمنة» لم يكن مُدرَجاً في التصور الإسرائيلي للأمن قبل حرب ١٩٦٧، حيث كانت إستراتيجيتها تعتمد على «الضربة الأولى الهجومية» أو «الحرب الاستباقية» و«نقل الحرب إلى أرض العدو»، ولكن انتصار ١٩٦٧ أدى إلى تبنِّي نظرية «الحدود الآمنة» وإلى اعتماد إستراتيجية «الدفاع الثابت المرن أو الإيجابي» مع «إستراتيجية الردع». إلا أن حرب ١٩٧٣ نسفت كل آمال إسرائيل وأحلامها بحدود آمنة، وأثبتت بشكل قاطع أن كل الخطوط الدفاعية التي اعتمدت فيها إسرائيل على هذه الحدود واعتبرتها آمنة فشلت عند أول تجربة لها في حرب ١٩٧٣، وهو ما جعلها تعود إلى إستراتيجيتها القديمة والأصيلة القائمة على الحرب الإجهاضية أو الاستباقية ونظرية «الردع» و«ذرائع الحرب».

ومع ذلك، ظلت نظرية «الحدود الآمنة» رغم فشلها تحتل مركزاً مهماً في الإستراتيجية الإسرائيلية باعتبارها التبرير الوحيد لاحتفاظ إسرائيل بالأراضي المحتلة. ويبدو بشكل واضح أن هذه النظرية أصبحت جزءاً من الإستراتيجية السياسية الإسرائيلية أكثر من كونها جزءاً من العقيدة العسكرية، فقد تحوَّلت «الحدود الجغرافية» الآمنة إلى «حدود سياسية» آمنة، فأصبح من المهم لأمن إسرائيل أن تتدخل في شأن كل بلد عربي سواء كان مجاوراً لها أو غير مجاور ومن المحيط إلى الخليج، باعتباره بؤرة معادية لها. وهكذا يصبح مفهوم الأمن الإسرائيلي مزدوجاً، فهو مفهوم سياسي بمعنى أن لإسرائيل الحق في إبداء رأيها في أية مشكلة تخص العالم العربي كله باعتبار أن هذه تؤثر في أمن إسرائيل، وهو مفهوم جغرافي بمعنى أن لإسرائيل الحق في الوصول إلى «حدود آمنة ومُعترَف بها» وأنها وحدها تحتفظ بحق تحديد هذه الحدود ورَسْمها.

٤ ـ المخاوف الديموجرافية:

حينما ترد هذه العبارة فهي عادةً تعبير عن الخوف الإسرائيلي من تكاثر العرب، لأنهم يهددون الطابع اليهودي الحصري العنصري للدولة اليهودية. والتهديد الديموجرافي يُعدُّ مشكلة أمنية أساسية في إسرائيل وإن كان ساستها يتحاشون التصريح بذلك، فأي جيب استيطاني يحتاج لمادة استيطانية لسحق مقاومة السكان الأصليين وليظل أغلبية تجعله يستمر في ادعاءاته الديمقراطية، ويؤدي تزايد العرب إلى تقويض هذه الادعاءات.

٥ ـ القتل الوقائي أو القتل المستهدف:

عبارات يستخدمها المتحدثون الصهاينة للإشارة إلى عمليات الاغتيال والتصفيات الجسدية التي تقوم بها قوات الاحتلال الصهيوني لقيادات المقاومة الفلسطينية، دفاعاً عن أمن إسرائيل!

٦ ـ رجل سلام:

أشار الرئيس جورج بوش إلى شارون بأنه «رجل سلام»، وهي إشارة أقرب إلى النكتة منها إلى الكذبة، بينما يشير الأمريكيون والصهاينة إلى ياسر عرفات أو مروان البرغوثي أو خالد مشعل بأنهم إرهابيون. وشارون رجل سلام لأنه يدافع عن أمن يسرائيل كما يدركه الصهاينة والأمريكيون!

٧ ـ جيش الدفاع الإسرائيلي:

مصطلح يستخدمه الصهاينة ليبينوا أن الدولة الصهيونية دولة محاصرة من قبل العرب وأن المقاومة العربية هي شكل من أشكال العدوان. ويعد أحد المصطلحات التي تستند إلى المقولة الصهيونية الأساسية، وهي أن فلسطين أرض بلا شعب وأنها حتى لو كان فيها شعب فإن حقوقه نسبية إذا ما قيست بالحقوق اليهودية لأنها حقوق مطلقة.

أزمة الصهيونية والمصطلح الصهيوني

بدأ التجمُّع الصهيوني في الآونة الأخيرة يواجه أزمة حادة على مستويات كثيرة منها قضية تعريف اليهودي والأزمة السكانية وأزمة المعنى والصراع الديني العلماني

والإشكنازي السفاردي، فظهرت عشرات المصطلحات لوصف ما يتصورون أنه اتجاهات جديدة نختار منها ما يلي:

١ - الصهيونية الجديدة:

«الصهيونية الجديدة» مصطلح له معنيان مختلفان:

(أ) يستخدم المصطلح للإشارة إلى التيارات التوسعية المتشددة داخل إسرائيل التي تطالب بالاحتفاظ بكل الأراضي التي تم ضمها بعد عام ١٩٦٧، والمصطلح، بذلك، يكون مرادفاً لمصطلح «صهيونية الأراضي» و«صهيونية الحد الأقصى».

(ب) يطلق المصطلح أيضاً على صهاينة الولايات المتحدة الذين يؤيدون إسرائيل بحماس شديد ويقبلون برنامج القدس ولكنهم يرفضون الانضمام إلى المنظمة الصهيونية، وقد ظهر المصطلح بعد عام ١٩٦٧. وهذه كلها تنويعات على المصطلح الذي نحتناه «الصهيونة التوطينية».

واستخدام نفس الكلمة للإشارة إلى مدلولين مختلفين يبين مدي اختلاط المصطلح الصهيوني.

٢ - صهيونية الخط الأخضر:

صهيونية الخط الأخضر هي الصهيونية التي تدعو إلى الانسحاب إلى فلسطين المحتلة قبل عام وقد ذاع المصطلح بعض الوقت بعد عام ١٩٦٧، ودعاة صهيونية الخط الأخضر ليسوا كثيرين، كما أنه حين يتم التدقيق في خطابهم يكتشف الباحث أنهم يدعون إلى الاحتفاظ ببعض الأراضي أو المواقع في الضفة الغربية لأسباب يقال لها أمنية

٣ - الصهيونية الديموجرافية (السكانية) أو السوسيولوجية:

«الصهيونية الديموجرافية (السكانية)» مصطلح صكه عالم السياسة الإسرائيلي شلومو أفنيري، وهي الصهيونية التي تود الحفاظ على الطابع اليهودي للدولة الصهيونية والتي ترى أن الحفاظ على الأراضي التي تم ضمها عام ١٩٦٧، وهي مناطق مأهولة بالسكان، يهدد هذا الطابع. ويرى هؤلاء أن تزايد عدد العرب يهدد الديموقراطية الإسرائيلية نفسها، إذ من الصعب على دولة ديموقراطية أن تضم أقلية كبيرة (قد تصبح أغلبية) وتنكر عليها

حق الاشتراك في صنع القرار. ولذا يطالب دعاة هذا الاتجاه بتسليم المناطق المأهولة للعرب (كما حدث مع قطاع غزة) والاحتفاظ بالنقط الإستراتيجية لضمان الأمن الإسرائيلي، الأمر الذي سيوفر لإسرائيل الجو الملائم لتطور اقتصادها بطريقة تسمح لها بقيادة منطقة الشرق الأوسط. ومصطلح «الصهيونية الديموجرافية» مرادف لمصطلح «الصهيونية السوسيولوجية».

٤ ـ الصهيونية الإنسانية (الهيومانية) أو صهيونية الحد الأدنى:

«الصهيونية الإنسانية» مصطلح قريب من مصطلح «صهيونية الحد الأدنى»، وهو يعني أن الصهيونية لا تستند إلى الغزو والقمع والإرهاب وإنما إلى مجموعة من القيم الإنسانية (الهيومانية). والمصطلح ليس له ما يسانده في الواقع، فالفلسفة الإنسانية (الهيومانية) تجعل من الإنسان مركز الكون ولا تفرق بين إنسان وآخر، ومن ثم فإن تطبيق هذا على التجمع الصهيوني سيؤدي إلى إلغاء قانون العودة العنصري وفتح أبواب الهجرة أمام الفلسطينيين ليعودوا لوطنهم ويستعيدوا أرضهم وديارهم، كما سيعطي الفلسطينيين في الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧ الاستقلال الكامل وحق تقرير المصير، وغني عن القول أن كل هذا يعني نهاية التاريخ الصهيوني!

٥ ـ صهيونية الحد الأقصى:

«صهيونية الحد الأقصى» مصطلح شاع في إسرائيل في الآونة الأخيرة، وهو عادة يشير إلى عقيدة أولئك الصهاينة الذين يرفضون التنازل عن أي شبر مما يسمونه «أرض إسرائيل الكبرى»، فالأراضي المحتلة في تصورهم جزء من أرض الميعاد المقدسة ويمكن الاحتفاظ بها وبمن عليها من السكان دون التخلي بالضرورة عن الطابع اليهودي للدولة، فقمع العرب المستمر سيضمن هدوءهم وهدوء المناطق (ومن ثم فالمصطلح مرادف لمصطلح «صهيونية الأراضي» و«الصهيونية التوسعية»). ومن ثم فهم يرفضون تقديم أية تنازلات إقليمية أو أي انسحاب للقوات الإسرائيلية أو أية تصفية ولو جزئية للمستوطنات الصهيونية في الضفة الغربية والجولان أو غيرهما

ومما يجدر ذكره أن دعاة صهيونية الحد الأقصى ليسوا من أعضاء الأحزاب الدينية وحسب، وإنما يضمون في صفوفهم كثيراً من اللادينيين، كما أن هناك من الدينيين من لا يمانع في التنازل عن الأراضي للحفاظ على أرواح اليهود (بكواح نفيش).

وصهيونية الحد الأقصى كامنة في صهيونية الحد الأدنى (التي تبدي مرونة واستعداداً للتفاهم مع العرب). ويتأرجح الصهاينة بين الحدين الأقصى والأدنى بتغير الموازين الدولية والقوة الذاتية العسكرية الإسرائيلية. ونظراً لذيلية إسرائيل وتبعيتها شبه الكاملة للولايات المتحدة يمكن فهم أنماط هذا التأرجح بالرجوع إلى سياسات الولايات المتحدة. ونحن نذهب إلى أنه مع ظهور النظام العالمي الجديد ورغبة الولايات المتحدة في تحويل العالم بأسره إلى مصنع وسوق (بغير قيم أو خصوصيات)، فسيتم الضغط على إسرائيل حتى تظهر مرونة أكبر ومقدرة على التعاون مع بعض النظم والنخب العربية الحاكمة.

٦- الصهيونية المتوحشة:

«الصهيونية المتوحشة» مصطلح يستخدمه دعاة «صهيونية الحد الأدنى» والصهاينة الإثنيون واللادينيون للإشارة إلى «صهيونية الحد الأقصى» الدينية واللادينية وصهيونية حركات مثل جوش إيمونيم وكاخ.

٧- الصهيونية المشيحانية:

«الصهيونية المشيحانية» هي «صهيونية الحد الأقصى»، وإن كان المصطلح يؤكد الجوانب الأيديولوجية والديباجات اليهودية الأخروية، فالصهيونية المشيحانية هي الصهيونية التي تؤمن بأنها أيديولوجية مرتبطة تمام الارتباط بعقيدة الماشيح ملك اليهود الذي سيقودهم في آخر الأيام ليؤسس مملكة صهيون الأزلية. ورغم أن كثيراً من الصهاينة العلمانيين قد يرفضون العقائد المشيحانية (باعتبارها متخلفة وغيبية)، فإن المصطلح الصهيوني بأسره ما هو إلا صيغة معلمنة للعقائد المشيحانية، والحديث عن «العودة» و«الهيكل الثالث» وغيرها من المصطلحات ينبع من العقيدة المشيحانية.

٨- صهيونية الأراضي:

شكل من أشكال «صهيونية الحد الأقصى».

٩- الصهيونية التوسعية:

شكل من أشكال «صهيونية الحد الأقصى».

١٠ـ الصهيونية الفورية:

«الصهيونية الفورية» مصطلح استخدم في بعض المؤتمرات الصهيونية في الثمانينيات وكان الهدف منه هو شحذ همة الصهاينة التوطينيين لكي ينفضوا عنهم غبار المنفي ويهاجروا على الفور إلى فلسطين المحتلة ويستوطنو فيها. وغني عن القول أن المصطلح لم يحقق الهدف المطلوب منه.

١١ـ الصهيونية الجسمانية أو التجسيدية:

«الصهيونية الجسمانية أو التجسيدية» ترجمة لمصطلح «تسيونيت بحشيم»، وهو مصطلح استخدم في بعض المؤتمرات الصهيونية في الثمانينيات، ولا يختلف كثيرا عن الصهيونية الفورية، ولعله محاولة لعلمنة مفهوم «عفوداه بجاشيموت الحسيدي» (أي «الخلاص بالجسد»).

١٢ـ الصهيونية اللوكس (أو «الصهيونية مكيفة الهواء»):

«الصهيونية اللوكس» (أو «الصهيونية مكيفة الهواء») مصطلح قمنا بصياغته، وهو يشبه عبارة زئيف شيف «الاستيطان دي لوكس» حيث يشير إلى أسلوب حياة المستوطنين في الضفة الغربية الذي يتسم بالرفاهية الشديدة (على عكس صهيونية المستوطنين الأوائل التي كانت تتسم بالتقشف). وقد نحتنا نحن مصطلح الاستيطان مكيف الهواء قبل ظهور مصطلح «الاستيطان اللوكس» بعدة سنين.

١٣ـ الصهيونية المكوكية:

«الصهيونية المكوكية» مصطلح قمنا بنحته قياساً على مصطلح «الاستيطان المكوكي» (بالإنجليزية: شتل ستلمنت Shuttle Settlement) والذي يستخدم للإشارة إلى المستوطنين الذين يقطنون الأراضي المحتلة بعد عام ١٩٦٧ ولكنهم يعملون في الأرض المحتلة منذ عام ١٩٤٨، فهم ينتقلون يومياً من المستوطنات ويعودون إليها في حركة مكوكية. وقد قطن هؤلاء في الضفة الغربية بدافع واحد، وهو أن المساكن في المستوطنات أكثر فخامة وترفا وأقل تكلفة من المساكن خلف الخط الأخضر. ويقال إن كثيراً من هؤلاء المكوكيين هم محترفو الاستيطان، أي الذين اشتروا منازلهم هذه واستوطنوا في الضفة

الغربية للحصول على تعويضات مناسبة إن اضطرت الدولة الصهيونية إلى نقل بعض المستوطنات كما حدث في مستوطنة ياميت في سيناء .

الصهيونية الاقتصادية أو المالية وتنويعات عليها

في محاولة منا لفهم الظاهرة الصهيونية وبعض التطورات الناجمة عن أزمتها قمنا بصك بعض المصطلحات التي تساعدنا على تسمية بعض التناقضات الكامنة في الرؤية الصهيونية . وقد ورد بعض هذه المصطلحات بشكل سريع وعابر في بعض الكتابات الصهيونية ثم اختفى ولم يحظ بالمركزية التفسيرية التي يستحقها . ولعل مصطلح «الصهيونية الاقتصادية (أوالمالية)» هو أهمها ، وهو مصطلح يعبر عن تقبل الفكر الصهيوني لحالة الدياسبورا النهائية وإحجام صهاينة العالم الغربي (الصهاينة التوطينيين) عن الهجرة إلى فلسطين ، وهو يعني أن العلاقة بين يهود العالم والدولة الصهيونية ستكون علاقة اقتصادية مجردة ، فلن يطلب من يهود العالم الهجرة وسيكتفي بمطالبتهم بالاستثمار في إسرائيل . ولذا بدلاً من الحديث عن مركزية إسرائيل في حياة الدياسبورا ككل يمكن الحديث عن مركزية إسرائيل في الحياة الاقتصادية للدياسبورا وهو ما يعني المزيد من انحسار الرؤية الصهيونية وحصرها في الوجود الاقتصادي لأعضاء الجماعات اليهودية .

لكن أهم التنويعات على مصطلح «الصهيونية الاقتصادية» هو مصطلح «الصهيونية النفعية (أو صهيونية المرتزقة)» الذي ورد في بعض الصحف الدينية الإسرائيلية . فلما كانت الصهيونية عقيدة علمانية مادية فهي تحتوي على توجه نفعي قوي شأنها في هذا شأن العقائد العلمانية كافة ، ولكن معدل النفعية في الصهيونية أعلى كثيراً من العقائد العلمانية لأن الصهيونية برنامج إصلاحي واعٍ يطرح نفسه باعتباره الإطار الذي يستطيع يهود العالم أن يحققوا من خلاله لأنفسهم مستوًى معيشياً أعلى وأمنا أقوي مما حققوه لأنفسهم في أوطانهم .

ولكن الدافع المادي وحده ليس كافيا لأن يقتلع الإنسان نفسه اقتلاعاً من مجتمعه وماضيه وهويته ، ولذا طورت الصهيونية الصيغة الصهيونية الشاملة المهودة التي أسقطت على المشروع الصهيوني بعداً مثالياً . إلا أن المثاليات الصهيونية كانت ديباجات سطحية ولهذا اتضح التوجه النفعي من البداية ، فكان المستوطنون التسلليون (قبل ظهور هرتزل) يبذلون جهدهم في ابتزاز أموال روتشيلد وغيره من أثرياء الغرب . واستمر هذا الوضع

قبل إعلان الدولة، إذ كان المستوطن الصهيوني يحاول الحصول على أقصى قدر من الأموال من يهود العالم عن طريق الدعاية أو الابتزاز بتوليد إحساس عميق بالذنب لديهم باعتبار أنهم لم يهاجروا إلى إسرائيل، وبعد إعلان الدولة تحولت بالتدريج إلى دولة تعيش على المعونات الأجنبية، وهي معونات تحصل عليها باعتبارها دولة وظيفية تؤدي دورا فهي دولة مرتزقة.

لكل هذا، نجد أن كثيراً من اليهود الذين يستوطنون إسرائيل (فلسطين) يفعلون ذلك لأسباب نفعية لا علاقة لها بمثاليات دينية أو أيديولوجية. ويمكن رؤية هجرة يهود البلاد العربية بعد عام ١٩٤٨ في هذا الإطار، فهم لم يكونوا قط جزءاً من الحركة الصهيونية سواء في شكلها الاستيطاني أم في شكلها التوطيني، وقد استوطنوا فلسطين لتحقيق الحراك الاجتماعي.

وقد تصاعدت معدلات هذا الاتجاه بعد عام ١٩٦٧ داخل وخارج المستوطن الصهيوني، مع انتقال المستوطن الصهيوني من المرحلة التقشفية التراكمية إلى المرحلة الفردوسية الاستهلاكية. ففي الداخل ظهر ما يسمي عقلية «روش قطان»، أي «الرأس الصغير» التي تتوج جسماً كبيراً لا يكف عن الالتهام والاستهلاك. كما تصاعدت خارجه وخصوصاً بين أعضاء المستودع البشري اليهودي الوحيد القابل للهجرة، أي يهود الاتحاد السوفيتي، إذ إن تصاعد معدلات العلمنة جعلهم ينظرون للهجرة إلى فلسطين باعتبارها مجرد وسيلة لتحقيق الحراك الاجتماعي، وقد تدفق الآلاف من هؤلاء المرتزقة على إسرائيل بين عامي ١٩٧٠ و١٩٩٠، ولكن كان من الواضح للجميع أنها هجرة نفعية تماماً.

وقد وصفت إحدى المؤسسات اليهودية المهاجر اليهودي النموذجي بأنه شخص لم يهرب من الاضطهاد وإنما هاجر بإرادته ولدوافع غير عقائدية أصلاً، وقد أيد هذا الوصف تقرير آخر نشره مجلس المعابد اليهودية في نوفمبر ١٩٧٤ جاء فيه: «بينما ينظر الأمريكيون إلى الحملة من أجل الهجرة اليهودية من الاتحاد السوفيتي على أنها محاولة لإنقاذ بقايا الشعب اليهودي هناك فإن المهاجرين السوفييت لا يشاركون في مثل هذه الأوهام الرومانتيكية أو الديباجات الصهيونية».

وفي صحيفة جيروساليم بوست ٣٠ أبريل ١٩٨٧، صرح إسرائيل فاينبلوم (المهاجر السوفيتي المقيم في إسرائيل)، وهو صهيوني حقيقي أن من بين الـ ١٦٣ ألف

مهاجر سوفيتي استقروا بالفعل في إسرائيل حضر ٢٠٪ منهم فقط بسبب الدوافع الدينية أو النفسية (أي العقائدية)، أما الآخرون فقد وجدوا أنفسهم في إسرائيل (على حد قوله).

وقد وصف بعض المهاجرين الأسباب التي دعتهم إلى ترك الاتحاد السوفيتي، فقال أحدهم إن الحياة هناك أصبحت مملة، فالهجرة إلى إسرائيل هي مجرد بحث عن الإثارة، وقال أحد أساتذة علم الجبر إنه ترك الاتحاد السوفيتي لأنه أدرك أن الوقت قد حان لأن يفعل ذلك، وأشار مهاجر ثالث إلى أنه ترك الاتحاد السوفيتي لأنه يريد أن يعيش حياة أفضل، وحتى يؤكد مدى عمق التزامه بهذه الفلسفة ذكر أنه جاء لا ليشتري سيارة ولكن ليكون لديه سيارة بمحرك أكبر. ومن المستحيل أن نعرف كم مهاجراً (سوفيتياً) يشبه إيفان الذي ترك إسرائيل بعد أن عمل سنة في الكيبوتس لأنه يكره التعصب الديني والطقس الحار، وكأنه كان يتوقع أن تكون أرض الميعاد في القطب الشمالي أو على مسافة صغيرة من روسيا، أو أن الحركة الصهيونية قد وعدته بأرض ميعاد مكيفة الهواء. ولعل هذا هو الذي دعا أحد المعلقين اليهود إلى القول بأن هؤلاء المهاجرين يعتقدون أن إسرائيل هي فندق صهيون، وأنهم لهذا السبب لا يستوطنون نهائياً فيها ولا يتخذونها موطناً، فهي مجرد معبر إلى فرص أحسن.

وفي الوقت الحالي، تحاول الوكالة اليهودية جذب أعضاء الجماعات اليهودية للاستيطان في إسرائيل على أسس نفعية محضة، فلا تهيب الإعلانات بحسهم الديني أو بارتباطهم بالأسلاف وإنما تتحدث بشكل صريح عن البيت المريح أو الإمكانيات الاستثمارية للمستثمرين وإمكانيات البحث العلمي للعلماء، وكأن فندق صهيون تحول هنا إما إلى شركة صهيون الاستثمارية أو إلى معمل صهيون للبحوث العلمية.

وقد وصل هذا الاتجاه إلى الذروة مع هجرة اليهود السوفييت الأخيرة التي بدأت بعد عام ١٩٩٠. ويبدو أن المؤسسة الصهيونية كانت تعرف نوعية المهاجرين، فلقد بلغت نسبة التساقط بينهم في أواخر الثمانينيات حوالي ٩٠٪. ولذا، تأكدت إسرائيل هذه المرة من أن أبواب الولايات المتحدة موصدة دونهم حتى تضمن تدفق هؤلاء المرتزقة الذين فقدوا علاقتهم باليهودية أو لم تكن تربطهم بها علاقة أصلاً ولا يدركون أية مثاليات متجاوزة للمادة بعد أن تعرضوا للدعاية الإلحادية المنظمة لمدة سبعين عاماً وهؤلاء المرتزقة لم يكن عندهم أي مانع من ادعاء اليهودية، بل لم يمانعوا في أن يختتنوا في سبيل الحصول على الدعم المالي على أمل أن تتاح لهم الفرصة لأن يفروا يوماً ما من

أرض الميعاد الصهيونية إلى أرض الميعاد الحقيقية في الولايات المتحدة، وتحاول الدولة الصهيونية من جانبها تكبيلهم بالمساعدات المالية التي يصعب عليهم سدادها حينما تحين فرصة الفرار.

ولفظ «مرتزقة» لم يستخدم إلا نادراً، ومع هذا يمكن القول بأنه مصطلح كامن في خطاب كثير من الكُتَّاب الذين تعرضوا للمهاجرين السوفييت بالوصف. فقد وصفهم أحد الكُتَّاب بأنهم «مهاجرون اقتصاديون»، كما وصفهم آخر بأنهم «هاربون من الاتحاد السوفيتي وليسوا مهاجرين إلى إسرائيل»، أما جوليا ميرسكي (عالمة نفس في الجامعة العبرية)، فقد وصفتهم بأنهم «لاجئون وليسوا مهاجرين»، ووصفهم كارل شراج (في جيروساليم بوست) بأنهم «مستوطنون بالإكراه أو رغم أنفهم». ولكنني أفضل وصفهم بلفظ «المرتزقة» لأنه أكثر دقة، فالمرتزق هو الذي لا يقوم بعمل إلا نظير مقابل والتزامه بالعمل هو التزام خارجي تعاقدي، أي أنه لا يشعر نحوه بأي ولاء حقيقي. ويتميز مصطلحنا بأنه مصطلح متداول في علم الاجتماع، وهو ما يعني أنه يحوي قدراً من العمومية ولا يسقط في التخصيص الكامل.

وهناك نوع آخر من الصهاينة النفعيين وهم اليهود المسنون الذين يتقاعدون في إسرائيل حيث يمكنهم أن يعيشوا حياة مترفة على معاشاتهم الصغيرة (فكأن إسرائيل هي بيت المسنين أو فلوريدا الصهيونية).

وهناك أخيراً اليهود الذين يرسلون جسمانهم ليدفن في إسرائيل: فهم يرفضون العيش في إسرائيل، ولكنهم لا يرفضون الموت فيها، وعلى حد قول أحد الكُتَّاب الإسرائيليين الفكاهيين فإنهم يعهدون بالجانب التاريخي في حياتهم إلى أوطانهم أما الجانب الكوني الذي يتعلق بالموت فهم يعهدون به لإسرائيل!

وثمة تنويعات أخرى على هذا المصطلح وقد وجدنا بعضها في الكتابات الصهيونية، من بينها مصطلح «الصهيونية النقدية»، وهو لا يختلف كثيراً عن مصطلح «الصهيونية الاقتصادية» وإن كان يشكل مزيداً من الانحسار والتسطح، فالمفهوم الكامن هو «مركزية إسرائيل في الحياة النقدية [بمعنى المالية] للدياسبورا». والمصطلح مجرد تنويع على مصطلحنا «الصهيونية التوطينية» وهو مرادف لمصطلح «صهيونية دفتر الشيكات»، ومصطلح «صهيونية النفقة»، وهما مصطلحان وردا في الصحف الأمريكية. فالمصطلح الأول يحتوي على صورة مجازية تبين أن العلاقة العضوية القائمة بين الشعب اليهودي

وأرض الميعاد والتي يؤكد عليها الصهاينة لا أساس لها في الواقع، فالعودة إلى أرض الميعاد حل محلها شكل علماني جداً أكثر حداثة ومعاصرة وهو دفتر الشيكات.

والصورة المجازية الكامنة في المصطلح الثاني هي صورة اليهودي الذي تطارده طليقته (الدولة الصهيونية) وتطالبه بالنفقة فيضطر أن يدفع لها بل يجزل لها العطاء حتى تكف عن ملاحقته وفضحه أمام نفسه وأمام الجيران، أي أن المصطلح يجعل العلاقة بين يهود العالم والدولة الصهيونية علاقة برانية تماماً.

وكلمة «صهيونية» - كما بينا - تشير إلى مجموعة الأفكار التي كان المفروض فيها أن تهدي المستوطنين في ممارستهم وأفعالهم، ولكنها بدلا من ذلك وضعتهم في ورطة تاريخية، ولذا فقدت الكلمة كثيراً من جلالها ورومانسيتها بل دلالتها فقد أصبحت دالاً دون مدلول أو كلمة فارغة من المعنى. وقد لاحظ أحد الكُتّاب الإسرائيليين أن الصيغتين «صهيوني» (بالعبرية: تسيوني tzioni) و«غير المكترث» (بالعبرية: تسيني tzini) لا يوجد فارق كبير بينهما والفارق بينهما في الإنجليزية هو حرف (o)، أي زيرو. فالصهيونية، هذه الأيديولوجية المشيحانية التي تدّعي أنها القومية اليهودية والتي تتطلب الحد الأقصى من الحماس والالتزام، فَقَدت دلالتها وأصبحت شيئاً لا يكترث به اليهود أعضاء هذه القومية المزعومة الذين تحاول الصهيونية «تحريرهم» من أسرهم في «المنفي»!

ويشير أحد الكُتّاب الفكاهيين في إسرائيل إلى أن كلمتي «صهيونية: زايونيزم Zion-ism» و«زومبي Zombie» وهو الميت الذي أعيدت له الحياة بعد أن دخلت جسده قوة خارقة ولذا يمكنه الحركة ولكنه لم يستعد لا القدرة على الكلام ولا حرية الإرادة) تردان في نفس الصفحة من المعجم الإنجليزي، الأمر الذي يدل - حسب تصوره - على ترابطهما، وأن الصهيونية إن هي إلا زومبي أي جسد متحرك لا حياة فيه ولا معني له. وهذا الكاتب الكوميدي لم يجانب الحقيقة كثيراً فهناك العديد من المستوطنات الفارغة تنعي من بناها ولم يسكن فيها ويطلق عليها (بالإنجليزية: دمي ستلمنت Dummy Settlement)، وقد آثرنا ترجمتها بعبارة مستوطنات الأشباح فهي جسد قائم لا حياة فيه.

لكل هذا أصبحت كلمة «صهيونية» (تسيونوت بالعبرية) تعني «كلام مدع أحمق» (الجيروساليم بوست ٢٦ أبريل ١٩٨٥) وتحمل أيضاً معنى «التباهي بالوطنية بشكل علني مبالغ فيه»، وتدل على الاتصاف بالسذاجة الشديدة في حقل السياسة (الإيكونومست ٢١ يوليه ١٩٨٤ وكتاب برنارد أفيشاي مأساة الصهيونية، ص ٢٦). ومن الواضح أن حقل

الكلمة الدلالي أو منظورها يشير إلى مجموعتين من البشر، صهاينة الخارج، أي الصهاينة التوطينيين الذين يحضرون إلى فندق صهيون ويحبون أن يسمعوا الخطب التي لا علاقة لها بالواقع ولذا فهي ساذجة مليئة بالادعاءات الحمقاء والتباهي العلني بالوطنية، والصهاينة الاستيطانيين الذين يعرفون أن الخطب التي عليهم إلقاؤها ما هي إلا خطب جوفاء ومبالغات لفظية لا معني لها ولكن عليهم إلقاءها على أية حال حتى يجزل لهم الضيوف العطاء. والمقصود الآن بعبارة مثل «أعطه صهيونية» هو «فلتتفوه بكلام ضخم أجوف لا يحمل أي معنى»، فهو صوت بلا معني وجسد بلا روح ودال بدون مدلول، أو كما نقول بالعامية المصرية «هجص»، فالمسألة «هجص في هجص». ويمكن أن نضيف لزيادة الدلالة «والأرزاق على الله» أو فلنعلمن العبارة ونقول: «والأرزاق على الولايات المتحدة ويهود الدياسبورا».

والله أعلم

فهرس

الفصل الرابع: فك شفرة الخطاب الصهيوني المراوغ

الفصل السابع: الوحدة والخصوصية اليهودية

الفصل الثامن: شعب يهودي أم جماعات يهودية؟

الفصل التاسع: تاريخ يهودي أم تواريخ جماعات يهودية؟

الفصل العاشر: مصطلحات معاداة اليهود واليهودية

الفصل الحادي عشر: فك الاحتكار الصهيوني للمصطلح

الفصل الثاني عشر: آلة المصطلحات الصهيونية لا تكف عن الدوران

تنويه

بما أن آلة المصطلحات الصهيونية لا تكف عن الدوران، كما بينا في الفصل الأخير، فسوف تظل الحاجة قائمة لإضافة مصطلحات صهيونية جديدة بعد تفكيكها وإعادة تركيبها. ولذا، نرجو من القرّاء، وخاصةً العاملين في مجال الإعلام، موافاتنا بما قد يقعون عليه من المصطلحات الصهيونية الجديدة التي لم يتناولها هذا الكتاب، وذلك بإرسالها لنا على عنوان البريد الإلكتروني التالي:

a_messiri@yahoo.com

و نعد بإضافتها للطبعات الجديدة، كما أننا قد نؤسس موقعاً يضيف هذه المصطلحات أولاً بأول.

المؤلف:

الدكتور عبد الوهاب المسيري مؤلف عربي معني بالحضارة الغربية الحديثة وبشئون أعضاء الجماعات اليهودية في العالم. وُلدَ في دمنهور (البحيرة) عام ١٩٣٨، ويعمل أستاذاً غير متفرغ للأدب الإنجليزي والمقَارن بجامعة عين شمس (كلية البنات). وقد حصل على عدة جوائز من بينها جائزة العويس للدراسات الإنسانية والمستقبلية لعام ٢٠٠٢. وله عدة دراسات في الصهيونية وتاريخ الحضارة والنقد الأدبي من أهمها:

* نهاية التاريخ (القاهرة، ١٩٧٢).
* موسوعة المفاهيم والمصطلحات الصهيونية: رؤية نقدية (القاهرة: ١٩٧٥)
* الفردوس الأرضي: دراسات وانطباعات في الحضارة الأمريكية الحديثة (بيروت، ١٩٧٩).
* الشعر الرومانتيكي الإنجليزي: النصوص الأساسية وبعض الدراسات النقدية (بيروت، ١٩٧٩).
* الأيديولوجية الصهيونية: دراسة حالة في علم اجتماع المعرفة (الكويت، ١٩٨٨).
* العُرس الفلسطيني: مختارات مزدوجة اللغة من شعر المقاومة الفلسطينية (واشنطن، ١٩٨٨).
* الانتفاضة الفلسطينية والأزمة الصهيونية: دراسة في الإدراك والكرامة (القاهرة، ١٩٩٠).
* إشكالية التحيز: رؤية معرفية ودعوة للاجتهاد (القاهرة، ١٩٩٣) ٧ مجلدات.
* موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية: نموذج تفسيري جديد (القاهرة، ١٩٩٩) ٨ مجلدات.
* نور والذئب الشهير بالمكار– سندريللا وزينب هانم خاتون – معركة كبيرة صغيرة – سر اختفاء الذئب الشهير بالمحتار... إلخ (قصص للأطفال) (القاهرة، ٢٠٠٠).
* العلمانية تحت المجهر (دمشق، ٢٠٠٠).

* رحلتي الفكرية - في البذور والجذور والثمر : سيرة غير ذاتية غير موضوعية (القاهرة، ٢٠٠١).
* الأكاذيب الصهيونية من بداية الاستيطان إلى انتفاضة الأقصى (القاهرة، ٢٠٠١).
* فلسطينية كانت ولم تزل: الموضوعات الأساسية في شعر المقاومة الفلسطينية: ١٩٦٠-١٩٨٢ (القاهرة، ٢٠٠١).
* اللغة والمجاز بين التوحيد ووحدة الوجود (القاهرة، ٢٠٠٢).
* الجماعات الوظيفية اليهودية: نموذج تفسيري جديد (القاهرة، ٢٠٠٢).
* الفلسفة المادية وتفكيك الإنسان (دمشق، ٢٠٠٢).
* انهيار إسرائيل من الداخل (القاهرة، ٢٠٠٢).
* مقدمة لدراسة الصراع العربي الإسرائيلي (دمشق، ٢٠٠٢).
* الحداثة وما بعد الحداثة (دمشق، ٢٠٠٣).
* من الانتفاضة إلى حرب التحرير الفلسطينية: أثر الانتفاضة على الكيان الصهيوني (القاهرة، ٢٠٠٣).
* البروتوكولات واليهودية والصهيونية (القاهرة، ٢٠٠٣).
* الموسوعة الموجزة: موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية في مجلدين (القاهرة، ٢٠٠٣).

وله عشرات المقالات في الشعر الإنجليزي والأمريكي والحضارة الغربية الحديثة والصراع العربي الإسرائيلي.

رقم الإيداع ٢٠٠٣/١٧٥٧١
الترقيم الدولى I.S.B.N. 977 - 09 - 0995 - 5

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى - ت: ٤٠٢٣٣٩٩ - فاكس: ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ - هاتف : ٣١٥٨٥٩ - ٨١٧٢١٣ - فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

فى الخطاب والمصطلح الصهيونى

دراسة نظرية وتطبيقية

هذا الكتاب هو محاولة للتأكيد على قضية أظنها محورية، وهي قضية المصطلحات أو تسمية الظواهر والأشياء. فنحن نذهب إلى أن المصطلحات تخبئ مفاهيم، وهذه المفاهيم قد تكون متحيزة ضدنا إن كان من صك المصطلح معادياً لنا ورؤيته للواقع تغيبنا وتهدر حقوقنا. فحينما يشير الصهاينة إلى «فلسطين» باعتبارها «إسرائيل» وإلى «القدس» باعتبارها «أورشليم»، وحينما يتحدثون عن «أمن إسرائيل» أو «حدودها» فإنهم عادةً ما يعطون هذه المصطلحات مضموناً متحيزاً ضدنا، بل ومعادياً لنا. ومن هنا ضرورة إدراك هذا البعد في المصطلحات والتصدي له، وهذا ما تحاول أن تنجزه هذه الدراسة عن طريق تقديم خطوط نظرية منهجية عريضة وبعض التطبيقات.

دار الشروق